وزارة الثقافة

# تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب

## روحي الخالدي

رقمنة

وزارة الثقافة
Ministry of Culture

# تاريخ علم الأدب

# عند الإفرنج والعرب

تأليف: روحي الخالدي

صدرت الطَّبعة الأولى عام ١٩٠٤

وزارة الثقافة الفلسطينية
سلسلة الموروث الثقافي
اسم المؤلف: روحي الخالدي
اسم الكتاب: تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب
الطبعة الأولى: ١٩٠٤

---

الإشراف العام: عبد السَّلام عطاري
مراجعة وتدقيق: حنين عِناية - شادية الخطيب
تصميم الغلاف: فاطمة حسين

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذنٍ مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission of the publisher.

فلسطين
www.moc.pna.ps

# تاريخ علم الأدب

# عند الإفرنج والعرب

# تقديم

## سيادة الرَّئيس محمود عبَّاس «أبو مازن»

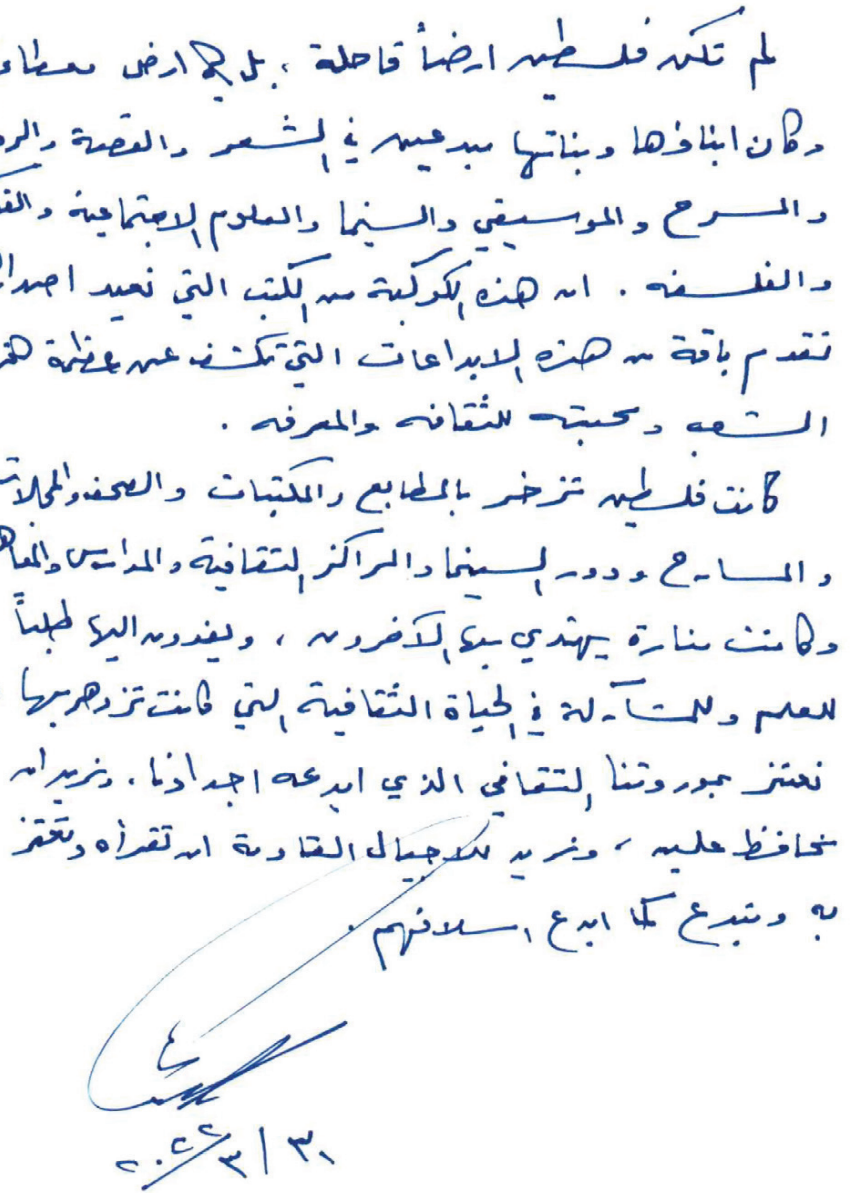

## فيكتـور هوجو: احتفال الفرنسـاويين له باليوبيل القرني

•••

احتفـل الفرنسـاويون في أوائـل سـنة ١٩٠٢ للشـاعر فيكتـور هوجـو في البانتيـون، كـما احتفلـوا في أواخـر العـام السـابق بيوبيـل الكيـماوي برتلـو في الصوربـون، والبانتيـون هيـكل فخيـم عـلى رابيـة مـن روابي باريـس بالقـرب مـن الصوربـون، وهـو اليـوم مدفـن أعاظـم الرجـال الذيـن يعـترف لهـم الوطـن الفرنسـاوي بالفضـل والحسـنى.

ففـي السـادس والعشريـن مـن شـباط المـاضي (فبرايـر) الموافـق لختـام القـرن الأول مـن ميـلاد فيكتـور هوجـو ابتـدأ موسـم الاحتفـال بيوبيـل هـذا الشـاعر، واجتمـع في البانتيـون الرؤسـاء والسـفراء والعلـماء والشـعراء والمشـخصون والمشـخصات، وكل مـن اشـتهر في باريـس مـن الرجـال والنسـاء، وأكثرهـم بالألبسـة الرسـمية والعسـكرية والكسـاوي العلميـة والقضائيـة موشـحون بوسـامات الافتخـار، أو متمنطقـون بمناطـق الحريـر المثلثـة الألـوان، أو مكتفـون بتزيـين صدورهـم بـأزرار الوسـامات، وإشـارات الماليـات عـلى اختـلاف درجاتهـا وأشـكالها، وافتتـح هـذا الاحتفـال الموسـيو جـورج ليـغ ناظـر المعـارف الفرنسـاوية بخطبـة شـائقة.

وتـلاه في الخطابـة السـياسي الشـهير الموسـيو غابريـل هانوتـو بالنيابـة عـن الأكاديميـة الفرنسـاوية، فاختلـب الأسـماع بجواهـر لفظـه، واجتـذب القلـوب ببلاغـة معانيـه، فانتقـل كلامـه بالتلغـراف والتلفـون لجميـع المـدن الفرنسـاوية، وربمـا تجاوزهـا إلى كثـير مـن البـلاد الأجنبيـة؛ لأن الموسـيو هانوتـو بعـد أن حـاز قصـب السـبق في ميـدان السياسـة، وحـلَّ عقـدة

ماداغشكر وألحقها ببلاده، وفك العراقيل السياسية في أفريقيا الغربية ونهر النيجر، تنحى عن كرسي الوزراة وقد شغله مدة تزيد على أربع سنوات، وجلس على كرسي الأكاديمية وأقبل على نشر الكتب، وطبع المقالات التي اشتهرت في العالم كله، وكان لها شأن في مصر وغيرها من بلاد الشرق، وهو على رفعة قدره وعلو شأنه لم يزل كما كان في صباه مقيمًا في الطابق الخامس من بيت يستطرق بابه على بولفار سن جرمن، ويصعد إلى مسكنه بدون مصعدة (أسانسور) مائة درجة.

ثم أنشد بعض المشخصين والممثلات شيئًا من قصائد فيكتور هوجو، وتلوا جزءًا من أحاديثه وانفض الجمع ليستأنفوا الاحتفال في مواضع أخرى من باريس؛ لأن حفلة البانتيون لم تكن إلا افتتاح موسم أدبي في عموم البلاد الفرنساوية، ودامت الزينات والأفراح فيها سبعة أيام بلياليها، وهم في كل يوم وليلة يرفعون الأعلام، ويضيئون الأنوار، ويجمعون الجموع، ويلقون الخطب، ويأدبون المآدب، ويشربون النخب، ويمثلون على المراسح الروايات، وينشدون الأناشيد، ويحررون المقالات المبتكرة، ويصورون الرسوم البديعة، ويعملون أنواعًا كثيرة من المظاهرات والزينات احتفالًا بهذا الموسم.

وقرَّر مجلس نوَّاب الأمة إنفاق ثمانين ألف فرنك لهذا الاحتفال عدا ما تنفقه مجالس البلدية والجمعيات الخيرية والعلمية، مما يفوق أضعاف هذا المبلغ، فجاء هذا الاحتفال على أتم منوال وأحسن نظام؛ لأن الفرنساويين أقدر الأمم المتمدنة على إتقان الزينات، وإتمام معدات الاحتفال للطافة أذواقهم، وخفة أرواحهم، وميلهم إلى البهرجة والزينة،

وهـم يتهافتـون عـلى تعظيـم رجـال العلـم والأدب ويبالغـون في إجلالهـم حتـى كادوا يعبدونهـم مـن دون اللـه، ويتنسـكون في ادخـار آثارهـم وجمـع مناقبهـم، وحفـظ أخبارهـم، ورفـع الهيـاكل والتماثيـل والأنصـاب لهـم، كان الواحـد منهـم معبـود مـن معبـودات قدمـاء المصريـين، أو إلـه مـن آلهـة اليونـان أو الفينيقيـين، وهـم — واللـه أعلـم — يعتاضـون بهـذه الاحتفـالات عـما فاتهـم مـن الاحتفـال بتتويـج الملـوك ويوبيـل القيـاصرة، وقـد رفعـوا لفيكتـور هوجـو تمثـالًا عظيـمًا بـل تماثيـل، وسـموا باسـمه الشـوارع والميادين، واتخـذوا داره متحفًـا سـموه باسـمه، وسـيجمعون فيـه متـاع الشـاعر وأثـاث بيتـه وكل مـا لـه أدنى علاقـة بـه أو ذُكـر في أشـعاره، ولم يفرطـوا بـشيءٍ مـن ذلـك ولا أضاعـوا لـه قلـمًا ولا دواة ولا ورقـة مـن الأوراق التـي تعلـم بهـا، وهـو في المدرسـة، وقـد كتـب عـلى واحـدة منهـا: «أريـد أكـون شـاتوبريان أو لا شيء»، ولا الأوراق التـي كان يلاعـب بهـا أولاده، ورسـم لهـم فيهـا الرسـوم الهزليـة والمضحكـة، ولا الكيـس الـذي وضـع فيـه مبلـغ المائـة وخمسـة وعشريـن ألـف فرنـك ثمـن المجلديـن الأولـين مـن تأليفـه المسـمى ميزيرابـل.

ولـو أردنـا وصـف هـذه الاحتفـالات، وإيـراد الخطـب التـي تليـت فيهـا، والإتيـان عـلى مـا حررتـه الجرائـد مـن الفصـول الطـوال لاسـتغرق الـكلام مجلـدًا ضخـمًا؛ لأن هـذه الاحتفـالات كان لهـا رنـة عظيمـة في أوروبـا كلهـا. وقـد نـشرت جريـدة التيمـس الإنكليزيـة ترجمـة هـذا الشـاعر بالفرنسـاوية إعظامًـا لشـأنه؛ لأن شـهرة فيكتـور هوجـو ليسـت في فرنسـا وحدهـا، بـل هـي طائـرة في آفـاق العـالم المتمـدن، وقـد وصلـت إلى بلادنـا الشرقيـة منـذ سـنين. أتذكـر أني قـرأت في «المقتطـف» وهـو لا يـزال في سـورية أبياتًـا

لفاضل من الأدباء لخَّص فيها فكرًا من أفكار فيكتور هوجو المذكورة في كتابه المشار إليه، وصف بها حالة البائس المسكين الذي اشتدت حاجته، واضطره الجوع حتى كسر قفل الخباز، وأخذ رغيفًا لسد رمقه فانتبه له الخفير، وانقض عليه انقضاض البازي على العصفور، وقاده إلى حبس التوقيف، ثم رفعه إلى محكمة العدل فلم يشفق عليه حكام العدلية، ولا رحمه قضاة الحقانية فارتعدت نفس الشاعر من هذا الظلم القاهر حتى صرخ قائلًا: «أين العدالة في أوهام شرعكم؟»

ثم لما أتيت الأستانة وجدت أدباء الأتراك وشعراءهم ترجموا كثيرًا من نَظْم فيكتور هوجو، ونثره فيما نُشر من مؤلفات كمال بك، وعبد الحق حامد بك، وأكرم بك، ومدحت أفندي صاحب جريدة «ترجمان حقيقت» سابقًا، وفي «مجموعة أبو الضيا»، و«كتبخانة أبو الضيا»، وترجم شمس الدين سامي باشا صاحب قاموس الأعلام جزءًا كبيرًا من كتاب «ميزيرابل»، وسماه بإضافة أداة الجمع التركية على كلمة «سفيل» العربية، فقال: «سفيللر» أي: السفلة من الناس، ثم بلغني أن بعض أدباء مصر شرع في ترجمة هذا المؤلف الجليل وسماه «البؤساء» أو نحو ذلك، فجمعت شيئًا من أخبار فيكتور هوجو؛ ليحصل لنا علم إجمالي بترجمة حياته، وحقيقة فلسفته، وسبب شهرته.

الدور الأول من حياته: من ولادته سنة ١٨٠٢ إلى نفيه سنة ١٨٥٢

كانت فرنسا في افتتاح القرن التاسع عشر في هرج ومرج من هول «الانقلاب الكبير»، الذي حدث فيها؛ فغيَّر معالمها وثل منها عرش الاستبداد، وحرر العقول، وبدل الظلام بالنور، ووضع العدل في موضع

الظلم، وجرى بسبب ذلك من الفظائع الدموية ما تقشعر من سماع حديثه الجلود، لبث الانقلاب من سنة ١٧٩٠ إلى سنة ١٧٩٥، ثم نبغ بونابرت، واكتسح بالعساكر الفرنساوية إيطاليا، ثم مصر وفلسطين، وطاف بها أوروبا من مشرقها إلى مغربها، وقهر الملوك والإمبراطور والقيصر، واستقدم البابا من رومية إلى باريس ليلبسه تاج الإمبراطورية ويسميه نابوليون الأول، وأجلس زوجته جوزيفين على سرير الملكة ماري أنتوانيت ثم لم يستحسن التاج على رأسها لأنها أرملة الجنرال بوهارنه، فأبدلها بماري لويز بنت إمبراطور ألمانيا، وجعل أخاه الأكبر يوسف بونابارت ملكًا على نابولي، ثم ملكًا على إسبانيا، وحشد عساكره في هاتين المملكتين، وكان سيجسبر هوجو والد صاحب الترجمة ضابطًا في عسكر الفرنساويين ومأمورًا مع جنودهم بالمحافظة على بيزانسون، وهي مدينة على طريق السكة الحديدية بين مرسيليا وباريس، وكان أبوه نجارًا وجده فلاحًا.

وفي ٢٦ شباط سنة ١٨٠٢ وضعت امرأته ماري في تلك المدينة غلامًا نحيفًا ضعيفًا، فقيده في سجل نفوس البلدة باسم «فيكتور ماري هوجو»، وكان له ولدان أكبر من فيكتور أحدهما يسمى أبيل والآخر أوجين، وبعد شهرين من ولادة فيكتور تلقى والداه الأمر بالمسير إلى جزيرة كورسيكا، ومنها إلى جزيرة إيليا فحمل إليها امرأته وأولاده وأقام فيها إلى سنة ١٨٠٥، ثم دعي سيجسبر هوجو إلى باريس فذهب إليها بعائلته، ودخل في خدمة الملك يوسف بونابارت، ورافقه إلى نابولي ومعه عائلته فشاهد فيكتور بركان فيزوف، وهو في السادسة من عمره، وانطبعت في ذهنه صورة هذا الجبل وما يتصاعد من فوهته

مـن اللهيـب والدخـان، وارتسـمت في مخيلتـه مناظـر إيطاليـا الطبيعيـة وجوهـا الصـافي، فلـما كـبر ونظـم هـذه الرحلـة وصـف هـذه المناظـر في أشـعاره أحسـن وصـف.

ولما ذهـب يوسـف بونابـارت إلى إسـبانيا ليلبـس فيهـا تـاج الملـك اصطحـب سيجسـبر هوجـو، وعـاد فيكتـور مـع أمـه وأخويـه إلى باريـس، وسـكنوا في ديـر فيليانتـين بجـوار مدرسـة الطـب العسـكرية التـي يقـال لهـا: «فـال دوغـراس»، وهـي قريبـة مـن البانتيـون، فـكان فيكتـور يقـرأ مـع أخويـه أشـعار فرجيـل عـلى راهـب متضلـع في الآداب اللاتينيـة، واسـتمر عـلى ذلـك إلى سـنة ١٨١١، وقـد ترقـى والـده وصـار قائـدًا عـلى الجيـش، وبلـغ راتبـه إلى ثلاثـين ألـف فرنـك إسـبانيولي (ريـوس)، ومنحـه الملـك يوسـف لقـب كونـت، وعيَّنـه ناظـرًا عـلى مطبخـه العـام، فأحـضر حينئـذ امرأتـه وأولاده إلى مادريـد. فاسـتفاد فيكتـور هوجـو مـن هـذه الأسـفار فوائـد كبـيرة، وتمكـن مـع حداثـة سـنه مـن مراقبـة جـمال الطبيعـة، وحفـظ أسـماء المـدن والبقـاع التـي مـر بهـا، وشـاهد في قصـور مادريـد آثـار العمـران الشرقـي، وصـور أعاظـم الرجـال الذيـن قامـت بهـم القـرون الماضيـة، فاتسـعت مخيلتـه وانفتـق ذهنـه، ونفـح بنفحـات شـعرائنا الأندلسـيين، فرقـت ألفاظـه، وراقـت معانيـه، وظهـر النفـس الأندلـسي في أشـعاره، وسـمعت النفحـة الأندلسـية مـن أكـثر قوافيـه، وذكـر في قصيدتـه التـي سـماها غرناطـة أكـثر مـدن الأندلـس، ووصـف مـا فيهـا مـن المبـاني والقصـور، وذكـر في غـير هـذه القصيـدة جميـع البلـدان التـي مـر بهـا في طريقـه مثـل أيـرون، وعـين العـرب التـي يقـال لهـا اليـوم: «فونـت أرابي» وقلعـة إيرنـاني، وجعـل

اسم هذه القلعة عنوانًا لرواية من رواياته، ودخل وهو في مادريد مدرسة أولاد الأشراف، وخالط فيها أبناء الأمراء من الإسبانيوليين، وعرف أخلاقهم وعاداتهم، فنظمها في رواية «إيرناني»، و«ريوبلاس» وغيرهما من مؤلفاته، واستعار أسماء كثير من رفاقه؛ ليشخصهم في قصصه ورواياته، وكان يدقق في أحوال الجند، ويتأثر بأصوات أبواقهم وصدى موسيقاهم، فأبدع في وصف حركاتهم العسكرية، وفتحهم القلاع، ونزولهم مساءً ورحيلهم صباحًا، وسيرهم ليلًا إلى غير ذلك من الأوصاف التي شخص بها حال العساكر تشخيصًا تامًّا.

ولما انقلبت السياسة في إسبانيا، واشتد الخطر على عساكر الاحتلال أعاد الجنرال هوجو عائلته إلى باريس، ولم يبقَ عنده إلَّا ابنه الأكبر أبيل، فأدخله في خدمة الملك، ورجع فيكتور هوجو مع أمه وأخيه إلى الدير الذي كان فيه، وعكف على مطالعة ما عند أمه من الكتب كمؤلفات فولتير، وجان جاك روسو، وديدرو أحد مؤلفي الإنسلكوبيدي، ومؤلفات السائح كوك وغيرهم. وكان لأمه ألفة بعائلة فوشر أحد مستخدمي نظارة الحربية، فكانت مدام فوشر تكثر التردد عليها، ومعها ابنتها الصغيرة عادلة (أديل) لتلعب مع فيكتور وأخيه أوجين، وتستنشق الهواء الصافي في بستان الدير، ولما ضبطت الحكومة هذا الدير في جملة ما ضبطته من أملاك الرهبان سكنت زوجة الجنرال هوجو بالقرب من دار فوشر، فكثر اختلاط فيكتور هوجو بعادلة، وألفها حتى صارت فيما بعد زوجته.

ولم يمض كثيرًا من الزمان حتى اشتدت الأزمات السياسية، وتوالت الحوادث المرهبة، وعاد نابوليون بالخيبة من سفر موسكو، وعاد أخوه يوسف بعساكره من إسبانيا ومعه الجنرال سيجسبر هوجو، فالتمس الرجوع لمأموريته والدخول في سلك العساكر الفرنساوية، فلم يقبلوه إلا برتبته السابقة، وبعد أن دارت الدائرة على نابوليون الأول، وحبطت أعمال الحكومة الإمبراطورية وعاد آل بوربون إلى كرسي المملكة الفرنساوية تقرب الجنرال هوجو إلى لويس الثامن عشر، وتملق إليه حتى صار من المقربين لديه، فخلع عليه رتبة الجنرالية، وسلمه قيادة العسكر، فأراد إدخال ولديه الأصغرين في هذا السلك كما أدخل أخاهما الأكبر من قبل، فوضع فيكتور وأخاه أوجين في مدرسة «لوي لوغران»؛ ليدخلهما فيما بعد مدرسة الفنون الحربية وهما من المدارس التي لم يزل يتردد إليهما بعض أبناء الشرق في باريس، فأقبل فيكتور هوجو على تحصيل العلوم الرياضية، ولم يترك مع ذلك نظم الأشعار، فنظم عدة قصائد في الغزل والمدح والهجو والهزل والرثاء، وقصيدة في الطوفان، ولم يرَ مباينة بين العلوم الرياضية المبنية على حقائق برهانية، وبين علوم الشعر التي كان يظنها الناس خيالات باطلة وأوهامًا كاذبة، وإن أعذب الشعر أكذبه، بل كان يعتقد بأن الشاعر لا بد له من تعلم العلوم الرياضية والطبيعية، وكان يعتبر تصور حوادث الكون، وتخيل مناظر الطبيعة، وجمع معاني ذلك في الذهن ثم إفراغ المعاني في قوالب الألفاظ، ونسجها في أبيات الشعر كل ذلك أشبه بتصوير المسائل الحسابية والهندسية، وحل المعادلات الجبرية؛ ولذا قال: بأن صباه لم يكن إلا تخيلًا طويلًا ممزوجًا بدرس مدقق، وأن لا مباينة بين التدقيق

والشعر؛ لأن القواعد الرياضية تطبق في الشعر كما تطبق في العلم، وقال أيضًا: «إن الكلمة كائن حي فاعلموه.»

وكان شاتوبريان من أفحل أدباء العصر، وله مؤلفات جليلة في النظم والنثر، وقد طاف بلاد الشرق، وزار مصر وسوريا واليونان، وألف بعد ذلك كتابه المسمى «روح النصرانية»، وبحث عن حكمة الديانة المسيحية، فطالعه فيكتور هوجو وأعجب به، وتشرَّب منه آراء المذهب الكاثوليكي وسياسة الحزب الملوكي، فكتب على دفتره، وهو في المدرسة بتاريخ ١٠ يوليو سنة ١٨١٦: «أريد أن أكون شاتوبريان أو لا شيء.» وبعد سنة من هذا التاريخ فتحت الأكاديمية الفرنساوية مسابقة للشعراء، وجعلت موضوع السباق «فوائد المطالعة»، فنظم فيكتور هوجو في هذا المعنى ٣٢٠ بيتًا عرضها على لجنة التحكيم، ولم يكن له من العمر إلَّا خمس عشرة سنة، فاستحسنوا أبياته، واستصغروا سنه، وظنوه سارقًا شعره فلم يعطوه الجائزة، واكتفوا بقيد اسمه في دفتر الشعراء، وفي السنة التالية بعث إلى جمعية «لعب الأزهار» — وهي جمعية أدبية تأسست قديمًا في طولوز — القصيدة التي سماها «عذارى فيردون»، وتشبب فيها ببنات تلك المدينة التي على الحدود الألمانية، وبعث أيضًا بقصيدة أخرى في مدح هنري الرابع، فنال بهما جائزة الجمعية.

وفي سنة ١٨١٨ أكمل فيكتور هوجو دروسه في مدرسة «لوي لوغران»، واستنكف من الدخول في امتحان المسابقة لأجل قبوله في المكتب الحربي، وكتب لأبيه بأنه عدل عن سلك العسكرية، واتخذ الشعر

صنعة يتعيش منها وأن لا حاجة له بالراتب القليل المعين له، وأقبل على الجد والاشتغال ومثابرة الأعمال، واشترك مع أخيه الكبير أبيل، وكان له مشاركة في علوم الأدب، فأسسا جريدة أدبية عنوانها «المحافظ الأدبي»، ونشر فيكتور هوجو الأشعار البديعة، والمقالات الانتقادية.

وكان لويس الثامن عشر الذي جلس على سرير الملك سنة ١٨٢٤ عاقلًا ماهرًا لم يصغ لأقوال الذين يريدون إطفاء نور العلم والحرية، وإعادة المظالم القديمة، بل أعطى الشعب حقوقه، وسن لبلاده القوانين، وكان ولي عهده أخاه شارل العاشر وله ولد اسمه دوك دوبري قتله أحد الرعاع، وهو خارج من مرسح الأوبرة سنة ١٨٢٠، وخلف دوك دوبري طفلًا صغيرًا اسمه دوك دوبوردو، فنشر فيكتور هوجو في جريدته قصيدة هنأ فيها بالمولود وأخرى رثى فيها الوالد والقصيدتان موافقتان لسياسة الحزب الملوكي، فاستحسنهما لويس الثامن عشر، وأجازه عليهما بخمسمائة فرنك، وفي تلك السنة بعث فيكتور هوجو إلى جمعية لعب الأزهار في طولوز بالقصيدة التي عنوانها «موسى على النيل»، فكافأته عليها بالمدالية الذهبية، وكانت على شكل الزهرة ومنحته لقب الأستاذ في جمعيتها.

فاشتهر هوجو وانتشر شعره، ولقبه شاتوبريان بالولد النجيب، وفتحت الشعراء له أبوابها، فتعارف على ألفرد دوفينيه ولامارتين مؤلف «الرحلة الشرقية»، وسومه وإميل دوشان وغيرهم من شعراء العصر وفحول أدبائه، وفرح به جميع المنتصرين للحزب الملوكي؛ لأنه على مذهبهم السياسي ودينهم الكاثوليكي، وترنموا بأبياته في مجامعهم، وأنشدوا

قصائـده في نـوادي سـمرهم، وكان ينظـم لهـم القصائـد الهزليـة والمدائـح الملوكيـة عـلى مـا يوافـق مشربهـم مثـل «التلغـراف»، و«المقيـد السـياسي»، و«القريحـة»، وغيرهـا.

فانـشرح صـدر الشـاعر بهـذه الشـهرة، وارتـاح بالـه مـن جهـة تأمـين معاشـه في المسـتقبل، ولعـب الهـوى في رأسـه فـرأى بجانبـه صاحبتـه مـن الصغـر قـد انتقلـت إلى سـن الشـباب، وانتصبـت قامتهـا كالغصـن، ولبسـت أثـواب الجـمال والحسـن، فهـام في حبهـا، وأراد الاقـتران بهـا فمنعتـه أمـه لفقـر البنـت وعـدم وجـود مهـر كافٍ (دوتـه) معهـا، وقطعـت علائقهـا مـع عائلـة فـوشر، فتـألم الشـاعر بـألم الفـراق، وأخـذ يراسـل حبيبتـه برسـائل الحـب والاشـتياق، ونُـشرت هـذه الرسـائل بعـد موتـه تحـت عنـوان «مراسـلات الخطيبـة».

وفي سـنة ١٨٢١ توفيـت والدتـه فحـزن عليهـا حزنًـا شـديدًا لزيـادة حنوهـا عليـه، وكـثرة إحسـانها إليـه، ولم يمـض شـهر عـلى وفاتهـا حتـى تـزوج والـده بواحـدة مـن الغنيـات الشريفـات لقلـة وارده وكـثرة نفقاتـه، وبقـي فيكتـور هوجـو وحيـدًا فريـدًا، وانتقـل مـن الـدار التـي كان فيهـا مـع أمه إلى مسـكن صغـير، وتضايـق في أمـر معاشـه لقلـة مـا في يـده، ولاحتياجـه لمـن يدبـر لـه البيـت ويهيـئُ لـه الطعـام، وأخـذ يفكـر في معشـوقته وفي الوصـول للاقـتران بهـا؛ لأن أبـاه افتقـر بعـد سـقوط الحكومـة الإمبراطوريـة، وأبـو حبيبتـه لم يكـن مـن أصحـاب الـثروة العظيمـة، فاجتهـد فيكتـور هوجـو في تحصيـل المـال، وأقبـل عـلى النظـم والتأليـف، ونـشر سـنة ١٨٢٢ ديـوان قصائـده، فـكان لـه رواج عظيـم، وقـرأه لويـس الثامـن عـشر، وأعجـب بـه وأحسـن

على الشاعر من خزينته الخاصة براتب سنوي قدره ألف فرنك، فافترج الشاعر بهذا المعاش، وتزوج بعادلة فوشر ولها من العمر ١٩ سنة، وبينما هم في حفلة العرس على مائدة الطعام، نهض أخوه أوجين، وأجرى أفعالًا منكرة، وفاه بكلام غير معقول، فحملوا ذلك أولًا على إكثاره من شرب المدام، وذهبوا به إلى بيته، وفي الصباح وجدوه مختل الشعور، وفهموا أنه يحب عادلة محبة شديدة، وكان يخفي حبها فلما تزوجت بأخيه هاجت عواطفه وذهب عقله فوضعوه في بيمارستان سارانتون، وهو في أرباض باريس، واستمر فيه إلى أن مات، وكانت عادلة بديعة الحسن رقيقة الحواس غير أنها بسيطة الفكر غير مفرطة الذكاء، وكان زوجها متيمًا في حبها، فسكن مدة عند صهره، ولما بلغ راتبه من الملك ٢٠٠٠ فرنك في السنة خرج بها من دار أبيها، وسكنا في بيت على حدة، فولدت له أولادًا كبروا وماتوا في حياته، وهم ليوبولدين ماتت غريقة في نهر السين، وشارل مات فجأة عند صاحبة له في بوردوا، وفرانسوا مات في باريس، وعادلة تزوجت على كره من أبيها، وأصيبت بداء الجنون مثل عمها وهي لم تزل في قيد الحياة، فكانت هذه المصائب باعثة على نظم القصائد التي عنوانها «أولادي»، ورثاهم أيضًا في كتاب «التأملات» وغيره بأرق المراثي، وكان موحدًا في الاعتقاد، ولم يتبع مذهب المسيحيين في البقاء على زوجة واحدة، بل شغف بعد ذلك بحب إحدى الممثلات، وأسكنها مع زوجته، وعمل عمل القائلين: بتعدد الزوجات مع رعايته واحترامه لزوجته الأولى.

وأخذ فيكتور هوجو يحرر في مجلة «الموز الفرنساوية» التي أنشأها الأديبان سومه وديشان، ويتردد على بيت شارل نوريه، وكان هذا

الفاضل مديرًا لمكتبة أرسنال، وهي إحدى المكاتب الأربع الكبيرة في باريس، ونال معاشًا وافرًا بسبب هذه الوظيفة، وفتح بيته للعلماء والشعراء حتى صار مجمعًا للأدباء، وأسسوا فيه سنة ١٨٢٤ جمعية أدبية على الطرز الجديد، وفي هذه السنة توفي لويس الثامن عشر، ولبس أخوه شارل العاشر تاج الملك، فمدحه الشاعر بقصيدة عنوانها «التتويج» فحازت القبول، وأنعم عليه الملك بوسام الافتخار من رتبة شيفاليه كما أنعم بذلك على الشاعر الشهير لامارتين، ولما نشر فيكتور هوجو ديوانه في المدح والغزل، وحاد فيه عن مسلك الشعر القديم المسمى «كلاسيك»، وسلك في النظم مسلكًا جديدًا انتقد عليه أصحاب الطريقة القديمة، وسلقوه بألسنتهم.

ونشر الشاعر «سنت بوف» في جريدة الغلوب بتاريخ ٦ كانون ثاني سنة ١٨٢٧ مقالة انتقادية كانت سببًا لتحويل أنظار الناس إلى الطريقة الجديدة؛ ولتعارف الشاعرين حتى صارا من أعز الإخوان، وكان شارل العاشر قد حاد عن طريقة أخيه العادلة في سياسة الملك، ومال إلى الاستبداد، فنفر منه الأدباء والأحرار، واغتنم سفير النمسا في باريس هذه الفرصة، ونددد في أمراء العساكر الذين خدموا مصالح نابوليون الأول، وأهانهم في الكلام فانتصر لهم فيكتور هوجو؛ لأن أباه كان في زمرتهم، ونظم قصيدة في مدح «العمود» أي: العمود الذي رُفع لنابوليون في ميدان فاندوم، وطلي بنحاس المدافع التي غنمها في حروبه، ونقش عليه أسماء المواقع الحربية، والأمراء العسكرية. وكان الشاعر في ذاك التاريخ قد بلغ سن الرجولية، وهو السن الذي يتأهل فيه الرجل لحقوق الانتخاب، فظن كبقية أدباء العصر المتخوفين من

استبداد شارل العاشر أن الحكومة الإمبراطورية أكثر عدلًا وحرية من الحكومة الملوكية؛ ولذا أقبل على إظهار فضل نابوليون وإشهار مجده بدون أن يتعرض بالقدح لآل بوربون.

ونشر عقب مدحه العمود قصة كرومول، وشرح في مقدمتها طريقته الجديدة في علم الأدب، وشكَّل جمعية من أنصار هذه الطريقة وفي مقدمتهم ألفرد دوفينيه، وسنتابوف، وإميل دوشان، وألكساندر دوماس، وبولانجه، وغيرهم مثل لامارتين، وسموا طريقتهم «رومانتيك» كما كان المتقدمون يسمون طريقتهم «كلاسيك»، وصار فيكتور هوجو إمام المدونين في هذه الطريقة الجديدة، فانتقد عليه الكثير من أرباب السياسة وحملة الأقلام، ولاموه من وجهين أحدهما لمدحه نابوليون، وإشهاره مجد الحكومة الإمبراطورية، وثانيهما لعدوله عن مذهب الشعر القديم وسلوكه في النظم والنثر مسلكًا جديدًا، غير أن الشاعر لم يصغ للوم اللائمين، واستمر يتردد على بيت صاحبه شارل نوريه، وينشد قصائده أمام الحاضرين، ويستميلهم لطريقته واحدًا بعد واحد، ولما اتجهت أنظار العموم نحو الشرق بسبب ثورة اليونان، وذهاب العساكر المصرية للموره، وغدر الدول في وقعة نافارين نشر فيكتور هوجو ديوانه المترجم «بالشرقيات»، ولم يزر الشرق ولا رأى نساءَه مثل شاتوبريان ولامارتين، ولكنه درس أحواله درسًا مدققًا، وقرأ ما ترجم من كتب أدبائه مثل كلستان سعدى، وديوان حافظ شيرازي، وما ترجم من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية؛ فراج ديوان الشرقيات لحداثة موضوعه، وبحث فيه عن الممالك العثمانية، والعوائد الشرقية،

وعـن بـلاد اليونـان، وإيتاليـا، وإسـبانيا، وكانـت النفـوس متشـوقة للاطـلاع عـلى مـا في زوايـا الـشرق مـن الخبايـا.

ثـم نـشر قصـة عنوانهـا «آخـر أيـام المحكـوم عليـه»، وصـور فيهـا الاضطـراب الـذي يحصـل للمقتـول قبـل قتلـه. وفي سـنة ١٨٣٩ وجـه الشـاعر التفاتـه نحـو المرسـح الفرنسـاوي (كوميـدي فرانسـه)، وشرع في اكتسـاب الـرزق مـن تحريـر الروايـات المحزنـة التـي يسـمونها «درام»، وحـرر روايـة «ماريـون دو لـورم»، وهـي غانيـة مـن غـواني باريـس أحبهـا أحـد الرهبـان، وكان لهـا نبـأ عجيـب عـلى عهـد لويـس الخامـس عـشر، ولمـا أراد مديـر المرسـح تشـخيص الروايـة منعـه المراقـب، فرفـع شـكواه مـن ظلـم مراقـب المطبوعـات إلى الملـك، فلـم يـأذن لـه بتشـخيصها ومـع ذلـك قرَّبـه إليـه، ولاطفـه بالـكلام، وقـال: «أحـب قريحتـك الشـعرية، وليـس عنـدي أشـعر منـك ومـن ديزوجيـه»، وزاد في راتبـه حتـى أبلغـه ٤٠٠٠ فرنـك، فرفـض فيكتـور هـذا الراتـب مـع شـدة احتياجـه إليـه، وشرع في تحريـر روايـة «إيرنـاني» فأكملهـا في بضعـة أسـابيع، وشـخصت عـلى المرسـح الفرنسـاوي ليلـة ٢٥ شـباط سـنة ١٨٣٠، واشـتد بسـببها القيـل والقـال، وعـلا في المرسـح الصفـير والجـدال بـين أصحـاب المذهـب القديـم والمذهـب الحديـث في علـم الأدب، وتـمَّ النـصر في تلـك الليلـة لهوجـو وشـيعته، ولم يبـق معـه مـن النقـد سـوى خمسـين فرنـكًا، فتقـدم إليـه ملتـزم الطبـع، وبـارك لـه بنجـاح الروايـة، ونقـده في مقابلـة حـق طبعهـا سـتة آلاف فرنـك، واسـتلم منـه النسـخة الخطيـة، وعقـد معـه مقاولـة عـلى تحريـر قصـة «نوتـردام دو بـاري»، وتسـليمها في ظـرف سـتة أشـهر، فأكـبَّ الشـاعر عـلى المطالعـة والتحريـر، وأكمـل القصـة قبـل انتهـاء الأجـل المحـدود، فطبعـت وكان لهـا رواج عظيـم، واسـم الروايـة

مأخوذ من كنيسة باريس الجامعة، وهي بناءٌ فخيم بالقرب من دار البلدية ودار الحقانية.

ولما أصدر شارل العاشر أمره بإلغاء الحرية التي منحها سلفه للشعب، وبتعطيل أحكام القانون الأساسي هاج أهالي باريس، وحدث انقلاب تموز سنة ١٨٣٠، وسالت الدماء في العاصمة ثلاثة أيام بلياليها، ففرَّ شارل العاشر من فرنسا، وتنازل عن الملك لابنه وولي عهده دوك إنكوليم — وإنكوليم بلدة بين بوردو وباريس — غير أن هذا الدوك استعفى أيضًا، وانتقل الملك بالإرث الشرعي إلى دوك بوردو، وهو حفيد شارل المشار إليه، فالجمهور من الفرنساويين لم يلتفتوا إلى حقوق هذا الصبي، وانتخبوا ملكًا عليهم لويس فيليب ابن عم شارل العاشر؛ لقبوله إعطاء الأهالي حقوقهم وتعهده بحماية القوانين، فهوجو — شاعر الملك والمدافع عن حقوق الملكية، وناظم القصائد الغراء في ولادة دوك بوردو صاحب الميراث الشرعي، وفي رثاء أبيه دوك بري — لم يهتز لهذه الحوادث، بل أظهر استحسانه ما فعله الشعب، ولم يعبأ بالمسائل السياسية، وظل يشتغل في فنون الأدب فنشر ديوانه المسمى «أوراق الخريف»، وشخص على المرسح الفرنساوي سنة ١٨٣١ رواية ماريوم دولورم التي منع تشخيصها سابقًا، ثم رواية «الملك يتسلى»، وهي رواية تاريخية موضوعها فرانسوا الأول الذي التجأ إلى ساكن الجنان السلطان سليمان القانوني من شر عدوه شارلكين؛ فمنع مراقب المطبوعات إعادة تشخيص هذه الرواية للتعريض فيها بالملوك، فرفع الشاعر شكواه إلى محكمة التجارة، ودافع عنها بنفسه أمام الحكام، فلم يسمحوا له بالتشخيص، ولم يجرِ تشخيصها مرة أخرى إلا سنة

١٨٨٢، وكان الذي ربحه فيكتور هوجو من مؤلفاته كافيًا لإنقاذه من مخالب الفقر وسعادة حاله ففتح بيته للزائرين؛ حتى صار مجمع الأدباء ومركز الشعراء، وفي جملتهم الكاتب الشهير تيوفيل غوتيه إلا أن الشقاق وقع بينه وبين صاحبه القديم ألكساندر دوماس، ودام الخصام أعوامًا كثيرة؛ لأن غيرة الشعراء والعلماء بعضهم من بعض أشد من غيرة الأمراء.

وجفاه أيضًا حبيبه سنت بوف الماهر في فن الانتقاد، وقال عن مؤلفاته: بأنها ممزوجة بآراء السياسة الملكية، والديانة الكاثوليكية، والفلسفة السيمونية — وهي التي وضعها الكونت سن سيمون في آواخر القرن الثامن عشر، وفرض فيها تعلم الصنائع على كل فرد من أفراد الأمة، فلم يتبعه إلا القليل من الناس مثل كارنو والد رئيس الجمهورية الأسبق — فعمل برأيه ومع جلالة قدره جعل أحد أولاده نجارًا، والآخر مهندسًا وكلاهما من أكابر رجال الدولة، ثم ألف فيكتور هوجو رواية «لوكريس بورجيا»، وهي أخت قيصر بورجيا الشهير بالإسراف وفساد الأخلاق، وكانت بديعة الحسن ولها حديث غريب، فشخصت هذه الرواية في ٢ فبراير سنة ١٨٣٣، فأقبل الناس على استماعها، ثم شخصت مرارًا على المرسح الذي بباب سن مارتن، وكانت الممثلة التي شخصت دور الأميرة نيكروني هي ماد موازيل جوليت دروَّه التي سبَت الشعراء بحسنها وعقلها، فشغف فيكتور هوجو بحبها، وبعد أن تردد على بيتها كثيرًا أسكنها في بيته عند زوجته فلامه أحد أصحابه، فحرر إليه يعتذر بأن زوجته أذنت له وسامحته على ما فرط به من حب جوليت، ولم تزل زوجته تحبه وتعزه، واستمرت في صحبة الشاعر، ورافقته في

منفاه، وكانت تحرر له القصائد وهو يملي عليها، ودامت معه إلى بعد وفاة زوجته ورافقته أيضًا في سن شيخوخته، ونشر فيكتور هوجو أيضًا رواية «ماري تيدور»، وهي ملكة الإنجليز، ورواية «أنجلو»، وهو أمير ظالم من أمراء الطليان، ورواية «ربوبلاس»، وهو اسم خادم الوزير الذي خدعت به ملكة إسبانيا، وكثيرًا ما تشخص اليوم على المراسح الفرنساوية هي ورواية «إيرناني»، ورواية «كلودكو»، وهي مما ترجم من مؤلفات هوجو إلى التركية، وفيها دفاع بليغ عن المحكوم عليهم بالإعدام وتشنيع هذا القصاص.

ومما نشره في هذا التاريخ من الأشعار الموسيقية غير أوراق الخريف «أغاني الشفق»، و«الأصوات الداخلية»، و«الأشعة والظلال»، وغير ذلك؛ فصار فيكتور هوجو بهذه التآليف يعد من فحول أدباء العصر، وانتسب لدوك أورليان وزوجته ووجه عليه لويس فيليب نشان الافتخار من درجة أوفيسيه، وأهداه صورته، وانتخبته الأكاديمي الفرنساوية عضوًا في جمعيتها بأكثرية صوتين فقط بعد أن عارض أعضاؤها زمانًا طويلًا في قبوله لشدة تمسكهم بالقواعد، وأساليب الإنشاء القديمة، ولم يدخلوه بينهم إلا بعد أن اشتهر فضله كالشمس في رابعة النهار.

وسنة ١٨٣٩ ساح فيكتور هوجو في جبال الألب على حدود إيطاليا وسويسرا، وشاهد مناظرها البديعة وزار بعد سنتين ضفاف الرين، ودرس أحوال بلاد الألمان، وكتب سياحته في مجلدين نُشرا بعد موته، وألف أيضًا رواية «بورغراف» التاريخية وبيَّن فيها أخلاق أمراء الألمان في القرون الوسطى، فشخصت على المرسح الفرنساوي سنة ١٨٤٣، ولم

يقبل عليها الجمهور ولا حصل منها أرباح للمشخصين، فتكدر الشاعر من سوء طالعه، وعدل عن تأليف الروايات، وترك رواية «التؤام» التي شرع في تأليفها بدون أن يكملها، وكانت الأفكار العمومية تحولت عن طريقة الأدب الجديدة (رومانتيك)، وعادت للإقبال على طريقة (كلاسيك) القديمة لظهور بعض المؤلفات الجديدة فيها، وبمناسبة ذلك هزأت بعض الجرائد الهزلية بفيكتور هوجو وصورته برأس كبير، وهو واقف أمام المرسح بجانب إعلان هذه الرواية ينظر إلى السماء، وقد طلع ذو ذنب وكأنه يناجي ربه وهو يقول: «لماذا جعلت للنجوم أذنابًا وتركت البورغراف بلا أذناب»، وتطلق كلمة بورغراف على ذوي الآراء السخيفة في ضروب السياسة، والمقصود تركت الرواية بلا جمهور يزدحم على باب المرسح، فيتألف منه ذنب طويل كما هي العادة في إقبال الناس على الروايات المهمة، واصطفافهم الواحد وراء الآخر لاشتراء أوراق الدخول.

وخرج فيكتور هوجو من باريس إلى جبال البيرنة على حدود إسبانيا يروض فيها أفكاره، ويزيل أكداره، ولم يلبث فيها كثيرًا حتى فاجأه مصابه ببنته، وكانت في التاسعة عشرة من عمرها، وقد فارقها وهي في أثواب العرس فخرجت بزوجها تتنزه في زورق على نهر السين في مدينة فيلكيه، فانقلب بهما الزورق وماتا غريقين قبل أن يمضي على زفافهما أربعة أشهر، وزوجها شارل فاكيري هو أخ الأديب المشهور أوغست فاكيري، فزاد كدر فيكتور هوجو، واختبر بهذه المصيبة آلام الحياة وهمومها ودخل الحزن قلبه ولعلمه أفانين الرثاء، فأجاد وأبدع في المراثي التي نظمها، وأكثرها مدرج في كتاب «التأملات». غير أنه

من هول هاتين المصيبتين وهما موت ابنته، وعدم رواج روايته يئس في بادئ الأمر من هذا العالم الفاني، وانقطع رجاؤه بالله وضعف اعتقاده، ورفض الشعر مدة، وأقبل على الإشغال بالعلوم السياسية، ودرس المسائل الاجتماعية، فنشر كتابًا عنوانه «مكاتيب على الرين» حاول فيه حل مسألة الموازنة الأوروباوية، وتوهم تقسيم ممالك أوروبا بين فرنسا وبروسيا، وأراد تقليد لامارتين في الدخول لميدان السياسة — لأن الشاعر لامارتين بعد أن خدم طويلًا في كتابته السفارات الفرنساوية، وصار سفيرًا في طوسقانة وأتينة ترقى إلى مسند الوزارة، ولما زار الشرق نال شرف المثول بين يدي السلطان عبد المجيد خان، وحاز على الالتفات الشاهاني، وأحسن إليه بأبعدية «جفتلك» في ولاية أزمير، فأقام فيها وحرَّر تاريخ الممالك العثمانية في ثمانية مجلدات — ففتح لويس فيليب باب الحكومة لفيكتور هوجو، وعينه عضوًا لمجلس الأعيان سنة ١٨٤٥، فجلس مع أصحاب اليمين، وانضمَّ لحزب الأكثرية، وهو حزب الوزارة، وقال بقولهم، وتكلم في بعض المسائل فخطب خطبة في «ماركة الفابريكات»، وأخرى في «المسألة البولونية»، ومدح البابا الحر وطلب إرجاع عائلة بونابرت، فلم يكن لكلامه تأثير على أعضاء المجلس كما كان لأشعاره، ورواياته تأثير في نفوس الجمهور عند صدورها على المراسح من أفواه الممثلين، والمشخصات؛ لأنه لم ينل من القوة النطقية ما ناله من القلمية والفكرية.

ولما قوي حزب الجمهورية، وحدث انقلاب سنة ١٨٤٨، وأنزل لويس فيليب عن عرش الملك، وأعلنت حكومة الجمهورية الثانية على فرنسا انتُخب فيكتور هوجو عضوًا في مجلس الأمة من إبالة السين، وأسس

في تلك السنة جريدة الوقائع (إيفينمان)، وكتب عليها «البغض الشديد للفوضوية، والهيام في الشعب والحنو عليه»، وكان يعينه في تحرير الجريدة ابناه شارل وفرنسوا، وأصدقاؤه من أفاضل المحررين مثل بول موريس، وأوغوست فاكيري، وتيوفيل غوتيه والبر لوقروا وغيرهم، وكان المترشح لرئاسة الجمهورية اثنين وهما نابوليون الثالث، والجنرال كافينياك فمالت جريدة الوقائع في خطتها السياسية لنابوليون؛ لأن فيكتور هوجو كان يترنم في قصائد «المدح في العمود»، ويطرب لذكر مجد نابوليون الأول؛ ولذا فإنه أحب في بادئ الأمر ابن أخيه نابوليون الثالث، وظن أنه يتقرب إليه ويكون مستشارًا له فرجحه في الانتخاب على الآخر، واكتسب نابوليون الثالث أكثرية الأصوات، وكانت تزيد على خمسة ملايين ونصف مليون، فأُعلن رئيسًا على الجمهورية، واستلم زمام الإدارة ولم يلتفت لفيكتور هوجو، فلما خاب ما أمله الشاعر انقلب عن أصحاب اليمين إلى أصحاب الشمال، وصار من أكبر رؤساء الحزب المخالف فاتهمه العقلاء بأنه مذبذب يتردد بين اليمين والشمال، ودافع عنه أصحابه بقولهم: إن الشاعر لا يهتم بالأحزاب، وإنما يرى مصلحة الأمة فيسير معها، وكان كلما خطب في المجلس خطبة شددوا عليه النكير وذكَّروه بسوابق أعماله وأشعاره، ولما تمت الرئاسة لنابوليون مالت نفسه للبس التاج، وشرع في إعداد المعدات وتهيئة الأسباب، فتظاهر فيكتور هوجو له بالعداوة، ونشر في تقبيح سياسته فصولًا، وعرَّض باسمه في جريدة الوقائع، فسماه نابوليون الصغير فاتهم مراقب الجرائد ابنيه المحررين لتلك الجريدة وحاكمهما وألقاهما في السجن، ثم استبد نابوليون بالأمر وأجرى حادثة ٢ ديسمبر سنة ١٨٥١،

وألقى القبض على زعماء الحزب الجمهوري وجميع المتهمين بمخالفة السياسة الإمبراطورية، وكان اسم فيكتور هوجو في رأس قائمة المتهمين، فساعدته حبيبته الممثلة جوليت دروه على الاختفاء، واستحصلت له على تذكرة مرور، فخرج من باريس فارًّا؛ وهنا تم الدور الأول من أدوار حياته.

الدور الثاني: وهو مدة وجوده منفيًّا من سنة ١٨٥٢ إلى رجوعه لباريس سنة ١٨٧٠

بعد أن فرَّ فيكتور هوجو من باريس تجاوز الحدود الفرنساوية، وأتى بروكسل عاصمة البلجيك، وكان في غاية الضيق من قلة النقود، فحرر لزوجته يوصيها بالتدبير والتقتير، ويعرفها بأن مصروفه في الشهر لا يتجاوز مائة فرنك، وأقبل على التحرير، والتأليف وهو يستشيط غضبًا فنشر كتابه «نابوليون الصغير»، وكان أول صاعقة من الصواعق التي رماهُ بها، ثم نشر «تاريخ جرم»، فتهافت الناس في فرنسا وعموم أوروبا على مطالعة هذين الكتابين، فمنع نابوليون دخولهما لممالكه، وأمر سفيره في بروكسل بأن يطلب من حكومة البلجيك إبعاد فيكتور هوجو عنها، فلم تجسر الحكومة على ذلك إلا بعد أخذها قرار مجلس النواب، فدعته للخروج فذهب إلى جزيرة جرسي التابعة لإنكلترة، وهي جزيرة في بحر المانش بين فرنسا وجزائر بريطانيا العظمى، وجلب إليها عائلته، وكانت حبيبته جوليت سبقتهما، وأقامت معه في بروكسل، وشاركته في السراء والضراء، وكان في ضيق من جهة المعاش، ولم يكن معه إلا سبعة آلاف فرنك فعرَّف الجوع بقوله: «إن المخمصة تثقب في

قلب الإنسان ثقبًا وتملأه بالحقد»، ونشر كتاب «القصاص» سنة ١٨٥٣، وكان صاعقة على نابوليون أشد من الأولى، وراج رواجًا عظيمًا في فرنسا وأوروبا، وربح ملتزم طبعه في بروكسل ربحًا وافرًا لم يعد منه على المؤلف إلَّا اليسير.

ولم يزل نابوليون الثالث يضطهد رجال الحزب الجمهوري، وينفيهم من الأرض، فعارضه فيكتور هوجو ونظم عدة قصائد في وصف حالة أولئك المضطهدين الذين أُخرجوا من ديارهم ظلمًا وعدوانًا، فطلب سفير فرنسا في لوندره إخراج هوجو من جزيرة جرسي وإبعاده، فأخرجته الحكومة الإنكليزية إرضاءً لنابوليون، ولكنها لم تضيق عليه، فذهب إلى جزيرة كيرنيزي وهي بجوار الجزيرة الأولى في بحر المانش وتابعة مثلها للإنكليز، واشترى فيها دارًا خربةً مهجورةً مبنية على صخرة عالية مطلة على الأوقيانوس المحيط، وتسمى «هوت فيل هوس»، فرممها وسكنها واتخذ الطبقة العليا منها غرفة لأعماله، فكان يشتغل فيها بالنظم والتأليف، ويفكر في تقلبات الدهر وأحوال العالم، وبصره شاخص إلى لجة البحر المحيط، وكان يعينه في التحرير والمطالعة ابناهُ وزوجتاهُ وصاحبه الشاعر أوغست فاكيري، فنشر سنة ١٨٥٦ كتاب التأملات، وعرَّفه بسانحات البال، ثم أخذ يسلي همومه بمطالعة أخبار المتقدمين، ودرس سير الإنسان في مدارج الترقي والعمران، فنشر القسم الأول من كتاب «سير الدهور» سنة ١٨٥٩، ثم ألف قصته الشهيرة المترجمة بـ «البؤساء»، وكان له صديق حميم، وهو موسيو لوقروا ناظر البحرية في الوزارة الفرنساوية السابقة؛ أي وزارة الموسيو ميلين، فكان هذا الأديب يعين الشاعر على طبع مؤلفاته في البلاد الأجنبية، فلما

بعث إليه بالمجلدين الأولين من كتاب البؤساء باعهما لملتزم الطبع في إنكلترة بمبلغ قدره ١٢٥ ألف فرنك ذهب إنكليزي.

ولما نشر هذا الكتاب سنة ١٨٦٢ أقبل المترجمون على ترجمته، ونشروه في تسع لغات من لغات أوروبا في آن واحد، وكان أصحاب المطابع تستدعي الموسيو لوقروا من جميع الجهات في إنكلترة، وألمانيا، والنمسا ليشتروا منه حق الترجمة والطبع، ولما ذهب إلى لوندره عند الكتبي الشهير في بترنوستر رود سأله بعنف: كم تطلب بحق نشر كتاب البؤساء في اللغة الإنكليزية؟

فأجابه: ثلاثة آلاف ليرة إنكليزية، فتناول دفتر الشِّك، وحرر المبلغ والاسم، وقال له:

- خذ نحن على وفاق

فسَعَدَ حال فيكتور هوجو من جهة المعاش، وذهب عنه الضيق، فنظَّم داره، وغرس أرضها بالأشجار والرياحين، وطار ذكره في العالم المتمدن، وقصده الزوار، وكاتبه الرجال، وكان البعض يحرر عنوانه «فيكتور هوجو في الأوقيانوس»، فكانت المكاتيب تصله بهذا العنوان المبهم لسعة شهرته، واشتهر اسمه لاقترانه باسم نابوليون، وكبَّره البعد والاعتزال في مخيلات الناس حتى اعتقدوه من أكبر العقول البشرية، وكانت العيون ترقب طلوع مؤلفاته كما ترقب شمس الشتاء، وفي سنة ١٨٦٤ نشر كتاب «وليم شكسبير» في الفلسفة، وبعدها بسنة نشر ديوان «أغاني الشوارع والأحراج»، وفي سنة ١٨٦٦ نشر قصة «المشتغلين في البحر»، ووصف فيها ما يكابده الفلاحون من المشاق وما يتورطون

فيه من الأخطار، وفي سنة ١٨٦٩ نشر قصة «الإنسان الضاحك»، ولم يأل جهدًا وهو في تلك الجزيرة عن الانتصار للأقوام الذين غدر بهم الزمان، ورماهم سوء الطالع بالخسران، وفعل ما فعله فولتير وهو في فيرين، فدافع عن عصاة أيرلاندة وعن مكسميليان إمبراطور المكسيك، وهو أخ إمبراطور النمسا أغراه نابوليون الثالث على لبس التاج، وأمده بالعساكر الفرنساوية ثم تخلى عنه، فحاكمه المكسيكيون وقتلوه.

ثم إن المسائل العائلية أخلَّت براحة الشاعر وأقلقت أفكاره، وذلك أن ابنته عادلة أحبت قومندان المركب المحافظ على الجزيرة، وتزوجت به رغمًا عن والدها، وذهبت معه إلى الهند منشأ الطاعون ومهب الريح الأصفر، فمات فيها وعادت لفرنسا مختلة الشعور سنة ١٨٧٢، فأدخلوها البيمارستان مثل عمها وهي التي ورثت أباها، وفي سنة ١٨٦٨ توفيت زوجة فيكتور هوجو في بروكسل بعد أن كفَّ بصرها، وذهب ابناه في السنة التالية إلى باريس مع صاحبهما أوغست فاكيري؛ لينشئوا فيها جريدة «رابل» ويندددوا بالحكومة الإمبراطورية، وذهب فيكتور هوجو إلى بلاد سويسرا؛ ليحضر مؤتمر لوزان ويخطب فيه خطبته المشهورة، ولما جرت الانتخابات في أوائل سنة ١٨٧٠ نشر فيكتور هوجو رسالة اعتراضية عنوانها «لا»، ثم انتشبت الحرب بين فرنسا وبروسيا، ودارت الدائرة على نابوليون الثالث، فسلم سيفه في ميدان القتال إلى ملك بروسيا، وطار الخبر إلى باريس، فاجتمع رؤساء الحزب الجمهوري في دار البلدية، وأعلنوا الحكومة الجمهورية مكان الإمبراطورية في ٤ سبتمبر سنة ١٨٧٠، وهي حكومة الجمهورية الثالثة الحالية، ولم يعد مانع لفيكتور هوجو من الرجوع إلى فرنسا، وبذلك انتهت أيام نفيه.

الـدور الثالـث مـن حيـاة فيكتـور هوجـو، وهـو دور شـيخوخته أي: مـن رجوعـه إلى فرنسـا سـنة ١٨٧٠ إلى وفاتـه سـنة ١٨٨٥

بعـد أن أقـام فيكتـور هوجـو في منفـاه ثمـاني عـشرة سـنة عـاد إلى باريـس مـع مـن عـاد مـن أركان الحـزب الجمهـوري، واسـتقبله أحبـاؤه وأشـياعه، وأنزلـوه عـلى الرحـب والسـعة، فحـرر خطابًـا بليغًـا للألمانيـين يحضهـم فيـه عـلى الصلـح وتـرك الحـرب، وكان مـن رأيـه السـياسي وضـع اتفـاق بـين الأمـة الفرنسـاوية والبروسـيانية وتقسـيم البـلاد بينهـما؛ فلـم يصـغِ الألمانيـون لخطابـه وظلـوا هاجمـين حتـى بلغـوا خنـادق باريـس، وألقـوا الحصـار عليهـا، فـترك فيكتـور هوجـو القلـم مـن يـده، وأمسـك السـيف، وانتظـم في سـلك الجنـود المحافظـين مـن الأهـالي، ودافـع عـن أوطانـه، وتـألم بـآلام إخوانـه، ولمـا احتلـت العسـاكر البروسـيانية باريـس هاجـر منهـا أهلهـا، واتخـذت الحكومـة الجمهوريـة مدينـة بـوردو مركـزًا لهـا عوضًـا عـن باريـس، وانتخبـت أيالـة السـين فيكتـور هوجـو مبعوثًـا لهـا في مجلـس النـواب، فلـما قـام يخطـب عارضـه أصحـاب اليمـين، وأكـثروا اللغـط، وأبـوا الإنصـات لـه، فقـال لهـم: «منـذ ثلاثـة أسـابيع رفـض المجلـس الإصغـاء لغاريبالـدي، واليـوم يرفـض الإصغـاء لي فأقـدم اسـتعفائي».

وغاريبالـدي هـو مـن القـواد الذيـن حاربـوا لأجـل اسـتقلال إيطاليـا، وهاجم رومـة العظمـى وانتزعهـا مـن يـد البابـا، وسـلمها إلى ملـك إيطاليـا ليتخذهـا عاصمـة للملـك، فلـما انتشـبت الحـرب بـين فرنسـا، وبروسـيا دخـل متطوعًـا في العسـكر الفرنسـاوي، ودافـع عـن فرنسـا أشـد المدافعـة، فانتُخـب مبعوثًـا في مجلـس النـواب مـع كونـه طليـاني الأصـل، وكانـت الأكثريـة في المجلـس

مـن حـزب الملوكيـين والرهبانيـين فاتهمـوه بالكفـر والإلحـاد لتجـاوزه عـلى رومـة، ونزعـه سـلطة البابـا منهـا؛ ولـذا لم يصغـوا لكلامـه.

وفي ذاك التاريـخ أعيـد طبـع كتـاب «القصـاص» نـكالًا مـن حـزب الإمبراطوريـة، وكان يبـاع بالمائـة ألـف نسـخة معًـا، ولمـا كان ابـن فيكتـور هوجـو المسـمى شـارل في بـوردو دخـل عنـد صاحبـة لـه يقـضي ليلتـه، فتـوفي فجـأة في فراشـها وحـزن أبـوه حزنًـا شـديدًا، فجـاء بجثتـه إلى باريـس، ودفنهـا يـوم حـدوث ثـورة الكومـين، وانعطـف بالحنـو والرأفـة عـلى ولديـه الأصغريـن وهـما جـورج وجـان، وبالـغ في دلالهـما حتـى أثـر هـذا الـدلال في أخلاقهـما، وأصبحـت جـان لا تسـتطيع معـاشرة زوجهـا حتـى طلقهـا لشـدة ميلهـا إلى اللهـو والخلاعـة، وبعـد وفـاة شـارل تـزوج الموسـيو لوقـروا بزوجتـه لتربيـة الولديـن لإحيـاء بيـت فيكتـور هوجـو، فتبنـاه الشـاعر وأحبـه حبًّـا شـديدًا.

ولـزم فيكتـور هوجـو الحيـادة في المسـائل السياسـية لحزنـه عـلى ولـده، وفلـذة كبـده. غـير أنـه لم يطـق الصـبر عـلى مـا شـاهده مـن فظائـع الرعـاع، فلامهـم عـلى قلبهـم العمـود المنصـوب لنابوليـون الأول، كـما لام حكومـة فرسـايل عـلى إطلاقهـا القنابـل عـلى قنطـرة النـصر المنصوبـة لـه، وبـرأ نابوليـون الأول مـما جنـاه ابـن أخيـه عـلى البـلاد مـن الحـرب التـي جلبـت عليهـم الويـل والدمـار، وذهـب هوجـو في أثنـاء تلـك المعامـع إلى بروكسـل وإلى لونـدره، ونـشر كتابـه المعنـون «بألسـنة المهولـة» وشـدد فيـه النكـير عـلى دخـول الأجانـب لفرنسـا، وعـلى الفظائـع التـي أجراهـا الرعـاع والسـفلة وهـم الكومـين.

ثم عاد فيكتور هوجو لباريس وأنشأ فيها جريدة سماها «الشعب الحاكم»، وجعل ثمنها خمسة سنتيمات لكل نسخة ليتمكن الفقراء من مطالعتها، ولم يهدأ بال الشاعر برجوعه لأوطانه، واجتماعه على أحبائه وخلانه إلَّا وأصيب بموت ابنه الثاني فرانسوا، فصبر على مصائب العمر ونكبات الزمان، وسلم الأمر لله؛ لأنه كان من الموحدين، وعكف على النظم والنثر فنشر سنة ١٨٧٤ قصة عنوانها «ثلاث وتسعون»، وتكلم فيها عن الانقلاب الفرنساوي الكبير، وفي سنة ١٨٧٥ انتُخب فيكتور هوجو عضوًا لمجلس الأعيان (سينا)، فجلس في نهاية أصحاب الشمال، ولم يتكلم في المجلس إلا قليلًا مثل طلبه العفو عن مجرمي الكومين؛ والكومين هم القوة المحزبة، أو الإدارة العرفية التي تتشكل في العاصمة وتحدث انقلاب الدولة، ويحصل بسبب ذلك من تعدي الرعاع وتسلط السفلة ما تقشعر من سماعه الجلود، وقد تأسست هذه الإدارة المرهبة في باريس مرتين إحداهما سنة ١٧٩٢ والأخرى سنة ١٨٧١، واستمرت هذه السنة من ١٨ مارس إلى غاية مايو، وجرى في أثناء ذلك كثير من التعديات والمظالم، فكان فيكتور هو يشير في المجلس بالعفو عما مضى ولم يظهر له اقتدار كبير في السياسة، ولا في فن الخطابة مثل غامبتا وأمثاله من فحول السياسيين، وإنما صرف كل قواه في الاشتغال بعلوم الأدب والتاريخ، ونشر «الأقوال والأعمال»، و«أولادي»، و«معرفة ما يكون به الإنسان جدًّا».

وفي سنة ١٨٧٧ نشر القسم الثاني من «سير الدهور»، و«الأملاك العمومية التي تدفع الرسوم»، ونشر من سنة ٧٨ إلى سنة ١٨٨١ أربع منظومات فلسفية وهي «البابا»، و«الرحمة العالية»، و«الأديان

والديــن»، و«الحــمار».

وحـاز في شـيخوخته احترامًـا كبـيرًا وثـروة عظيمـة زادت عـلى ثلاثـة ملايـين فرنـك، ولمـا بلـغ الثمانـين مـن عمـره احتفـل بـه أهـالي باريـس احتفـالًا عظيـمًا، وزينـت لـه المدينـة في ٢٦ شـباط سـنة ١٨٨١، ووفـد عليـه المهنئـون مـن جميـع الولايـات والنواحـي، وأكـثر الممالـك الأجنبيـة فاسـتقبلهم وهـو واقـف بـين حفيـده جـورج وحفيدتـه جـان وكان مغرمًـا في حبهـما، وفي حـب جميـع الأطفـال، وقـد خصهـم بالذكـر في أشـعاره وتغـزل بهـم؛ ولـذا كان في جملـة الوفـود المهنئـين وفـد مـن أجمـل الأطفـال الصغـار يحملـون لـه باقـات الأزهـار، ولم يبـق أحـد في باريـس إلا ومـرَّ ببابـه، وصـاح جمهورهـم بالدعـاء لـه فوقـف في نافذتـه وحياهـم كـما يحيـي الملـك شـعبه، ودموعـه تـذرف مـن شـدة التأثـر والإشـفاق، وكان مشـاهير الرجـال وأمـراء النـاس وأعيانهـم كلـما جـاءوا باريـس زاروه في داره وحـضروا مجلسـه، وكان في جملـة مـن زاره إمبراطـور البرازيـل، فـكان الاحتفـال ببلوغـه الثمانـين مـن أجمـل الاحتفـالات التـي لم يسـبق مثلهـا إلا للشـاعر الفيلسـوف فولتـير قبـل موتـه بقليـل.

ونـشر فيكتـور هوجـو في آخـر أيامـه منظومـة طويلـة سـماها «ريـاح العقـل الأربـع»، وروايـة «توركـماده»، والقسـم الثالـث مـن «سـير الدهـور»، و«أرخبيـل بحـر المانـش»، وغـير ذلـك مـن الآثـار التـي نُـشرت بعـد وفاتـه، وسـيأتي وصفهـا في أواخـر هـذا الكتـاب.

ولمـا تـوفي فيكتـور هوجـو سـنة ١٨٨٥ لبسـت باريـس عليـه أثـواب الحـداد، والتبـس فيهـا الأمـر عـلى الغربـاء حتـى لم يعلمـوا هـل القـوم في مأتـم

عظيـم أم في عيـد كبـير، وجـيءَ بجثتـه فوضعـت في تابـوت عـالٍ تحـت قنطـرة النـصر بعـد أن كُسـيت بالسـواد، وزينـت بالأزهـار والرياحـين، واصطـف الشـعراء حولهـا صفوفًـا، واحتـاط بهـم الفرسـان يحملـون بأيديهـم المشـاعل، وسـهروا عليـه طـول ليلتهـم والنـاس يمـرون أمـام تابوتـه أفواجًـا أفواجًـا، ولمـا أصبـح الصبـاح اجتمعـت الجمـوع، وزينـت الصفـوف، وكانـت أكـثر المـدن الفرنسـاوية والممالـك الأجنبيـة قـد بعثـت بالوفـود والأكاليـل، فحملـوا الجنـازة مـن تحـت قنطـرة النـصر إلى البانتيـون، وصـار لـه مشـهد لم يسـبق لشـاعر قبلـه ولا لفولتـير، وكانـت وصيـة هوجـو أن لا يحـضر جنازتـه راهـب ولا أحـد مـن الأكليـروس وأن يدفـن كالفقـراء؛ ولـذا كانـت العربـة التـي حملـوه عليهـا مـن عربـات الفقـراء لا تناسـب دبدبـة هـذا الاحتفـال، ولم يجـر لـه احتفـال دينـي بـل كان الاحتفـال بجنازتـه أهليًّـا.

## فيكتور هوجو: علم الأدب عند الإفرنج والعرب

•••

أدب كل لسان ما حصل فيه الإجادة من الكلام المنظوم والمنثور، ويشتمل على فنون الشعر والأغاني، والروايات والقصص، وضروب الأمثال والحكم والنوادر، والحكايات والمقامات، والتاريخ والسياسة والرحلة وغير ذلك. وقد جمع نخبة من كلام العرب المتقدمين كتاب مجاني الأدب المطبوع في بيروت، والأصل في الكلام للمعاني لا للألفاظ؛ لأن اللفظ قالب أو ظرف للمعنى يتخذه المتكلم أو الكاتب لسبك ما يصوره في نفسه، ويشكله في قلبه من المعاني فينقل بذلك مقصوده للسامع، أو القارئ حتى يعلمه كأنه يشاهده، قال الشاعر:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما

جعل اللسان على الفؤاد دليلا

فالاقتدار على الإبانة عن المعاني الكامنة في النفوس يسمى «الفصاحة» و«البيان»؛ لأن المتكلم يفصح عما في ضميره ويبينه بكلمات عذبة سلسة، وبعبارات جلية خفيفة على القلب واللسان، فالمتكلم على هذا النسق «فصيح» وكلامه ملفوظًا كان أو مكتوبًا «كلام فصيح»، وحيث كان المعنى سابقًا للفظ وجب أن تكون الألفاظ تابعة للمعاني وخادمة لها، وليس المعنى تابعًا للفظ كما حكي عن بعض الأمراء أنه ولى أحدهم قضاء «قُمْ»، وهي من مدن العراق العجمي بين طهران، وكاشان ثم كتب إليه بلا سبب موجب: «أيها القاضي بقم قد عزلناك

فقم» يعني بلفظ «قم». فقال القاضي: والله ما عزلني إلا محبة الأمير في التزام السجع.

ولا يكمل علم الأدب للمتبحر فيه إلَّا بعد أن يُنظر في أدب الأمم المتمدنة، ولو نظرة عامةً يطلع بها على مجمل تاريخ أدبهم، وعلى بعض ما ترجم من مؤلفات المشاهير من كتبهم، فيقف على ما عندهم من سعة الفكر، وسمو الإدراك وبلاغة المعاني، ويعرف أساليبهم في النظم والنثر وتصرفهم في الكلام، ويميز بين طرق المتقدمين والمتأخرين منهم.

فإذا أحاط علمه بذلك فهم الغرض الذي يتطلبه أئمة البلاغة من أي لسان وملة، ورأى الهدف الذي يروم كل منهم إصابته، فيصوب نحوه القلم عسى أن يكون له مع الخواطئ سهم صائب؛ لأن البلاغة لا تختص باللسان العربي وحده، وكلما ارتقت الأمة في سلم الحضارة كان لسانها أبلغ وأدبها أوسع وأكمل لتهافت أدبائها على تنميق الكلام، وتهذيب مناحيه وفنونه؛ فيدركون بالتدريج حقائق المعاني التي ربما استعملها آباؤهم وأجدادهم في غير مواضعها بسبب الجهل الناشئ من ضيق العمران، وقلة العلوم، ويفرغون ما أوجدوه وما أصلحوه من المعاني في قوالب تناسبها من الألفاظ والتراكيب، «فالبلاغة» هي مطابقة اللفظ للمعنى من جميع وجوهه بخواص تقع للتراكيب في إفادة المعنى المقصود الذي يقتضيه الحال والمقام، وفي المثل لكل مقام مقال، سواء كان المقال؛ أي اللفظ عربيًّا فصيحًا بإعراب، أو حضريًّا بلا إعراب، أو أعجميًّا بأن كان عثمانيًّا، أو إنكليزيًّا، أو فرنساويًّا، أو فارسيًّا، أو غير ذلك، فالمتكلم بلسان العرب والبليغ فيه يتحرى التركيب المفيد

لمقصوده على أساليب العرب وأنحاء مخاطباتهم، وينظم الكلام على ذلك الوجه قدر ما يتيسر له، فإذا لازم قراءة الطبقة العالية من كلام العرب الأقدمين حصلت له ملكة فيه، وسهل عليه التركيب على أسلوبهم حتى لا يكاد ينحو فيه غير منحى البلاغة التي للعرب، وإن سمع تركيبًا غير جارٍ على ذلك المنحى نبا عنه سمعه، وإذا كثر اشتغاله بالترجمة والكتب المترجمة كانت أساليبه أعجمية مع بقاء الألفاظ في كلامه عربية، كما يتضح لمن أمعن النظر في رسائل ابن رشد المطبوعة في أوروبا، ومنها ما طبع في مصر، وفي رسائل غيره من فلاسفة الإسلام وأهل المنطق، فإنه يرى فيها الأساليب الأعجمية واللهجة التي لم يلهجها أدباء الجاهلية.

وامتاز لسان العرب وخصوصًا لغة مضر بخاصتين: الأولى تشمل حركات الإعراب في أواخر الكلم، وكيفية تركيب الألفاظ، فالحركات هي التي تدل في لغة مضر على تعيين الفاعل أو المفعول، وأما في غيرها من لغة الحضر وبقية اللغات، فيدل على ذلك التقديم والتأخير، أو القرائن المبنية لخصوصيات المقاصد، وخواص التركيب هي التي تدل في لغة مضر على ما تقتضيه الأحوال من التأكيد، والتعريف، والتنكير مثل تقديم لفظ، أو تأخيره لوصف المعنى وتكييفه، ومثل زيادة حرف أو تنقيصه لزيادة شيء في المعنى الأصلي؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى كقولنا: زيد قائم، وإن زيدًا قائم، وإن زيدًا لقائم، وفي القرآن الكريم حكاية عن الرسل قولهم في المرة الأولى: «إنا إليكم مرسلون»، وفي المرة الثانية «ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون»، فالألفاظ بأعيانها تدل على المعاني بأعيانها في كل لسان، وخواص التركيب في لغة مضر من

تقديم وتأخير، وزيادة حرف تدل على الأحوال المكتنفة بذلك المعنى.

وأما في لغة الحضر وفي الألسن الأعجمية فأكثر ما يدل على هذه الأحوال بألفاظ وكلمات مخصوصة؛ ولذا كان الكلام العربي أوجز، وأقل ألفاظًا وعبارة من غيره؛ ولهذا أشار نبينا محمد — عليه السلام — بقوله: «أوتيت جوامع الكلم واختصر ليَ الكلام اختصارًا.» على أن بقية الألسن لم تخل بالكلية من هذه الخاصة الأولى للسان مضر، وحركات الإعراب موجود منها في اللسان العثماني تقول: «زيد كلدي» بسكون آخر زيد ومعناه: جاء زيد، و«زيدي جلب ايتدم» بكسر آخر زيد ومعناه جلبت زيدًا، وإن لم يكسر آخر زيد لا يستقيم المعنى.

وأما في لغات أوروبا فالإعراب من خصائص اللغتين اليونانية، واللاتينية، واللغة الألمانية، غير أن هذه الخاصة ربما كانت في لسان مضر أكثر وأعرف وأثبت، وإذا لم يراعِ الإنسان هذه الخاصة في اللسان الذي يتكلمه وقع له ما وقع للوليد مع الأعرابي، وذلك أن الوليد بن عبد الملك بن مروان كان لحانًا، وكان أبوه عبد الملك فصيحًا فعرف بلحن ابنه، وقال له: إنك يا بنيَّ لا تصلح للولاية على العرب وأنت تلحن، وجعله في بيت وجعل معه من يعلمه الإعراب، فمكث كذلك مدة ثم خرج وهو أجهل مما دخل، فلما بويع الوليد وجلس على كرسي الخلافة دخل عليه أعرابي يشكو صهرًا له.

فقال الوليد: ما شانَك؟ (بفتح النون).

فقال الأعرابي: أعوذ بالله من الشين.

فقال سليمان بن عبد الملك: أمير المؤمنين يقول لك: ما شأنُك (بضم النون).

فقال الأعرابي: ختني ظلمني.

فقال الوليد: من خَتنَك؟ (بفتح النون).

فقال الأعرابي: إنما ختنني الحجام ولست أريد هذا.

فقال سليمان بن عبد الملك: أمير المؤمنين يقول: من ختنُك (بالضم).

فقال: هذا، وأشار إلى خصمه.

والخاصة الثانية هي ما في لسان مضر من الاستعارات، والتشبيهات، والمجازات، وأنواع البديع من الكلام، وورد أحسنه في القرآن الكريم مثل: «اشتعل الرأس شيبًا»، ومنه في الشعر كقول ابن المعتز: «والشمس كالمرآة في كف الأشل»، فجميع ذلك أتم وأكمل في لسان العرب. ويعدون من الكلام البديع لفيكتور هوجو تشبيههُ موج البحر بقطيع الغنم وقوله: غنم البحر، وقول كمال بك إمام الأدب في اللسان العثماني: «برق الحقيقة يلمع من تصادم الأفكار»، فهذه البلاغة والبيان ديدن العرب، وفي كلامهم كثير من البديع أتوا به بغير تكلف ولا تعمل، وبعضهم تصنع له وتكلف ظنًّا بأنه أساس البلاغة، والمقصود منها بالذات فملأوا بالبديع والاستعارات النظم والنثر، وصرفوا الذهن وأجهدوا العقل حتى قالوا:

مودتهُ تدوم لكل هولٍ

وهل كل مودته تدومُ

وتغافلوا عن إيضاح معنى المودة، وهو من المعاني الكلية الجليلة التي أوضحها أدباء اليونان، والرُّومان، والإفرنج فيما ألفوه من الروايات المضحكة، أو الفاجعة وعرضوه في المراسح على أنظار الجمهور فقدره الخواص حق قدره، واستفاد منه العوام.

على أن تلك الحسنات البديعة والخصائص اللسانية؛ وإن كان لها تأثير عظيم على النفس، فهي لم تزل في نظر العقلاء كالحلي والمصوغ للعروس، فالعاقل يجتهد بأن تكون عروسه من ربات الجمال والدلال والأدب والكمال، فإن وجد معها شيء من الحلي فنعم، وإلا فالمقصود منها هو نفسها وذاتها، فهي الضالة التي ننشدها ونأتي بها ولو من جبال القوقاس فنعلمها لساننا، ونلبسها ما عندنا من اللباس، ونتمتع بها فهذا أولى من إلباس الجارية السوداء الحلي والحلل، وصرف النقد والوقت في تزيينها، وللناس فيما يعشقون مذاهب.

فالتكلف في زماننا لتقليد الإنشاء العالي، ونظم قصيدة ثامنة للمعلقات السبع، أو سجع مقامات ثالثة لمقامات الحريري، والهمذاني ليس فيه كبير فائدة ما دام الأصل في الكلام للمعاني والمقصود من المعاني إظهار أسرار هذا الكون الذي نصبح فيه، ونمسي ونحن غافلون عن كثير من حقائقه، ولا ندري بأية عبارة نترجم عنها، ولا كيف نوضح شعورنا وإحساسنا بهذا الوسط الذي نحن فيه وهو سجن لنا، والدنيا سجن المؤمن. فهذه المعاني البليغة العالية ينبغي لأدباء العصر سبكها في السهل الممتنع من الكلام الفصيح بغير تهافت منهم على الكلمات اللغوية، والمحسنات اللفظية من جناس وطباق، وقراءة الكلام طردًا

وعكسًا، وأمثال ذلك مما يعده العقلاء من الملاعب الصبيانية إذ ليس هذا غاية الأدب والغرض منه.

وخير اللفظ ما جاء بالطبع والبداهة بلا تكلف، ولا تحر في القواميس والمنشآت، فخطبة ناظر المعارف الفرنساوية الذي تلاها بمناسبة يوبيل الكيماوي برتلو هي نموذج في بلاغة المعاني لمطابقتها لمقتضى الحال، وإيجاب المصلحة وهي من أحسن ما يقال في مثل تلك الجلسة، وفي مناسبة ذاك الاجتماع، غير أن ذوقنا ربما يمجها لركاكة الترجمة، فإن الألفاظ وإن كانت عربية فتركيب هذه الألفاظ بعضها مع بعض لم يجر على أسلوب قس بن ساعدة، أو سحبان وائل، ولا على طريقة الجاحظ إمام الأدب، ولا يشبه رسائل عبد الحميد، أو ابن العميد اللذين قال فيهما الثعالبي: «فُتحت الرسائل بعبد الحميد، وختمت بابن العميد»، بل جرى تركيب ألفاظ تلك الخطبة على أسلوب الفرنساوي المترجمة عنه، فأكثر الألفاظ في موضوعاتها التي وضعها فيه العرب الأولون.

والركاكة بالنظر إلى التراكيب؛ وربما كانت بالنظر إلى بعض المفردات أيضًا؛ لأن مفردات ألفاظها لم تنتخب من القاموس المحيط ببلاغة هذا اللسان كالذي ألفه الزمخشري، وسماه أساس البلاغة، وطبع بمصر.

ثم هناك أسباب أخرى أيضًا تحول بيننا وبين إدراك بلاغة تلك الخطبة، وهي عدم وقوفنا على دقائق تاريخ القوم، وعلى مزايا لغتهم وتعبيراتهم، وفقداننا الملكة في هذا الأسلوب من الخطابة؛ ولذا ينبو سمعنا عما لم يأتِ على أساليب بلغاء العرب، وعما لم يحرر على وفق مذاهبهم في فنون الأدب، حيث لكل قوم منهج معروف

ومسلك مألوف، بل كل إمام في الأدب من أية أمة كان يذهب فيه مذهبًا جديدًا، ويستخلص لنفسه طريقة مخصوصة يخالف فيها طرق المتقدمين ومذاهبهم؛ ولذا فأهل الذوق في الكلام إذا عُرض عليهم شيء منه قالوا: هو على طريقة فلان وأسلوب فلان، وهو من إنشاء فلان دون فلان، كما لو عُرضت خمر من خمور بوردو على أهل الذوق المشهورين باسم «ديكوستاتور» لقبض الواحد منهم بكفه على الزجاجة حتى إذا سخنت بحرارة اليد، وفاح منها الشذا المعروف عندهم باسم «بوكه» هزَّها، ونظر فيها فإذا الخمر في الزجاجة ياقوتة سيالة، ثم جرع منها جرعة ذاقها بطرف لسانه، وقال: لك هي من كرم «شاتولافيت» أو «شاتولاتور» أو «شاتومارغو»، وفي هذه الثلاثة انحصرت الطبقة العليا من طبقات الخمر المعصور بأرض «ميدوق»، واتفق أهل الذوق، والطب على أنها من أطيب البقاع وأبركها لإنبات هذا الشراب الذي فيه منافع للناس وإثمه أكبر من نفعه؛ لأنه من جهة ترياق نافع، ومن أخرى سم ضار.

•••

والشعر كالنثر لا يختص بلسان العرب فقط، بل يوجد في كل لسان من ألسن الأمم المتمدنة، والهمجية فإن لأهالي أفريقيا أشعارًا يمدحون بها على آلات طربهم ويرقصون على أنغامها. وكان في الأمم السالفة شعراء مجيدون مثل فياسه صاحب ديوان ماهابهاراته، ومثل فالميكي صاحب ديوان رامايانه وهما من شعراء الهند وكهنتها نظما الديوانين المذكورين باللسان السانسكريتي قبل الميلاد بقرون كثيرة، وترجمهما

العلماء في زماننا إلى أكثر اللغات الأوروبية، فوجدوا أشعارهما حماسية دينية، وفي الديوان الأول نحو مائتي ألف بيت أو قطعة، وهما عند الهنود بمثابة ما عند اليونان من الإيلياذة والأوديسة نظم هوميروس الشاعر الشهير. ولعل البستاني يتحفنا بنشر ما جناه من أدبه، فإن هوميروس شيخ الشعراء بأجمعهم. ومثل شعراء الروم الذين كانوا في القسطنطينية، وما حولها من أرض الروم قبل أن يفتحها الفاتح. وشعراء الرومان اللاتينيين، وشعراء الفرس وإمامهم الحسن بن إسحاق الفردوسي ناظم الشهنامه في القرن الرابع للهجرة، وهو عند العجم كهوميروس عند اليونان، وفرجيل عند الرومان، ودانتي عند الطليان، وميلتون عند الإنكليز. وتشتمل الشهنامه على تاريخ أكاسرة الفرس وأخبارهم، وقد طُبعت مرارًا في الفارسية وترجمت للإنكليزية والفرنساوية، وترجمها نثرًا للعربية الفتح بن علي البنداري الأصبهاني، وقدمها لخزانة أحد الملوك الأيوبية.

ذكر الجاحظ في كتاب البيان والتبيين «أن الفارسي سئل فقيل له: ما البلاغة؟ فقال: معرفة الفصل من الوصل، وسئل اليوناني عنها فقال: تصحيح الأقسام واختيار الكلام، وسئل الرومي عنها، فقال: حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الإطالة، وسئل الهندي عنها، فقال: وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة، وقال مرة: التماس حسن الموقع، والمعرفة بساحات القول.»

وفي الأمم الأوروبية، والأميركية اليوم شعراء أعلى طبقة، وأبلغ كلامًا ممن تقدمهم من شعراء الأمم السالفة. وموازين الشعر في جميع

اللغات على نسبة واحدة في أعداد المتحركات والسواكن، والشعر الفرنساوي تبنى أعاريضه على عدد الهجاء، فالبحر الإسكندري (ألكساندرين) على اثني عشر هجاء في الأصل، والروي أي: القافية — وهو الحرف الأخير من كل بيت — موجود في لسان العرب وفي ألسن غيرهم، ولكن الفرنساويين قبل اختلاطهم بعرب الأندلس لم يكن لأشعارهم روي ولا قوافٍ، فأخذوا عن جيرانهم الأندلسيين علم القوافي كما سيجيء تفصيله. فقبل الشروع في بيان الطريقة التي سلكها فيكتور هوجو في علم الأدب، وشرح أساليبه في النظم والنثر، وفي تصوير القصص والروايات نذكر شيئًا من أخبار العرب ليتبين لنا التأثير الذي أثره أدبهم على أشعار الإفرنج وقوافيهم بوجه العموم، وعلى فيكتور هوجو بوجه الخصوص؛ لأن هذا الشاعر الحكيم نُفح بنفحة من النفس الأندلسي، واغتذى بلبان من ارتضع قديمًا ثدي الأدب العربي، وبيان ذلك أن مدينة بيزانسون التي ولد فيها فيكتور هوجو دخلت في حوزة الإسلام، حينما قطع أهله جبال البيرينة، وأغاروا على مملكة أكيتانيا، وليون وفتحوا ما في شمالها من المدن مثل ماقون، وديجون، ثم دخلت بيزانسون في طاعة شارلكان صاحب الوقائع الشهيرة مع فرانسوا الأول ملك الفرنساويين، ومع معاهده وحاميه السلطان سليمان القانوني، وذلك في القرن السادس عشر للميلاد، فنقل الإمبراطور شارلكان عائلات كثيرة من الإسبان وأنزلهم بيزانسون، فاستمروا زمنًا طويلًا وامتزجوا بأهلها، ولم يزل لأهل بيزانسون شبه بالإسبان في ملامح الوجوه وفي اللهجة، وفي كثير من الكلمات والتعبيرات مع أن مدينتهم لا

تبعد عن باريس أكثر من أربعمائة كيلومتر، وقد أشار فيكتور هوجو إلى ذلك في القصيدة الأولى من ديوان أوراق الخريف، ووصف بيزانسون بالمدينة القديمة الإسبانية فذهبت مثلًا، وصار الكُتاب لا يفترون عن وصفها بهذا الوصف، وعلاقة الإسبان بالعرب وباللسان العربي معلومة لا تحتاج إلى إيضاح.

•••

أما العرب فلو نظرنا إلى تاريخ أدبهم لوجدنا في مقدمته أشعار الحماسة كما نجد ذلك عند بقية الأمم كالفرنساويين مثلًا، فإن النظم في لسان أدبهم دُوِّن قبل النثر؛ لأن النظم يحصل التأنق في تأليفه والعناية في جمعه فيضم أطراف الكلام وحواشيه، ويكون في بادئ الأمر أبلغ مما عاصره من النثر فيحفظ في الصدور ويتداول على الألسنة، ثم تزيد العناية به فيدون بالنقش، أو الكتابة ويعلق على الجدران.وهذا معنى قولهم: النظم في تاريخ لأدب سابق للنثر.

وإلا فأول ما يُبدأ من الكلام بالنثر لقرب تناوله وسهولة استعماله، ذكر الباقلاني في إعجاز القرآن المطبوع في مصر أن العرب بدءوا بالنثر وتوصلوا منه إلى الشعر، وكان عثورهم عليه في الأصل بالاتفاق غير مقصود إليه، فلما استحسنوه واستطابوه ورأوا الأسماع تألفه والنفوس تقبله؛ تتبعوه وتعلموه وتكلفوا له، فنبغ فيهم الشعراء وأقبل الناس رجالًا ونساء على حفظ أشعارهم وروايـة أخبارهم، والتفاخر بإنشاد القصائد الكثيرة في المواضيع المختلفة، والاستشهاد بكل بيت من أبياتها عند الحاجة، فجعلوا الشعر من بين الكلام ديوان علومهم وأخبارهم

وحكمهم، وشاهد صوابهم وخطائهم، وأنزلوا الشاعر البليغ منزلة الإمام العالم الذي يُهتدى بنبراس قريحته، ويُفزع لرأيه في مشاكل الأقضية ومعضلات الأمور، فكانت كلمة الشاعر هي الكلمة العليا، وقوله: أمضى من السيف، وأحدُّ من السنان وحكمه نافذ كحكم الشرع في القضاء.

وربما رفع الشاعر بالبيت الواحد عز القبيلة أو هدمه، كما وقع لشاعر قبيلة أنف الناقة بعد أن كان اسمها مجلبة للعار بين القبائل. وكان السجع من الكلام يجري على ألسنة الكهان، والحكماء، والعرافين، وأهل الزجر والفال، وأنواع الحكم والطب مثل شق، وسطيح، وحنظلة بن صفوان كاهن حمير، وخالد بن سنان العبسي الذي قالت ابنته حينما سمعت قراءة قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ: كان أبي يقرأ مثل هذا، وأمية بن أبي الصلت الثقفي، وكان افتتاح كلامه «باسمك اللهم» وقس بن ساعدة ورباح بن عجلة عراف اليمامة والأبلق الأسدي عراف نجد وغيرهم.

غير أن تاريخ أدب العرب قبل الإسلام لم يزل في حيز الخفاء؛ لعدم تمكن العلماء من درس اللغات، أو اللهجات العربية السابقة على لغة مضر كلغة حمير مثلًا، فإنه لم يشتهر عندنا من قواعدها أكثر من حديث «ليس من امبر امصيام في امسفر» حيث استعمل فيه (ام) عوضًا عن (ال) التعريف، ولا يكشف الغطاء عن هذا القسم من تاريخ الأدب إلا بعد استخراج ما في أرض اليمن من الألواح التي تدعى بالمسند الحميري، وما في خرائب مدائن صالح، وأرض الحيرة وسائر

جزيرة العرب من الآثار القديمة العادية التي كان لأصحابها نصيب من الحضارة، وكان لأدبهم تأثير على أدب مصر.

وقد تفرَّغ نخبة من مستشرقي الإفرنج للبحث عن تلك المستندات والآثار القديمة العربية؛ ولعل التشبث بإتمام السكة الحديدية الحجازية يسهل لهم هذا البحث، فممن عرفت من أولئك المستشرقين إيدوارد غلازر من الألمانيين، وكان أطلعني ونحن في الأستانة على ما اكتشفه من المسند الحميري وجاء به من أرض اليمن، والمسند لوح من الحجر عليه كتابة بأحرف مقطعة قائمة الزوايا وبعضها مدور كالدائرة، وحدثني هذا المستشرق الفاضل عن رحلته في جزيرة العرب، وهو يتكلم العربية بلهجة يمانية بدوية.

وفي سنة ١٨٩٥ نُشر في ميونيخ كتابًا بالألمانية عن مأرب، وحمير، والحبشة، ثم نشر كتابًا آخر في برلين وقدمه لمؤتمر المستشرقين الحادي عشر المنعقد في باريس سنة ١٨٩٧، ولما أتيت هذه المدينة حضرت الأستاذ هارتويغ ديرنبورغ في الصوربون، وهو يلقي دروسه في اللغة الحميرية، ويفسر المسندات ويترجمها للفرنساوية، وله رسالة ترجم فيها ما في متحف اللوفر من آثار حمير وسبأ، ومن المشتغلين باللسان الحميري هاليفي الفرنساوي مدرس اللغة الحبشية في الصوربون، وله مقالات في المجلة السامية بحث فيها عن اتفاق الحبشة مع أهل سبأ على أهل حمير النازلين في شرقي حضرموت.

وللعلماء اشتغال بهذه اللغة في إنكلترة وإيطاليا أيضًا؛ لاهتمام الأولى بجمع ما يتعلق بالعالم الإسلامي والعربي، ولمناسبةٍ بين الثانية وبين

الحبشة واختلاط تاريخ الحبشة بتاريخ حمير، إلا أن هذا العلم لم يزل في النشأة الأولى محتاجًا للتدقيق، والتمحيص حتى يتيسر للعلماء أن يوضحوا لنا كيف كان اللسان الحميري مع اللسان المضري، فإن ابن خلدون يقول في مقدمته: «ولقد كان اللسان المضري مع اللسان الحميري بمثابة ما هو اليوم اللسان المضري مع لغة العرب لهذا العهد — وهي التي بدون إعراب، فقد منها دلالة الحركات على تعيين الفاعل من المفعول وعوض عنها بالتقديم والتأخير، وبقرائن تدل على خصوصيات المقاصد — وتغيرت عند مضر كثير من موضوعات اللسان الحميري، وتصاريف كلماته. تشهد بذلك الأنقال الموجودة لدينا خلافًا لمن يحمله القصور على أنها لغة واحدة، ويلتمس إجراء اللغة الحميرية على مقايس اللغة المضرية وقوانينها، كما يزعم بعضهم في اشتقاق القيل في اللسان الحميري أنه من القول، وكثير من أشباه هذا وليس ذلك بصحيح، ولغة حمير لغة أخرى مغايرة للغة مضر في الكثير من أوضاعها، وتصاريفها وحركات إعرابها كما هي لغة العرب لعهدنا مع لغة مضر، إلا أن العناية بلسان مضر من أجل الشريعة؛ أي القرآن والسنة حمل ذلك على الاستنباط والاستقراء، ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد واستقرينا أحكامه نعتاض عن الحركات الإعرابية في دلالتها بأمور أخرى موجودة فيه، فتكون لها قوانين تخصها، ولعلها تكون في أواخره على غير المنهاج الأول في لغة مضر.» ا.هـ.

فأخذ ذلك المستشرقون من الإفرنج واعتنى بعضهم بتدوين اللسان العامي واستقراء أحكامه، كما فعل موسيو هوداس الفرنساوي في

لغة الجزائر العربية ونشر فيها كتابًا، ولم يزل يدرسها في مدرسة الألسن الشرقية في باريس، كما تدرس أيضًا في مدرسة المستعمرات وفي المدارس العسكرية بباريس وغيرها، ولهم في ذلك مآرب سياسية لا نخوض فيها، إلا أن تدوين اللغات العامية — بالنظر إلى انتشار العلم وتوسع الحضارة — له محاذير كثيرة وموجب للتفرقة، ونصب الحواجز بين أمم هذا العالم العظيم الممتد من المحيط الغربي إلى بلاد العجم والهند، والعلماء في عصرنا يجتهدون في إزالة الموانع التي استلزمها تباين اللغات بين الأمم ويسعون في إيجاد لغة عامة لعموم بني البشر، وفي جميع أفراد الإنسان على لسان واحد، فكيف يجوز حينئذ تفريق لسان أمة كبيرة إلى ألسنة همجية عامية ووضع لسان مخصوص لكل من الجزائر، وتونس، ومصر، وسوريا، وبغداد، والموصل، والزنجبار، والهنزوان، ثم لمراكش وغيرها من المتكلمين بلسان جزيرة العرب، وتدوين كل واحد من هذه الألسن التي يراد وضعها كما تدون الألسن الجديدة الهمجية مثل لسان حوصه وغيره من لغات أفريقيا.

وإنا نجد اللغة الفرنساوية على ما فيها من التباين بين ما يتكلمه سكان المدن، وما يتكلمه أهل القرى وعدم فهم الباريزي ألسن الباتوا التي يتكلمها القاطنون في جبال البيرينة، وأوفيرنيه، وفي الأيالات الغربية والجنوبية من أراضي فرنسا لم يجوزوا فيها تدوين لغة الأيالة بروفانس، أو بريطانيا مثلًا، ولا سمحوا بإنشاء جريدة فيهما، وانتهى بهم التعصب إلى محو ما كتب بلسان الباسك، وهم سكان جبال البيرينة من جهة المحيط مع أن المتكلمين بها يفتخرون بقِدمهم على

سائر الأمم الأوروبية، فكيف يصوغ إذن تدوين لغة الجزائر وأهلها لا يتعذر عليهم فهم «قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل» لاستعمالهم مواد هذه الكلمات الأصلية من وقوف، وبكاء، وذكر، وحب، ونزول؟ وإذا لم يفهموا ما بعد ذلك فالقصور ناشئ من الجهل بالجغرافية لا بأصل اللغة التي لم يزل لهم بأصولها وموادها ملكة راسخة، فإن سقط اللوى، والدخول، وحومل، وتوضح، والمقراة المذكورة في قول امرئ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضح فالمقراة لم يعفُ رسمها

لما نسجتها من جنوب وشمأَل

هي أماكن معروفة عند أهل الحجاز كما أن مقرة، ومقطع الحديد من الأماكن المعروفة عند أهل الجزائر لشهرتها باستخراج معدن الحديد. فبدلًا من تدوين لغة الجزائر العامية كما دونت لغة حوصه، ومن نشر المؤلفات والمطبوعات فيها والإجبار على تعليمها في المدارس للأطفال؛ لو سعى أهل العلم وأرباب القلم في التقرب من لغة مضر المدونة، وأزالوا منها «العامية» كما أزيلت «الباتوا» من اللغة الفرنساوية، وهذبوها من الجناسات والتشابيه الغامضة، واختاروا فيها السهل من الألفاظ والتراكيب، وأصلحوا إملاءها وكتابة أسماء الأعلام فيها؛ لكان فعلهم على ما نظن أسهل وأنجح من تدوين لسان عامي، بل ألسن همجية وإقامة الحواجز بين المتكلمين بها، مع أن ازدياد وسائط النقل

والمخابرة يستدعي كثرة اختلاط بعضهم ببعض. وعما قريب سيتم مد الخطوط الحديدية، ويصبح السفر من مراكش إلى بغداد والهند، أو إلى الحجاز أسهل مما كان قديمًا بين مصر القاهرة والإسكندرية، فلا يحتاج المسافر إلى استصحاب كتاب (جامع اللغات)؛ ليعلم منه ألسن الجزائر، وتونس، وطرابلس، ومصر، وفلسطين، وسوريا، وبغداد، والحجاز، أما انتشار المطبوعات العربية فهو آخذ بالترقي، ونجد لمطبوعات مصر رواجًا في تونس والجزائر، ولا بد أن تمتد يومًا على عموم سكان القارة الأفريقية.

أما لغة مضر فبدون أن نقف على حقيقة الأدوار التي دارت عليها، ولا على الأطوار التي تقلبت فيها نجدها في العصر السابق للإسلام على جانب من الفصاحة والبلاغة مشتملة على أنواع التشبيه والاستعارة والبديع، وأكثرها حماسية وفيها من التصورات البديعية، والتخيلات الشعرية واللطف والرقة والأدب؛ ما يدلنا على أن اللغة لم تكن إذ ذاك في عهد الطفولية، فإن الفرق بين أشعار المعلقات، وبين أشعار «التروبادور» الفرنساوية عظيم لما في الأخيرة من الخشونة وعدم الرقة، وإذا غازل شاعر الجاهلية فتاة الحي حسبته أديبًا من أدباء باريس ...

ونجد للعرب قبل الإسلام أنواعًا كثيرة من فنون الأدب والشعر منها القصيد، والرجز، والأغاني، ومنها ما يُنشد في الحرب على الدفوف، ومنها ما يُحدى به للعيس أو يُغنى به للرقص وتسكيت الأطفال، ومنها السجع، والترسل، والخطب، والرسائل، وضروب الأمثال والحكم، والحاصل كانت فنون أدبهم أتقن من معيشتهم البدوية، وكان لهم

مؤتمر وأكاديمية للتفاخر باللسن والفصاحة، وكانوا يقيمون لذلك المواسم والأعياد فيجتمعون أولًا في سوق عكاظ، وهو وادٍ بين مكة والطائف فيه ماء وظل وخضرة فيقيمون فيه شهرًا، ويذهبون منه إلى سوق مجنة ثم إلى سوق ذي المجاز وهما بناحية مكة، ثم يذهبون في ذي الحجة إلى البيت الحرام موضع حجهم، فكان أدباؤهم وهم ذوو الرئاسة والمكانة فيهم يتنافسون بالآداب والحكم، ويقفون بهذه الأسواق لإنشاد الشعر وإلقاء الخطب، فإذا اجتمعوا بسوق عكاظ ضربت قبة لأكبر الشعراء في عصره كالنابغة الذبياني الذي سمي أشعر العرب فجلس في القبة، وجاءته الشعراء كما جاءه حسان مثلًا وعرضوا عليه أنفس أشعارهم، وقام الحارث بن حلزة يتبختر بين الجموع بتبختر الجاهلية، ويقول:

آذنتنا ببينها أسماء

رب ناءٍ يمل منه الثواء

بعد عهد لها ببرقة سمرا

ء فأدنى ديارها الخلصاء

حتى يأتي على آخر همزيته فيحكم في مقاله أولو الذوق الصحيح، والطبع السليم، ويميزون فيه بين الغث والسمين، ويقابلونه بغيره من كلام المعلقات. ثم وقف قس بن ساعدة على بعير له أحمر، وقال: «أيها الناس اجتمعوا، وإذا اجتمعتم فاسمعوا، وإذا سمعتم فعوا، وإذا

وعيتم فقولوا، وإذا قلتم فاصدقوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آت»، فيكون الناس قد اجتمعوا حوله فيبدأ لهم في الخطبة بقوله: «أما بعد ... إلخ» كأنه خطيب فرنساوي بل إنكليزي يخطب في هايدبارك.

وكان لكل شاعر مبلِّغ يبلِّغ عنه الجمهور وراوية يروي له الأشعار، فكانت الرواة في أيامهم كالجرائد في يومنا؛ ولذا كانت الأشعار تنتشر وتشتهر في مدة قليلة بين جميع القبائل في جزيرة العرب، وانتهوا في العصر السابق للهجرة إلى المناغاة في كتابة قصائدهم بالذهب، وتعليقها بأركان الكعبة كما فعل أصحاب المعلقات السبع، وهم: (١) امرؤ القيس واسمه جندح بن حجر الكندي، وكان أبوه يملك في جهة الحيرة على بني أسد، ويضرب المثل في شهرة معلقته، فيقال: «أشهر من قفا نبك»، وله غيرها ديوان مشروح ومطبوع ومترجم إلى اللغات الأوروبية، ويقال: إن أحسن ما في شعره وصفه الفرس؛ ولذا ضرب المثل بامرئ القيس إذا ركب، والنابغة إذا رهب، وزهير إذا رغب. وقيل: إن امرءَ القيس توفي سنة ٥٤٠م وكان مغرمًا باللهو، والزهو، والخمر، والنساء وكلامه في المعلقة منادمة ومداعبة، ومدح في شعره تغلب على بكر.

(٢) طرفة بن العبد وديوانه ترجم للفرنساوية في الصوربون، وطبعه الموسيو سليغصون Seligsohn، ومعلقته تبحث في النساء والخمر واللهو وطيب العيش.

(٣) عمرو بن كلثوم و(٤) الحارث بن حلزة اليشكري من قبيلة بكر

بـن وائـل، ولـه ديـوان وفي معلقتـه الهمزيـة، وفي معلقـة عمـرو المذكـور خـبر حـرب البسـوس التـي وقعـت بـين بكـر وتغلـب.

(٥) زهـير بـن أبي سـلمى و(٦) عنـترة بـن شـداد وفي معلقتيهـما ذكـر حـرب داحـس التـي وقعـت بـين عبـس وذبيـان، وقصـة عنـتر الشـهيرة المطبوعـة في بـيروت ومـصر، ترجمهـا سـابقًا للألمانيـة المسـتشرق النمسـاوي همـر Hammer صاحـب تاريـخ الدولـة العثمانيـة، وتاريـخ الأدب العثـماني، وتاريـخ الأدب العـربي. ثـم ترجـم شـيئًا مـن قصـة عنـتر للفرنسـاوية مارسـل ديفيـك Devic معلـم العربيـة في كليـة مـون بيليـه وهـي مـن أقـدم مـدارس الإفرنـج، وكان أطبـاء العـرب واليهـود المسـتعربون يدرسـون فيهـا الطـب.

(٧) لبيـد بـن ربيعـة العامـري القائـل: «ألا كل شيءٍ مـا خـلا اللـه باطـل»، وفي كلامـه كثـير مـن الحكـم، ووصـف في أشـعاره أخـلاق عـرب الباديـة وأطوارهـم وعوائدهـم، ولـه غـير المعلقـة ديـوان أشـعار طبـع منـه الجـزء الأول في فينـا عاصمـة النمسـا الشـيخ يوسـف ضيـاء الديـن باشـا الخالـدي المقـدسي سـنة ١٨٨٠، وجعـل لـه مقدمـة وشرحًـا فنرجـو منـه إتمامـه.

وظهـر مـن فطاحـل الشـعراء غـير مـن ذكـر النابغـة الذبيـاني، وطبـع ديوانـه الأسـتاذ هارتولـغ ديربنـورغ H. Derenbourg سـنة ١٨٦٩ وفسره وحشـاه، ومنهـم حاتـم طـي الشـهير بالسـخاء، وقـد جمـع أشـعاره غضبـان أفنـدي وطبعهـا في لونـدره، وسـماها ديـوان حاتـم طـي، ومنهـم دريـد بـن الصمـة، والشـنفرى الأزدي، والأعـشى الأكـبر، وتأبـط شرًّا وكثـير غيرهـم.

يحـكى عـن حـماد الراويـة أنـه أنشـد بحـضرة الوليـد مـن كلام الجاهليـة مائـة قصيـدة لـكل قافيـة مـن قـوافي الحـروف العربيـة لا تنقـص القصيـدة

عـن عشريـن بيتًـا، وفيهـا مـا يربـو عـلى المائـة بيـت، فمهـما بالـغ الحـاكي لا تنكـر كـثرة مـا قـرض مـن الشـعر عـلى عهـد الجاهليـة، ولهـم غـير الشـعر والرجـز خطـب ورسـائل، وكثـير مـن ضروب الأمثـال التـي نُقلـت عنهـم ودُونـت في المجاميـع.

وسُـمي كلام هـذه الطبقـة مـن الأدبـاء «كلام الجاهليـة» لجهلهـم بمـا جـاء بـه الإسـلام، وإلا فهـم أئمـة في الأدب يقتـدى بهـم؛ ولـذا اتخـذ مـن جـاء بعدهـم كلامهـم منـوالًا نسـجوا عليـه مثلـه، وقالبًـا أفرغـوا فيـه شـبهه مـن الألفـاظ والتراكيـب، ولم يـزل الأدبـاء عـلى ذلـك إلى يومنـا هـذا كـما فعـل أصحـاب «عـكاظ الأدب» المطبـوع في الأسـتانة عقـب الحـرب اليونانيـة الأخـيرة.

وإذا تأملنـا كلام الجاهليـة نجدهـم وصفـوا الطبيعـة أحسـن وصـف، وصوروهـا أكمـل تصويـر بالنسـبة لحالتهـم البدويـة، ولصحاريهـم الرمليـة فميـزوا بـين أنـواع الرمـل، وسـموا كل نـوع باسـم مخصـوص مثـل «الخفـف» وهـو الرمـل المنفـرج، و«العقنقـل» الرمـل المنعقـد الداخـل بعضـه في بعـض، و«البطـن» مـن الأرض، و«الخبـت» مـن الأرض، كل ذلـك مـن أشـكال الأرض المختلفـة كـما قـال امـرؤ القيـس في معلقتـه:

فقمـت بها أمشي تجر وراءنا

عـلى أثرنا أذيال مرط مرجل

فلما أجزنا سـاحة الحي انتحى

بنـا بطن خبت ذي حقاف عقنقل

والمرط نوع من أثوابهم يقال: لو شبه الترجيل حسب «مودة» ذاك الزمان، فوصفوا في هذا النمط جميع ما شاهدوه في الطبيعة، ونطقوا بما شعروا به في قلوبهم ووجدوه في أنفسهم من التأثر الحسي، وإن ذكروا بعيرًا أو فرسًا لم يتركوا شكلًا إلا شرحوه شرحًا مفصلًا. فحيث كانت الفصاحة هي الاقتدار على الإبانة عن المعاني الكامنة في النفوس كانت غاية الأديب منهم إثبات اقتداره على إيراد صور مختلفة للشيء الواحد، وإظهار تعمقه في معرفة اللغة، وحسن تصرفه في استعمال الكلمات المترادفة المتقاربة، وكان لهم نظر جيد في العوالم والكائنات كقول قس في بعض الروايات: «ليل داجٍ وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر وبحار تزخر، وجبال مرساة وأرض مدحاة، وأنهار مجراة إلخ.» ولهم أساليب بديعة في ذكر البرق والسحاب والمطر، وسائر التغيرات الجوية، وكذا في ذكر الرسوم والطلل والمنازل والروض والأشجار ومنابت العشب، إلى غير ذلك مما هو مذكور في كتبهم ومعروف.

ولغزارتهم وتمكنهم من اللغة لم يكونوا يتصنعون لتأليف المحاسن البديعة في الكلام إنما كانت نوابغ الكلم تتفق لهم اتفاقًا، وتطرد في كلامهم اطرادًا بخلاف من أتى بعدهم، فإنهم صنفوا المحاسن البديعة تصنيفًا وتحروا عليها، ومع ذلك فالبليغ من الكلام لم يصدر من أفواه الجاهلية إلا بعد التروي، والتصنع، والتنقيح، والتهذيب وقد تعبوا وكدوا أنفسهم وجاهدوا خواطرهم، وكان زهير يسمي كبير شعره الحوليات المنقحة.

وقال عدي بن الرقاع:

وقصيـدة قد بِت أجمع بيتها

حتى أقوِّم ميلها وسـنادها

نظـر المثقف في كعوب قناته

حتـى يقيم ثقافه منآدها

وقال سويد بن كراع:

أبيـت بأبواب القوافي كأنما

أصـادي بها سربًا من الوحش نزعا

وسـموا زهـيرًا والحطيئـة وأشـباههما عبيـد الشـعر؛ لأنهـم نقحـوه ولم يذهبـوا فيـه مذهـب المطبوعـين، قـال الباقـلاني: «وكانـت العـرب تعلِّـم أولادهـا قـول الشـعر بوضـع غـير معقـول يوضـع عـلى بعـض أوزان الشـعر كأنـه عـلى وزن «قفـا نبـك مـن ذكـرى حبيـب ومنـزل»، ويسـمون ذلـك الوضـع الميـتر واشـتقاقه مـن المـتر، وهـو الجـذب والقطـع، يقـال: مـترت الحبـل بمعنـى قطعتـه أو جذبتـه»، والفرنسـاويون يسـمون العَـروض ميـتر وميتريـك ويقولـون: إنـه مشـتق مـن معنـى القيـاس باليونانيـة، ولـه دروس مخصوصـة، وأسـاتذة في الصوربـون، وألَّـف في العـروض العـربي المسـتشرق

إستانسلاي كوبار معلم العربية في (كلية فرنسا) عدة رسائل، واستنبط فيه قواعد جديدة نال عليها الجائزة وثناء العموم.

وعبر العرب عن قول الشعر ونظمه بالقرض، وعن الشعر بالقريض، ومعنى القرض القطع؛ لأن الشعر مفصل قطعًا قطعًا متساوية في الوزن متحدة في الحرف الأخير من كل قطعة. وكانت عنايتهم في الجاهلية مصروفة للكلام على المنظوم من شعر وسجع؛ لأن تأثيره في النفوس أشد لما يحدثه من النغمة التي تطرب لها الأذن، وتلهو بها عن تمحيص الحق من الباطل في الكلام، وذلك أن الطرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم؛ أي المسبوك تنقسم إلى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى، ثم إلى أصناف الكلام المعدل المسجع، ثم إلى معدل موزون غير مسجع، ثم إلى ما يرسل إرسالًا وتطلب فيه الإصابة والإفادة، وإفهام المعاني على وجه بديع وترتيب لطيف، وهذا القسم الأخير شبيه بالكلام الذي لا يتعمل ولا يتصنع له، بخلاف القصيد من الشعر فإنه يلتزم فيه قافية واحدة إلى آخر الكلام، ويشترط أن يكون كل بيت كلامًا وحده مستقلًا عما قبله وما بعده، وإذا أُفرد كان تامًّا في بابه في مدح، أو غزل، أو رثاء، أو هجاء، أو حماسة، والرجز ضرب من الشعر ولو لم يلتزم فيه أن يكون على قافية واحدة.

والسجع يلتزم في كل كلمتين منه قافية واحدة، ويذمون كل سجع خرج عن اعتدال الأجزاء، والمقفى قد انتصر له في زماننا عبد الحق حامد بك مستشار السفارة العثمانية في لوندره وألف فيه رواية

باللسان التركي على الطرز الجديد. وأما المرسل فهو الذي يرسل فيه الكلام إرسالًا بدون تقييد بقافية أو سجع أو وزن، أو شيءٍ ما بل يطلق إطلاقًا. ويتأتى في هذا القسم من الفصاحة، والبلاغة ما لا يتأتى في السجع ولا في الشعر؛ لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع أو القافية، وكذلك الشعر يضيق نطاق الكلام ويمنع القول من انتهائه ويصده عن تصرفه على قواعده، ومن يلتزم في كلامه السجع أو الوزن أو القافية فهو يلفق بهما ما ينقصه من تطبيق الكلام على المقصود ومقتضى الحال، ويجبره بذلك القدر من التزيين بالأسجاع ورن الصوت بالوزن والنغمة كما يزينه ببقية الصنائع البديعية، ويغفل عما سوى ذلك من بلاغة المعاني، فلما سلك الشعراء في الجاهلية حفظ الألفاظ، وتصنيعها دون ضبط المعاني وترتيبها؛ عرض بهم القرآن الكريم، فقال: وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، قال الباقلاني: «فأخبر أنهم يتبعون القول حيث توجه بهم، واللفظ كيف أطاعهم، والمعاني كيف تتبع ألفاظهم، وذلك خلاف ما وضع عليه الإبانة عن المقاصد بالخطاب.» ولما شرعت دية الجنين جاء بعض العرب إلى النبي — عليه السلام — وكلموه في هذا الشأن، ولفقوا كلامهم بالسجع ليجعلوا فيه قوة الحجة الدافعة، والبرهان القاطع، فقالوا: كيف ندي من لا أكل ولا شرب ولا صاح فاستهل أليس دمه قد بطل؟

فقال: أسجاعة كسجاعة الجاهلية؟ أسجعًا كسجع الكهان؟

نعم إن الشعر إذا تهذب ووفي له بجميع الأسباب لم يقاربه من كلام

الآدميين كلام، ولم يعارضه من خطابهم خطاب، ولكن قلما يفلح الشاعر المجيد إلَّا في بعض الأبيات سيما في الشعر العربي حيث ضُيِّقَ فيه النطاق على الشعراء، وألزموا باتباع القواعد التي تخطاها شعراء الإفرنج، على أن أكثر فحول الأدب في البلاد المتمدنة صارفو عنايتهم في يومنا إلى النثر المرسل دون النظم، كما فعل فيكتور هوجو في آخر عمره، وكما يفعل اليوم أميل زولا وغيره مثل تولستوي أديب الروس.

•••

ثم ظهر الإسلام وجاء القرآن بأفصح لفظ، وأبلغ معنًى على أسلوب جديد يخالف أساليب العرب في النظم والنثر، فلا هو مرسل ولا مسجع، بل تفصيل آيات ينتهي إلى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها، ثم يعاد الكلام في الآية الأخرى من غير التزام حرف يكون سجعًا أو قافية، وسميت آخر الآيات فواصل؛ لأنها ليست أسجاعًا ولا التُزم فيها ما يُلتزم في السجع، ولا هي أيضًا قوافٍ، ووقع اللفظ في القرآن تابعًا للمعنى؛ ولذا فاق كلام الكهان وأهل الرجز والسجع والقصيد وغير ذلك من أنواع بلاغتهم؛ لأن الواحد منهم إن برع في فن من فنون النظم أو النثر قصر فيما دونه، والقرآن أبدع في جميع ضروب الكلام وطرق الإفادة، واشتمل على قصص وأخبار، وشرائع، وأحكام، ووعد، ووعيد، وترهيب، وترغيب، وتنزيه، وتحميد، وحجج على التوحيد وأمثال سائرة ومواعظ زاجرة وأصول إدارية وسياسية، وغير ذلك مما لم يحط بنصفه، بل ولا بربعه أديب من الأدباء، ولا شاعر من الشعراء، وناضل عن الحرية وخفف أذى العبودية، ونددد بالظلمة

وتوعدهم بما تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، فقال في الوعيد: « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ». وبين استبداد المستبدين من الملوك والسلاطين وكيفية إيقاعهم التفرقة بين رعاياهم، ثم إيصال الجور والأذى إليهم فرقة بعد أخرى، كما كانت سياسة فراعنة مصر ونمادرة بابل وقياصرة الرومان والروم وأكاسرة الفرس، فقال في تصوير هذا الاستبداد: « إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ».

قال الباقلاني: «ذكر العلو في الأرض باستضعاف الخلق بذبح الولدان، وسبي النساء وإذا تحكم في هذين الأمرين فما ظنك بما دونهما؛ لأن النفوس لا تطمئن على هذا الظلم، والقلوب لا تقر على هذا الجور، ثم ذكر الفاصلة التي أوغلت في التأكيد وكفت في التظلم، وردت آخر الكلام على أوله، وعطفت عجزه على صدره.

ثم ذكر وعده تخليصهم وجعلهم مستقلين بأمرهم وارثين لأرضهم»، ومما ورد في القرآن الكريم في السياسة والمناسبات الدولية التي كانت بين مملكة فلسطين وعاصمتها، إذ ذاك أورشليم، وبين مملكة سبأ وعاصمتها مأرب، وما كتب به سليمان بن داود — عليهما السلام — إلى بلقيس، وما اشتغلت به من التدبير والمشورة، واستطلاع عواقب الأمور وإرسال الهدية لفك عراقيل السياسة بالوسائط الديبلوماتية إلى

غير ذلك ما نصه، قال: « اذْهَب بِّكِتَابِي هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ».

« قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ»

«قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ»

« قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ»

فلما جاء سليمان قال: أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ» إلى آخر القصة — وترى فيها مجيء أهل سبأ مسلمين إلى أورشليم والاحتفال باستقبالهم، وإرائتهم عز الملك وارتقاء الصنائع، وما أتى به الذي عنده علم من الكتاب من عرش لملكتهم حتى قيل: «أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ». واصطناعهم لها صرحًا يذكرنا قصر الزجاج الذي أنشئ في معرض باريس الأخير، و» قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا». قال: « إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ».

قال الباقلاني؛ وهو القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الأشعري المعروف بابن الباقلاني، وكان ملك الإسلام في بغداد عضد الدولة من آل بويه أرسله سنة ٣٧١هـ سفيرًا إلى قيصر الروم في القسطنطينية، وهو قسطنطين التاسع من سلالة مكدونيا، وكانت السفارة في جواب

رسالة وردت عليه منه — قال: «متى تهيأ للآدمي أن يقول في وصف كتاب سليمان — عليه السلام — بعد ذكر العنوان والتسمية هذه الكلمة الشريفة العالية: «أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ»، والخلوص من ذلك إلى ما صارت إليه بلقيس من التدبير، واشتغلت به من المشورة، ومن تعظيمها أمر المستشار، ومن تعظيمهم أمرها، وطاعتها بتلك الألفاظ البديعة والكلمات العجيبة البليغة، ثم كلامها بعد ذلك لتعلم تمكن قولها: « يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ»، وذكر قولهم: «قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ»، لا تجد في صفتهم أنفسهم أبدع مما وصفهم به وقوله: «الْأَمْرُ إِلَيْكِ»، تعلم براعته بنفسه، وعجيب معناه، وموضع اتفاقه في هذا الكلام، وتمكن الفاصلة وملاءمته لما قبله، وذلك قوله: « فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ»، ثمّ إلى هذا الاقتصار وإلى البيان مع الإيجاز، فإن الكلام قد يفسده الاختصار ويعميه التخفيف منه والإيجاز، وهذا مما يزيده الاختصار بسطًا لتمكنه ووقوعه موقعه، ويتضمن الإيجاز منه تصرفًا يتجاوز محله وموضعه.

وكم جئت إلى كلام مبسوط يضيق عن الأفهام، ووقعت على حديث طويل يقصر عما يراد به من التمام، ثم لو وقع على الأفهام ... فما يجب فيه من شروط الإحكام كله، أو بمعاني القصة وما تقتضي من الإعظام، ثم لو ظفرت بذلك كله رأيته ناقصًا في وجه الحكمة، أو مدخلًا في باب السياسة، أو مصفوفًا في طريق السيادة، أو مشترك العبارات إن كان مستجود المعنى، أو جيد البلاغة مستجلب المعنى، أو مستجلب البلاغة جيد المعنى، أو مستنكر اللفظ وحشي العبارة، أو

مستبهم الجانب مستكره الوضع، وأنت لا تجد في جميع ما تلونا عليك إلا ما إذا بسط أفاد، وإذا اختصر كمل في بابه وجاد، وإذا سرح الحكيم في جوانبه طرف خاطره وبعث العليم في أطرافه عيون مباحثه لم يقع إلَّا على محاسن تتوالى وبدائع تترى، ثم فكر بعد ذلك في آية آية أو كلمة كلمة في قوله: « إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ»، هذه الكلمات الثلاث كل واحدة منها كالنجم في علوه ونوره، وكالياقوت يتلألأ بين شذوره. ثم تأمل تمكن الفاصلة وهي الكلمة الثالثة، وحسن موقعها، وعجيب حكمها، وبارع معناها، وإن شرحت لك ما في كل آية طال عليك الأمر، ولكن بينت بما فسرت وقررت بما فصلت الوجه الذي سلكت فيه، والنحو الذي قصدت، والغرض الذي إليه رميت، والسمت الذي إليه دعوت، ثم فكر بعد ذلك في شيء أدلك عليه، وهو تعادل هذا النظم في الإعجاز في مواقع الآيات القصيرة، والطويلة والمتوسطة، فأجل الرأي في سورة سورة، وآية آية، وفاصلة فاصلة وتدبر الخواتم، والفواتح، والبوادي، والمقاطع، ومواضع الفصل والوصل، ومواضع التنقل والتحول، ثم اقضِ ما أنت قاضٍ وإن طال عليك تأمل الجميع فاقتصر على سورة واحدة أو على بعض سور، ما رأيك في قوله: « إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ»، هذه تشتمل على ست كلمات سناؤها وضياؤها على ما ترى، وسلاستها وماؤها على ما تشاهد، ورونقها على ما تعاين، وفصاحتها على ما تعرف، وهي تشتمل على جملة وتفصيل وتفسير ذكر العلو في الأرض ... إلخ.»

ومن ذلك يعلم اقتدار هذا السفير الكبير في «الانتقاد الأدبي» الذي له المقام الأسمى بين علوم الأدب، وللإفرنج فيه عناية زائدة، وجرائدهم تنشر فيه المقالات الضافية، ولجريدة الطان محرر ماهر في «الانتقاد الأدبي»، وهو «غاستون ديشان»؛ وإذا أمعنا النظر في القرآن الكريم نجده مملوءًا بالمحاسن والبلاغة، ولكننا نتلوه في الغالب تلاوة تعبد بدون نظر في حقائق معانيه وتاريخه، وإلا تأمل قوله: «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» تجد في هاتين الكلمتين من البلاغة والفصاحة ما لم يأت بمثله غابرييل هانوتو على ما هو عليه من الاقتدار في الأدب، والعلم، والسياسة، والحرية الفرنساوية، وما أدراك ما الحرية الفرنساوية؛ هي الحرية التي أنقذت أممًا كثيرة من الظلم والاستبداد، وجل ما أتى به في الخطبة التي خطبها أخيرًا في الجزائر عن سياسة الاستعمار في إفريقية، وعما يجب على الدولة المتمدنة في جانب أهاليها المسلمين قوله: «يجب لهم علينا الأمن، يجب لهم علينا العدل، يجب لهم علينا كذلك التساهل» أي بالدين.

وقد نُشر ملخص هذه الخطبة في جريدة طرابلس الشام في نيسان هذه السنة، فقابل بين تينك الكلمتين، وبين هذه الكلمات الثلاث وحكِّم ضميرك الحر إن كنت من الأحرار، واحكم بعد ذلك بما شئت، لو قرأنا القرآن وفهمناه كما ينبغي لوجدنا فيه مقاومة شديدة للظلم والاستبداد، وميلًا زائدًا للعدل والحرية، ولقد رفع الاستبداد بسببه يومًا، ولكن الأمم الآسيوية والأفريقية أبت الخروج من تحت نير العبودية، أو كما عبر أحد الأفاضل بقوله: «لما ساد عليهم الجهل ولم

يستطيعوا أن يصعدوا إلى القرآن بعقولهم أنزلوه من مكانه الرفيع، ووضعوه مع جهلهم في مستوى واحد.»

•••

وبظهور الإسلام ظهرت طبقة جديدة من الأدباء قيل لهم: أهل الطبقة الإسلامية، وهم الذين كانوا صدر الإسلام وأيام الدولة الأموية التي امتدت إلى سنة ١٢٩هـ، وفي أوائل الدولة العباسية، وسمي المتأخرون منهم شعراء الدولتين الأموية والعباسية، ولخص حسان بن ثابت شاعر النبي الطريقة المثلى في الشعر بقوله:

وإنما الشعر عقل المرء يعرضه

على البرية إن كيسًا وإن حمقا

وإن أحسن بيت أنت قائله

بيت يقال إذا أنشدته صدقا

وفي مقدمة هذه الطبقة عمر بن أبي ربيعة كبير قريش، وكان له في الشعر مقامات عالية وطبقة مرتفعة، وكان كثيرًا ما يعرض شعره على ابن عباس فيقف لاستماعه معجبًا به. ومنهم الحطيئة العبسي المشهور في الهجاء وحُكم عليه بقطع اللسان في خلافة عمر (رضه) ثم عفا عنه. وكان جرير، والفرزدق، والأخطل من أعظم شعراء الدولة الأموية وحصل بينهم محاورات ومهاجاة، وكان لكل منهم فرقة من الناس تفضل شعره وتطرب لقوله وتنتصر لرأيه، وكثيرًا ما كان يفضي بينهم الجدال على تفضيل الشعر إلى القتال، والمشهور بين الأدباء أن

جرير مرجح على الفرزدق في أكثر أنواع الشعر، وعلى الأخطل في جميع أنواعه. وكان الفرزدق والأخطل متفقين على هجاء جرير ومعاداته، واستخرج المستشرق بوشه من مكتبة جامع أيا صوفيا بالأستانة ديوان الفرزدق، وطبعه وحشاه وترجمه للفرنساوية وحرر شيئًا عن عروة بن الورد أيضًا.

وممن عاصر الفرزدق غيلان ذي الرمة الثقفي صاحب مي بنت مقاتل، ومن هذه الطبقة نصيب. وبشار المتوفى سنة ١٦٧هـ وهو القائل: «والأذن تعشق قبل العين أحيانًا»، وكثير غيرهم، ويجمع كلامهم كتاب الأغاني الذي ألفه أبو الفرج الأصفهاني المتوفى سنة ٣٥٦هـ. وكان من نسل مروان الحمار آخر ملوك بني أمية، وكتابه هذا مطبوع في بولاق، ومختصره أي رواياته مطبوع في بيروت. وممن اشتهر بالنثر وكتابة الرسائل عبد الحميد الكاتب، وكان كاتبًا لمروان الحمار فمات منكوبًا حينما انقرضت الدولة الأموية، وجمعت رسائله في كتاب.

فأهل هذه الطبقة وإن نسجوا على منوال شعر الجاهلية، فكلامهم أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهلية في منظومهم، ومنثورهم، وخطبهم، وترسيلهم، ومحاوراتهم للملوك، والسبب في ذلك حصول الانقلاب في الأمة، وتأسس الملك والدولة وتوسع حدود المملكة بالفتوحات، واختلاط الأقوام بعضها ببعض فاتسعت بذلك دائرة العقول، ونهضت طباع أهل الطبقة الإسلامية، وارتقت مَلكاتهم في البلاغة على مَلكات من قبلهم، فكان كلامهم في نظمهم، ونثرهم أحسن ديباجة وأرصف مبنى وأعدل تثقيفًا بما استفاده من انفتاق

الذهـن وتوسـع دائـرة الفكـر، وبمـا سـمعوه مـن الـكلام العـالي الطبقـة في القـرآن والحديـث.

•••

ثـم حصـل انقـلاب كبـير في الأمـة وقامـت الدولـة العباسـية مقـام الدولـة الأمويـة، وترجمـت كتـب العلـم والحكمـة عـن خمـس لغـات أعجميـة، وهـي:

(١) الفارسية والبهلوية.

(٢) الهندية والسنسكرية.

(٣) السريانية.

(٤) العبرانية، وسـمي المترجم عنها بالإسرائيليات.

(٥) اليونانية.

وعكـف أهـل العلـم والفضـل عـلى النظـر في هـذه الكتـب، ونقلـوا للعربيـة شـيئًا قليـلًا مـن أدب اللغـات الأعجميـة، وكان في مقدمـة الناقلـين ابـن المقفـع (١٠٩-١٤٥هـ)، واسـمه عبـد اللـه بـن داذبـه، وأصلـه مـن مجـوس الفـرس، أسـلم ودخـل في خدمـة عيـسى بـن عـلي عـم السـفاح أول الخلفـاء العباسـيين، واشـتهر ابـن المقفـع بالفصاحـة، والبلاغـة حتـى قيـل بأنـه ألَّـف كتابًـا يعـارض فيـه القـرآن كـما فعـل المتنبـي. قـال الباقـلاني: «فليـس يوجـد لـه كتـاب يدعـي مـدعٍ أنـه عـارض فيـه القـرآن، بـل يزعمـون أنـه اشـتغل بذلـك مـدة ثـم مـزق مـا جمـع واسـتحيى لنفسـه مـن إظهـاره ... إلـخ.

ثـم ذكـر لـه الـدرة اليتيمـة، وقـال إنهـما كتابـان أحدهـما يتضمـن حكـمًا منقولـة عـن كتـاب بزرجمهـر في الحكمـة، والآخـر في شيء مـن الديانـات، وقـد تهـوس فيـه بمـا لا يخفـى.» ا.هـ.

عـلى أن الكتـاب المشـهور لابـن المقفـع هـو كتـاب كليلـة ودمنـة المطبـوع في بـيروت، وهـو قصـة أدبيـة فلسـفية سياسـية أول مـن وضعهـا أحـد أدبـاء الهنـد وفلاسـفتها ويدعـى بيدبـا أو بيدبـائي، وحررهـا باللغـة الهنديـة، فترجمـت عنهـا إلى اللغـة البهلويـة عـلى عهـد أنـوشروان، ثـم جـاء ابـن المقفـع وترجمهـا للعربيـة نـثرًا، ثـم ظهـر عـلى عهـد هـارون الرشـيد إبـان بـن عبـد الحميـد مـن شـعراء العـرب، وانتسـب للبرامكـة وغمـر بإنعامهـم ونظـم لهـم كتـاب كليلـة ودمنـة فقـال بعـد المقدمـة:

هذا كتاب أدب ومحنه

وهـو الذي يدعى كليلة ودمنه

فيه احتيالات وفيه رشـد

وهـو كتاب وضعته الهند

وكان لـه نظـر جيـد في العلـم والحكمـة، ونظـم قصيـدة فلسـفية في مبـدأ العـالم نُسـبت لأبي العتاهيـة. وكان أبـو نـواس يأنـف مـن مشـاعرته؛ لأن كلامـه كلام فلاسـفة، وحكـماء لا كلام شـاعر أديـب متخصـص بعلـم الأدب، واسـترحم إبـان بـن عبـد الحميـد يومًـا مـن يحيـى بـن خالـد البرمـكي بإدخالـه عـلى الرشـيد، وعـرض أشـعاره عليـه فأشـار عليـه يحيـى بنظـم

قصيدتـه السياسـية التـي قـال فيهـا:

نشـدت بحق الله من كان مسلمًا

أعـم بما قد قلته العجم والعرب

أعم رسـول الله أقرب زلفة

لديه أم ابن العم في رتبة النسـب

وأيهما أولى به وبعهده

ومـن ذا له حق التراث بما وجب

فـإن كان عباس أحق بتلكم

وكان عليٌّ بعد ذاك على سـبب

فأبنـاء عباس هم يرثونه

كـما العم لابن العم في الإرث قد حجب

فلـما سـمعها الرشـيد تهلـل وجهـه بالبـشر، وأنعـم عـلى الشـاعر بعشريـن ألـف درهـم.

ثـم ظهـر سـهل بـن هـارون الكاتـب، وصنـف للمأمـون كتـاب قلـه وعفـره يعـارض بـه كتـاب كليلـة ودمنـة في أبوابـه وأمثالـه، ويزيـد عليـه في حسـن نظمـه، ثـم جـاء ابـن الهباريـة واسـمه الشريـف أبـو يعـلي محمـد بـن محمـد، ونسـبه يتصـل بعبيـد اللـه بـن عبـاس — رضي اللـه عنـه — وكان ابـن الهباريـة مـن شـعراء نظـام الملـك وزيـر ألـب أرسـلان ثـم انتسـب لابنـه ملكشـاه ومدحهـما بقصائـد، ونظـم كليلـة ودمنـة وسـماه «نتائـج

الفطنة في نظم كليلة ودمنة». وله كتاب آخر على هذا الأسلوب سماه «الصادح والباغم» ونظم فيه ألفي بيت، وأشعاره سلسلة سهلة ومنها:

يقول أبو سعيد إذ رآني

عفيفًا منذ عام ما شربت

على يد أي شيخ تبت قل لي

فقلت على يد الإفلاس تبت

توفي سنة ٥٠٤ هجرية.

وتُرجم غير كتاب كليلة ودمنة من لغات الأعاجم أمثال لقمان الحكيم، ولطائف الوزراء ولطائف الملوك، وكثير من النصائح والمشورات السياسية والإدارية، وشيء من كتاب زرادشت وكتاب ماني؛ قال المسعودي في مروج الذهب: «وانتشر بأيدي الناس في ذاك الوقت كتاب أصله من بلاد العجم، واسمه ألف ليلة وليلة غير أن حكاياته لا تشبه حكايات الكتاب المعروف بهذا الاسم المتداول بيننا». واشتهر في الكتابة والإنشاء أيضًا الجاحظ (١٦٥–٢٥٥هـ)، وهو أبو عثمان الكناني الليثي البصري، وله طريقة في الإنشاء يقال لها طريقة الجاحظ، كما أن له مذهبًا في الفلسفة، وقيل لأتباعه: الجاحظية.

وله مؤلفات كثيرة في الأدب منها كتاب البيان والتبيين، وكتاب الأمصار، وكتاب الحيوان وقد اختصر المؤلف هذا الكتاب الأخير، ويوجد نسخة من المختصر في مكتبة أسكوريال بإسبانيا، وهي التي طبع فهرست كتبها المستشرق الأستاذ هارتويغ ديرنبورغ، ويوجد نسخة أصلية من

كتـاب الحيـوان في مكتبـة هامبـورغ، وقـد سـلك مسـلك الجاحـظ وأخـذ طريقتـه، ولم يقـصر عنـه أبـو الفضـل محمـد بـن العميـد (تـوفي ٣٦٠هـ)، وكان مؤدبًـا لعضـد الدولـة، ومـن أعظـم وزراء آل بويـه، ولـه رسـائل كبـيرة وأشـعار، وكتـاب «الخلـق والخلـق» لم ينقحـه. وأثنـى عليـه الباقـلاني فقـال: إنـه يأخـذ في الرسـالة الطويلـة فيسـتوفيها عـلى حـدود مذهـب الجاحـظ، ويكملهـا عـلى شروط صنعتـه ولا يقتـصر عـلى أن يـأتي بالأسـطر مـن نحـو كلامـه؛ كـما تـرى الجاحـظ يفعلـه في كتبـه متـى ذكـر مـن كلامـه سـطرًا أتبعـه مـن كلام النـاس أوراقًـا؛ وإذا ذكـر منـه صفحـة بنـى عليـه مـن قـول غـيره كتابًـا، وكان ابـن عبـاد وزيـر فخـر الدولـة يصحـب أبـا الفضـل بـن العميـد؛ ولـذا قيـل لـه: الصاحـب بـن عبـاد.

وممـن اشـتهر مـن الشـعراء أبـو تمـام حبيـب بـن أوس الطـائي (١٩٠-٢٣١هـ) وهـو ميـال للتصنـع والتكلـف والتعويـص في المعـاني، وأحسـن مـا ألفـه كتـاب الحماسـة، وهـو مختـار مـن كلام الشـعراء المتقدمـين ومطبـوع، ولـه أيضًـا كتـاب فحـول الشـعراء وكتـاب الاختيـارات. ومنهـم أبـو نـواس (تـوفي ١٩٥هـ)، ولـه سـبك جيـد وحـلاوة ورِقـة. ومنهـم ابـن الرومـي وابـن المعتـز وأشـعرهم البحـتري (٢٠٤-٢٨٤هـ)، وفضَّلـه الباقـلاني عـلى جميـع أهـل عـصره لبهجـة كلامـه، وبديـع رونقـه، وديباجـة شـعره، وكـثرة مائـه. وقـال المعـري: أبـو تمـام والمتنبـي مـن الحكـماء، وأمـا الشـاعر فهـو البحـتري، قالـوا: والبحـتري يغـير عـلى أبي تمـام إغـارة ويأخـذ منـه صريحًـا وإشـارة ويسـتأنس بالأخـذ منـه بخـلاف مـا يسـتأنس بالأخـذ مـن غـيره، وقـد طبعـت الموازنـة بينهـما في مطبعـة الجوائـب.

وكان الخلفاء، والرؤساء يشوقون شعراء الطبقة الإسلامية، ويجيزونهم بأعظم الجوائز كما يفعل في يومنا الإفرنج، ولو كان فعلهم مقيدًا بالقواعد والنظامات، فإن الأكاديميات تحكم في كل سنة بتوزيع الجوائز النقدية التي تقرر صرفها نظارة المعارف، أو يتبرع بها أصحاب الخير ومحبو العلم من ذوي الثروة، فهذا الأمر شائع بينهم وله دائمًا ذكر في جرائدهم. وكان للخلفاء معرفة بفنون الأدب وتبصر بجيد الكلام ورديئه ويحفظون أشعارًا كثيرة، ويعانون النظم والنثر لتقوى ملكتهم في اللغة حتى إذا رقوا منابر الخطابة، أو تكلموا في صدور المحافل تمكنوا من استمالة الناس إليهم، وألفوا بين قلوبهم كما يفعل ملوك الإفرنج في زماننا، ولا سيما خطيبهم الشهير إمبراطور ألمانيا، فإنه من أبلغ الخطباء في الملوك. وهكذا كان الخلفاء يستجلبون القلوب ببليغ الكلام لا بحد الحسام. وظهر في ذوي الرياسة فحول من الأدباء مثل ابن الخليفة العباسي المعتز بالله بن المتوكل، واشتهر بابن المعتز (٢٤٧-٢٩٦هـ)، وتولى الخلافة يومًا واحدًا وقتل وهو أفضل شعراء بني هاشم. ومثل أبي فراس الحمداني ابن عم ناصر الدولة، وسيف الدولة من آل حمدان المنتسبين لبني تغلب من قبائل العرب، وامتدت حكومة آل حمدان في حلب والموصل نحو ٦٠ سنة، ومن شعر أبي فراس الحمداني قوله:

نطقت بفضلي وامتدحت عشيرتي

وما أنا مداح وما أنا شاعر

وطبع ديوانه في بيروت وكان المتنبي يفضله على نفسه.

وممن اشتهر في الأدب أبو بكر الخوارزمي، وبديع الزمان الهمذاني وكلاهما من أدباء القرن الرابع للهجرة، ونشرت الجوائب رسائلهما، ونسج الحريري على منوال الهمذاني في تأليف مقاماته المشهورة، ولم تزل تدرس في الصوربون، وقد شرحها شيخ المستشرقين في فرنسا سيلفيستر دوساسي، وينتقد عليها أدباء الإفرنج من جهة قصر المقامات وعدم اعتناء المؤلف في تصوير الحكايات، وتشخيصها على نسق ما ألفه الإفرنج أو اليونان قديمًا، وإنما صرف الحريري عنايته إلى سبك الألفاظ وتصنيعها، وكانت ولادته في البصرة ثم نفي إلى مشان بقرب البصرة (٤٤٦-٥١٥هـ).

ومن المعلوم أن إيراد خلاصة تاريخ أدب اللسان العربي، وذكر المشاهير من الأدباء وتعيين طبقاتهم ليس بالأمر السهل؛ ولذا نكتفي بالإشارة إلى بعض من دون أخبار الشعراء، فمنهم ابن قتيبة المروذي (٢١٣-٢٧٦هـ) صاحب «أدب الكاتب»، وله «ديوان الكتاب» و«طبقات الشعراء» وغير ذلك، ومنهم المبرد الأزدي (٢١٠-٢٨٦هـ)، وله كتاب الكامل، والمقتضب، والروضة، ومنهم ابن المنجم (٢٤١-٣٠٠هـ)، وكان أبوه من كُتاب المأمون ومن نسل يزدجرد آخر ملوك فارس فألف هو في تاريخ الأدب كتاب الباهر، أو البارع في أخبار الشعراء. ثم جاء أبو منصور الثعالبي (٣٥٠-٤٢٩هـ)، وهو عربي النسب نيسابوري المولد، وكان يحترف بعمل فِراء الثعالب، فوضع للكتاب المذكور ذيلًا في ٤ مجلدات سماه «يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر»، وجمع فيه أخبار شعراء زمانه، ونوادرهم، وأشعارهم، ثم جاء أبو الحسن علي الباخرزي نسبة لباخرز ناحية بالقرب من نيسابور بخراسان، وكان من ذوي المراتب العالية وأهل

الديـوان، وتـوفي مقتـولًا سـنة ٤٦٧هـ فحـرر ذيـلًا ليتيمـة الثعالبـي سـماه «دميـة القـصر وعـصرة أهـل العـصر» ومنـه نسـخة في الأسـتانة. وزاد عليـه أبـو الحسـن بـن زيـد البيهقـي — وبيهـق ناحيـة بالقـرب مـن نيسـابور أيضًـا — ذيـلًا سـماه «وشـاح الدميـة» ثـم جـاء عـماد الديـن الكاتـب الأصفهـاني (٥١٩-٥٩٧هـ) وزيـر السـلطان صـلاح الديـن الأيـوبي، وألـف كتـاب «خريـدة القـصر وجريـدة العـصر» ومنـه نسـخة في الأسـتانة وأخـرى في باريـس، وفيـه تراجـم الشـعراء وأشـعارهم مـن سـنة ٥٠٠ إلى سـنة ٥٧٢هـ. وألَّـف أيضًـا كتـاب «السـيل عـلى الذيـل» وجعلـه ذيـلًا لخريـدة القـصر. ثـم جـاء الـوراق وهـو أبـو المعـالي سـعد بـن عـلي الأنصـاري المتـوفى سـنة ٥٦٨هـ، وذيـل مـا تقـدم بكتابـه «زينـة الدهـر وعـصرة أهـل العـصر».

فهـذه المدونـات مـن أهـم الأجـزاء في تاريـخ الأدب العـربي، ويمكـن إتمامهـا باختيـار مـا يـروق مـن مؤلفـات أبي شـامة (٥٩٦-٦٦٥هـ) وأبـوه المقـدسي، نشـأ هـو في مـصر، وكتابـه «كتـاب الروضتـين في أخبـار الدولتـين النوريـة والصلاحيـة» يـدرَّس في الصوربـون وطُبـع في مـصر، ومـن مؤلفـات الكاتـب الدمشـقي (٧٠٠-٧٥٩هـ) وكتابـه مسـالك الأبصـار في الممالـك والأمصـار، لا يقتـصر عـلى التاريـخ والجغرافيـا، بـل فيـه كثـير مـن التراجـم أيضًـا ومجلداتـه نحـو ثلاثـين وقيـل أربعـين، وهـو مرقـم في كتبخانـة أيـا صوفيـا في الأسـتانة مـن عـدد ٣٤١٥ إلى ٣٤٣٩، ومنـه نسـخة في مكتبـة باريـس الأهليـة والهمـم جاريـة في طبعـه.

ولمـا كنـت في الصيـف المـاضي بالأسـتانة شـاهدت في كتبخانـة الكوبريـلي — أحـد المسـتشرقين مـن الإنكليـز — يستنسـخ بآلـة التصويـر الشـمسي كتابًـا

كبير الحجم حسن الخط ليس فيه من التراجم إلا حرف العين، فسألت فإذا هو «إرشاد الألباء في معرفة الأدباء» تأليف ياقوت الحموي الرومي (٥٧٤-٦٢٦هـ) صاحب معجم البلدان، الذي طبعه المستشرق ووستنفلد في ليبزيك سنة ١٨٦٩ في أربعة مجلدات، وطبع حاشية له في مجلد خامس. وللحموي من المؤلفات النافعة: معجم الأدباء، ومعجم الشعراء، وكتاب أخبار المتنبي، وعنوان كتاب الأغاني، ومجموع كلام أبي علي الفارسي ... فإذا كان حرف العين من ذاك السفر الجليل لم يكمل في مجلد ضخم، فما بالك في بقية أجزاء هذا الكتاب، ومما يمكن مراجعته من الكتب في هذا الموضوع: نزهة الألباء في طبقاب الأدباء لمحمد بن شاكر الأنباري ونسخته في الأستانة، وكتاب ريحانة الألباء المطبوع في بولاق، ونفحة الريحانة في طبقات الشعراء للمحبي، ووفيات الأعيان لابن خلكان، وفوات الوفيات للكتبي، والوافي بالوفيات لصلاح الدين بن بيك الصفدي، وأعيان العصر وأعوان النصر له أيضًا، ثم تاريخ المحبي في أعيان القرن الحادي عشر، والمرادي في أعيان القرن الثاني عشر، وهكذا ينتهي الباحث إلى العصر الذي نحن فيه فيجد شيئًا من آثار المعاصرين في الجزء الأول من عكاظ الأدب المطبوع في الأستانة عقب الحرب مع اليونان.

وقد استعار صاحب عكاظ، وهو أبو النصر السلاوي باشا لكل واحد من شعراء العصر لقبًا من ألقاب المتقدمين، وسمى به أصحاب معلقات هذا القرن الرابع عشر للهجرة، فامرؤ القيس الثاني لنقيب الأشراف السيد توفيق أفندي البكري، وأبي العلاء الثاني للأستاذ عبد الجليل أفندي براده المدني، ونابغة العراق لجميل أفندي الزهاوي،

ونابغة مصر لأحمد بك شوقي، وزهير البلاغة لمحمد ولي الدين بك يكن، وصاحب المعجز لأحمد محرم أفندي، وحسان الموصل لشاعر العراق عبد الباقي أفندي العمري، وشيخ الأدباء لأحمد عزت باشا الفاروقي الموصلي، ولبيد العصر للفيلسوف يوسف ضياء الدين باشا الخالدي، ودريد الحكم لحسن حسني باشا الطويراني، وأبو الثناء للشيخ محمود قبادو التونسي.

وأما اللغويون والنحاة فأحسن جامع لأخبارهم ما ألفه جلال الدين السيوطي، المتوفى سنة ٩١١هـ، وسماه «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة»، ورأيت نسخة منه في مكتبة يكي جامع، وهي عند الجسر في الأستانة العلية، وطبع في مصر وسوريا وأوروبا كثير من مؤلفات الأصمعي وأبي زيد الأنصاري البصري، وأبي عبيدة النحوي، وابن السكيت وغيرهم من اللغويين الأفاضل.

•••

لما حدث الانقلاب الكبير في انتقال الخلافة الإسلامية من الأمويين إلى العباسيين، وترجمت كتب العلم والحكمة إلى لسان العرب قرأ أدباء المسلمين كتاب المنطق لأرسطو، ورأوا فيه ذكر أوميروس الشاعر والثناء عليه فلم يحفلوا بشعره، ولا بشعر أحد من الأعاجم، ولا التفتوا إلى أساطير اليونان ولا لما وضعوه من الروايات الشخصية، ولا قدَّروا حرية فكرهم ولا ذوقهم في الكلام حق قدره؛ لاشتغالهم عن ذلك بما لديهم من فنون الشعر، وأنواع الخطب، والرسائل، والدواوين، والمعلقات سيما ما أدهشهم من كلام الحديث والقرآن فترجموا كتب المنطق،

والنجـوم، والطبيعيـات، والطـب، والهندسـة، ولكنهـم لم يترجمـوا لأديـب مـن أدبـاء اليونـان، ولا أدبـاء الرومـان لا قصيـدة ولا خطبـة ولا روايـة ولا حكايـة مـن حكايـات أسـاطيرهم. ولعلهـم خافـوا عـلى النـاس مـن الرجـوع إلى عبـادة الأوثـان إن بحثـوا لهـم في آلهـة اليونـان، ومـع ذلـك فترجمـة كتـب العلـم، والحكمـة إلى لسـان العـرب ظهـر لهـا تأثـير في توسـيع أفـكار الشـعراء الإسـلاميين، وظهـر فيهـم طبقـة جديـدة هـي طبقـة المتنبـي، والمعـري في الـشرق، وابـن هـاني في إشـبيلية وهـو المسـمى بمتنبـي الغـرب، فحيـث كان لأهـل هـذه الطبقـة نظـر في كتـب العلـم والحكمـة، فكلامهـم أبلـغ معنًـى وأكـثر فوائـد لاشـتماله عـلى آراء فلسـفية، وسياسـية ومباحـث عقليـة، وعلميـة غـير أنهـم خرجـوا عـن أسـاليب الشـعر القديـم ووضعـوا مـن عندهـم أسـاليب مخصوصـة، فقـام عليهـم المتعصبـون لأسـاليب العـرب الأقدمـين وسـلقوهم بألسـنة حـداد، وشـددوا عليهـم النكـير كـما فعـل أصحـاب طريقـة كلاسـيك مـع فيكتـور هوجـو حينـما شـهر طريقـة «رومانتيـك».

فالمتمسـكون بالأسـاليب القديمـة مـن أدبـاء العـرب يقولـون: إن نظـم المتنبـي والمعـري ليـس مـن الشـعر في شيء؛ لأنهـما لم يجريـا عـلى أسـاليب العـرب المخصوصـة، إذ ليـس كل كلام منظـوم عنـد العـرب يسـمى شـعرًا، بـل الشـعر هـو «الـكلام البليـغ والمبنـي عـلى الاسـتعارة والأوصـاف والمفصـل بأجـزاء متفقـة في الـوزن والـروي، ومسـتقل كل جـزء منهـا في غرضـه ومقصـده عـما قبلـه وبعـده، الجـاري عـلى أسـاليب العـرب المخصوصـة»، فـلا بـد أن تجتمـع هـذه القيـود في الـكلام المنظـوم حتـى يسـمى شـعرًا، فـما خـلا عـن الاسـتعارة، والأوصـاف مثـل منظومـات المتـون العلميـة

المدرسية، والأرجوزات الأخلاقية، وقول العامي: «أغلق الباب وائتني بالطعام»، أو ما خلا عن تساوي الأوزان واتحاد الروي كقولهم: «رب أخ كنت به مغتبطًا أشد كفي يغري صحبته تمسكًا مني بالود، ولا أحسبه بغير العهد ولا يحول عنه أبدًا فخاب فيه أملي ...» لأن الوزن لم تتساوَ أجزاؤه في الطول، والقصر، والسواكن، والحركات، أو لم يجر على أساليب العرب المعروفة فهو حينئذ لا يكون شعرًا، وإنما هو كلام منظوم. أما الأسلوب في عرفهم فهو القالب الذي يفرغ فيه الشعر، أو المنوال الذي ينسج عليه، وذلك أنهم يقولون: إذا أراد الطالب قرض الشعر ينبغي له أن يكثر من مطالعة أشعار العرب الأقدمين، وأن يحفظها ويرتاض فيها حتى تصير له ملكة في كلامهم فحينئذ يحصل في ذهنه قالب كلي من التراكيب التي رآها في كل شعر من أشعارهم، وهذا القالب الكلي ينطبق على جميع تلك التراكيب، فسؤال الطلول قالب كلي يكون بخطاب الطلول كقوله: «يا دار مية بالعلياء فالسند»، ويكون باستدعاء الصحب للوقوف والسؤال كقوله: «قفا نسأل الدار التي خف أهلها»، أو باستبكاء الصحب على الطلل كقوله: «قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل»، أو بالاستفهام عن الجواب لمخاطب غير معين كقوله: «ألم تسأل فتخبرك الرسوم»، وكذا تحية الطلول قالب كلي يكون بالأمر لمخاطب غير معين بتحيتها كقوله: «حي الديار بجانب الغزل»، أو بالدعاء لها بالسقيا كقوله:

أسقى طلولهم أجس هذيم

وغدت عليهم نضرة ونعيم

أو بسـؤاله السقيا لها من البرق كقوله:

يـا برق طالع منزلًا بالأبرق

واحد السـحاب لها حداء الأنيق

وكـذا التفجع في الجزع قالب كلي يكون باسـتدعاء البكاء كقوله:

كـذا فليجل الخطب وليقذع الأمر

وليـس لعين لم يفض ماؤها عذر

أو باسـتعظام الحادث كقوله:

أرأيـت من حملوا على الأعواد

أو بالتسـجيل على الأكوان بالمصيبة لفقده كقوله:

منابت العشـب لا حامٍ ولا راعٍ

مـضى الردى بطويل الرمح والباع

أو بالإنـكار على من لم يتفجـع له من الجمادات كقول الخارجية:

أيا شـجر الخابور مالك مورقًا

كأنـك لم تجزع على ابن طريف

أو بتهنئة فريقه بالراحة من ثقل وطأته كقوله:

ألقى الرماح ربيعة بن نزار

أودى الردى بفريقك المغوار

وأمثال ذلك ... فمن أراد قرض الشعر كان هو كالبناء، أو النساج والصورة الذهنية المنطبقة في ذهنه كالقالب الذي يُبنى فيه، أو المنوال الذي يُنسج عليه، فإن خرج عن القالب في بنائه أو عن المنوال في نسجه كان فاسدًا؛ ولذا رأى أهل الذوق في قول الشاعر:

لم أدرِ حين وقفت بالأطلال

ما الفرق بين قديمها والبالي

كلام فقيه لقوله: ما الفرق بين قديمها؛ لأن هذا من تعبيرات الفقهاء واصطلاحاتهم لا من تعبيرات الأدباء مع ما فيه من الوقوف بالأطلال. فلم يستحسن أهل الذوق هذا البيت، ولا وجدوا فيه رقة، ولا بهجة، ولا ماءً؛ ولذا لم يستحسنوا في الأدب كلام الفقهاء ولا الفلاسفة مع ما في كلامهم من المنطق والحكمة؛ لخلوه عن هذا النور الذي يتلألأ في كلام الأدباء، ويخرج من نفس الأديب ومن قلبه وروحه، وأما كلام الفقيه، أو الفيلسوف فيخرج من عقله ومحاكمته ومقاييسته، فهو وإن كان برهانه قاطعًا؛ إلا أن تأثيره على النفوس أقل من تأثير كلام الأديب. ومن كثرة حفظهم لأشعار المتقدمين رسخت لهم ملكة في كلامهم حتى كاد ذوقهم يمج الأسماء التي لم ترد في أشعار الجاهلية. روي أن جرير أنشد بعض خلفاء بني أمية قصيدته:

بـان الخليط برامتين فودعوا

أو كلـما جدوا لبين تجزع

كيـف العزاء ولم أجد مذ بنتم

قلبًـا يقر ولا شرابًا ينفع

قال: وكان الخليفة يزحف من حسـن هذا الشـعر حتى بلغ قوله:

وتقـول بوزع قد دببت على العصا

هـلا هزيت بغيرنا يا بوزع

فقـال الخليفـة: أفسـدت شـعرك بهـذا الاسـم؛ لأن سـمع الأديـب لم يألـف اسـم بـوزع كـما ألـف هنـد ومـي أو فاطـم، التـي مـشى بهـا امـرؤ القيـس حتـى أجـاز سـاحة الحـي وهـي تجـر أذيـال المـرط المـوشى بالذهـب، ولا مشـية فيكتـور هوجـو بمعشـوقته جوليـت في مراقـص باريـس ومراسـحها. ولم يـزل الأدبـاء يبنـون كلامهـم في ذاك القالـب، وينسـجونه عـلى ذاك المنـوال حتـى يومنـا هـذا كـما فعـل أصحـاب المعلقـات السـبع التـي نشرهـا صاحـب عـكاظ، وكلماتهـم السـبع التـي خصـت بكرامـة التعليـق هـي: كلمـة نقيـب الأشراف السـيد توفيـق أفنـدي البكـري ومطلعهـا:

أما ويمين الله حلفة مقسـم

لقد قمت بالإسـلام عن كل مسلم

وكلمـة عبد الجليل أفندي برادة المدني:

كـذا فليكن ما يحرز المجد والفخر

كـذا فليكن ما يجمع الفتح والنصر

وكلمـة جميل أفندي الزهاوي البغدادي:

هـو الفتح ألقى في قلوب العدى هولًا

وأثبـت أن الحق يعلو ولا يعلى

وكلمة أحمد شـوقي بك المصري:

بسـيفك يعلو الحق والحق أغلب

وينـصر دين الله أيان تضرب

وكلمـة محمد ولي الدين بك يكن المصري:

أبـت ضيمها في الناس كيف أضيمها

حياة تسـاوى بؤسها ونعيمها

وكلمـة أحمد محرم أفندي المصري:

منازل سـلمى لا عدتك الغمائم

ولا درسـت بالجزع منك المعالم

وكلمة أبي النصر السـلاوي باشا المصري:

على مثلهـا فلتحمد الهمم الغر

فـما هي إلا الحرب أعقبها النصر

فالمتنبـي والمعـري خرجـا عـن هـذا القالـب، وذاك المنـوال الـذي وضعـه شـعراء الجاهليـة، وجعـل كل منهـما لـه مذهبًـا مخصوصًا في الأدب وأسـاليب معروفـة في الشـعر؛ ولـذا قـال ابـن خلـدون: «وكان الكثـير ممـن لقينـاه مـن شـيوخنا في هـذه الصناعـة الأدبيـة يـرون أن نظـم المتنبـي والمعـري ليـس هـو مـن الشـعر في شيء؛ لأنهـما لم يجريـا عـلى أسـاليب العـرب.»

وبعد أن كان حسـان يقول:

وإن أحسـن بيت أنت قائله

بيتٌ يقال إذا أنشـدته صدقا

وعمـر بـن الخطـاب — رضي اللـه عنـه — يقـول: كان زهـير لا يمـدح الرجـل إلا بمـا فيـه — صـار أهـل هـذه الطبقـة مـن الشـعراء المسـتنيرين بنـور

ما ترجم من كتب العالم يمدحون بأشعارهم أمراء العجم، الذين لا يفقهون دقائق البلاغة العربية طالبين معروفهم فقط لا سوى ذلك من الأغراض كما فعله حبيب، والبحتري، والمتنبي، وابن هاني ومن بعدهم، فإن حبيبًا الملقب بأبي تمام ولد في قرية بجوار دمشق، ونشأ في مصر، وطاف الشام، والعراق، وخراسان ومدح الخلفاء والملوك والأمراء بقصائد كثيرة. والبحتري ولد في قرية بجوار حلب ثم ذهب لبغداد، ومدح الخليفة المتوكل، ثم طاف بلاد الشام ومدح الأمراء، واجتمع في حمص على أبي تمام. والمتنبي ولد في الكوفة وأبوه سقاءٌ من قبيلة جعف فجاء دمشق ومدح سيف الدولة من آل حمدان، ثم ذهب لمصر ومدح كافور الإخشيدي الخصي الأسود، ثم ذهب لبغداد، وخراسان ومدح عضد الدولة من آل بويه وغيرهم، وهو ممن حاول أن يأتي بمثل القرآن كابن المقفع، ولكنهما عجزا وأبطلا ما كتباه؛ ولذا هجا بعضهم المتنبي، فقال:

أي فضل لشاعر يطلب الفضـ

ـل من الناس بكرة وعشيا

عاش حينًا يبيع في الكوفة الما

ء وحينًا يبيع ماء المحيا

وكذا ابن هاني — متنبي الغرب — ولد في إشبيلية، وطاف بلاد أفريقية، ومدح أمراء البربر وهو القائل في المعز لدين الله:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار

فاحكم فأنت الواحد القهار

فصار عرض الشعر في الغالب إنما هو الكذب والاستجداء لذهاب المنافع، التي كانت فيه للأولين، وصار يقال: أحسن الشعر أكذبه. وقلد شعراء العرب العجم في مبالغاتهم وغلقهم للأمراء دفعًا للشر واستجلابًا للإحسان والخير، واستبد الرؤساء بالأمر وقويت فيهم الشوكة والسلطة، فلم يبقَ بهم لاستعمال فن الخطابة، وطلاقة اللسان لاجتذاب قلوب الأمة إليهم، بل رأوا من المصلحة الذاتية قهرهم بالقوة، وإرهابهم بحد السيف فاستخفوا بالأمة، وبالرأي العام.

وتمثلوا بقول أبي تمام:

السيف أصدق إنباء من الكتب

وبقول عمارة اليمني السياسي:

وشفرة السيف تستغني عن القلم

وفعلوا بالأمة ما قاله لها الحجاج سابقًا: لأعصبنكم عصب السلمة، وألحونكم لحو العصا، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل يا أهل العراق، يا أهل الشقاق والنفاق، ومساوئ الأخلاق، إني والله سمعت لكم تكبيرًا ليس بالتكبير الذي يراد به الله في الترغيب، ولكنه التكبير الذي يراد به الترهيب، يا عبيد العصا، وأشباه الإماء إنما مثلي ومثلكم ما قاله ابن براقة الهمداني:

وكنـت إذا قوم غزوني غزوتهم

فهـل أنا في ذا يا أهل همدان ظالم

متـى تجمع القلب الذكي وصارمًا

وأنفًـا حميًّا تجتنبك المظالم

وقـال المعتضـد عنـد وفاتـه في سـنة ٢٨٩هـ، وهـو سـادس عـشر الخلفـاء العباسـية، ولعلـه نـدم عـلى هـذا الاسـتبداد:

ولا تأمنـن الدهر إني أمنته

فلـم يُبقِ لي خلًّا ولم يرعَ لي حقًّا

قتلـت صناديد الرجال ولم أدع

عـدوًّا ولم أمهل على طغيه خلقا

وأخليـت دار الملك من كل نازعٍ

فشردتهـم غربًا ومزقتهم شرقا

فلـما بلغت النجم عزًّا ورفعةً

وصـارت رقاب الخلق أجمع لي رقا

رماني الردى سـهمًا فأخمد جمرتي

فهـا أنا ذا في حفرتي عاجلًا ألقى

ولكـن الرؤسـاء مـن الأعاجـم فعلـوا فعـلًا بـلا قـول لعجمـة لسـانهم، وأصبح تعاطي الشعر هجنة في الرئاسة، ومذمة لأهل المناصب الكبيرة، وقدموا الجهلاء على الشعراء ودعوهم بالظرفاء، وأهملت فنون الأدب وبلغ التفريط في جانب الفصاحة اللسانية إلى درجة كاد فيها الرؤساء لا يفوهون بكلمة في المجالس، ويعتبرون السكوت عين الأدب؛ وإذا اجتمعوا في حفلة اكتفوا بسماع الدعاء المأثور، وكثيرًا ما يتلوه أجهل المجتمعين ويكون قد حفظ الدعاء من الصغر بالسماع.

شاهدت أحد الولاة انخدع بمن يتلو الدعاء المأثور؛ وظنه من العلماء لطول لحيته وكبر عمته فأراد تعيينه في منصب فقيل له أميٌّ، فلم يصدق، ودعاه ليلة وطلب منه أن يقرأ عليه ما كتبته جريدة الجوائب إذ ذاك، فلما أمسك الجريدة بالعكس فهم الوالي وتلاهى عنه ولم يعينه.

ولقد دقق في هذا المبحث عبد الرحيم أفندي أحمد مبعوث مصر في مؤتمر المستشرقين الحادي عشر المنعقد في باريس سنة ١٨٩٧، ووجد نسبة تامة بين الحرية، وبين ارتقاء لسان العرب، فكلما اتسع نطاق الحرية في الدولة اتسع معه نطاق الأدب في العربية، وزادت فصاحة هذا اللسان وبلاغته، وكلما زاد الاستبداد تقيدت عقول الأدباء بالسلاسل، وصاروا ينطقون بما يوافق الزمان والمشرب، لا بما يشعرون به ويعلمونه ويرونه.

قال مبعوث مصر المشار إليه: ولقد لاحظت في المتكلمين بلسان العرب أن الحرية إذا فقدت منهم كثر في كلامهم تكرار (اللازمة)، مثل نعم،

فاهـم، هكـذا أحلـم يـا سـيدي، الخلاصـة، النتيجـة ... وأمثـال ذلـك مـن الكلـمات التـي يرددهـا المتكلـم، هـذا في المخاطبـات بـين اثنـين. وأمـا في الاجتماعـات العموميـة كالأفـراح، والعـزاء، واسـتقبال الـولاة والقضـاة، فإمـا أن ينقـضي الاجتـماع بالسـكوت والهمـس، أو بتـلاوة الدعـاء المأثـور. وإن جعـل لـلأدب حرمـة فيتـلى في ذاك الاجتـماع قصيـدة مـدح أو تبريـك أو عـزاء، وينفـض الجمـع بغـير أن يفـوه الرئيـس بمـا يقتضيـه الحـال والمقـام، ويصـور بكلامـه حالـة تلـك الهيئـة المجتمعـة.

•••

أمـا أهـل الأندلـس فلـما وجـدوا في جزيرتهـم سـماءً صافيـة وأرضًـا طيبـة، وهـواءً نقيًّـا، وأشـجارًا مزهـرة، وأنهـارًا جاريـة، وجبـالًا راسـية، وسـهولًا واسـعة اتسـعت أفكارهـم واسـتبحر عمرانهـم، وراقـت أشـعارهم ورقـت معانيهـم وتهذبـت فنـون الشـعر ومناحيـه في قطرهـم، وبلـغ التنميـق فيـه الغايـة وكـثر فيهـم الأدبـاء والشـعراء، فوسـعوا دائـرة الأدب ونظمـوا الشـعر في جميـع الأعاريـض المعروفـة عنـد العـرب، وأتـوا بالمطـولات في جميـع مذاهـب الشـعر وأغراضـه مـن نسـيب، ومـدح، ورثـاء، وهجـاء. ثـم لم يكتفـوا بـكل هـذا بـل وجـدوا الزمـان والمـكان يقتـضي لهـما فنـون جديـدة مـن الشـعر ينسـج عـلى منـوال غـير المنـوال الـذي وضعـه عـرب الجاهليـة، ويقـرض في عـروض غـير عروضهـم، فغـيروا أسـلوب الشـعر وعروضـه كـما فعـل فيكتـور هوجـو، وأهـل طبقتـه في تغيـير عـروض الشـعر الفرنسـاوي. واسـتحدث المتأخـرون مـن الأندلسـيين الموشـح، والزجـل، والمربـع، والمخمـس، والمعصـب عـلى أربعـة أجـزاء، والمـزدوج، والـكاري، والملعبـة

والغـزل، وعـروض البلـد، والأصمعيـات، والحـوراني، والمواليـا، والدوبيـت وهـما لأهـل الـشرق وغـير ذلـك مـن التفنـن الـذي لا يدخـل تحـت حـصر، فـأول مـن وضـع الموشـح مقـدم بـن معافـر الضريـري مـن شـعراء الأمـير عبـد اللـه بـن محمـد المـرواني وأخـذ ذلـك عنـه أبـو عبـد اللـه أحمـد بـن عبـد ربـه (٢٤٦-٣٤٨هـ) صاحـب كتـاب العقـد الفريـد.

وقـد انتـشر هـذا الكتـاب انتشـارًا عجيبًـا، ولم أدخـل مكتبـة مـن مكتبـات الأسـتانة إلا وأجـد فيهـا نسـخة أو أكـثر مـن هـذا المؤلَّـف، ثم شـاع اسـتعمال الموشـح في الأندلـس واسـتظرفه النـاس، ونظـم فيـه كثـير مـن الأدبـاء، ونسـج عـلى منوالهـم أدبـاء الـشرق وطبـع كثـير مـن الموشـحات واشـتهر؛ فمنهـا مـا نظمـه الوزيـر أبـو عبـد اللـه بـن الخطيـب شـاعر الأندلـس والمغـرب، وكان معـاصرًا لابـن خلـدون، وكأنـه نـدب حضـارة الأندلـس بمطلـع هـذا الموشـح حيـث قـال:

جـادك الغيث إذا الغيث هما

يا زمان الوصل بالأندلس

لم يكـن وصلك إلا حلما

في الكرى أو خلسـة المختلس

ومن أبدع ما أتوا به في الموشحات قول بعضهم:

كحل الدجى يجري من مقلة الفجر على الصباح

ومعصم النهر في حلل خضر من البطاح

ثم نسج أهل الأمصار على منوال الموشح، ونظموا مثله بلغتهم الحضرية من غير التزام إعراب، وسموا هذا النوع من الموشح بالزجل، وأول من أبدعه أبو بكر بن قرمان، ومع أنه قرطبي الدار كان يتردد كثيرًا إلى إشبيلية مركز الأدباء ومجمع الظرفاء، وهي على نهر الوادي الكبير تشبه حمص القريبة من نهر العاصي؛ ولذا أطلقوا عليها اسم حمص. فكان أبو بكر بن قرمان يركب مع أصحابه في النهر للنزهة، والصيد وتدور بينهم المحاضرات الشعرية والمحاورات الأدبية وهم في الزورق، وقد استخرج صاحب جريدة الأرز من مكتبة في رومة شيئًا من زجل الأندلسيين ونشره في مجلد. وأما الأصمعيات فهي الشعر البدوي، وسميت أصمعيات نسبة للأصمعي راوية العرب (١٢٢-٢١٦هـ)، وهي قصيدة طويلة بلا إعراب بل هي بلغتهم الدارجة، ويبتدأ فيها غالبًا باسم الشاعر وفيها كثير من البلاغة والفوائد التاريخية. والمعصب يجيئون فيه على أربعة أجزاء يخالف آخرها الثلاثة في رويه، ويلتزمون القافية الرابعة في كل بيت إلى آخر القصيدة. والحوراني نسبة لحوران بأرض الشام، ولا نطيل الكلام ببيان هذه الفنون وأقسامها، وفيها من البلاغة والفوائد التاريخية ما لا ينكر، بخلاف ما أحدثوه من الصنائع اللفظية.

وبيـان ذلـك أن أدبـاء العـرب في الجاهليـة والإسـلام صرفـوا عنايتهـم في النظـم والنـثر إلى الألفـاظ لا إلى المعـاني، فالهـدف الـذي كان الأديـب منهـم يـروم إصابتـه هـو التفنـن في طـرق الإفـادة، وبيـان المعنـى الواحـد بأسـاليب مختلفـة مـن الـكلام، وشـبهوا المعنـى بالمـاء والألفـاظ والتراكيـب بالإنـاء؛ فمنـه آنيـة الذهـب والفضـة والصـدف والزجـاج والخـزف، فغـرض الشـاعر منهـم إسـقاء سـامعه المـاء الواحـد الـذي لا يختلـف ولا يتغـير بأجمـل إنـاء يصوغـه لـه حسـب قدرتـه، ولم يكـن غرضـه إسـقاء سـامعه أنـواع الميـاه الخفيفـة المهضمـة مـن منابـع مختلفـة معدنيـة، ولا إسـقاءه أنـواع الخمـور أو المرطبـات والبـزورات بـأي إنـاء كان؛ ولـذا أظهـر الأدبـاء كل مهارتهـم في الألفـاظ وبينـوا اقتدارهـم في معرفـة اللغـة، وحفـظ الأسـماء الكثـيرة والمترادفـات، وإفـادة المعنـى الواحـد بطـرق مختلفـة، فكانـت الألفـاظ طـوع قريحتهـم يتصرفـون بهـا كـما يتـصرف الصائـغ في سـبك الفضـة، فألفـوا في الألفـاظ المهمـل، والمنقـوط، والمشـجر ومـا يقـرأ طـردًا وعكسًـا، ولزمـوا في القـوافي مـا لا يلـزم ونظمـوا الخاليـة وأمثالهـا؛ يـروى عـن أديـب أنـه أجـاب مـن شـتمه بقولـه: الكلـب مـن لا يعـرف للكلـب مائـة اسـم. وحفظـوا أسـماءً كثـيرة للبعـير والناقـة والسـيف، ولـكل مـا اشـتهر بالخسـة والـشرف، وقالـوا: كـثرة الأسـماء تـدل عـلى شرف المسـمى أو خسـته.

ونجـد امـرأ القيـس إذا وصـف الفـرس لم يـدع عضـوًا مـن أعضائـه إلا شرحـه تشريحًـا، وألفـوا كتبًـا كبـيرة مـن الأحـرف المهملـة أو المعجمـة؛ مثـل التفسـير الـذي ألفـه مفتـي الشـام السـابق المرحـوم محمـود أفنـدي حمـزه بالحـروف المهملـة، ولمـا طبـع هـذا التفسـير بدمشـق بعثنـي والـدي بنسـخة منـه إلى المرحـوم مفتـي الخليـل التميمـي، وكان علامـة الديـار المقدسـية، فنظـر

في التفسير طويلًا ثم رده إليَّ وقال: لو لم يقيد قلمه بالأحرف المهملة لأفادنا بأكثر من هذا. وكتاب عنوان الشرف المشتمل على عدة علوم في متن واحد يقرأ بصور مختلفة وهو مطبوع في مصر، وعلى نسقه كتاب آخر مطبوع في الأستانة. ولما قال العماد الكاتب: «سر فلا كبا بك الفرس» أجابه القاضي الفاضل: «دام علاء العماد»، والجملتان مما يقرأ طردًا أو عكسًا. وكان القاضي الفاضل رئيسًا للمراسلات السياسية عند السلطان صلاح الدين الأيوبي، والعماد الكاتب بمعيته رئيسًا لقلم المصالح الشامية، وكتابه الفتح القدسي طُبع في السنين الأخيرة. وقال أبو عبد الله بن بيس من علماء الأندلس، وهو شيخ لسان الدين بن الخطيب المشهور:

أساجعه بالواد بين تبوئي

ثمارًا جنتها حاليات خواضب

دعن ذكر روض زانه سقي شربه

صباح ضحى طي ظباء عصائب

غرام فؤادي قاذف كل ليلة

متى ما نأى وهنا هواه يراقب

فجمع في أول الكلمات حروف الهجاء من الألف إلى الياء على الترتيب.

فأدباء الإفرنج يقولون: نعم، إن الشعر العربي فيه كثير من الصنائع البديعية وله رونق وبهجة، وفيه تهييج للمسامع وهو على أسلوب التوراة، وعلى نسق اللغات السامية، ولكن الكلام الذي فيه تصنُّع

في الألفاظ، وتعمُّل في الشكل الخارجي لا يكون فيه حركة ذهنية ولا تخيل فكري، وما لم يكن فيه ذلك ليس فيه إحساس ولا عظمة مطلقًا، وإذا ارتفع نفس الشاعر أو الكاتب في الكلام الذي فيه تصنع، وتعمل لم يبق على ارتفاعه بل ينقطع حالًا، وينتقل إلى غير ما هو فيه، بخلاف الشعر اليوناني، أو الإفرنجي كرواية إيرناني مثلًا، فإن فيكتور هوجو نظمها على نفس واحد ونسق واحد، وأبدع فيها بما قاله عن لسان شارلكين من الكلام العالي الملوكي، فإذا نطق به المشخص على مرسح التشخيص أخذ بمجامع القلوب، واستمر المشخص يهدر كما يهدر النهر حتى يصل كلامه لأعماق أفئدة السامعين، ويؤثر فيها تأثيرًا عظيمًا.

ومن قاس بنظره بين مقامات الحريري، وبين رواية مضحكة من روايات موليير التشخيصية فهم معنى اعتراضهم وحقيقة انتقادهم على مقامات الحريري والهمذاني وأمثالهما. وينتقدون على المقامات أيضًا من جهة التهتك بالأخلاق، والتغزل بالبنين كالتغزل بالبنات ووضع الحب في غير موضعه الطبيعي مما لم نعهده في كلام أدباء الإفرنج المشهورين، إلا من ندر منهم مثل الأديب الإنكليزي الذي حُكم عليه منذ سنوات في لوندرا، ودافع عن نفسه بمشروعية هذا الحب في أصل الخلقة والطبيعة وبوجوده عند اليونان والرومان.

والحق أن هؤلاء الأفاضل لم يقصدوا بتأليف المقامة تصوير رواية مضحكة على أسلوب الكوميدية، ولا رواية محزنة على نسق التراجيدية، وإنما قصدوا إظهار المقدرة على تصنيف الكلام وتدبيجه بديباج الاستعارات، وإلباسه حلل التشابيه، وترصيعه بلآلئ البديع كقول

الحريري في وصف الخطيب: «يختلب الأسماع بجواهر لفظه، ويجتذب القلوب بزواجر وعظه» من الكلام المدبج المصنع المرصع الذي لو نطق به على مرسح التشخيص لا يفهمه العوام، ويحتاج الخواص إلى النظر في صنائعه وإعمال الفكر في بدائعه، وإلا لو صرف الواحد من أولئك الأفاضل عنايته لتصوير رواية على نسق روايات اليونان أو الرومان أو الإفرنج لسقانا بكأس من الزجاج الشفاف أطيب الخمور وأعلاها طبقة. ولكنه أراد أن يغترف من ماء البحر بإناء صاغه لنا من الذهب الخالص وطلاه بالمينا الثمينة ورصعه فوق ذلك بعروق وأوراق من الجواهر واللآلئ؛ ليخفي لنا الماء بأبهى إناء ويرينا أحسن المصوغ والمجوهر.

وقد يغرق فكر الكاتب الغربي الملتزم للصنائع البديعية في لجج تلك الاستعارات والجناسات، ويحتاج في استخراجه إلى غواص ماهر له ملكة راسخة في اصطلاحاتهم؛ لأن الكاتب منهم لم يكتب للعوام وأهل السوق، وإنما يكتب للخواص من علماء الرجال وأدبائهم ولأصحاب الذوق منهم في الكلام وفي معانيه؛ ولذا فهو يتجنب الكلمات السوقية المبتذلة، وينتقي أعلى طبقات الكلام وأعوصها في اللغة. فالمعري على ما له من جلالة القدر في الأدب لم يسقِنا الحكمة من كأسه إلا وهو يغوص في المباحث اللغوية، ويأتي بالشواهد والأمثال كما يتضح لمن طالع رسالة الغفران، وهي التي شبهها مندوب مصر في مؤتمر المستشرقين الحادي عشر برسالة الجحيم التي ألفها الشاعر دانتي الطلياني. ومن طالع رسالة دانتي أو ترجمتها رآها تسيل على نسق واحد كما يسيل

الماء ليس فيها تصنع في الألفاظ والتراكيب، ولا فيها احتياج إلى تفسير الألفاظ اللغوية، والاستشهاد بالكلام المعترض.

فالأندلسيون أصلحوا كثيرًا من الخلل الموجود في أدب العرب، وجاءوا بالمطولات في فنون كثيرة من الشعر والنثر، وأوجدوا فنونًا مستحدثة، واتبعوا في الكلام شعورهم وإحساسهم القلبي، فطافوا على قرائهم بصحاف من ذهب، وأكواب فيها بعض ما تشتهي الأنفس، ونرى في توصيفهم المناظر الطبيعية، وتصويرهم وجوه الأرض مشابهة بأشعار الإفرنج كوصف حمدونه، وهي من بنات الأندلس الشواعر لوادي آش وهو في أيالة غرناطة قالت:

وقانا لفحة الرمضاء وادٍ

سقاه مضاعف الغيب العميم

حللنا دوحه فحنا علينا

حنوَّ المرضعات على الفطيم

وأرشفنا على ظماء زلالًا

ألذ من المدامة للنديم

تروع حصاه حالية العذارى

فيلمس جانب العقد النظيم

وقال أبو الفدا: لا بل الأبيات لأحمد بن يوسف المنازي، المتوفى سنة ٤٣٧هـ وزير أبي نصر أحمد بن مروان الكردي صاحب ديار بكر وترسل

إلى القسطنطينية، ومر في بعض أسفاره بوادي بزاعا فأعجبه حسنه فقال فيه الأبيات. ووادي بزاعا في ولاية حلب وإليه يُنسب أبو فراس الحمداني وغيره من الشعراء.

ولو طال على الأندلسيين الأمد في الحضارة، وتعاقبت الأدوار على اللغة، وتوالت عليها الانقلابات لأتوا بأحسن مما جاء به فيكتور هوجو وأميل زولا من محصول العقل ومجتنى الفكر البشري، ولكن عاجلهم الانقراض وفاجأهم الاستبداد فأمحلت عقولهم وسدت قرائحهم، وقد اجتمعت في باريس بوفد السلطنة المراكشية، وهو ذاهب لحضور الاحتفال بيوبيل فيكتوريا ملكة الإنكليز، فوجدت رئيس الوفد الذي هو السفير الكبير أميًّا.

ثم إن العارفين باللغات نصوا على أن لأدب اللسان العبراني تأثيرًا على أدب العرب قبل الإسلام وبعده، وذكروا مشابهة وتواردًا في الخواطر بين ما جاء في شعر امرئ القيس الذي يضرب فيه المثل إذا ركب، وبين ما ورد في سفر أيوب من التوراة في وصف الفرس، ونقل بعد الإسلام من العبرانية إلى العربية ما سمي بالإسرائيليات مثل التواريخ، وقصص الأنبياء، ومناقب الصالحين مما هو في التوراة والتلمود، وكان نقلها عن أحبار اليهود الذين أسلموا مثل كعب الأحبار، ووهب بن منبه وأمثالهما — رضي الله عنهم.

وقد رأينا فيما سبق كيف تُرجم عن اللغة الفارسية والهندية كتاب كليلة ودمنة وما شابهه، وكيف نسج الأدباء على منواله واعتنوا بنظمه؛ مما كان له مفعول قوي في الحركة الذهنية والتصورات الأدبية

والاختلاقات الفكرية. ومع ذلك فجميع ما ذكر لم يكن له كبير تأثير على الشعر العربي، ولم يغير شيئًا من أساليبه القديمة، ودامت أساليب شعراء الجاهلية هي الهدف الذي يصوب نحوه كل شاعر بالعربية في قديم الزمان وحديثه.

فيتضح مما تقدم أن العرب لم يأخذوا من الأمم الذين ترجموا كتبهم، إلا العلم والحكمة فقط ولم يحفلوا بشعر اليونان، ولا برواياتهم الشخصية، ولا بشعر اللاتين وخطبهم، ولا ترجموا شيئًا من ذلك، مع أنهم رأوا في كتاب المنطق لأرسطو ثناء طيبًا على أوميروس الشاعر اليوناني، ولكنهم لم يقلدوه ولا اتبعوه ولا نهجوا منهجه في شيء، ولم يكن للكتب المترجمة تأثير على طبقة المتنبي، والمعري وابن هاني، إلا من جهة إفادتهم الآراء الفلسفية لا من جهة إفادتهم أساليب النظم وطرق الكلام.

ومن فحول هذه الطبقة أبو العتاهية، وكان في أيام المهدي، وهارون الرشيد، والمأمون وأكثر في أشعاره من ذم الدنيا لغدرها بأبنائها، ومن تذكير الغافلين بالموت ولم يشوق للآخرة ونعيمها، ومن لطيف شعره:

ألا أننا كلنا بائد

وأي بني آدم خالد

وبدؤهم كان من ربهم

وكلٌّ إلى ربه عائد

فيا عجبًا كيف يعصى الإلـ

ــه أم كيف يجحده الجاحد

وفي كل شيء له آية

تدل على أنه واحد

ومـن فلاسـفة الشـعراء أيضًـا ابـن الشـبل أبـو عـلي حسـين بـن عبـد اللـه البغـدادي، المتـوفى سـنة ٤٧٤هـ، وكان لـه وقـوف عـلى كثـير مـن علـوم الحكمـة والفلسـفة، ولـه ديـوان وقصيـدة فلسـفية يقـول فيهـا:

بربـك أيها الفلك المدار

أقصْد ذا المسـير أم اضطرار

مـدارك قل لنا في أي شيء

ففـي أفهامنا منك انبهار

وفيـك نرى الفضاء وهل فضاءُ

سـوى هذا الفضاء به تدار

وعنـدك ترفع الأرواح أم هل

مع الأجسـاد يدركها البوار

إلخ.

ولابـن سـينا والـرازي أشـعار فلسـفية، وقصيـدة ابـن سـينا في النفـس مشـهورة ومنهـا:

هبطـت إليك من المحل الأرفع

ورقاء ذات تعزز وتمنع

محجوبـة عن كل مقلة عارف

وهي التي سـفرت ولم تتبرقع

وصلـت على كره إليك وربما

كرهـت فراقك وهي ذات تفجع

... إلخ.

ولـه أشـعار بالفارسـية أيضًـا يـرد بهـا عـلى مـن اتهمـه بالكفـر والإلحـاد. ومـن كلام أبي بكـر الـرازي محمـد بـن زكريـا قولـه:

لعمـري ما أدري وقد آذن البلى

بعاجـل ترحال إلى أين ترحالي

وأيـن محل الروح بعد خروجها

من الهيكل المنحل والجسـد البالي

إلى غير ذلك مما أتى على هذا النسـق من كلام أهل هذه الطبقة.

فـإن لم يكـن لفنـون الأدب الأعجميـة كبـير تأثـير عـلى شـعر العـرب ونثرهـم، فهـل لفنـون الأدب العـربي تأثـير عـلى شـعر الإفرنـج؟

بينا أبحث عن جواب هذا السؤال، وإذ رأيت في جريدة طرابلس الشام عدد ٤٦٢ مقالة في الزجل والتوشيح وكتاب العذارى المائسات، الذي استخرجه صاحب جريدة الأرز من سفر قديم العهد مخطوط بالحرف المغربي المثبج عُثر عليه في خزانة كتب بدير القديس أنطونيوس للرهبانية الحلبية في رومة، وقال فيه: فتصفحته فإذا فيه طائفة كثيرة من الشعر الفائق مقطعات ومختارات، خرج بها ناظموها عن أوزان الشعر العربي المعينة، وأجزاء بحوره المفروضة، وأحكام أعاريضها وضروبها المطردة بيد أنهم أجادوا في ذلك منتهى الإجادة، فانتقيت مما عثرت عليه كل نفيس ... خدمة لأهل الأدب وإثباتًا لسبق العرب إليها؛ وبعد أن ذكر صاحب المقالة تعريف الموشح، والزجل وعروض البلد، والمزدوج، والكاري، والملعبة، والغزل وغير ذلك قال:

وقد استحسن شعراء الإفرنج من الإسبان، والألمان، والطليان، والفرنساويين هذه الضروب من فنون الشعر العربي، ونسجوا على منوالها كما يرى ذلك من دواوين شعرائهم، ولا مراء بأن ذلك انتقل إليهم من العرب حيث لم يأنسوا بأنوار هذه المستحدثات، إلا في أواخر القرن الثالث عشر. والمتصفح لكتب العرب والإفرنج يرى شذرات من هاتيك العذارى، ولكن قَل أن يراها مجتمعة في صفحات عديدة أو كتاب واحد مع أنها في درجة عليا من الحسن والجودة، وتطريب السامع.

(انتهى).

فإيضاحًا لمجمل هذا القول رأينا أن نبحث في منشأ الأدب الإفرنجي، وفي دخول العرب بلاد الإفرنج.

•••

كانت فرنسا في قديم الزمان تسمى أرض الغول، وكان يسكنها قبائل الغولوا والسلت (القلت) من البربر المتوحشين، فلما استبحر عمران الرومانيين في رومة وقويت شوكتهم ساقوا العسكر من إيطاليا على سواحل فرنسا الجنوبية، واستولوا على إسبانيا لجياده الهواء والأرض فيها وشكلوا في أطراف مرسيليا، ومصب نهر الرون ولاية سموها بروفانس، ومعناها الأيالة وجعلوا عاصمتها مدينة إكس، وهي في شمالي مرسيليا، وبنوا على الحدود الإسبانية مدينة نربون بالقرب من مستنقع على شاطئ البحر، واتخذوها محطًّا لرحالهم في سفرهم إلى إسبانيا وإلى الحمامات المعدنية التي في جبال البيرينة.

وقبل الميلاد بخمسين سنة تعين يوليوس قيصر واليًا على بروفانس، فوسَّع حدود الولاية وفتح أرض الغول، وألحقها بأملاك الدولة الرومانية فصارت الولاة تُرسل إليها من رومة، ومعهم العسكر والمأمورون؛ فنظموا إدارتها وفتحوا طُرقها، وعمروا فيها القلاع والحصون والمدن، ونشروا فيها شيئًا من حضارتهم ومن لغة عوامهم وهي اللغة اللاتينية الدارجة، وأدخل المبشرون بالمسيحية الدين فيها فصارت اللاتينية لغة الدين والدولة، واستمرت بلاد الغول في أيدي الرومانيين نحو أربعمائة سنة، وحينما انقسمت دولة الرومان إلى شرقية مقرها القسطنطينية، وإلى غربية مقرها رومة وذلك في سنة ٣٩٥م؛ كانت فرنسا في قسمة

الغربيـة ضرورة غـير أن تسـبب الـولاة، وضعـف قوتهـم العسـكرية أبـاح لقبائـل الجرمـان التجـاوز عـلى أرض الغـول والاسـتيطان فيهـا، كـما اسـتوطن مـن قبلهـم قبائـل القـوط، والفانـدال أرض إسـبانيا وسـموا الأندلـس باسـمهم، فقالـوا: فاندالوسـيا، أو أندالوسـيا. ففـي أوائـل القـرن الخامـس للميـلاد نزلـت قبائـل الويـزي قـوط في جنـوب نهـر لـوار المـار في وسـط فرنسـا، والمنصـب في المحيـط بالقـرب مـن مدينـة نانـت، ونزلـت قبائـل البورغونـد في وادي الـرون وجبـال جـورا، ونزلـت قبائـل الفرنـك في شـمالي أرض الغـول؛ أي في بـلاد البلجيـك. ونزلـت الألمـان عـلى ضفـاف الريـن العليـا، واسـتمرت حكومـة الرومانيـين محصـورة وسـط بـلاد الغـول عـلى ضفـاف نهـر السـين، غـير أن القبائـل النازلـة سـالموا الحاكـم الرومـاني وقاتلـوا تحـت قيادتـه قبائـل الهـون الآسـيوية، وكانـت قـد هجمـت عـلى غـربي أوروبـا وخربـت البـلاد وأراقـت الدمـاء، فهزمـوا رئيسـهم أتيـلا سـنة ٤٥٠م أمـام مدينـة شـالون التـي عـلى نهـر مـارن، فلمـت قبائـل الهـون شـعثها وجمعـت جموعهـا وفاضـت عـلى الممالـك الرومانيـة في إيطاليـا كالسـيل الجـارف، واسـتولوا عـلى رومـة سـنة ٤٧٦م وأبـادوا ملكهـا، فتفـردت قيـاصرة الـروم في القسـطنطينية بالحكـم عـلى الرومانيـين، واسـتقلت القبائـل النازلـة في أرض الغـول، وكان أشـجعهم وأقدرهـم قبائـل الفرنـك فاسـتبدوا بالأمـر وطـرد رئيسـهم قلوفيـس الـوالي الرومـاني، وقـام مقامـه في حكومـة الغـول، وتـزوج بمسـيحية مـن البورغونـد فنصرتـه هـو وقومـه، ونـصره الرهبـان عـلى قبائـل البورغونـد، والويـزي قـوط؛ فحكـم عليهـم وأسـس سـنة ٤٨١م الدولـة التـي سـميت باسـم جـده «ميروفـة»، فقيـل لهـا: «ميروفينجيـان» أي آل ميروفـة، وهـي أول دولـة مـن الإفرنـج ودام حكمهـا ثلاثـة قـرون.

وحيث كان ملوك الإفرنج يقسمون المُلك بين أولادهم انقسمت دولة الميروفينجيان إلى أقسام متفرقة، فضعفت قوتها وتضعضعت وأصبحت، أيام دخول العرب إليها، منقسمة إلى أربع ممالك يملكها ملوك من آل ميروفة:

(١) أوستراسيا؛ أي المملكة الشرقية، وهي عبارة عن الألزاس، واللورين وما جاورهما من ضفاف نهر الرين، ولم يكن لملكها من آل ميروفة نفوذ فيها، بل كانت الكلمة فيها لأعيانها وكبيرهم دوق أوستراسيا ومقرهم مدينة مج.

(٢) نوستريا؛ أي المملكة الغربية، وهي على ضفاف السين إلى أورليان جنوبًا وعاصمتها باريس، وكذا أورليان والمالك عليها من سلالة ميروفنجيان أصحاب الملك الشرعي على عموم فرنسا.

(٣) بورغونيا، وهي على ضفاف الرون والسون، وعاصمتها ديجون.

(٤) أكيتانيا، وهي ما بين جبال البيرينة ونهر غارون المنصب في المحيط بعد مروره بطولوز وبوردو، وكانت إذا ذاك تحت حكم الدوق أود الملقب بدوق أكيتانيا، وهو من نسل ميروفه ومقره طولوز، وتسمى الأيالة المحيطة بها لانغيدوق وما في جنوبها سبتيمانيا، كما يسمى القسم الذي على ساحل الأوقيانوس المحيط غسكونيا، وأطلق عليه في كتب العرب أرض غشكونية.

ففي سنة ٦٨٧م تداخل دوق أوستراسيا المسمى ببين دريسنال في شئون مملكة نوستريا لغفلة ملوكها من آل ميروفة، وإهمالهم مصالح المُلك حتى أطلق عليهم اسم الملوك البطالين لقعودهم وتخنثهم، وجعل ببين

نفسه مشيرًا للملك في باريس وأميرًا للأمراء في المملكة على مثال ما حدث في عهد الخلفاء العباسيين، ثم انضمت إليهم بورغونيا فصار لدوق أوستراسيا نفوذ في أكثر المملكة، وهيأ الأمر لابنه شارل مارتل صاحب الوقائع مع العرب، ولحفيده من بعده، فحقد على ببين الأمراء من آل ميروفة لا سيما أود دوق أكيتانيا لتفوقهم عليه في الأصالة وشرف النسب.

وقبل دخول الرومانيين أرض الغول كان لسكانها من قبائل الغولوا، والسلت النازلين أرض بريطانية ألسن مخصوصة همجية، فلما انتشر بينهم عسكر الرومانيين، ومأموروهم ومن تبعهم من التجار والسوقة صاروا يتكلمون لغة عوام اللاتين وسوقتهم؛ أي اللاتينية الدارجة ويلوكون بها ألسنتهم كما يلوك الزنجي لسانه بالعربية أو السنغالي بالفرنساوية، فلما استولت قبائل الفرنك على أرض الغول، وطردوا منها والي الرومان اقتبسوا لسان أهلها، وما لديهم من الحضارة الرومانية وضموا إلى هذه اللاتينية المحرفة كلماتهم الفرانكية البربرية، فظهر من هذا الاختلاط لغة سميت «رومان»، وهي لاتينية سوقية تحرفت بلسان الغولوا، والسلت ثم امتزجت بلسان الفرانك، وحيث كان اللسان والدولة تابعين لقانون واحد في الترقي والانحطاط والانقسام انقسمت لغة رومان بانقسام الدولة إلى قسمين؛ أحدهما كان يتكلم به أهل الجنوب، ويسمى «أوق»، ومنه لسان بروفانسال المنسوب لأيالة بروفانس وهو أقرب للسان الطليان والإسبانيول منه إلى اللسان الفرنساوي الجديد، والثاني كان يتكلم به أهل الشمال ويسمى «أويل»، ثم انقسمت لغة أهل الشمال إلى لهجات متعددة غلبت على الجميع

لهجة جزيرة فرنسا، وهي الأيالة التي عاصمتها باريس، وتعممت في الولايات الشمالية حتى صارت اللغة الفرنساوية الحالية، ثم انتشرت في الأيالات الجنوبية حينما استولى عليها سنة ٩٨٧م هوغ قابت مؤسس الدولة الثالثة من دول الإفرنج في فرنسا.

ولم تزل الحكومة الفرنساوية تسعى في نشرها وتعميمها وإصلاحها إلى يومنا هذا، ومع ما تصرفه من العناية في تعليمها لم يزل في أهل القرى من لا يعرف منها الكلمة الواحدة، ونزلتُ ذات يوم قرية من قرى الفرنساويين في جبال البيرينة، فلم أستطع التفاهم مع أهلها حتى جاءني رجل من القرية المجاورة، وله تردد على الأمصار الفرنساوية ومدنها العامرة.

فالفرنساويون أخذوا لسانهم من قوم ليس لهم به قرابة جنسية، وسموا أنفسهم باسم قبيلة أجنبية من قبائل الجرمان الذين خرجوا من ألمانيا، وتغلبوا على فرنسا، وأسسوا فيها حكومتهم وسموها باسمهم، وتناسوا اسمها القديم وهو أرض الغول واسم سكانها الغولوا.

ولما دخل العرب فرنسا كان أهلها يتكلمون لغات كثيرة همجية غير مدونة؛ إذ كانت القراءة والكتابة باللسان اللاتيني الفصيح في فرنسا، وفي عموم أوروبا الغربية بما فيه إنكلترة. فمن تلك اللغات التي لم تدون حينئذ لغة الباسك، وكان يتكلم بها قبائل الواسكون سكان البلاد في قديم الزمان، ومنهم سميت إكيتانيا بأرض غسكونية، ولم يزل من المتكلمين بلسان الباسك نحو ١٢٠٠٠٠ في فرنسا، ونصف مليون في إسبانيا. ومنها لغة بروفانسال، ولم يزل لها عدة لهجات (باتوا) يتكلم

بهـا أهـل القـرى في الولايـات الجنوبيـة وفي ضواحـي مرسـيليا، ومنهـا لغـة بريتـون وهـي بقيـة لغـة القلـت أو السـلت، ولم يـزل مـن المتكلمـين بهـا نحـو مليـون ونصـف في شـبه جزيـرة بريطانيـا غـربي فرنسـا، ومنهـا لغـة فلامانـد وهـي نـوع مـن الألمانيـة ولم يـزل يتكلـم بهـا نحـو ١٦٥٠٠٠ مـن سـكان الحـدود الشـمالية. وغـير مـا ذكـر مـن اللغـات التـي انقرضـت بـدون أن يبقـى لهـا أثـر في اللغـة الفرنسـاوية كلغـة أكيتانيـا، أو بقـي لهـا أثـر فيـما يسـمونه باتـوا مـن لغـات أهـل القـرى؛ إذ لـكل ناحيـة باتـوا مخصوصة بهـا لا يفهمهـا أهـل الناحيـة الأخـرى بخـلاف اللغـة العربيـة الدارجـة؛ فـإن المرسـيني، والإسـكندروني، والبـيروتي، واليـافي، والإسـكندري، والطرابلـسي، والتونـسي، والجزائـري، والطنجـي يفهـم بعضهـم بعضًـا بـأدنى تأمـل وأقـل فكـر مهـما تحرفـت كلماتهـم، وكـذا أهـل المـدن في داخـل تلـك السـواحل، فـلا يتعـذر عليهـم فهـم لهجـات بعضهـم بعضًـا مـع أنـه لم يحصـل عنايـة ولا همـة في نـشر اللغـة العربيـة وتعليمهـا، بـل الهمـم مصروفـة في تلـك البـلاد العربيـة لنـشر غـير العربيـة مـن اللغـات الأعجميـة كالفرنسـاوية، والإنكليزيـة، والطليانيـة، والتركيـة. فبينـما كانـت فرنسـا متفرقـة الكلمـة لغـة وسياسـة إذ دهـما العـرب واسـتولوا عـلى أكثرهـا.

•••

لمـا جلـس الوليـد بـن عبـد الملـك بـن مـروان (ولـد ٤٨-٩٦هـ) سـادس الخلفـاء الأمويـين والثالـث مـن آل مـروان، كانـت ولايـة إفريقيـة ملحقـة بولايـة مـصر، والعامـل عليهـما عبـد العزيـز بـن مـروان، فلـما أتـاه الحسـن بـن النعـمان بالغنائـم التـي غنمهـا مـن البربـر طمـع فيـه، فشـكاه الحسـن

بـن النعـمان إلى الوليـد، ففسـخ عـن مـصر إفريقيـة وولاهـا مـوسى بـن نصـير، وكانـت مملكـة القـوط في اختـلال مـن اسـتبداد رودريـك بالأمـر، وتغلبـه عـلى طليطلـة عاصمـة الملـك، وظلمـه في قبائـل الغـوط وتسـلطه عـلى أعـراض بناتهـم، فاسـتجار الإسـبانيول بالعدالـة الإسـلامية واغتنـم مـوسى الفرصـة، وكتـب للخليفـة يسـتأذنه في فتـح بـلاد أطيـب هـواءً مـن الشـام، وأخصـب أرضًـا مـن اليمـن، وأعطـر زهـرًا مـن الهنـد. وبعـد اسـتحصاله عـلى إذن الخليفـة سـيَّر طـارق بـن زيـاد بجيـش مـن البربـر، فاجتـاز بحـر الزقـاق عـلى المراكـب مـن أضيـق محـل فيـه، ونـزل بسـاحل أوروبـا عنـد صخـرة هائلـة كأنهـا الجبـل فسـميت باسـمه، وقيـل لهـا: جبـل الطـارق وقيـل لمجمـع البحريـن المكتنفـين بهـا: بوغـاز جبـل الطـارق (جبـل التـار)، وكان ذلـك سـنة ٩٢ للهجـرة، وسـنة ٧١٠م، وألـف عبـد الحـق حامـد مستشـار سـفارة لونـدره روايـة تشـخيصية باللسـان العثـماني سـماها طـارق، وأبـدع في نظمهـا ونثرهـا، وبـين فيهـا هـذا الفتـح المبـين، فانتـصر طـارق في محاربـة وادي ليتـة بالقـرب مـن جزيـرة قـادس، ولحقـه مـوسى بـن نصـير بجيـوش مـن العـرب وأشراف قريـش، وفتحـوا مالقـة وإشـبيلية، وهـي عـلى شـاطئ الـوادي الكبـير، وقرطبـة، وطليطلـة عاصمـة ملـوك القـوط، وهـي عـلى نهـر باجـة المسـمى بنهـر تـاج، وظلـوا سـائرين حتـى بلغـوا أسـفل جبـال البيرينـة الفاصلـة بـين إسـبانيا، وفرنسـا وفتحـوا أسـتورغة، وهـي في أسـفل تلـك الجبـال. وهـذه أول مـرة رأى فيهـا القرشـيون جبـال البيرينـة، وهـم تحـت قيـادة مـوسى بـن نصـير وسـموها «جبـل البرِنـات» بكـسر الـراء؛ هـذا مـن جهـة الغـرب.

وأما من جهة الشرق فسيَّر الحجاج والي العراق جيشًا عقد لواءه لابن عمه محمد بن القاسم الثقفي تجاوز به نهر السند وفتح الهند، وسيَّر جيشًا آخر تحت قيادة قتيبة بن مسلم تجاوز به نهر جيحون من خراسان، وفتح ما وراء النهر وتقدم حتى بلغ كاشغر، وأخذ الجزية من ملك الصين. وأصبح ما بين المشرق والمغرب تابعًا للوليد، وهو منعَّم في قصره لم يخرج في غزوة، واستوثقت له الأمور ولم تتغلل عساكره المنصورة إلا في بلاد الترك، وهي في قيادة الحجاج وفي بلاد الروم، وهي في قيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك. وبلاد الترك هي تركستان وما بين بحر الخزر، وبحر خوارزم (بحيرة أرال) وما في شمالها من أراضي سيبريا، وكانت في حكم خاقان الترك كما هي اليوم في حكم قيصر الروس. وبلاد الروم هي بر الأناضول والروم إيلي، وكانت تابعة لقيصر الروم؛ أي لدولة الرومان الشرقية كما هي اليوم من أجزاء الممالك العثمانية، ومن حسن حظ الوليد توفقه لبناء المسجد الأقصى، ومسجد المدينة، وجامع دمشق، وفي كل بنيان منها دليل شاهد على حضارة ذاك الزمان، وترقي أهله في الصنائع والعمران.

ثم جلس على كرسي الخلافة أخوه سليمان (٥٤–٩٩هـ) ابن عبد الملك بن مروان، وجازى قتيبة بن مسلم فاتح الشرق بما جازى به أخوه الوليد فاتح الغرب، وهو موسى بن نصير. وهكذا كانت الخلفاء تجازي فاتحي الممالك الإسلامية بأشنع مما جوزي به سنمار، فماتوا منكوبين قهرًا لا يملكون شيئًا مما جنته أيديهم من أموال الغنائم. وزادت نكبة موسى بن نصير بقتل ولده عبد العزيز مكافأةً على حسن إدارته في ولاية إشبيلية. وكان موسى متأهبًا للإغارة على الأمم التي

بين جبال البيرينة وخليج القسطنطينية، وإدخالها جميعًا في الإسلام كما دخلت أمم آسيا وأفريقية ولم يكن هذا الأمر على موسى بعزيز لوجود الاختلاف والتفرقة بين أمراء الإفرنج، وعدم النجابة في ملوكهم الملقبين بالبطالين، ولكن سوء تدبير الأمويين صده عن هذا العمل العظيم، ومكن الإفرنج في فرنسا مما لم يتمكن منه القوط في إسبانيا من الائتلاف والاتحاد وصد هجمات العرب.

وبسوء تدبير الخلفاء أيضًا وعدم غرسهم المعروف في أهله، وعدم مكافأتهم المخترعين، والمكتشفين كما كانوا يكافئون الشعراء والمغنيين التحق البعلبكي مخترع النار اليونانية بقيصر الروم، وأسرَّ إليه كيفية عمل هذه النار، فأمر باصطناعها في معامل القسطنطينية برًّا وبحرًا؛ لأن مسلمة بن عبد الملك أخا الخليفة اخترق بعسكر الإسلام بر الأناضول وعبر من مضيق الدردنيل المسمى «بوغاز چنا قلعه»، وطلع لأوروبا واتبع ساحل بحر مرمرة حتى وصل أسوار القسطنطينية، ووضع الحصار عليها كما حاصرها من قبل سفيان بن عوف الأزدي في خلافة معاوية سنة ٤٨هـ واستشهد إذ ذاك ٣٠ ألفًا من أهل الإسلام وفيهم خالد أبو أيوب الأنصاري، ولم يزل ضريحه يُزار في الحي المنسوب إليه على ساحل الخليج المسمى بقرن الذهب، وبينما كانت عساكر مسلمة تحاصر من جهة البر كان أسطول الإسلام المجهز في سواحل سورية ومصر من خشب أحراج لبنان راسيًا في مياه القسطنطينية، فالذي منع العرب من فتح القسطنطينية هي النار اليونانية؛ لأنها أضرت بعسكر المسلمين وأحرقت مراكبهم، وكانت عدتها ألف وثمانماية مركب، والكبار منها عشرون مركبًا أمام عاصمة الروم كأنها ألغاب من الصواري

والكماة فيها كالأسود، فاحترقت بأجمعها ولم يعد منها للإسكندرية سوى خمسة مراكب؛ فالمخترع لهذه النار السيالة — على ما ذكره المؤرخ الإنكليزي جيبون — هو رجل من بعلبك يسمى كالينيقوس كان يصطنعها من النفط، والكبريت، وفحم الصنوبر بطريقة مخصوصة ومقدار معين، فكانت تشتعل في الماء والهواء، وتدمر ما تنصب عليه؛ ولذا سميت أيضًا النار البحرية.

وما زال العسكر في الحرب يعولون عليها ويتقون ضرها إلى أن اكتشف العرب على ما يظن بارود المدافع بإضافتهم إلى مسحوق الفحم والكبريت ملح البارود، ونقله عنهم في القرن الثالث عشر للميلاد روجر باكون الإنكليزي (١٢١٤–١٢٩٤م) وغيره من كيماويي الإفرنج، واشتهر استعمال البارود في المدافع سنة ١٣٤٦ في المحاربة التي وقعت بين فرنسا وإنكلترة في قريسي، وهي في شمال باريس على نهر صوم، فكان ملك الإنكليز إدوارد الثالث يقود العساكر هو وابنه البرنس دوغال، وكانوا مسلحين بالقوس والنشاب ومعهم بعض المدافع التي ظهر استعمالها في ذاك الوقت، فغلب الإنكليز مع قلة عددهم بسبب الانتظام والترتيب العسكري، فهذه أول محاربة في أوروبا استعملت فيها المدافع، ولكن المظنون أن العرب استعملوها قبل هذا التاريخ أي في أواخر القرن الثالث عشر للميلاد في محاصرتهم جزيرة صقلية سنة ٦٧٢هـ؛ وعلى كلٍّ فلا ندري كيف ترك هذا الكيماوي البعلبكي خدمة الخلفاء الأمويين والتحق بقيصر الروم، وفي الدولة الأموية في ذاك العصر من يحرص على الكيمياء، وعلى تفرعات مسائلها مثل خالد وجعفر وجابر، ومن أخذ عنهم.

تـوفي سـليمان بـن عبـد الملـك مرابطًـا في مـرج دابـق مـن أرض قنسريـن وأخـوه مسـلمة منـازل القسـطنطينية، ثـم جلـس عمـر (٦١-١٠١هـ) ابن عبد العزيـز بـن مـروان، وأبقـى ابـن عمـه مسـلمة عـلى حصـار القسـطنطينية، وتجـاوزت عسـاكر الأندلـس إلى وراء جبـال البيرينـة مـن أرض فرنسـا ليحققـوا آمـال مـوسى بـن نصـير في الذهـاب بـرًّا إلى القسـطنطينية. وكانـت مدينـة نربـون تفـوق مرسـيليا في العمـران، وتتصـل في البحـر الشـامي بترعـة طولهـا ثمـاني كيلومـترات، فتدخلهـا المراكـب كـما تدخـل اليـوم حـاضرة تونـس الخـضرا، فحاصرهـا علقمـة بجيـوش المسـلمين مـن الـبر والبحـر، وامتـد الحصـار سـنتين لتحصنهـا بالمسـتنقعات وبالقـلاع الرومانيـة.

ثـم جلـس يزيـد (٧٦-١٠٥) ابـن عبـد الملـك بـن مـروان تاسـع الأمويـين وسـادس المروانيـين، وفي أيامـه دخـل علقمـة بالسـيف إلى نربونـه فرممهـا وزاد في تحصينهـا، واتخذهـا مركـزًا لحركاتـه العسـكرية في فرنسـا وصـار العـرب يسـمونها أربونـة، وافتتحـوا مـا حولهـا مـن القـرى والقصبـات التـي في أرض سـبتمانية، وظلـوا سـائرين حتـى دخلـوا أيالـة لانغيـدوق وألقـوا الحصـار عـلى مدينـة طولـوز (طلوشـه)، وكانـت إذ ذاك مقـر دوق أكيتانيـا المسـمى أود، فخـرج لهـم الـدوق بجيوشـه مـن الويـزي قـوط، والواسـكون، والفرانـك واقتتـلا قتـالًا شـديدًا قُتـل فيـه كثـير مـن الجانبـين، وكان علقمـة يستشـيط غـيرة وحميـة ويكـر بنفسـه ويشـجع الأبطـال بكلامـه، فأصابـه سـهم قـضى بـه نحبـه وافـترق الجمعـان، وكان ذلـك في شـهر مايـس سـنة ٧٢١م وسـنة ١٠٣هـ، فاسـتلم قيـادة الجيـش عبـد الرحمـن وكان مـن ذوي الحميـة والاقتـدار، ومـن أصحـاب عبـد اللـه بـن عمـر، وانقلـب راجعًـا إلى ضواحـي نربـون وإلى مصـب نهـر الـرون.

وفي سنة ١٠٥هـ أو سنة ٧٢٤م توفي يزيد بن عبد الملك حزنًا على حبابة، فجلس على كرسي الخلافة أخوه هشام (٧٠-١٢٥هـ) ابن عبد الملك بن مروان، وعين واليًا على الأندلس عنبسة فأراد الأخذ بثأر سلفه علقمة، وتجاوز بالعساكر جبال البيرينة ونزل أيالة سبتمانية وهي اليوم ولاية البيرينة الشرقية، وولاية أود وما جاورها، وافتتح مدينة قرقسون وسموها «قرقشونة»، وهي في غرب نربون وعلى سكة الحديد الواصلة بين مرسيليا، وطولوز، وبوردو، وتقدم عنبسة بالعسكر فجاءه أهل مدينة نيم، وهي في الشمال الغربي من مرسيليا وطلبوا منه الأمان، فأمنهم ودخل مدينتهم بالصلح وسموها نيمة، وأخذ أبناء أعيانها رهنًا على طاعة آبائهم وحفظهم في برشلون (برشلونة)، وهي على ساحل البحر الشامي في أيالة قطالونيا المشرفة عليها جبال البيرينة، وتقدمت جيوش عنبسة على ضفاف الرون حتى دخلت مملكة برغونية وغزت مدينة أتون سنة ١٠٧هـ، وسنة ٧٢٥م، وفي هذه السنة قُتل عنبسة في إحدى المعارك، وبلغ ما غنمه المسلمون في زمن ولايته ضعف ما غنموه في السنين السابقة من بلاد فرنسا، واستلم قيادة الجيش بعده حديثة ورجع بالعسكر إلى الحدود الإسبانية، فلاقى بها المدد الذي بعث به المرابطون في الأندلس فكر بهم على بلاد الإفرنج، وألقى الرعب في قلوب أهلها، وأوغل في الأرض الشمالية وفي مملكة برغونية.

ويزعم مؤرخو الإفرنج أن العرب أكثروا في هذه الحروب من إراقة الدماء، وهدم البناء، وإحراق الكنائس، والأديرة وتخريبها وإتلاف الأموال وغصبها، ومنهم من يعترف بأن العرب أخف وطأة على

بلادهم من قبائل الهون الآسيوية الذين أتوهم من الشمال الشرقي تحت قيادة أتيلا، ودمروا بلادهم تدميرًا.

ولم يزل الفرنساويون ينسبون إلى العرب تخريب كل خرابة يشاهد أثرها في الأراضي الجنوبية من فرنسا، ويظهر من تواريخ الإفرنج أن العرب بعد فتحهم هذه البلاد قسموها إلى أيالات، وجعلوا الأرض التي على جانبي البيرينة في فرنسا، وإسبانيا من جهة البحر الشامي المتوسط ولاية اسمها سيردانية، وهي اليوم عبارة عن قطالونيا في إسبانيا وعن ولاية البيرينة الشرقية في فرنسا، وكان الوالي عليها قائدًا من البربر مثل طارق بن زياد يسميه الإفرنج مونيزا، فاتفق الدوق أود مع هذا القائد المسلم وزوَّجه بنته وعاهده على عدم الغزو في بلاده، فأصبح في جبال البيرينة حاجزًا أمام غزاة المسلمين، فاغتاظوا من هذا الاتفاق وأظهروا ميلهم لعبد الرحمن الذي كان استلم قيادة الجيش بعد قتل علقمة.

وكان عبد الرحمن من أصحاب عبد الله بن عمر متخلقًا بأخلاق الخلفاء الراشدين، وأكابر الصحابة والتابعين حريصًا على إعلاء كلمة الله، وعلى نشر الدين في جميع أقطار الأرض، فكان يجتهد في تحقيق آمال موسى بن نصير والاستيلاء على أوروبا والوصول منها إلى القسطنطينية، فعينه الخليفة هشام واليًا على الأندلس سنة ١١٢هـ، أو سنة ٧٢٠م فدخل بالعسكر مدينة بويسردا وهي عاصمة ولاية سيردانية، وقتل القائد المتفق مع أود وبعث بزوجته وهي بنت الدوق إلى دمشق، وقيل: بل انتحر هذا القائد المسمى مونيزا خزيًا وحياءً،

وكانت مدينتا نيم ومون بيليه؛ تابعتين للمسلمين فتقدم عبد الرحمن بالعسكر إلى ضفاف الرون وعبر إلى شاطئه الأيسر، وألقى الحصار على مدينة آرل فأنجدها الفرنساويون بمفرزة من العسكر، وحميت نار الحرب وكثر فيها عدد القتلى حتى امتلأ النهر بأجسادهم، ثم سار على ضفاف نهر الرون صاعدًا في الشمال وألقى الحصار على مدينة أفينون وافتتحها، وهذه المدينة هي التي صارت في القرن الرابع عشر للميلاد مركزًا للبابوية بدلًا عن رومة، واستمرت تابعة للباباوات إلى ما بعد الانقلاب الكبير؛ أي لسنة ١٧٩١م.

وكانت فرنسا إذ ذاك في حكم الملوك الذين هم أواخر سلالة ميروفينجيان، ويلقبون لبطالتهم وعطالتهم «فينيان» أي الذين لا يعملون شيئًا بل كانوا يملكون بلا حكم ولا قدرة ويموتون بلا عز ولا نصرة كما وصفهم المؤرخون.

وكانوا يقيمون في قصر بجوار مدينة قومبينيه، وهي في شمال باريس وفيها حصلت ملاقاة قيصر الروس في زيارته الأخيرة لفرنسا، فكانوا كأنهم في حبس لا يأتون عاصمة المُلك إلا مرتين في السنة مرة في شهر مارس، وأخرى في مايس؛ لحضور المجلس المؤلف من أعيان الإفرنج، أو لملاقاة السفراء فإذا انعقد المجلس أركب الملك في كارة يجرها ستة رءوس من فحول البقر لا من عدم وجود الخيل والبغال؛ وإنما للراحة وعدم الانزعاج بكثرة الحركة والجري، وأتى به إلى المجلس ليصدق على المقررات التي يتخذها ناظر السراي أو أمير الأمراء، وهو في ذاك التاريخ دوق أوستراسيا المسمى شارل مارتيل، وكانت بقية الأمراء أشبه

بالمستقلين في إماراتهم يبغضون بعضهم بعضًا وكلمتهم متفرقة، ولو دخل عليهم موسى بن نصير سنة ٩٢هـ حينما افتتح إسبانيا لامتلك أوروبا بأجمعها؛ ولأدخل جميع القبائل الجرمانية الوثنيين في الدين الإسلامي.

غير أن الإفرنج لما سمعوا بظهور العرب ومحاصرتهم القسطنطينية، وكانوا يترقبون ورودهم من شرق أوروبا فلما رأوهم نازلين عليهم من جبال البيرينة أخذهم الرعب فانضموا بأجمعهم إلى أمير الأمراء شارل مارتيل، وكان أشدهم بأسًا وأدهاهم سياسةً وأحسنهم رأيًا وعقلًا، فلم يدر عبد الرحمن بأن الوقت فات على فتح بلاد الإفرنج، وأخذ يتأهب لقتالهم وحشد العساكر من الشام، ومصر، وإفريقية، والمغرب وسار بهم من جهة المحيط لا من جهة البحر الشامي المتوسط على سابق العادة في دخول غزاة المسلمين لفرنسا ومر بهم من رونسيفو، وهو ممر ضيق في جبال البيرينة تمرُّ منه جيوش الفاتحين في قديم الزمان وحديثه، فمنه مرَّ هنيبال القائد القرطجني، ومنه مرت جيوش شارلمان حينما قاتل العرب، ومنه مرت جيوش نابوليون حينما فتح إسبانيا، ومنه مرَّ فيكتور هوجو في ذهابه لإسبانيا وإيابه منها، فممر رونسيفو واقع بين مدينتي بامبلونه في إسبانيا، وبايون في فرنسا وهي التي سماها العرب «ببونة»، ويقطع المسافر منها بالقطار ستين كيلومترًا إلى منتهى الحدود الفرنساوية، ثم يسير على الخيل والعجل ١٥ كيلومترًا أخرى فيصل حلق الوادي المسمى رونسيفو، فسار عبد الرحمن في هذا الطريق وخرج لأرض غسكونيا التي سموها «غشكونية» وهي سهول واسعة كثيرة المياه والأحراج، والقسم الساحلي منها أشبه

بتهامة من جزيرة العرب؛ ولذا سماها بعض الجغرافيين تهامة الإفرنج. غير أن الوديان التي تسيل في تهامة العرب تبتلعها الرمال المحرقة، وأما المياه التي تسيل في رمال تهامة الإفرنج التي تدعى «لاند» فتروي أرضها وتكثر عشبها وأشجارها.

فظل عبد الرحمن سائرًا في هذه الأراضي المخصبة آمنًا على عسكره ودوابه من العطش؛ حتى بلغ نهر غارون المار لطولوز وبوردو، وعرضه ربما يقرب في بعض الأماكن من عرض النيل، وطول الجسر الذي عليه في مدينة بوردو ٤٨٧ مترًا، فهو أطول من جسر القاهرة الذي على النيل نحوماية متر. فلقي عبد الرحمن على ضفاف النهر الدوق أود بما جمعه في العسكر من قبائل الواسكون، وبقية أهالي أكيتانيا وانتشب القتال بين الفريقين، وكانت معركة شديدة انجلت عن انهزام الدوق وعسكره، وتحصنهم في قلعة بوردو فلحقهم عبد الرحمن وحصر المدينة، وفتحها بالسيف وأباح الغزو فيها لعسكره فكانوا يسمونها مدينة «برغشت»، وأصبح ما بين مصب نهر غارون في المحيط، وما بين مصب نهر الرون في البحر الشامي دارًا للإسلام تُلقن فيه الشهادة ويُعلم القرآن، وهذا القسم العظيم من أوروبا قد أصبح اليوم جزيرة بسبب قناة الجنوب التي أنشأها الفرنساويون، ويسمونها أيضًا قناة لانغيدوق باسم الأيالة القديمة، والبضاعة الواردة من البحر المحيط تدخل نهر غارون وتمر ببوردو، ثم تدخل هذه القناة عند طولوز على مراكب مخصوصة تسير موازية لنهر أود حتى تخرج في شمال نربون للبحر الشامي.

وهـم يتحدثـون اليـوم في توسـيع هـذه القنـاة وجعلهـا صالحـة لسـير السـفن الكبـيرة لتمـر منهـا، وهـي آتيـة مـن قنـال السـويس وتسـتغني عـن المـرور في جبـل طـارق والطـواف حـول إسـبانيا.

فانتـشر خـبر فتـح بـوردو في بـلاد الإفرنـج، ودخـل الرعـب في قلـوب النـاس، وفـرح أكثرهـم بفشـل الـدوق أود لمظالمـه؛ لأن المظلومـين مـن الأهـالي يفرحـون دائمًـا بنكبـة الجبابـرة المسـتبدين، الذيـن يحكمـون فيهـم ولا يراعـون حقوقهـم، ويسـومونهم أنـواع العـذاب لمنافعهـم وأغراضهـم؛ ولـذا كان الكثـير منهـم يهرعـون لعبـد الرحمـن ويشـوقونه للدخـول في بلادهـم، وإجـراء العدالـة الإسـلامية فيـما بينهـم، أمـا الـدوق أود فلـما رأى ذهـاب ملكـه هضـم نفسـه، واسـتجار برقيبـه شـارل مارتيـل، وطلـب نصرتـه رغـم بغضـه إيـاه؛ لأن الـدوق أود، وإن لم يـرقَ إلى رتبـة ملـك إلا أنـه كان مسـتبدًّا في أكيتانيـا كالملـك يفعـل فيهـا مـا يشـاء ويختـار، وهـو ذو أصالـة، وينتسـب إلى قلوفيـس مؤسـس سـلالة ميروفينجيـان صاحبـة السـيادة والحـق الشرعـي في الملـك عـلى قبائـل الإفرنـج وعمـوم فرنسـا، فأصالتـه كانـت فائقـة عـلى أصالـة شـارل مارتيـل؛ لأن شـارل لم يولـد مـن زوجـة شرعيـة، وإنمـا زنى بأمـه ببـين دوق أوستراسـيا فولدتـه وكـبر حتـى خلـف والـده في مسـنده، وتغلـب عـلى ملـوك واستراسـيا، ونوسـتريا، وبورغونيـا مـن آل قلوفيـس حفيـد ميروفـة، وكان في الظاهـر أمـير الأمـراء وناظـر السراي الملوكيـة، وفي الباطـن صاحـب الأمـر والنهـي في عمـوم فرنسـا سـيما بعـد اسـتيلاء العـرب عـلى مملكـة أكيتانيـا.

فلـما اسـتجار الـدوق أود بشـارل أجابـه: «دعهـم الآن فإنهـم كالسـيل الجـارف لا يصطدمـون بـشيء إلا أبـادوه، وفيهـم حميـة تغنيهـم عـن التـدرع بالـدروع، وفيهـم شـجاعة تكفيهـم عـن التحصـن في داخـل القـلاع، ولا يزالـون عـلى ذلـك إلى أن تمتلـئ أيديهـم بأمـوال الغنائـم، فـإذا تنعمـوا بنعيـم الدنيـا وذاقـوا لذائـذ الحيـاة وقـع الطمـع في رؤسـائهم، فانقسـموا وتفرقـوا فحينئـذ نهاجمهـم ونخرجهـم مـن ديارنـا.»

وكان الأمـر كـما قـال، فـإن عبـد الرحمن بعـد فتحه بـوردو رأى الأهـالي مائلة إليـه، ووعـدوه بالتسـليم والانقيـاد وشـوقهُ بعـض رؤسـائهم إلى فتـح تـور وبوانيـه لمـا فيهـما مـن الأمـوال والخـيرات؛ لأن البـلاد لم تكـن في ذاك الوقـت غنيـة ومعمـورة كـما هـي اليـوم، وإنمـا الأمـوال كانـت مدخـرة في الكنائـس، والأديـرة، وقصـور الحـكام الجبابـرة، فتجـاوز عبـد الرحمـن بالعسـكر نهـر غـارون ووطـئ بخيلـه ورجلـه تلـك الأراضي الخصبـة، والكـروم التـي يعـصر فيهـا أحسـن خمـر في الدنيـا، وعـبر نهـر دوردونيـا وهـو يجتمـع في نهـر غـارون بقـرب بـوردو، ويسـميان حينئـذ نهـر جيرونـد كـما يجتمـع الفـرات، ودجلـة ويقـال لمجتمعهـا: شـط العـرب. ويصـب لاجيرونـد في المحيـط الغـربي عنـد مدينـة روايـان الشـهيرة بحماماتهـا البحريـة، والتـي ينسـب إليهـا سـمك روايـان المشـابه للسردين. وتسـمى ضفـة لاجيرونـد اليـسرى مـن بـوردو إلى البحـر أرض ميـدوق، وفيهـا شـاتو لافيـت، وشـاتو لاتـور، وشـاتو مارغـو وجميـع كـروم العنـب والقصـور التـي يعـصر فيهـا أطيـب الخمـر، وتتـلى أسـماؤها المتنوعـة عـلى الزجاجـات التـي تبـاع في أوتيـلات الأزبكيـة، وتفتـح عـلى موائـد أعاظـم الرجـال، وعـلى شـاطئ نهـر غـارون قبـل دخولـه بـوردو أرض سـوتيرن، وفيهـا شـاتو أبكيـم وبقيـة القصـور التـي

يعصر فيها الخمر الأبيض، الذي يشرب في أوائل الطعام عند أكل لحوم السمك.

ولما وصل عبد الرحمن مدينة أنكوليم وجد جيشًا من الإفرنج، ففرق جمعهم ودخل المدينة منصورًا ظافرًا، وفي غربيها مدينة كونياك المنسوب إليها خمر الكونياك المعروف، وظل عبد الرحمن سائرًا بعساكره المظفرة في تلك المروج والغابات الكثيرة المياه، وكانت كجنات تجري من تحتها الأنهار بالنسبة لصحاري أفريقية ولجزيرة العرب، والفرسان ترتع وتلعب على خيولها ومعهم نساؤهم وأولادهم، حتى وصلوا مدينة بوانيه ففتحت لهم أبوابها، ويزعم مؤرخو الإفرنج أن العرب سلبوا ما في كنيستها من أواني الذهب والفضة والأقمشة المزركشة، والمنصفون من هؤلاء المؤرخين يعترفون للعرب بالعدل والحق، والرفق بالمغلوبين. ثم عبر عبد الرحمن نهر فينا المار بأيالة فينا وهي التي مركزها بوانيه بخلاف فينا عاصمة النمسا التي حاصرها الأتراك، وأقاموا عساكرهم المظفرة على أبوابها. وفي جنوب أيالة فينا أيالة أخرى يقال لها: فينا العليا ومركزها ليموج، وما زال عبد الرحمن يتقدم حتى وصل مدينة تور وهي على نهر لوار المنصب في المحيط، وألحق أكثر من نصف فرنسا بممالك الدولة الأموية الحاكمة إذ ذاك على الهند وما وراء النهر إلى كاشغر، والصين، وتركستان، وكان الفاتح لها سنة ١١٩هـ أسد بن عبد الله القسري، فإنه دخل بغزاة المسلمين بلاد الترك، وقتل ملكهم خاقان وغنموا شيئًا كثيرًا.

فمنتهى الحدود التي وصل إليها العرب في أوروبا، هي نهر لوار ومدينة تور وفي شرقيهما مدينة ديجون ثم مدينة بزانسون، فالخط المار بهذه النقط يقسم فرنسا إلى قسمين شمالي وجنوبي، والجنوبي بأجمعه دخل في ملك المسلمين، وأقاموا في بعضه قليلًا وفي بعضه كثيرًا، واستسلموا كثيرًا من أهله وتزوجوا ببناتهم وأعقبوا منهم، ولم يزل لأهل الجنوب من الفرنساويين شبه بالعرب في سيماء الوجوه.

قال المؤرخ الإنكليزي جيبون في ذكر حوادث سنة ٧٤٢م: «تقدم العرب في أوروبا أكثر من ثلاثمائة مرحلة lieues من صخرة جبل الطارق إلى مصب نهر لوار كلها مظفرات، ولو تقدموا ثلاثماية مرحلة أخرى لوصلوا حدود بولونيا في شرق أوروبا أو جبال أيقوس من إنكلترة ولسهل عليهم عبور نهر الرين المار بألمانيا، كما سهل عليهم عبور الفرات والنيل، ولكان الأسطول العربي من جهة أخرى دخل نهر التميس بلا محاربة بحرية — لعدم وجود أسطول إنكليزي في ذاك الوقت يضاهي أسطول مصر، وسورية أو أسطول تونس — ولرأينا اليوم علماء يفسرون القرآن في مدارس أوكسفورد، ويفقهون أفراد أمة الإنكليز المختتنين، ويشرحون لهم وهم مرتفعون على كراسي الوعظ معجزات النبي العربي، فالذي خلص العالم المسيحي من ذلك هو ابن الزانية شارل مارتيل ناظر سراي الملوك الفرنساويين من سلالة ميروفينجيان.» ا.هـ.

وذلك أن شارل المذكور لما رأى المسلمين لم يبق بينهم وبين باريس إلا ٢٣٤ كيلومترًا حشد إليه العساكر الجرارة من القبائل الشمالية الألمانية، وهم يمتازون عن سكان الأيالات الجنوبية في فرنسا بطول القامة،

وزرقة الأعين، وشقرة اللون وبالصبر في الحرب والمهارة في الطعن والضرب، ولم يزالوا متصفين بهذه الأوصاف إلى يومنا هذا؛ ولذا اختار مقام السرعسكرية منهم المعلمين للمكاتب الحربية في الأستانة مثل غولج باشا، وقبله مولتكه باشا مرتب حركات الجيش في حرب السبعين الفرنسوية.

وكان عبد الرحمن نازلًا بالعسكر أمام مدينة تور في الوادي الذي يجري فيه نهر لوار، ويحيط به سلسلتان من التلال تتقاربان كلما قربتا من المدينة، فبغت شارل مارتيل المسلمين وهم في هذا الموقف الحرج، وحاربهم من أعالي التلال، وانتشب القتال بين الفريقين، وأظهر عبد الرحمن من المهارة في حركات الجيش، وسوق الفرسان ما حير أخصامه وانجبر أخيرًا على الخروج من ذاك الموقع الضيق والرجوع إلى سهول بواتيه وفيها التقى الجمعان، واصطف الجيشان في محل لم يزل يقال له إلى يومنا: (موسه-لا-بانايل)، ويراه المسافر من بوردو إلى باريس في القطار الحديدي على بعد عشرين كيلومترًا عن بواتيه شمالًا؛ أي على الضفة اليمنى لنهر كلين المنصب في نهر فينا المنصب في نهر لوار، واستمر الفريقان بضعة أيام على أهبة الحرب والطعان، وشارل لا يجسر على الهجوم خدعة منه وحذرًا، ففتح عبد الرحمن الحرب وأنزل للميدان مفرزة من فرسانه، ودام القتال ستة أيام والنصر فيها للمسلمين، وفي اليوم السابع هجمت عساكر شارل هجمة اليأس والقنوط على مكان الحريم والغنائم، فانشغلت أفكار المسلمين على أموالهم، وعيالهم وقُتل عبد الرحمن على رواية مؤرخي الإفرنج بعد مقاومة شديدة، وكان ذلك في شهر تشرين أول سنة ٧٣٢م وسنة ١١٤هـ،

ورجعت بقية السيوف من أهل الإسلام لا عن طريق رونسيفو بل عن طريق طولوز، وقرقسون، ونربون لرسوخ قدمهم في تلك الجهات.

ولحقهم شارل مارتيل واسترجع مدينة أفينيون، ولم يقدر على استرجاع نربون فهدم ما في شمال نهر أود من الحصون والقلاع، وصيره قفرًا لكيلا يطمع فيه العرب، وقد نظم أحد شعراء الفرنساويين المسمى «قارل دوسنت غارد» في حدود سنة ١٦٨٤ ديوانًا عنوانه «إخراج العرب من فرنسا»، وجعل فيه البطل المغوار في هذه الحروب شيلوبرانداخ شارل مارتيل، فنكت عليه الشاعر بوالو وجهله على مدحه بطلًا لم يحقق التاريخ وجوده بين أبطال تلك الحروب.

فاشتهر شارل في البلاد وصار الناس يتحدثون به في فرنسا، وإيطاليا، وعموم أوروبا ويروون عن شجاعته أحاديث ملفقة، ويزعمون أن بلطته أو فأسه المسمى مارتو أو مارتل قتل ما يربو على ثلاثمائة ألف من العرب، غير أن واقعة بواتيه على التحقيق لم يكن فيها تغلغل كبير على عساكر الإسلام، ولو بقي في شارل بعدها قوة لأخرجهم من ناربون ورمى بهم إلى ما وراء جبال البيرينة، وحصن منافذ الجبال وجعلها مانعة لهجومهم ولكنه لم يستطع ذلك، واستمر العرب في جنوب فرنسا حقبة من الزمان سيما في أطراف مارسيليه، ولم نزل نشاهد في متحف نربون كثيرًا من آثارهم وأوانيهم الخزفية، وإليهم تُنسب «جبال المور» وهي في شمال طولون ومارسيليه، كما نسبت إليهم قسطل سارازين، وهي مدينة بين بوردو، وطولوز، والقسطل هو الحصن أو القلعة، ولم يزل في ضواحي القدس قرية يقال لها: القسطل،

فقسطل سارازين معناها حصن العرب وقيل غير ذلك، والله أعلم.

وكان هشام بن عبد الملك عاشر الخلفاء الأمويين قد عين على إفريقية عبيدة بن عبد الرحمن بعد استشهاد واليها بشر بن صفوان الكلبي في فتح صقلية، وهي جزيرة سيسليا التابعة اليوم لإيطاليا، غير أن ولاية عبيدة لم تطل بل عُزل ونصب مكانه عبيد الله بن الحبحاب، وهو الذي زين تونس بالمباني الفاخرة وأنشأ في ساحلها دار صناعة للسفن؛ أي (ترسانة) كما يسميها الأتراك، أو «شانية» كما يقول الإفرنج، فلما بلغ عبيد الله وفاة عبد الرحمن في واقعة بواتيه بعث واليًا على جزيرة الأندلس عبد الملك بن قطن، فأصلح حال الجيش وزوده وساقه على فرنسا سنة ١١٧هـ سنة ٧٣٥م، فاستردوا الأيالات الجنوبية التي في أطراف نربون وقرقسون وعلى ضفاف أود، وعبروا نهر الرين وضبطوا أيالة بروفانس بأجمعها سنة ١٢٠هـ، أو سنة ٧٣٧م من حاكمها مورونت ومركزه إكس في شمال مرسيليه، وظلوا سائرين على سواحل البحر الشامي حتى دخلوا إيطاليا، وأغاروا فيها على مملكة لومبارديا التي عاصمتها ميلان فاتفق ملكها لوي بران مع المتغلب على ملك الإفرنج، وهو شارل مارتيل دوق أوستراسيا وناظر السراي الملوكية، وأرجعا العرب إلى قرب جبال البيرينة سنة ١٢٢هـ أو سنة ٧٣٩م، ولم يقدرا على إخراجهم من نربون ولا من قرقسون.

ثم إن عبيد الله بن الحبحاب والي إفريقية عين عقبة بن الحجاج على الأندلس، فحضر إليها واستلم زمام الأمر فحصلت فتنة، وتغلب عليه عبد الملك بن قطن الفهري فذهب عقبة بن الحجاج إلى قرقسون في

فرنسا، وكانت عامرة بالمسلمين وبقي هناك إلى أن مات ودفن في تربة قرقسون. فغضب هشام وعزل عبيد الله وولى مكانه كلثوم بن عياض واليًا على إفريقية وبعث معه اثني عشر ألف فارس من فرسان الشام يقودهم بلج بن بشر، فقُتل كلثوم في المغرب الأقصى في واقعة جرت له مع البربر، ودخل بلج بن بشر بعسكره جزيرة الأندلس، وقاتل عبد الملك بن قطن وتولى مكانه، فبعث هشام لإفريقية حنظلة بن صفوان الكلبي والي مصر فجاء القيروان سنة ١٢٤هـ أو سنة ٧٤١م، وأصلح ما فسد في قبائل إفريقية والمغرب الأقصى، وبعث أبا الخطار الكلبي واليًا على الأندلس فورد إليها ونزل قرطبة وفرق عساكر الإسلام في البلاد، فأنزل الدمشقيين في البيرة (ألويره)، وهي الولاية التي عاصمتها غرناطة وتكثر فيها المياه والغوطات والرياض، ومدينة غرناطة مبنية على ثلاث تلال يمر من وسطها نهر حداره (دارو) المنصب في نهر شنيل، وهو ينصب في الوادي الكبير (غواد الكفير) المار بإشبيلية؛ ولذا دعاه العرب نهر إشبيلية.

وفي غرناطة قصر الحمراء الشهير، وغرناطة في جنوب مادريد وعلى خط الطول المار منها، وأما خط الحديد بينهما فمسافته ٦٩٦ كيلومترًا؛ لذا أطلق على البيرة وغرناطة دمشق، وأنزل الحمصيين في إشبيلية (سفيلة) ويمر منها الوادي الكبير وفيها القصر المشهور عند الإفرنج باسم «القازار»، وكان دار الملك بني عباد؛ ولذا أطلق على إشبيلية حمص، وأنزل أهل قنسرين على ضفاف الوادي الأبيض (غواد لفياد) المنصب في البحر الشامي قرب بلنسية فأطلق على تلك النواحي قنسرين، وأنزل أهل الأردن في مالقة (مالاغة)، وهي على ساحل البحر الشامي شرقي

جبل طارق ويمر منها «وادي المدينة»، وإليها يُنسب الخمر المعروف باسم «مالاغة»، وأنزل أهل فلسطين في سيدونيا؛ أي مدينة شريش (أكسيرس) وما جاورها، وهذه المدينة بالقرب من قادس على مسافة ٢٢ كيلومترًا عن البحر المحيط، وإليها نُسب كثير من الأدباء فقيل لهم: الشريشي، ومنهم شارح المقامات، وكتابه مطبوع في مصر وينسب إليها اليوم الخمر المشهور باسم «شري» و«إكسبرس»، وفيها فاز طارق بن زياد على رودريك ملك القوط وشتت عساكره وأخذ ملكه. وأنزل أبو الخطار الكلبي المصريين في تدمير، وهي الأيالة المشتملة على مرسية، وهي على نهر سفورة تبعد عن ساحل البحر الشامي المتوسط بين البحور ٣٥ كيلومترًا، وبجانبها سهول هوثرتة المشابهة لوادي النيل في بركة المحصول وقوة الإنبات؛ ولذا أطلق عليها مصر. ولم يزل فيه بقايا الترع العربية والقنوات، وبينما كان المسلمون في الأندلس ينظمون شئونهم ويستعدون لفتح بلاد الإفرنج، ونشر الدين الإسلامي فيها، وإذ ظهر الفساد في دمشق عاصمة الممالك الإسلامية ودار خلافتها، واختلت أمور الدولة بعد وفاة هشام وجلوس الوليد (٨٤–١٢٦هـ) ابن يزيد بن عبد الملك بن مروان حادي عشر خلفاء بني أمية، وجلس بعده في تلك السنة يزيد (٨٠–١٢٦هـ) ابن الوليد بن عبد الملك ثم أخوه إبراهيم، ثم رابع عشر خلفاء بني أمية وآخرهم وهو مروان الحمار (٧٠–١٣٢هـ) ابن محمد بن مروان بن الحكم، ولم ينتظم الأمر ولا لواحد منهم بعد موت هشام، ولا سكنت الفتن في أيامهم؛ ولذا لم تتقدم الفتوحات في بلاد الإفرنج.

(١) داخلية أوروبا بعد رجوع العرب عنها

أما فرنسا فاستيقظت بسبب هذه الحروب من غفلتها، واجتمعت كلمتها على شارل مارتيل ناظر سراي الملوك من آل قلوفيس حفيد ميروفه، فاستبد بالأمر وصار الآمر الناهي في المملكة، وزال نفوذ الملوك من سلالة ميروفينجيان، وأصبحوا كالخلفاء العباسيين في آخر أمرهم، ولم يستطع شارل مارتيل أن يملك على الفرنساويين لشدة ظلمه وسوء سيرته وتعديه على أملاك الأديرة والرهابين، ولكنه هيأ الملك لولده ولحفيده من بعده، وأما هو فلم يُرض بعمله المسلمين ولا النصارى؛ لأنه ضبط أوقاف الأديرة، والكنائس ليجهز العساكر ويقوم بنفقات هذه الحروب العظيمة، فأغضب بذلك الأساقفة والرهابين المتمتعين بهذه الأموال، فلم يغفروا له هذه السيئة، وأغمضوا العين عن جميع حسناته عليهم وحكموا في مجتمعهم الرهباني (قونصل) في فرنسا بكفره وخلوده في نار جهنم، ورآه أحد أوليائهم بعين الكشف وهو يعذَّب في النار والأفاعي تنهش في جثته المنتنة، فشارل مارتيل واضع أساس الدولة الثانية في ملك الإفرنج لم يرض عنه المسلمون ولا النصارى، ولما مات قام بالأمر بعده ابنه بيبن القيصر وحارب قبائل الجرمان في ألمانيا وقبائل اللومبارد في إيطاليا، وكانوا معادين للباباوات في رومة فاكتسب بذلك نفوذًا وقوة، وانتخبته قبائل الإفرنج ملكًا عليها، وأمر البابا بدهنه بالزيت المقدس وتتويجه فدهنه، وتوجه القديس بونيفاس أسقف مايانس سنة ٧٥٢، وانقرضت دولة ميروفينجيان بعد أن ملكت (٤٤٨-٧٥٢م) ثلاثة قرون، وسميت الدولة الثانية قارلوفينجيان نسبة إلى شارلمان بن بيبن القيصر وحفيد شارل مارتيل.

وملكت الدولة الثانية (٧٥٢-٩٨٧م) قرنين ونصف قرن تقريبًا، وفي سنة ٧٦٠م أو سنة ١٤٣هـ أغار بيبن القيصر على بلاد المسلمين، واسترجع منهم نربون وجميع أيالة سبتمانيا فلم يستطيعوا الدفاع عنها؛ لاشتغالهم بما حدث عندهم من الانقلاب العظيم بسبب انقراض الدولة الأموية، وقيام الدولة العباسية مقامها، فقتلوا بني أمية واستخفى من سلم منهم، فهرب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، ودخل الأندلس سنة ١٣٩هـ أو ٢٥ أيلول (سبتمبر) سنة ٧٥٩م، فأطاعه بعض المسلمين فيها واستولى على إشبيلية وجعل قرطبة دار المملكة وأخضع لحكمه جميع جزيرة الأندلس، ونكل بالمتشيعين منهم للخلفاء العباسيين؛ فيفهم السبب الذي مَكَّن الإفرنج من استرجاع نربون وقرقسون.

ولما مات بيبن سنة ٧٦٨م وسنة ١٥١هـ جلس مكانه على كرسي ملك الإفرنج ابنه شارلمان (سنة ٧٤٢-٨١٤م)، ومعناه شارل الكبير فنسبت إليه السلالة الثانية من سلالات ملوك الإفرنج، وقيل لها: «قارلو فينجيان» أي آل قارلو؛ لأن اسم شارل يلفظ بصور مختلفة حسب اللغات واللهجات، فالألمان يلفظونه قارل وعند الإسبانيول قارلوس، وعند الإنكليز چارلس بالجيم الفارسية، ففتح شارلمان ممالك لومبارديه وعاصمتها ميلان، وهي القسم الشمالي من إيطاليا، وكان بين ملوكها وبين باباوات رومة ضغائن وعداوة؛ فامتن البابا من ذلك وبارك شارلمان ورضي عنه، ثم فتح بافاريه وصاقسونيا، وهما من ممالك ألمانيا وأخضع أيالة أكيتانيا التي كانت ميدانًا ترمح فيه غزاة المسلمين، فجمع شارلمان في حكمه بين فرنسا، وألمانيا، وإيطاليا ومزج الأقوام

الجرمانية بالأقوام الرومانية، وهم الذين كانوا في حكم دولة الرومان.

ولما تولى شارلمان كان مشتركًا في الملك مع أخيه اتباعًا للقواعد المرعية في ذاك الزمان، وهي تقسيم المُلك بين الأولاد، ففي سنة ٧٧١م استقل بالمُلك وجعل عاصمته إكس لاشابل، وهي على نهر الرين في ألمانيا وزينها بالمباني والقصور؛ ولذا يعتبره الألمانيون في عداد ملوكهم كما يعتبره الفرنساويون، وفي سنة ٧٧٨م، وسنة ١٦٢هـ تجاوز شارلمان بعساكره جبال البيرينة من ممر رونسيفو الذي مر منه عبد الرحمن حينما فتح بوردو وبوانيه وتور، ومر منه قبلًا هنيبال القائد القرطاجني حينما قهر الرومانيين، وهو ممر صعب في جبال البيرينة قريب من البحر المحيط؛ ولذا لم يرجع العرب منه بل كانوا يتجاوزن على فرنسا من جهة البحر الشامي عن طريق «بويسيردا» و«نربون»، فضبط شارلمان ولاية نافار وولاية قطولونيا وتقدم على ضفاف أيبر حتى بلغ مدينة سرقسطة مركز ولاية أراغون وألقى الحصار عليها، وكانت بيد المسلمين، فبعث إليه عبد الرحمن الأول سنة ١١٣-١٧١هـ (٧٣١-٧٨٧م) الملقب بالعادل، بجيش منظم طرد عساكر شارلمان من إسبانيا وأرجعها إلى ما وراء البيرينة، وكان المسيحيون من النفاريين والواسكون؛ أي الباسك متفقين مع المسلمين حبًّا في العدل الإسلامي، وكرهًا في ظلم شارلمان لوطئه بالعسكر بلادهم وقتله رجالهم وأولادهم؛ ولذا رجحوا الاتفاق مع المسلمين مع أنهم على غير دينهم، وانتقموا من شارلمان وجنوده وهو يدين بما هم يدينون به.

والديـن إنصافك الأقوام كلهم

وأي ديـن لآبي الحق إن وجبا

والمـرءُ يعيبه قود النفس مصحبة

للخير وهو يقود العسـكر اللجبا

فلـما ارتـدت جنـود شـارلمان عـلى عقبهـا خـاسرة اغتنـم أهـالي نافـارا وغسـكونيا المسـيحيون هـذه الفرصـة، وانقضـوا عليهـم وهـم في ممـر رونسـيفيو وأبادوهـم عـن آخرهـم، وقُتـل في هـذه المعركـة رولان قائـد الجنـود البريطانيـة نسـبة إلى أيالـة بريطانيـا في غـرب فرنسـا ورفيقـه أوليفيه، ونظمـت في هـذه الواقعـة أغـاني رولان الآتي ذكرهـا، وهـي عنـد الفرنسـاويين كقصـة عنـتر عندنـا لا بـل كقصـة بنـي هـلال أو الزيـر، واسـترد عبـد الرحمـن العـادل، وهـو المعـروف بالداخـل ولايـة أراغـون وقطالونيـة واسـترد ابنـه هشـام (١٤٠-١٨٠هـ) مدينـة جيرونيـة ونربـون وجميـع أيالـة سـبتمانيا سـنة ٧٩٢م (سـنة ١٧٦هـ)، واسـتخدم الأسرى في بنـاء جامـع قرطبـة، وكان أبـوه قـد بـاشر عمارتـه، فنصـب شـارلمان ابنـه لويـس ملـكًا عـلى أكيتانيـا وأمـره بمحاربـة العـرب، فكانـت بينهـما حـروب عـلى سـفح جبـال البيرينـة مـن سـنة ١٨٠هـ (٧٩٦م)، وهـي السـنة التـي تـوفي بهـا هشـام، وجلـس فيهـا ابنـه الحكـم خلفًـا لـه وخـرج عليـه عـماه سـليمان، وعبـد اللـه ابنـا عبـد الرحمـن وتحاربـوا مـدة، وكان النـصر للحكـم عـلى عميـه ودامـت الحـروب مـع الإفرنـج إلى سـنة ١٩٧هـ (٨١٢م)، وأخـذ الإفرنـج في هـذه الحـروب ولايـة نافـارا وسـبتمانيا وجـزءًا مـن قطالونيـا، وهـو المشـتمل عـلى مدينـة برشـلونة التـي عـلى سـاحل البحـر الشـامي، فشـارلمان لم يتمكـن مـن إسـبانيا، ولكـن

حكمه كان نافذًا في عموم أوروبا الغربية، وكان البابا وعموم الكهنة يميلون إليه ويرغبون في إعادة نفوذ إمبراطورية الرومان الغربية؛ ليضاهوا بذلك الإمبراطورية الشرقية القائم بها قياصرة الروم، ويحصلوا على العز الذي حصل عليه بطاركة القسطنطينية وكهنتها المنشقون؛ ولذا دهن البابا شارلمان بالزيت المقدس، وألبسه تاج الإمبراطورية في آخر القرن الثامن؛ أي سنة ٨٠٠م (سنة ١٨٤هـ).

وكانت الخلافة العباسية في بغداد بلغت منتهى العز وأوج الرفعة على عهد الرشيد، فأخذ شارلمان يتقرب منه، وبعث إليه بسفارة مؤلفة من سفيرين فرنساويين يصحبهما يهودي اسمه إسحق، وكان الخليفة يحارب قيصر الروم فرأى من السياسة التمايل إلى الإفرنج أعداء الأمويين، فأحسن ضيافة الوفد الإفرنجي وأكرم مثواه وأجاب طلبه بالرخصة لحجاجهم في زيارة بيت المقدس، وبعث إلى شارلمان بهدية فاخرة منها سرادق كبير من الحرير، وساعة دقاقة، وشطرنج لم يزل بعض أحجاره محفوظة في المكتبة الأهلية بباريس، وهي من العاج دقيقة الصنعة والقطعة منها كبيرة الحجم، وكان ذلك قبل موت الرشيد بسنة؛ أي في سنة ١٩٢هـ (٨٠٧م)، وتوفي شارلمان بعد ذلك بسبع سنين؛ أي سنة ٨١٤م وجلس في مقامه ابنه لويس إلى سنة ٨٤٠م، ثم انقسمت المملكة إلى ثلاثة أقسام ألمانيا، وفرنسا، وإيطاليا وضعف حال ملوك فرنسا وهجم عليهم الأقوام الشمالية الذين يسمونهم نورمان من بلاد أسوج، ونوروج، والدانيمارك وأسسوا في شمال فرنسا دوقية نورماندية، وانقسمت المملكة إلى دوقيات وكونتيات، وكان حكامها أشد نفوذًا من الملك، وصارت السلالة الثانية من سلالات ملوك الإفرنج

إلى ما صارت إليه السلالة الأولى، فاستبد بالأمر دوق فرنسا كما استبد قبله دوق أوستراسيا، وفعل هوغ قابت ما فعله ابن شارل مارتيل وأحدث السلالة الثالثة في مملكة الإفرنج، وهي سلالة قابتيان.

وملكت هذه السلالة الثالثة من سنة ٩٨٧م إلى سنة ١٤٢٨م، وفي زمنها ظهرت فرنسا للوجود، وسميت مملكة فرنسا نسبة إلى هوغ قابت دوق فرنسا وانتقل الملك بعد ذلك إلى فرع ثانٍ من تلك السلالة، وهو المسمى فالوا ثم إلى فرع ثالث، وهو آل بوربون.

## (٢) فتوح المسلمين في جنوب أوروبا والحروب الصليبية

•••

ثم إن المسلمين عدلوا عن فتح فرنسا، ولعلهم فعلو ذلك لشدة البرد في الأقاليم الشمالية، وعدم توسع العمران فيها إذ ذاك، ولصعوبة المرور من جبال البيرينة وهي أشد بردًا من جبال لبنان التي يقول فيها المتنبي:

وجبال لبنان وكيف بقطعها

وهي الشتاء وصيفهن شتاء

ومالوا إلى فتح جزر البحر الشامي، فاستولوا على جزائر باليار، وهي مايورقة، ومينورقة، وأفبس وما يتبعها سنة ٨٢٠م (سنة ٢٠٥هـ)، وكانوا يسمونها «مايرقة» و«منرقة» ويابسة، واستمروا فيها إلى سنة ١٢٣٢م، واستولوا سنة ٢٢٦هـ على جزيرة قورسيقة فبقيت مستقلة عن غيرها بالحكم إلى سنة ٢٣٦ (٨٥٠م)، وأغاروا على سواحل مرسيليا مرارًا وأسسوا سنة ٢٧٦هـ (٨٨٩م) مستعمرة فراقسينة فيما بين وينيس طولون، وكان الفينيقيون أسسوا قبلهم مستعمرة في جوار موناقو، ومكث المسلمون في فراقسينة طول القرن العاشر، وتزوج بعضهم بنساء تلك الأيالة الفرنساوية، واشتغلوا بفلاحة أرضها حتى أصبحت زاهية بحضارتهم، ثم جالوا سنة ٣٢٤هـ (٩٣٥م) في إقليمي تارنتيزه، ووالس ثم في بلاد السويس (سويسرا) التي نهبها المجر قبل ذلك، ومدوا نفوذهم سنة ٣٣١هـ (٩٤٢م) على فريجوي، وطولون وجميع سواحل البحر الشامي في فرنسا، ولم يزل يقال للجبال التي في شمال مرسيليا، وطولون «جبال

المور» ومدوا نفوذهم على إيطاليا أيضًا، فإن بني الأغلب استولوا على جزر سيسيليا، (صقلية) ومالطة وسردانية، وجميع القسم الجنوبي من إيطاليا في حدود سنة ٢١٣هـ (٨٢٨م) إلى سنة ٢٦٥هـ (٨٧٨م) ورسخت لهم قدم في جميع هذه البلاد واستبحر فيها عمرانهم وحسنت بهم الزراعة والصناعة، وكانت مدينة أمالفي ومدينة ساليرم، وهما في جنوب نابولي (وكتبوها نابل) زاهيتين بحضارتهم، وهما اليوم قريتان خربتان لم يزل يشاهد فيهما آثار العرب وبقايا الطواحين التي عمروها ولسان الحال يقول: إن آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار، واستولوا على أوستيه، وكانت مينا رومية العظمى، وهي بقرب مصب نهر التيبر وعلى بيزا ذات البرج المائل، وكانوا يسمونها «بيش» وعلى جنوة التي في شمالها، وبقي المسلمون في جزيرة «سردانية» سردينية إلى سنة ٤٠٨هـ (١٠١٧م) وفي طارانت التي في جنوب إيطاليا إلى سنة ٤٣٥هـ (١٠٤٣م)، وفي سيسيليا إلى سنة ١٠٧١م، وفي بيزا إلى سنة ٣٩٦هـ (١٠٠٥م)، وفي جين (جنوة) إلى سنة ٣٢٥هـ (٩٣٦م)، (انظر خريطة مملكة العرب في أطلس شرادر الفرنساوي المطبوع أخيرًا في باريس).

واختلف المؤرخون في التاريخ الذي أغار فيه العرب على ليون وما في شمالها من الأيالات الفرنساوية — لا ليون التي في شمال إسبانيا الغربي وتكتب Léon، ويكثر ذكرها في تواريخ العرب — هل كان في عهد شارل مارتيل فقط أم في عهده، وبعد ذلك أيضًا حينما دخلوا من سواحل طولون، وتقدموا في الشمال حتى بلغوا بلاد السويس، ولكن المؤرخين متفقون على أن المسلمين ضبطوا أيالة دوفينة، وهي في شمال بروفانس على ضفة الرين اليسرى وضبطوا في شمالها أيضًا

أيالة بورغونية، وسموها «أرض بورغونة»، وأيالة فرانش كونتة وأيالتي فينا — وفينا؛ هذه أيالة في وسط فرنسا الغربي بخلاف سميتها عاصمة أوستريا، والمجر وكان حاصرها الأتراك — وضبطوا في فرنسا جميع ضفاف الرون، وغزوا القرى والمدن التي في تلك الأيالات، وأمهات هذه المدن هي؛ ليون وهي على نهر الرون وأول مدينة في فرنسا بعد باريس، ثم ماقون وإليها ينسب الخمر المسمى باسمها من خمور بورغونيه، وشالون التي على نهر السون، وبون وسماها العرب «بونة»، وأوتون واحترقت فيها كنيستان عظيمتان حينما هاجمها العرب، كنيسة سان ناظير، وكنيسة سان جان وكذا دير سان مارتن، وديجون وهي منتهى ما أخذوه في الشمال من المدن العظيمة، وفي شرقي ديجون وبالقرب منها مدينة بيزانسون التي ولد فيها فيكتور هوكو.

وجميع هذه المدن هي في ممر السكة الحديدية من باريس — ليون — البحر المتوسط؛ أي مرسيليا وما جاورها من الموانى البحرية، ولم يجد العرب أموالًا كثيرة في غزواتهم؛ لأن البلاد لم تكن في الثروة والعمران التي هي عليها اليوم، ولكن مقصدهم الأصلي كان إعلاء كلمة التوحيد ودعوة الأمم بقولهم: « تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ»

## الحروب الصليبية

فجميع الحروب التي وقعت بين المسلمين والنصارى من ابتداء ظهور الإسلام بمكة، وفتح المسلمين للقدس على عهد ثاني الخلفاء الراشدين هي من نوع الحروب الصليبية، إلا أن المؤرخين اصطلحوا

على إطلاق هذا الاسم على الحروب التي وقعت بين المسيحيين من الأمم الأوروبية، وبين المسلمين من الأمم الشرقية وامتدت من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر للميلاد، وكان الباعث عليها التعصب الديني، والغاية منها تخليص قبر السيد المسيح — عليه السلام — واتخذ المحاربون من الأمم الأوروبية الصليب شعارًا لهم، ونقشوه على أثوابهم وجلودهم؛ ولذا قيل لهم: الصليبيون، وعدة الحروب الصليبية ثمانية وهي؛

• الأولى: (١٠٩٦-١٠٩٩م): الحرب التي دعا إليها بطرس الناسك، وقرر أجراها البابا أوروبين الثاني في المجمع الروحاني المنعقد سنة ١٠٩٥م في مدينة كليرمون فيران، وهي بالقرب من مدينة ليون في فرنسا، وكانت النتيجة إرسال جيشين للشرق أحدهما تحت قيادة بطرس الناسك والقائد غوتيه، وكان مؤلفًا من أناس لا خبرة لهم في الحرب ومعهم نساؤهم وأولادهم بغير تأهب للسفر، فمات أكثرهم في الطريق وقتل آخرهم السلجوقيون في بر الأناضول. والثاني جيش متأهب للسفر ومتسلح للحرب تحت قيادة غود فروا دوبوليون دوق أيالة اللورين، عبروا بوغاز لدردنيل واستولوا في بر الأناضول على أزنيق وطرسوس وهي مينا أطنة، وعلى أنطاكية، وكانت هذه المدن تابعة للدولة السلجوقية ومركزها قونية، ثم استولوا على القدس، وكانت تابعة لخليفة مصر العلوي، وقتلوا فيها كثيرًا وألبسوا غودفروا تاج المُلك، وذهب المستنفرون إلى بغداد فلم يستطع أهلها غير البكاء وقال المظفر الأبيوردي أبياتًا منها:

وكيف تنام العين ملء جفونها

على هفوات أيقظت كل نائم

وإخوانكم بالشام يضحى مقيلهم

ظهور المذاكي أو بطون القشاعم

• الثانية: (١١٤٧-١١٤٩): الحرب التي دعى إليها القديس برنار وقادها قونراد الثالث إمبراطور ألمانيا، ولويس السابع ملك فرنسا، فوصلوا دمشق الشام وحاصروها ورجعوا عنها.

• الثالثة: (١١٨٩-١١٩٣م): الحرب التي دعى إليها غليوم أسقف صور بسبب استرداد صلاح الدين الأيوبي للقدس، وقادها فريدريك باربا روس إمبراطور ألمانيا من جهة، وفيليب أوغست ملك فرنسا وريشار قلب الأسد ملك إنكلترة من جهة أخرى، فالأول غرق في النهر بعد أخذه قونية، والآخران أخذا قلعة عكا وعقدا الصلح مع صلاح الدين.

• الرابعة: (١٢٠٢-١٢٠٤م): الحرب التي دعى إليها فولك وقادها بغدوين، وهو بودوين التاسع كونت أيالة فلاندر، وكانت أيالة مستقلة بين فرنسا وبلجيكا، فلما وصلت هذه البعثة إلى فينيسية (البندقية) استدعاها قيصر الروم في القسطنطينية لنصرته على أخيه، وكان قد أراد التغلب عليه فأجابت دعوته وأيدته على كرسي مملكته، وبعد وفاته انتخب الصليبيون مكانه بودوين المذكور بعد أن خربوا المدينة، وأتلفوا ما فيها من الآثار النفيسة والمباني الظريفة، واستمرت دولة اللاتين في القسطنطينية ٥٧ سنة (١٢٠٤-١٢٦١).

• الخامسة: (١٢١٧-١٢٢١): الحرب التي أشهرها جان دوبريين ملك القدس وأندره الثاني ملك هونغارية، وذهبوا فيها إلى مصر وعادوا منها خائبين.

• السادسة: (١٢٢٨-١٢٢٩م): الحرب التي قادها فريدريك الثاني إمبراطور ألمانيا لادعائه بميراث مملكة القدس عن جان دوبريين، فعقد مع الملك الكامل معاهدة الصلح واستلم بموجبها القدس.

• السابعة: (١٢٤٨-١٢٥٤م): الحرب التي قادها لويس التاسع ملك فرنسا إيفاءً بنذر نذره، فخرج لمصر، وغلبه الملك الكامل خامس الملوك الأيوبية في محاربة المنصورة، وأسره فأخلى دمياط وسلمها للمسلمين فكاكًا لأسره.

• الثامنة: (١٢٧٠م): الحرب التي قادها لويس التاسع ملك فرنسا الملقب بالقديس لويس، ومات فيها أمام أسوار تونس الخضرا، فاسترجع المسلمون حينئذٍ مدن فلسطين وسوريا من الإفرنج واحدة بعد الأخرى، وكان آخرهن فتح عكا سنة ١٢٩١م، وانتهت بذلك الحروب الصليبية.

وكان لهذه الحروب نتيجتان إحداهما مادية عسكرية، والأخرى معنوية أدبية، فالنتيجة المادية رجوع الإفرنج عن الغنيمة بعد الكد بالقفل وتخليتهم القدس، وجميع ما ملكوه في الشرق، والنتيجة المعنوية انتباههم من الغفلة التي كانوا فيها بمخالطتهم المسلمين، وأهل الشرق وسلوكهم منذ ذاك التاريخ سبيلي «الانتظام» و«الترقي»، ويسميهما الإفرنج (أوردر وبروغرة)، قال رينان: «حدث بعد الحرب الصليبية الثامنة التي قام بها لويس التاسع، ومات على أبواب تونس حركتان

واضحتـان مـن جهتـين مختلفتـين، الأولى انحطـاط العـالم الإسـلامي والأخـرى نهـوض العـالم المسـيحي؛ لأن العلـوم الإسـلامية لمـا لقحـت جراثيـم الحيـاة في جسـم البـلاد الأوروبيـة انطفـأت جراثيـم حياتهـا، وأخـذ العالمـان يسـيران في وجهتـين متعاكسـتين علـوًّا وهبوطًـا.»

سارت مشرقة وسار مغربًا

شتان بين مشرق ومغرب

## (٣) ما اقتبسه الإفرنج من قواعد الشعر العربي

•••

فيتضح لك من هذه النبذة التاريخية المعترضة في هذه الرسالة أن الاختلاط بين العرب والإفرنج لم ينقطع لا في الحروب الصليبية، ولا قبلها حينما دخل العرب أرض فرنسا، وتوطنوا في جنوبها، وحرثوا أرضها، وتزوجوا ببناتها، وتاجروا مع أهلها، وعمروا مدن نربون (نربونة)، وقرقسون (قرقشونة)، وفراقسينة وأخذوا الأسرى من الإفرنج وشغلوهم في عمارة جامع قرطبة القائم ليومنا هذا على ألف وثلاثة وتسعين عمودًا، وفي غيره من المباني الفاخرة كالقصر والزهراء والحمراء والقنطرة، فكانت الأفكار تتبادل بين الفريقين ضرورة، ولو كانا على طرفي نقيض.

وحيث كان المسلمون في ذاك العصر أرقى حضارة، وأدبًا من جيرانهم المسيحيين كانت الإفرنج تقتبس من معارف المسلمين، وتحصل العلم في مدارسهم وجوامعهم كما فعل البابا سيلفستر الثاني، واسمه الذي سماه به أبوه جربر (٩٣٠-١٠٠٤م)، فإنه بعد أن حصل مبادئ العلوم اللاهوتية باللغة اللاتينية في مدينة أورياق التي ولد فيها، وهي بالقرب من طولوز وفي شمالها الشرقي ارتحل في طلب العلم إلى الأندلس، فقطع عقاب البيرينة والوادي الكبير المار بجوار قرطبة، ومن إشبيلية والمنصب في خليج قادس من المحيط غير بعيد عن شريش، وجاور في مدرسة إشبيلية ثلاث سنين وعاد لأوروبا متبحرًا في العلوم والمعارف حتى حسبه الناس ساحرًا واتخذه الملوك مؤدِّبًا لأولادهم، وتقلب في

المناصب حتى أحرز رتبة البابوية، وقيل: إنه أول من أدخل لبلاد الإفرنج ما يسمونه الأرقام العربية، ونسميه الأرقام الهندية، وهي التي تدل بذاتها على عدد، وبمنزلتها على عدد آخر، وكانوا لذاك العهد يستعملون الأحرف اللاتينية التي هي بمثابة الحروف الأبجدية.

واقتفى طلاب العلم أثر هذا البابا الحكيم، وكذا المنتحلون منهم للشعر والأدب كانوا يقلدون شعراء العرب وأدباءهم. وكان المجاورون للعرب من أهالي فرنسا، وشمال إسبانيا يحيدون عن تعلم أشعار اللاتين، ويكبون على تعلم أشعار العرب وأزجالهم، وكان فقراؤهم في القرن الحادي عشر للميلاد ينشدون الأناشيد والمدائح العربية، وهم يستعطون على الأبواب وفي الطرقات، فيستمع الناس لهم ويتصدقون عليهم، لا لفهمهم ما يقولون وإنما شوقًا منهم وحنانًا للألحان والأنغام والقوافي الرنانة، كما كانت العربية هي اللسان الرسمي في صقلية على عهد رجار، ومن خلفه من الملوك بعد انقراض الحكومة الإسلامية منها، وكانوا يحررون بالعربية على المباني العمومية في تلك الجزيرة.

وذكرنا فيما تقدم أن لغة «رومان»، وهي لاتينية سوقية محرفة بكلام الغولوا، والفرنك انقسمت إلى شعبتين: (١) لسان أوق تكلم به أهل الجنوب لا سيما سكان بروفانس (٢) لسان أويل تكلم به أهل الشمال لا سيما سكان جزيرة فرنسا، وهي الأيالة التي عاصمتها باريس، وكان في الشمال شعراء يقال لهم «تروفير»، وفي الجنوب شعراء يقال لهم «تروبادور».

فالتروبادور الذين كانوا في أيالة بروفانس هم صنف من المداحين يطوفون من قصر لقصر، ومن قلعة لأخرى يغنون قصائدهم ويمدحون الأمراء وذوي الوجاهة، ويسمون أدبهم بالعلم المطرب، ولم تكن أشعارهم ذات قوافٍ كأشعار العرب، وإنما لها بدل القافية مراكز ومواقف كالأشعار التي يتغنى بها رعاة الغنم، وكان لهم فن من الشعر يسمونه تنسون Tenson على شكل المخاطبات يشابه ما أوجده الأندلسيون من الفنون الشعرية.

وأجمع العارفون على أن القوافي أول ما ظهرت في الشعر البروفانسال، وأنها مأخوذة من العرب، فالقافية عند الفرنساويين هي اتحاد الأحرف الصوتية الأخيرة وما يتبعها من الأحرف الساكنة في نهاية كل بيتين، أو قطعتين من الشعر مثل ساج وباج Sàge, Pàge، فالذي أخذوه عن العرب بالسماع والتقليد هو علم القوافي، وكانوا يستعملون قبل ذلك عوضًا عن القافية ما يسمونه «أسونانس»، وهو اتحاد الأحرف الصوتية الأخيرة بقطع النظر عما بعدها من الأحرف الساكنة في نهاية كل بيتين مثل ساج Sàge وآرم àrme.

وكان استعمالهم للقوافي في القرن الثالث عشر، وأخذوا عن العرب في المنظوم أنواع المدح، والغزل، والنسيب، والهجو، والهزل؛ أي ما يسمونه ليريك وما يسمونه ساتيريك، كما أخذوا عنهم في المنثور القصص، والملح وضروب الأمثال ومنها ما نقلوه نثرًا ثم نظموه في لغتهم، وجاروا العرب في الفكاهات أيضًا فألفوا حكايات وتظريفات على أقسة القرى، وخدمة الكنائس؛ ليضحكوا منهم الأمراء والفرسان

الذيـن يسـمونهم «شـيفاليه»، وفي هـذه الحكايـات والنـوادر المأخـوذة عـن العـرب مـا أصلـه الأول مـن حكايـات الفـرس والهنـود، وترجمـت إلى العربيـة ثـم نقلـت للإفرنجيـة، فلـو كان الحكـم والغلبـة لأهـل الجنـوب المجاوريـن للعـرب وللغتهـم المسـماة «أوق» لوجدنـا في اللغـة الفرنسـاوية الحاليـة شـيئًا كثـيرًا مـن فنـون الأدب العربيـة، ولكـن الحكـم والغلبـة كانتـا لأهـل الشـمال وللغتهـم المسـماة «أويـل»، وكان شـعراؤهم التروفـير لا يعرفـون غـير أشـعار الحماسـة، وقصائدهـم قصـيرة والبيـت مؤلـف مـن عـشرة هجـاءات ليـس لـه قافيـة، وإنمـا لـه «أسـونانس» كـما في أغـاني رولان الآتي ذكرهـا، واسـتمروا عـلى هـذا النظـم إلى آخـر القـرن الثـاني عـشر.

وفي القـرن الثالـث عـشر أخـذ شـعراء الشـمال وهـم التروفـير ينسـجون عـلى منـوال «التروبـادور»، وتعلمـوا منهـم القـوافي ورقـة الغـزل واللحـن الموسـيقي، وصـار فرسـان الإفرنـج يقلـدون فرسـان العـرب في انتحـال الشـعر، فكانـت فضائـل الفـارس المهـارة في الفروسـية، وحفـظ الشـعر والتمثـل بـه وفي لعـب الشـطرنج، فتحسـن الشـعر الإفرنجـي بإدخـال القـوافي العربيـة فيـه، وباقتبـاس أدب الأندلسـيين ورقـة غزلهـم.

## (٤) اقتباس الإفرنج أقاصيصهم عن العرب

•••

والحاصل أن الرومانيين لما فتحوا أرض الغول أدخلوا إليها مدنيتهم ولغة عوامهم، وهي اللاتينية الدارجة فلما استولى قبائل الإفرنج على أرض الغول أخذوا ما وجدوه فيها من اللسان والمدنية، فنتج من هذا الاختلاط لغة جديدة قيل لها: «رومان»، وأقدم المدونات في هذه اللغة هريمين ستراسبورغ، وهو صورة القَسم الذي أقسم به العسكر لأحفاد شارلمان حينما عقدوا معاهدة فيردون، وقسموا مملكة شارلمان إلى ثلاثة أقسام فرنسا وجرمانيا وإيطاليا، وأخذ كل منهم قسمًا وذلك في سنة ٨٤٣م، وسنة ٢٢٩هـ؛ أي في خلافة الواثق بالله هارون بن المعتصم بن هارون الرشيد في بغداد، وعبد الرحمن بن الحكم في قرطبة، فهذه أول مرة دونت فيها لغة رومان، وقامت مقام اللغة اللاتينية، ثم انقسمت لغة رومان إلى لسان أويل، وإلى لسان أوق، وانقسم لسان أويل وهو لسان الشمال إلى لهجات غلب على الجميع لهجة جزيرة فرنسا — وهي الجزيرة المحاطة بالأنهار المشتملة على باريس وما في جوارها — فصارت اللغة الفرنساوية. ثم عم استعمال هذه اللغة في الأيالات الجنوبية، وغلبت على لسان أوق سنة ٩٨٧م حينما تأسست الدولة الثالثة من دول الإفرنج، وهي الدولة التي دامت إلى حدوث الانقلاب الكبير، وظهور الحكومة الجمهورية، وكان مؤسس الدولة الثالثة هوغ قابت دوق جزيرة فرنسا، فأطلق هذا الاسم على عموم المملكة وعلى اللغة.

ولما كان اتساع دائرة النظم في تاريخ الأدب سابقًا لاتساع دائرة النثر، كان الكلام المنظوم أساسًا للأدب الفرنساوي، وأقدم نظم فيه هو «أغاني رولان» وتاريخ نظمها في النصف الأخير من القرن الحادي عشر وناظمها أو ناظموها مجهولون، ولا دليل على أنه تيرولد المذكور اسمه في آخر بيت منها، ورولان هو قائد جنود شارلمان الذين حاربوا الأندلسيين، وذلك أن شارلمان لما فتح الفتوحات العظيمة، وتتوج بتاج الإمبراطورية واستحصل من الخليفة العباسي على الإذن لحجاج النصارى في زيارة بيت المقدس طار له ذكر في الآفاق، وتحدث الناس به، ونظموا فيه القصائد، وقصوا عنه القصص والحكايات وأنشدوا الأناشيد، وفعل الإفرنج له ما فعله العرب لهارون الرشيد، غير أن فنون الأدب الإفرنجية لم تكن زاهرة كفنون الأدب العربية، بل كانت حديثة النشأة لم تهذب بعد، وكانوا يكتبون باللغة اللاتينية ما يحتاجون إلى كتابته وتدوينه، ولم يكن الملوك والأمراء ولا الرعية يفهمون اللاتينية الفصحى، وإنما كان يفهمها بعض الأساقفة والرهابين، فنظمت «أغاني رولان» و«حج شارلمان» باللسان الفرنساوي الذي كان يتكلمه أهل ذاك العصر؛ أي بعد شارلمان بأكثر من قرن.

وفي أغاني رولان من المبالغات ما في قصة عنتر، وجسمت فيها الحرب التي حصلت بين الإفرنج وعرب الأندلس، وجعلت رولان عنتر زمانه وألحقته بنسب شارلمان وادعت بأنه ابن أخيه وذراعه اليمنى، وذكر في هذه الأغاني أن سبب هزيمة رولان هو خيانة غانيلون، وذلك أن رولان بعث بتابعه غانيلون إلى والي سرقسطة — مركز ولاية أراغون — بمهمة حربية، وكان في ذهابه إليها خطر على حياته، فاغتاظ هذا

المأمور من آمره وانضم إلى المسلمين ودبر في قتل رولان وانهزامه، فلما رجع رولان ببقية الجنود إلى فرنسا، ووصل مضيق رونسيفو في جبال البيرينة هجم عليهم أهالي نافارا وغاسكونية المتفقون مع المسلمين في جيوش جرارة عدتها أربعماية ألف فارس، وكان لرولان مستشار ورفيق اسمه أوليفيه فنصحه بالاستمداد من شارلمان واستدعائه لنجدته، فلم يصغ في بادئ الأمر لمقاله، ولما أراد أن يعمل برأي أوليفيه العاقل ويتبع مشورته فات الوقت وذهب الأوان وغلبهم العدو بكثرة عدده، وأمسوا مختبطين في ظلام النقع وقتل بعضهم بعضًا، وضرب أوليفيه صاحبه رولان بالسيف ضربة خطاءٍ لا عمد فجرحته وسببت موته، فصورت تلك الأغاني موت رولان، ثم موت أوليفيه وطلب كل منهما السماح من الآخر ومباركة الأسقف توربين عليهما وغفران ذنوبهما.

وأراد رولان قبل موته أن يكسر سيفه المسمى «دوراندال»؛ لئلا يقع في أيدي أعدائه، أو يصل إلى مارسيل Marcile والي المسلمين في سرقسطة فلم يستطع كسر هذا السيف؛ لأنه من السيوف التي لا تكسر ولا تفل، ولعله من المعدن المسبوك منه صمصامة عنترة، وذو الفقار علي — رضي الله عنه — وهو الذي قيل فيه: لا سيف إلا ذو الفقار، وقد تهور الإفرنج في وصف «دوراندال» كما تهورت الشيعة في وصف ذي الفقار، وجعلوا القوة والشجاعة بأجمعها في السيف حتى لم يبق منها شيء لصاحب السيف، ولم يزل أثر الضربة التي ضرب بها رولان الصخرة بسيفه باقيًا إلى يومنا هذا يشاهده السائحون والمارون بمضيق رونسيفو، كما يشاهدون تل العلائف في جوار قرية أريحا من فلسطين، وهو التل الذي أحدثه على زعمهم جيش أبي زيد الهلالي حينما مروا

بقرية أريحا وأرادوا الصعود إلى جبل القدس، فنفضوا مخالي الشعير في أسفل العقبة فتكوم من الغبار الذي فيها هذا التل العظيم؛ لأنهم كانوا لا يحصون عدًّا لكثرتهم، هذا ما تتناقله الألسنة ويرويه الآباء عن الأجداد. ولعل الباحثين في الآثار القديمة لو حفروا في تل العلائف لوجدوا فيه أثرًا من الآثار، كما لو بحث العارفون بطبقات الأرض وبشكل الجبال لذكروا سببًا «لضربة رولان» في صخرة رونسيفو.

ولرولان حصان كأنه هو وأبجر عنترة بن شداد فرسا رهان، ولم يفت ناظم أغاني رولان ذكر الملائكة، وكيفية نزولهم واصطفافهم حوله لقبض روحه، فصور في منظومته الجهاد المسيحي وجعل فضائل المجاهدين الشجاعة العسكرية، والطاعة لأولي الأمر وهم «السوزيرين» من لم يعتقدوا بما أمر به وينتهوا عما نهى عنه بغضًا لوجه الله لا لعداوة دنيوية، ولا لمال ودولة.

وهذه الأغاني مطبوعة ومترجمة للفرنساوية العصرية، ومنها يظهر اعتقاد الإفرنج إذ ذاك في الإسلام والمسلمين، فإنهم كانوا يحسبون المسلمين دعاة إلى عبادة الأصنام ويعدون من أصنامهم أبولون، ولم يزل الكثير من أهل القرى الفرنساوية يعتقدون هذا الاعتقاد إلى يومنا هذا، كما تبين لي من محادثة الكثيرين منهم، وكان لأغاني رولان شأن في عموم أوروبا وفي إنكلترة، وترجمت في القرن الثاني عشر للميلاد للغة الألمانية، ولغة السويد والنوروج.

ومما نظم على نسق أغاني رولان حج شارلمان إلى بيت المقدس، وقصائد وحكايات كثيرة في الحروب الصليبية ربما يعتني في المستقبل بترجمتها

ومطالعتها المشتغلون بالتاريخ العربي، كما يعتني الإفرنج في زماننا في استخراج الكتب العربية وطبعها وترجمتها؛ ليقفوا منها على حقيقة تاريخية يوضحون فيها ما غمض من تاريخهم، وفي أواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر أقبل شعراء الشمال ينسجون على منوال شعراء الجنوب، ويقتبسون منهم المحسنات الشعرية ورقة الغزل والقوافي العربية، ووضعوا الألحان الموسيقية وتغزلوا بها وطبع من ذلك دواوين ورسائل كثيرة لا حاجة لذكرها.

ثم ظهرت الأشعار الهجوية، والهزلية، والمِلَح، والفكاهات مما هو على نسق كليلة ودمنة وضروب أمثال لقمان، وبقية الحكايات المؤلفة على ألسنة الحيوانات، فمن ذلك «رومان الثعلب» و«أمثال أيزوب» و«رومان روز» وغير ذلك، وقيل للمنظوم من ذلك: «الأغاني» أو «أغاني القصص»

## (٥) اقتباس الإفرنج العلوم عن العرب

•••

ولما اختلط ملوك أوروبا وأمراؤها بملوك الشرق، وأمراء المسلمين في أثناء الحروب الصليبية رأوا بأعينهم أدباء العرب، وشعراءهم، ومؤرخيهم، وأطباءهم، وحكماءهم سيما من كان منهم بمعية صلاح الدين الأيوبي مثل القاضي الفاضل والعماد الكاتب وعمارة اليمني الشاعر، والطبيب الحاذق الذي طبب ريشار قلب الأسد فقدروا الأدب حق قدره، واعترفوا بلزوم وضع تاريخ لدولتهم، فألف بعض الرهبان السالكين طريقة القديس ديني St. Denis تاريخًا لدولة الإفرنج، وكان ذلك على عهد لويس التاسع الملقب بالقديس، وهو المتوفى سنة ١٢٧٠م في تونس أثناء الحرب الصليبية الثامنة، فكان هذا التاريخ أول سجل لضبط وقائع ملوك الإفرنج، وتاريخ جلوسهم، ووفاتهم، وذكر شيء من أخبارهم وحروبهم، ودأموا على هذا السجل إلى أن ملك لويس الحادي عشر المتوفى سنة ١٤٨٣، وأنشئوا في مدينة مون بيليه مدرسة للطب، وذلك في القرن الثالث عشر، وهي أقدم مدرسة طبية في أوروبا بعد مدرسة سالرن التي بجوار نابولي، وكانت الأندلس في منتهى عزها وحضارتها، فجلبوا منها لمدرسة مون بيليه المعلمين والمدرسين من العرب واليهود المستعربين، وفي سنة ١٣٢٣م أنشئوا في مدينة طولوز جمعية أدبية دعوها مدرسة العلم المفرح Collége du gai sçavoir، وجعلوا جوائز الشعر أزهارًا مصوغة من الذهب والفضة تفرق على نوابغ الشعراء بعد تقدير الجمعية وحكمها.

وفي أواخر القرن الخامس عشر للميلاد أوقفت إحدى المحسنات من نساء طولوز أموالها على هذه الجمعية، فاتسعت ثروتها وزادت رغبة الشعراء فيها وأقبلوا على انتحال فنون الأدب، وحسنوا المنطق والكلام باللسان الفرنساوي، ولم تزل هذه الجمعية الأدبية زاهرة إلى يومنا هذا، وتسمى جمعية أو «أكاديمية لعب الأزهار»، وتتألف من أربعين محافظًا ومن معلمين كثيرين. وسمي أعضاء هذه الجمعية بالمحافظين إشارة إلى ما يجب عليهم بحسب قانونهم من المحافظة على قواعد اللسان وفنون أدبه، ويحتفلون في اليوم الثالث من الشهر مايو في كل سنة، ويوزعون الجوائز والنقود على مستحقيها، ولهم تسع جوائز من الذهب والفضة كل جائزة على شكل زهرة مخصوصة مثل الأقحوان، والياسمين، والسوسن ومنها ما هو للشعر، ومنها ما هو للنثر والخطب — ورأينا فيما سبق كيف نال فيكتور هوكو جائزة هذه الجمعية.

وفي القرن الرابع عشر للميلاد ترجم الإفرنج الكتب اللاتينية للفرنساوية، ونقلوا علوم اليونان وفلسفتهم عن العرب، ولم يكن لهم معرفة باللغة اليونانية، ولا بما دوِّن فيها فترجموا كتب أرسطو عن اللاتينية المترجمة عن العربية، والعربية مترجمة من اليونانية أو السريانية، ثم ظهر فن التشخيص وكان منشأه من الكنيسة، ومن تشخيص آلام المسيح — عليه السلام — وما شُبه لهم فيه من القتل والصلب، فهذا أساس فن التشخيص ثم وسعوا دائرة هذا الفن ووضعوا فيه المؤلفات الكثيرة، واستحدثوا فيه أنواعًا مختلفة وطرقًا متنوعة، وأقبلوا على درس أدب اللغة اللاتينية وأدب اللغة اليونانية، وتبحروا فيهما فانتقشت أساليب هاتين اللغتين في نفوسهم، وحذوا حذو شعراء الرومان واليونان،

واتخـذوا أشـعارهم ورواياتهـم منـوالًا نسـجوا عليـه أمثالهـا مـن كلـمات أخـرى فرنسـاوية، ولم يزالـوا كذلـك حتـى بلغـوا شـأوًا كبـيرًا عـلى عهـد لويـس الرابـع عـشر (١٦٣٨-١٧١٥م) الملقـب بالكبـير، وأصلحـوا فنـون الأدب وهذبوهـا، وفتحـت الماركيـزة رامبويـه دارهـا للأدبـاء مـن سـنة ١٦٣٥ إلى سـنة ١٦٦٥م، وكانـت تسـتقبلهم هـي وبناتهـا ويعقـدون في حضرتهـا منتـدى أدبيًّـا يحـضره الشـعراء، والأدبـاء، والظرفـاء ويتسـامرون فيـه وينشـدون الأشـعار، ويقصـون القصـص والنـوادر الأدبيـة والعلميـة، فـكان هـذا أول نـادٍ في باريـس خـدم انتشـار الأدب والمعـارف، وسـاعد عـلى ترقـي اللغـة وعـلى اجتـماع الرجـال بالنسـاء في جلسـة أدبيـة محترمـة، وتقـرب الأدبـاء مـن الأمـراء وأربـاب الوجاهـة بعـد أن كانـوا مختصريـن لا يحترفـون بـالأدب إلا لاسـتجداء المعـروف وطلـب الإحسـان. وصـارت السـيدات الفرنسـاويات يقلـدن الماركيـزة في الإقبـال عـلى تحصيـل الأدب والمعـارف، وفتـح أبوابهـن للشـعراء والكتبـة، وأرادت بعـض سـيدات الأسـتانة في عصرنـا تقليـد الماركيـزة في حمايـة الأدب والمعـارف، فنجـح عملهـن مـدة ثـم أقفلـت دورهـن.

وفي سـنة ١٦٣٥ أسـس الكاردينـال ريشـيليو الأكاديميـة الفرنسـاوية مـن أربعـين عضـوًا وفـوض إليهـم جمـع قامـوس اللغـة الفرنسـاوية، ثـم أسسـت أكاديميـة الفنـون والآداب واشـتغلت بالتاريـخ والآثـار القديمـة، ثـم أكاديميـة العلـوم الأخلاقيـة والسياسـية واشـتغلت في الفلسـفة وعلـوم الاقتصـاد، ثـم أكاديميـة العلـوم الرياضيـة والطبيعيـة، وأكاديميـة الصنائـع النفيسـة وغـير ذلـك مـن المؤسسـات العلميـة النافعـة، وظهـر مـن الأدبـاء بالـزاق وفولتـير وديـكارت (١٥٩٦-١٦٥٠م)، وهـو الـذي أحيـا الفلسـفة وأوجـد التعبـيرات الفلسـفية في اللغـة الفرنسـاوية، وكان إمامًـا في الأدب فسـلك فيـه مسـلكًا

جديدًا، واتخذ لنفسه طريقة مخصوصة تنسب إليه وتسمى باسمه.

ثم أنشأ ألكساندر هاردي مرسحًا في باريس شخص فيه روايات كثيرة أخذ موضوعها من إسبانيا لتقدم فنون الأدب فيها لسبب مجاورتهم للعرب. وظهر من فحول الأدباء بيرقورنيل (١٦٠٦-١٦٨٤م) صاحب رواية هوراس التي صور فيها فضائل الرومان ومحبتهم لأوطانهم وبذلهم دونها المال والبنين. وأبدع ما في هذه الرواية حديث المرأة التي أتت شيخًا من قبيلة هوراس تخبره بموت ابنيه في حرب لهم مع قبيلة كورياس وبنجاة ولده الثالث بالفرار من ميدان الحرب، فتجلد الشيخ على موت ابنيه وغضب من فرار ولده الثالث، فقالت له المرأة: «ماذا تريد أن يفعل وهو وحده مع ثلاثة من أعدائه؟» فأجابها الشيخ: «أريد أن يموت.»

ومن أئمة الأدب المؤسسين لطريقة «كلاسيك» راسين (١٦٤٩-١٦٩٩) وكان معاصرًا لقورنيل ورقيبًا له، نظم رواية أندروماخه ونسجها على منوال رواية بهذا الاسم لأحد شعراء اليونان الأقدمين، ثم درس تاريخ العبرانيين ونظم رواية «أستير» ورواية «أتالي» التي قال فيها فولتير: بأنها أحسن ما ألفه العقل البشري، وسموا هذا النوع من الروايات الفاجعة التاريخية «تراجيدي»، ومن مشاهير أدبائهم المتقدمين بوالو الشاعر الهجاء مؤلف الهزليات وصاحب المذهب في فن الأدب، ومولير مؤلف المضحكات المسماة كوميدي، وفنلون مؤلف تيلماك المترجم للعربية والمطبوع في بيروت، وترجمه للتركية يوسف كامل باشا بألفاظ لغوية وعبارة عويصة، وترجمه أحمد وفيق باشا بألفاظ سهلة.

ولافونتين مؤلف الحكايات المنظومة على ألسنة الحيوانات، وكانت المدارس الابتدائية تعول عليها في تدريس اللغة الفرنساوية وتحفظها للأطفال، وأما اليوم فقلَّت الرغبة فيها.

ثم ظهر مونتسكيو مؤلف «أسباب اعتلاء الرومانيين وسقوطهم» و«روح القوانين» و«الرسائل العجمية»، وبوفون مؤلف التاريخ الطبيعي، وفولتير الشهير الذي لم يدع بابًا من أبواب الكتابة، وفنون الشعر والإنشاء إلا طرقه، وديدرو صاحب الإنسكلوبيديا، وجان جاك روسو الذي هيَّج الأفكار بمؤلفاته، وهيأ حدوث الانقلاب الكبير، وبرناردن دوسن بير مؤلف بول وفيرجيني وغيرها من القصص والسياحات.

## (٦) الطريقة المدرسية والطريقة الرومانية في أدب الإفرنج، وما أخذوه من ذلك عن العرب

•••

أدب كل لسان — كما لا يخفى — هو مجموع ما حصلت الإجادة في تأليفه بذلك اللسان من فني المنظوم والمنثور، فمن أمعن النظر في أدب اللسان العربي وجد فيه طرقًا كثيرة ومذاهب شتى للكلام، ورأى فريقًا من الذين أحرزوا قصب السبق في أدب العرب يتوخى حفظ الألفاظ وتصنيعها، وفريقًا آخر يختار ضبط المعاني وترتيبها، وعلم أن لكل واحد من أئمة البلاغة وأمراء الفصاحة منهاجًا معروفًا وطريقة مألوفة، فلو راجعنا البصر في رسائلهم المنثورة وتأملنا طرز إنشائها لتبين لنا أن منهم من سلك طريقة الأصل، أو طريقة السجع، أو طريقة الجاحظ إمام الأدب، ومنهم من جمع بين طرق المتقدمين وطريقة المتأخرين حتى خلص لنفسه طريقة. ثم لو أعدنا النظر ثانية في نظم أشعارهم لظهر لنا أن منهم من نسج على منوال شعر الجاهلية، ولم يخرج عن الأساليب التي راعوها، ومنهم من لم يجرِ على أساليب العرب المتقدمين كالمتنبي والمعري، بل اتخذ كل منهما منوالًا خاصًّا لنسج كلامه، وأوجد قالبًا جديدًا لبناء شعره فأصبح في الأدب إمامًا يقتدى به. ثم إذا بحثنا في مؤلفات أولئك الأئمة باعتبار آخر رأينا منهم من أطلق العنان للمخيلة الشعرية، فأتى بالمعجز من آيات البيان، ومنهم من استغرق في الحب استغراق ابن الفارض وتجليه، وإذا وصفوا الأمكنة والأشخاص أو المواد والمعاني، منهم من يصور لك الموصوف على حقيقته بلا خلف فيه، ومنهم من يجعل وصفه يربو

على الموصوف ويتعداه أو يقصر عنه، ثم إذا استقصينا البحث نجد طائفة من أمراء البلاغة قد تركوا لغة مضر وما فيها من الإعراب، ونظموا أشعارهم بلسان الحضر، وهي اللغة الدارجة في أمصارهم؛ لأن البلاغة لا تختص بلسان مضر، بل توجد فيه وفي لسان الحضر وفي غيرهما من الألسن الأعجمية، ونجد منهم أيضًا طائفة أخرى في الأندلس وغيرها خرجوا عن أوزان العروض المعروف عند العرب إلى أعاريض مختلفة ومقاطيع متفاوتة، إلى غير ذلك مما هو مفصل في مواضعه ومعلوم عند أربابه سيما بعد طبع كتب الباقلاني والجرجاني، وغيرهما من الأئمة الواضعين لفن الانتقاد الأدبي.

فالأمم الأوروبية على اختلاف قومياتهم، وتفرق لغاتهم ظلوا لأواخر القرن الحادي عشر للميلاد محرومين من الأدب وفنونه، ولم يكن فيهم إلا أفراد من القسوس، والأساقفة يحفظون في الأديرة شعر فرجيل اللاتيني ولا يفهمون مغزاه كما يحفظ مشايخ الأعاجم في زماننا شعر المتنبي والمعلقات، ففي أوائل القرن الثاني للهجرة والثامن للميلاد أخذت الأفكار تتبادل بين المسلمين وبين أمم أوروبا من الإسبانيين، والطليان، والإفرنج ودامت الصلات لا تنقطع بين الفريقين المتحاربين لا في الحرب — بواسطة الأسرى والسفراء — ولا في السلم بسبب الأخذ والعطاء، وكان الأرسخ قدمًا في الحضارة يكسب جاره أدبًا وعرفانًا. وفي القرن العاشر للميلاد تغلب البابا سيلفستر الثاني على التعصب الديني، وخرج من مدينة أورياق مسقط رأسه، وقطع عقاب البيرينة ومياه الوادي الكبير، وجاور في إشبيلية ثلاث سنوات، وفتح لقومه باب العلم والمعارف فدخلوه طوعًا أو كرهًا، وارتحل الإفرنج في طلب

العلـم إلى مـدارس الأندلـس، وحـضروا عـلى مشـايخها، وعـادوا لأوطانهـم متنوريـن يلقـون الـدروس في سـاحات المـدن الكبـيرة، وتجتمـع حولهـم الطلبـة والعـوام عـلى مألـوف العـادة الجاريـة ليومنـا في المـدارس والجوامـع الإسـلامية، فـأدرك النـاس فوائـد العلـم، وقـرب الملـوك والأمـراء منهـم علـماء المسـلمين، وأغدقـوا عليهـم، فـكان الشريـف الإدريـسي صاحـب الجغرافيـة عنـد رجـار المعـروف عندهـم بروجـر الثـاني ملـك صقليـة ونابـولي، وهـو مـن سـلالة الملـوك النورمانديـين، وكان أحفـاد ابـن رشـد المتضلعـون في علـم الحيـوان والنبـات عنـد خلفـاء رجـار في مملكـة صقليـة، ونابـولي المعـبر عنهـما بالصقليتـين، فـكان مثـل هـؤلاء كمثـل الأوروبيـين المسـتخدمين اليـوم في الممالـك الشرقيـة.

وظـل الإفرنـج بعـد اسـترداد صقليـة يكتبـون بالعربيـة عـلى المبـاني العموميـة والعـمارات الملوكيـة، واسـتعمل علماؤهـم اصطلاحـات العـرب العلميـة في جميـع أوروبـا، وفي القـرن الثالـث عـشر للميـلاد فتحـوا مدرسـة للطـب والعلـوم في مدينـة مـون بيليـه القريبـة لمرسـيليا، وجـاءوا لهـا بالمعلمـين مـن عـرب الأندلـس ويهودهـا المسـتعربين، فكانـت تلـك المدرسـة أقـدم المـدارس في أوروبـا بعـد مدرسـة سـالرن القريبـة لنابـولي، ولم تـزل مدرسـة مـون بيليـه عامـرة يقصدهـا طلبـة العلـم مـن الأسـتانة ومـصر وغيرهـما مـن بـلاد الـشرق، ثـم في سـنة ١٣٢٣ أنشـأ أدبـاء الإفرنـج في مدينـة طولـوز التـي فتحهـا العـرب سـابقًا جمعيـة أدبيـة لم تـزل زاهـرة إلى يومنـا هـذا، وتسـمى جمعيـة «لعـب الأزهـار»، وتفـرق في كل سـنة عـلى نوابـغ الشـعراء عـشر جوائـز مصوغـة مـن الذهـب والفضـة عـلى هيئـة الأزهـار، وكان لفيكتـور هوكـو منهـا أوفـر نصيـب كـما تقـدم، ومعلـوم أن العـرب أقامـوا

مـدة بتلـك الأصقـاع، وحرثـوا أرضهـا، وتزوجـوا بناتهـا وعمـرت بهـم مدينـة أربونــة (ناربــون) وقرقشــونة (قرقســون) وفراقســنة، وكانــت مســتعمرة للعـرب في شرق مرسـيليا، وقسـطل سـارازين ومعناهـا قلعـة العـرب، وهـي في الشـمال الغـربي مـن طولـوز.

فتعلـم الإفرنـج مـن العـرب القـوافي، ورقـة الغـزل، وآداب النظـم والنـثر، وتلحـين الأغـاني والشـعر ونقلـوا عنهم القصـص والحكايات والنـوادر، وضروب الأمثـال، والحكـم المنقولـة عـن الفـرس والهنـود كـما هـو مفصـل في تواريـخ الأدب الفرنسـاوي، وإلى ذلـك أشـار الموسـيو رينـه دوميـك في كتابـه المتـداول بأيـدي طلبـة العلـم في عمـوم المـدارس الفرنسـاوية، وبعـد أن اطلـع الإفرنـج مـن كتـب الإسـلام عـلى مـا عنـد اليونـان مـن الفلسـفة والحكمـة أقبلـوا عـلى درس اللغـة اليونانيـة، ولم يهملـوا كتـب أدبهـا كـما أهملهـا العـرب مـن قبلهـم، بـل تهافتـوا عـلى درس أدب اليونـان واللاتـين وعـلى حفـظ أشـعارهم والتمثـل بهـا، وهامـوا في قـص قصصهـم وفي تشـخيص رواياتهـم؛ لأن فـن التشـخيص أو التمثيـل كان شـائعًا عنـد اليونـان والرومـان وألـف أدباؤهـم كثـيرًا مـن الروايـات واشـتهر منهـا مؤلفـات أوريبيـد وسـيما روايـة «أندروماق» التـي نسـج راسـين عـلى منوالهـا، ولا يـزال السـياح يشـاهدون في أتينـة عـلى سـفح الجبـل تحـت قلعـة الأقروبـول آثـار المرسـحين العظيمـين اللذيـن هـما مـن بقايـا التمـدن القديـم.

وكان أسـبق أمـم أوروبـا إلى تحصيـل فنـون الأدب الإسـبانيول، والطليـان المجـاورون للعـرب، فظهـر في الأولـين مـن فحـول الشـعراء لـوب دوفيكـه، ونظـم نحـو ألـف وثمانمايـة روايـة تمثيليـة، وظهـر فيهـم أيضًـا الشـاعر

قالديـرون ولوقـين وغيرهـم، وفي الطليـان ظهـر الشـاعر دانتـي (١٢٦٥-١٣٢١م)، وطـار لـه ذكـر في العـالم، وهـو يعـد في مصـاف أكـبر شـعراء الأمـم القديمـة والحديثـة، وسـبب شـهرته كتابـه الموسـوم بالكوميديـة الإلهيـة — ديفـين كوميـدي — ألفـه في غضـون سـنة ١٣٠٠م، وجعلـه عـلى ثلاثـة أبـواب بـاب في جهنـم، وبـاب في الأعـراف، وبـاب في الجنـة، وسـمى البـاب منهـا بالنشـيد وقسـمه إلى مائـة غنـاء، كل غنـاء يشـتمل عـلى ١٣٠ أو ١٤٠ بيتًـا، وافتتـح كتابـه بـباب جهنـم، وصـور نفسـه مشرفًـا عـلى غابـة مظلمـة تقشـعر الجلـود مـن سـماع وصفهـا، وهَـمَّ بدخولهـا لـو لم يعترضـه ثلاثـة سـباع كاسرة. وبينـما هـو بـين أظفـار المنيـة وإذ ظهـر لـه فرجيـل الشـاعر اللاتينـي، وعـرض عليـه أن يكـون قائـدًا لـه في الأعـراف والسـعير فقـط؛ لأنـه لا يسـتطيع دخـول الجنـة ولا وطء عتابهـا لكونـه مـن عبـدة الأوثـان، فقبـل دانتـي بقيـادة فرجيـل لـه وسـارا معًـا في عـالم أهـل النـار، وأطنـب الشـاعر في وصـف أصحـاب السـعير، وصـور عـذاب الذيـن مـر بهـم مـن الظلمـة والجباريـن، وأتى عـلى قصـة أيكولـين، وكان جبـارًا عنيـدًا في مدينـة بيـزا فوقـع بأيـدي أعدائـه فوضعـوه مـع أولاده في بـرج، وسـدوا عليهـم جميعًـا فاشـتد بـه الجـوع وأكل أولاده ثـم هلـك.

فوصـف دانتـي جميـع ذلـك بصـورة هائلـة عـلى الأسـلوب المعـروف بالدراماتيقـي، ولمـا أدتـه خاتمـة المطـاف إلى الجنـة وجـد ببابهـا بياتريـس، وكانـت مـن ربـات الجـمال المشـهورات بمدينـة فلورانسـا، وقيـل كانـت معشـوقته فتلقتـه واخترقـت بـه طبقـات الجنـة المسـيحية، أو طبـاق السـموات فلقـي فيهـا كثـيرًا مـن الأبـرار، والقديسـين، والملائكـة المقربـين

وباحثَهم بالمسائل اللاهوتية والعلوم الإلهية والكلامية. وجمع دانتي في مؤلفه علوم العصر وآدابه ومعارفه، ووضع به أساس اللغة الطليانية، فكان كتابه كدائرة المعارف والآداب، ولم يزل يستوقف أنظار الأدباء بحسن ترتيبه وجودة سبكه وبما فيه من المهارة العجيبة في التنقل من مبحث إلى آخر، فالكوميدية أو المضحكة الإلهية أشبه برسالة الغفران التي حررها المعري قبل تأليف الكوميدية بأكثر من قرنين وقدمها جوابًا لرسالة وردت عليه من أحد أصحابه الأفاضل في حلب، وانتقل فيها لذكر الجنة ونعيمها ولذكر من دخلها من الشعراء الذين يتبعهم الغاوون وفي كل واد يهيمون، وما كانوا يدخلونها إلا بعمل صغير كان له عند الله أجر كبير، فغفر لهم ما تقدم من الذنب وما تأخر، وقالت لهم الملائكة: طبتم فادخلوها خالدين.

واقتفت الأمم الأوروبية أثر الإسبانيين والطليان في العدول عن اللغة اللاتينية إلى وضع لغاتهم القومية وتدوينها، وأقبل الأدباء في إنكلترة على التأليف باللغة الإنكليزية. وأصلح الفرنساويون لسان رومان وهذبوه فأصبح اللغة الفرنساوية. واقتفى الألمان أثر من ذكر من الأمم، ودونوا لغتهم الألمانية، وكان فن الأدب منحصرًا في الخواص شأنه عند العرب ولا نظر للعوام فيه؛ ولذا اختار الأدباء اصطلاحات مخصوصة من اللغة وتصنعوا في كلامهم وتعملوا له؛ لأن الخواص من الناس يأنفون من استماع الكلام السوقي المبتذل، ويألفون الغوص على المعاني وإعمال الذهن في استخراجها، ثم ظهر في فرنسا ألكسندر هاردي، وهو أول من أصلح فن التمثيل واللعب على المراسح، واتخذ

الروايات الإسبانية نموذجًا له، ونظم على منوالها كثيرًا من الروايات الفرنساوية وشخصها على مرسح باريس في حدود سنة ١٦٠٠م. وفن التمثيل كما لا يخفى هو من أكبر العوامل على ترقي فنون الأدب وإصلاح طرق النظم والنثر؛ لأن الأديب يخاطب بهذا الفن الجمهور، وأصناف الناس فيتحرى في كلامه التعبير الذي يستطيعون فهمه، والأساليب التي لها وقع في نفوسهم بخلاف من يؤلف كلامه للخواص، فإنه يتعمل في التأليف ويتصنع ليظهر تفننه واقتداره على إيراد النكت والدقائق التي لا يفهمها إلا أصحاب الغوص على المعاني.

والتمثيل كما لا يخفى مشتق من ضرب المثل، فإن الرواية التمثيلية ما هي إلا ضرب مثل جامع للأطراف والتفاصيل، وأحسن ضروب الأمثال وأبدعها وردت في القرآن الكريم الذي تحدى به النبي — عليه السلام — العرب، وقال أتوني بسورة من مثله فقالوا: أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف فذاك يمكنك ما لا يمكنا، قال: فهاتوها مفتريات. فالرواية هي أسلوب من أساليب المفتريات، وأساس فن التمثيل عند الأوروبيين مستفاد من أعمال المتعبدين في الكنائس، ومن تشخيص ما شبه لهم في المسيح ابن مريم — عليهما السلام — من القتل والصلب، ومن تمثيل آلام الذين اقتدوا به من القديسين والشهداء في سبيل النصرانية، ولما درس الإفرنج اليونانية واللاتينية وانتشقت أساليب هاتين اللغتين في نفوسهم حذوا حذو شعراء اليونان والرومان، واتخذوا رواياتهم منوالًا نسجوا عليه أمثالها من كلمات أخرى فرنساوية، وربما ترجموا أبيات شعرهم وسرقوا معانيهم وصاغوها في ألفاظ فرنساوية

مـن الطبقـة العليـا وتأنقـوا فيهـا نهايـة التأنـق، وراعـوا قواعـد النحـو والـصرف والعـروض، وبقيـة علـوم الآلات المدرسـية والأسـاليب المتعارفـة، فجـاءت أبياتهـم متينـة وقوافيهـم عامـرة وكل بيـت منهـا كلام تـام في مقصـوده، ويصلـح أن ينفـرد دون مـا سـواه.

ولم تحصـل الملكـة في ذلـك إلا لمـن هـو عـلى جانـب مـن العلـم، ولـه الحـظ الأكـبر مـن الـذوق السـليم لاحتياجـه إلى تلطـف كثـير في اسـتحصال الملكـة حتـى يفـرغ الـكلام الشـعريَّ في قوالبـه التـي عرفـت لـه، وبلـغ الأدب الفرنسـاوي في عـصر لويـس الرابـع عـشر؛ أي مـن سـنة ١٦٠٠ إلى سـنة ١٧١٥ أوج الكـمال ومنتهـى البلاغـة، وأصلـح الأدبـاء فنـون الأدب ورتبوهـا عـلى القواعـد، وهذبوهـا ووضعـوا المؤلفـات الجليلـة والروايـات البديعـة، وظنـوا بأنهـم لم يتركـوا شـيئًا للمتأخريـن. فـكان عـصر لويـس الرابـع عـشر في الأدب عـصرًا مدرسـيًّا (كلاسـيك) أشـبه بعـصر أغسـطوس عنـد الرومـان، وبعـصر بيرقلـس عنـد اليونـان. ونبـغ مـن شـعراء الفرنسـاويين في فـن الفاجعـات (تراجيـدي) الأديـب بيـير قورنيـل، والشـاعر المفلـق راسـين، ونبـغ في فـن المضحـكات (كوميـدي) الأديـب موليـر، ونبـغ في فـن الهجويـات (سـاتير) الأديـب المدقـق بوالـو، فهـؤلاء مـن نوابـغ العـصر المذكـور الـذي بلـغ اللسـان فيـه منتهـى الفصاحـة والبلاغـة، ومـن أحسـن مؤلفـات بيـير قورنيـل روايـة السـيد، والكلمـة عربيـة لقـب بهـا أحـد أبطـال الإسـبانيين في القـرن الحـادي عـشر للميـلاد، وبيـان ذلـك: أن العـرب بعـد اسـتيلائهم عـلى جزيـرة الأندلـس١٦ التجـأت بقيـة السـيوف مـن القـوط إلى جبـال أسـتوريا، وتحصنـوا فيهـا وملـوا شـعثهم وشـكلوا حكومـات، وإمـارات

صغيرة فلم يعبأ بهم العرب وحسبوهم من قطاع الطرق المتشردين في الجبال، وتشاغلوا عنهم بإعمار تلك السهول وتمنعوا برياضها الغناء، فمن الإمارات التي أسسها القوط في شمال الأندلس أستورية، وليون، وقشتالة، وكان المالك عليها في ابتداء القرن الحادي عشر للميلاد فرديناند الأول فأوصى بتقسيم الملك بعد وفاته بين أولاده، فكان ابنه ألفونس السادس على ليون الإسبانية، وابنه الثاني سانش على قشتالة، فالسيد صاحب الرواية ولد سنة ١٠٣ وسمي رودريك، وكان أبوه الدون ديغوا من أشراف القوط فأدخله في سراي فرديناند الأول، وبعد وفاته دخل في خدمة ابنه سانش، ولما اقتتل الأخوان وانهزم سانش في إحدى المواقع قوَّى السيد عزمه، وأشار عليه بالمشورات الحسنة فاتبع رأيه، وانتصر على أخيه وحبسه وتفرد بالملك على ليون وقشتالة، فكان السيد له نديمًا ووزيرًا وناصحًا ومشيرًا، ثم حدثت فتنة وقتل سانش في محاصرة زامورة وخلفه أخوه ألفونس السادس، فأمن السيد وأقسم له الأيمان المغلظة بأنه لا مدخل له في قتل أخيه سانش، وقربه منه وزوجه بواحدة من قريباته، وكانت على رواية التاريخ عجوزًا شنعاء، ولم يتزوجها السيد إلا طمعًا في مالها. وبعد أن تم الأمر لألفونس السادس وأمن غوائل الرقباء فعل بالسيد ما يفعله المستبدون من الملوك، وصادره وأراد الفتك به ففر من ملكه إلى الحدود الإسلامية، وعمر قلعة بالقرب من سرقسطة (ساراغوس) بين دارقة والقنيز، ولم يزل أثر تلك القلعة على صخرة عالية تسمى صخرة السيد كما تنسب الصخرة التي في رونسيفو؛ أي في مدخل جبال البيرينة إلى رولان.

واستقل السيد بحكمه في تلك القلعة، وكان يتعيش هو ورجاله من النهب والغارة على القرى المجاورة، ومن قطع الطرق على القوافل الإسلامية والمسيحية، فاشتهر خبره وتحدثت الركبان بشجاعته ثم اتفق مع أمير سرقسطة وأمير البراسين، وهما من أمراء المسلمين، وقاتل معهما أمير أراغون المسيحي، وحارب كذلك عسكر ألفونس السادس والمتفقين معه من أمراء المسلمين؛ لأنهم كانوا متفرقي الكلمة يقاتل بعضهم بعضًا، فجاءهم يوسف بن تاشفين بعساكر المرابطين من إفريقية ووحد كلمة الإسلام في عموم جزيرة الأندلس مع أنه كان أميًّا بربريًّا، فوقف السيد أمام المرابطين ودفع هجماتهم عن بلنسية، ولم يمكنهم من الاستيلاء عليها إلا بعد وفاته في سنة ١٠٩٩م. فتحدث القريب والبعيد بشجاعة السيد وثبات عزمه وطار له ذكر بين الفرسان، ونظمت فيه القصائد العنترية أو الهلالية بلسان رومان، ثم جاء قورنيل ونظم فيه روايته المشهورة بدون التفات للتاريخ ولا تعمق فيه، بل نسج على منوال القصائد الرومانية وتخيل فيها تخيلاته الشعرية، وجعل تلك المرأة التي تزوجها السيد بديعة الحسن والجمال، ولما عشقها وعشقته اتفق أن والدها أهان والده، فانقض عليه السيد وقتله، وتمكن من تسليط إرادته على عشقه، أما اسم السيد فأطلق عليه حينما كان متفقًا مع أمير سرقسطة وأمير البراسين وحارب معهما، ولم نتعمق في التاريخ لنفهم هل دخل السيد في الإسلام أم لا، ومن أبيات قورنيل في روايته المذكورة قوله: «كلاهما سمياك سيدهما بحضوري؛ لأن السيد بلسانهم تعادل كلمة سنيور.»

أمـا مـا ألفـه راسـين مـن الروايـات الموافقـة تمامًـا للقواعـد المدرسـية، فأحسـنها روايـة «أندروماق»، ونسـجها عـلى منـوال سـميتها الروايـة اليونانيـة المؤلفـة قبـل الميـلاد بأربعـة قـرون، وتخالـف روايـة السـيد في وحـدة الزمـان وفي أخـلاق بطلهـا لتغلـب العشـق عليـه، وانتصـاره عـلى إرادة العاشـق. ومـن روايـات راسـين «أسـتير» الإسرائيليـة ويشـخصها أحيانًـا طلبـة المـدارس في بـيروت، وروايـة «أتـلي» وهـي مـن الإسرائيليـات أيضًـا؛ قـال فولتـير: إنهـا أحسـن محصـولات العقـل البـشري. ومـن أحسـن مـا ألفـه مولـير في المضحـكات روايـة «تارتـوف»، وهـو رجـل مـراءٍ في نسـكه وعبادتـه أغفـل بخبثـه أحـد المتولـين مـن البسـطاء، واسـتولى عـلى أموالـه وعيالـه فصـار اسـم تارتـوف كنايـة عـن الريـاء والخبـث، وقـد أتى المعـري بأبيـات كثـيرة تشـتمل عـلى مضمـون هـذه الروايـة كقولـه:

وليس عندهم دينٌ ولا نُسـكٌ

فلا تغرك أيدٍ تحمل السـبحا

وكم شـيوخ غدوا بيضًا مفارقهم

يسـبحون وباتوا في الخنا سبحا

وألـف بوالـو كتـاب الهجويـات (سـاتير) ووضـع في قواعـد الشـعر كتابًـا سـماه الفـن، أو الصناعـة الشـعرية (آربويتيـك) وأنكـر الشـعر والشـعراء في المتقدمـين، وقـال: لم تـأتِ فرنسـا بشـاعر قبـل «مالـيرب»؛ أي إن الشـعراء الذيـن جـاءوا قبـل دخـول القـرن السـابع عـشر لا يسـتحقون الذكـر في مصـاف الشـعراء؛ لعـدم إتيانهـم بالـكلام المـدرسي المنتظـم المعقـول، ولتهافتهـم عـلى التصنـع البـارد في الـكلام وإظهـار الرونـق الـكاذب فيـه،

وبيان مهارتهم وعلمهم بكل ما هو من فضول الكلام؛ ولذا فكلامهم لا طعم له وفيه كثير من الغرور والإعجاب. فبوالو بالغ في كلامه وحطَّ كثيرًا من كرامة المتقدمين، ولكنه أصلح أساليب الشعر الفرنساوي كما أصلح باسكال أساليب النثر، وكان باسكال إمامًا في العلوم الرياضية والطبيعية، واقتفى أثر بوالو في انتقاد كلام المتقدمين لوزير ضيا باشا، وألف مجموعة سماها الخرابات خرب فيها كثيرًا من أشعار الفرس والترك والعرب المتقدمين عليه، وكانت وفاته في بروسة سنة ١٢٩٥هـ فجاء كمال بك إمام الأدب في اللسان العثماني، وكتب عليه انتقادًا سماه تخريب الخرابات، ونشره في مطبعة أبو الضياء فالغاية التي يتطلبها أئمة الأدب العثماني كاللذين ذكروا عبد الحق حامد بك مستشار سفارة لوندره، وأكرم بك، وسعيد بك من أعضاء الشورى، والمعلم ناجي أفندي المتوفى منذ بضع سنين وبقية النشأة الجديدة؛ هي تخليص لسانهم من مبالغات الفرس الأعاجم والسلوك فيه منهج بوالو، وراسين، وقورنيل، ومولير وبقية أدباء عصر لويس الرابع عشر؛ لأن هؤلاء الأدباء يذهبون إلى أن التخيل الشعري ينبغي أن يكون مقرونًا بالتعقل، فعندهم أن الشعر ليس أعذبه أكذبه، بل أحسنه أصدقه كما قال حسان:

وإن أحسن بيت أنت قائلهُ

بيت يقال إذا أنشدته صدقا

واشـترطوا في الروايات التمثيلية ثلاثة شروط:

- وحدة الزمان.
- وحدة المكان.
- وحدة العمل.

أي إن الحادثة الممثلة على المرسح يشترط تصور حدوثها في زمن واحد؛ أي في ظرف ٢٤ ساعة مثلًا؛ ليكون التمثيل أقرب إلى الحقيقة، وأشبه بالواقع؛ لأن حوادث الأربعة والعشرين ساعة يمكن اختصارها وتمثيلها في ساعتين، فراسين راعى هذا الشرط في رواية أندروماق، وقورنيل خالفه في رواية السيد، ونقل بطل الرواية من سنة إلى أخرى، فالقائلون بهذا الشرط تنقبض نفوسهم من تمثيل الحوادث التي حدثت في أزمان متطاولة، وقصدهم من وحدة المكان اشتراط وقوع الحادثة في مكان واحد؛ لئلا ينتقل ذهن السامع من مكان لآخر، فيبتعد بذلك عن الحقيقة؛ ولذا كانت مراسح القائلين بهذا الشرط ثابتة المناظر من أول اللعب إلى آخره، بحيث إذا رُفع الستار عن مكان يبقى المكان بعينه في الفصل الثاني وما بعده من فصول الرواية لمراعاة شرط وحدة المكان، والمراد من الشرط الثالث أن يكون بطل الرواية واحد وعروسها واحدة، ثم السعي وراء عمل واحد، وهو الحب مثلًا وينتهي بفناء المحبين، أو أحدهما، أو انتصارهما أو تغلب إرادة العاشق على عشقه كما فعل السيد، وقتل أبا معشوقته أخذًا بثأر أبيه، أو بالعكس كما قتل سفير اليونان زوج محبوبته في رواية أندروماق وخان بذلك وطنه، ولم يرع عهد من ائتمنه، كل ذلك مرضاة لمعشوقته.

فمصدر هذه الشروط والقيود وأمثالها هو التعقل في الكلام الأدبي، وتحكيم الذوق السليم في فنونه، ولم يكن الأدباء قبل عصر لويس الرابع عشر يتعقلون في نظمهم ونثرهم، ولا يحكمون الذوق السليم فيها؛ ولذا كانت فنون أدبهم مشحونة بالخرافات والأباطيل، وبما هو خارج عن الطبيعة والاعتدال وخارق للعادة، ومشتمل على المبالغات العجمية وعلى زخرف القول، فلما تعقل الأدباء في كلامهم وجدت الطريقة المدرسية التي قيل لها: «كلاسيك»، والكلمة كما هو معلوم مشتقة من الصف والدرس والمدرسة؛ لأن السالكين هذه الطريقة لا بد لهم من درس آثار الواضعين لقواعدها والارتياض في كلامهم لتحصل لهم ملكة في النظم والنثر، وإمام الطريقة المدرسية وشيخها الأكبر راسين.

## (٧) الطريقة المدرسية عند الإفرنج

•••

فروايات الأدباء والشعراء المتقدم ذكرهم يقال لها روايات مدرسية، كما يقال للكتاب الذي يدرس في المدارس: كتاب مدرسي، ويقصد به الكتاب الأقرب إلى مرتبة الكمال في الفن الذي هو مؤلف فيه، فرتبة الكمال يمكنا تصورها والإحاطة بها في العلوم المدرسية كالنحو والصرف، والبيان، والمعاني، والعروض أو الفقه والحساب.

ولكن في الأدب وفي الروايات التمثيلية ليت شعري ما هي مرتبة الكمال؟ ففي جواب هذا السؤال وقع الاختلاف بين مشايخ الطرق الأدبية من مدرسية ورمانية وحقيقية، أو طبيعية وفي نهايتهم الطريقة الإنسانية، وهي موضوع حديث القوم في يومنا بسبب كتاب نشره الموسيو فيكتور بيرار مستشار نظارة البوستة والتلغراف، وبحث فيه عن الأوديسة التي نظمها أوميروس الشاعر اليوناني، وكان الموسيو بول آدم بحث عن هذه الطريقة الأدبية الجديدة في مقدمة قصته التي عنوانها «أسرار الجمهور» (مستير دوفول)، وبول آدم يحرر اليوم في جريدة الجرنال الباريسية.

فأصحاب الطريقة المدرسية يذهبون إلى أن مرتبة الكمال في الأدب، هي «أولًا» تمام النسبة التي بين أساس الفكر وبين شكل التعبير؛ أي بين المعاني التي يختلقها الشاعر وبين قوالب الألفاظ التي يسكب تلك المعاني فيها، فعلى مذهبهم لا يكفي أن يكون المعنى حسنًا بل ينبغي أن يكون الحسن أيضًا في كيفية أداء هذا المعنى، فالكلام الجاري على

الطريقة المدرسية هو معنى بديع في لفظ حسن،فهذه الموازنة التي بين أساس الفكر وشكل التعبير، هي الخاصة المميزة لمؤلفات العصور المدرسية كعصر لويس الرابع عشر، وعصر أغسطوس، وعصر بيرقلس. والعصر المدرسي لا يوجد عند جميع الأقوام، بل بعض الأمم ليس لهم عصر مدرسي ولا أدب مدرسي مطلقًا، ولا يتيسر لهم الوصول إلى مرتبة الكمال في الأدب أبدًا؛ لأنهم إذا تمكنوا من الإتيان بالمعاني البديعة، فلا يتمكنون من أداء هذه المعاني بالألفاظ الحسنة، ولا يقدرون على الترجمة عن أفكارهم حق الترجمة لأحد السببين:

إما أن اللسان الذي يتكلمون به لم يزَل على خشونته، ولم يكتسب بعد الشكل البديع.

وإما أن تكون أساليب الفن ولوازم الصناعة الأدبية لم تُعرف بعد عند المتكلمين به.

ثم إنهم يشترطون في التأليف المدرسي أن يكون ظهوره في الزمن الذي بلغت اللغة فيه أوج الكمال، ويقولون لا بد من هذا الشرط، ويعترضون على أصحاب الطريقة الرومانية؛ لأنهم تجاوزوا النسبة التامة التي بين أساس الفكر وشكل التعبير، ولم يكتفوا بالتعبير البسيط الذي يؤدي معانيهم تمام الأداء، بل أرادوا زيادة عن هذه النسبة التامة، بل تطلبوا أزيد من ذلك أيضًا، فأرجعهم تهافتهم إلى الوراء، وساقهم إلى الأساليب الأجنبية، وأوصلهم إلى طريقة لوب دوفيكه الإسباني، وإلى طريقة بايرون، وشكسبير الإنكليزيين.

ويذهب أصحاب الطريقة المدرسية إلى أن مرتبة الكمال في الأدب هي، «ثانيًا» وجود موازنة بين التخيل الشعري وبين التعقل، بل يشترطون وجود هذه الموازنة بين جميع الحواس، فإذا كان التخيل الشعري في التأليف الأدبي منافيًا للعقل، فلا يعتبرون ذلك التأليف على نهج الطريقة المدرسية، مثال ذلك مبالغات شعراء الفرس ومن خالطهم من شعراء الترك والعرب. ومبالغات العرب أقل من غيرها لا سيما في كلام الجاهلية، وأهل الطبقة الأولى من الإسلاميين الذين لم يكثر اختلاطهم بالأعاجم، ولا حصلت لهم ألفة بفنون أدب الفرس ولا بتعبيراتهم، ومن هذه المبالغات قول المتنبي في صباه يصف ما فعل به العشق:

أبلى الهوى أسفًا يوم النوى بدني

إلى أن قال:

لولا مخاطبتي إياك لم ترني

فهذه المبالغة لا تنطبق على العقل ولا تحدث في العادة، والمتنبي ولد في الكوفة وذهب إلى فارس واختلط بأدباء العجم. ومن مبالغات نفعي كبير شعراء الترك المتقدمين (القرن الحادي عشر للهجرة) قوله بالألفاظ الفارسية، والتركيب، والتركي يصف يومًا شديد الحر: «... كيم برمور بردم كرم أيله إيلريدى درياي سراب»، ومعناه: أن النملة بنفسٍ حارٍّ تجعل السبع البحور سرابًا، ومن قرأ ديوان نفعي حسب ناظمه من زمرة عوج بن عناق وظن تمثال رودس الذي كانت المراكب تمر من بين ساقيه صورة له، ومنها قول ضيا باشا — وهو في مقدمة أدباء

النشـأة الجديـدة العثمانيـة، ولـه وقـوف عـلى الفرنسـاوية — باللسـان العثـماني الجديـد الـذي يكـثر فيـه اسـتعمال الألفـاظ العربيـة، «سرولـر أفلاكـه سرچكمـش مثـال قديـار»، ومعنـاه مثـل قـدِّ الحبيـب كأشـجار سروٍ تناطـح برءوسـها الأفـلاك، ويذكـرني هـذا مـا قالـه أحـد الواعظـين في جامـع أيـا صوفيـا بـأن مـن صـام كـذا، وصـلى كـذا، وسـبح كـذا في ليلـة القـدر التـي هـي خـير مـن ألـف شـهر، رزقـه اللـه في الجنـة حوريـة طولهـا مـا بـين بعـد المشرقـين، فـإن كنـا نسـتهجن طـول الآنسـة إيلابويـن أطـول نسـاء العـالم، ولا تتـوق النفـس إلى قربهـا وهـي لا تزيـد عـن الطـول المعتـاد بأكـثر مـن قدمـين، فـما بالـك أن زاد قـدُّ عروسـنا الميـال عـن ذلـك.

ويقسـم علـماء المعـاني المبالغـة إلى ثلاثـة أقسـام: وهـي مـا كان وقوعهـا جائـزًا عقـلًا وعـادة ويقـال لهـا: التبليـغ، ومعقولـة وهـي مـا كان وقوعهـا جائـزًا عقـلًا لا عـادة ويقـال لهـا: الإغـراق، وغـير معقولـة وهـي مـا لا يجـوز وقوعهـا العقـل ولا العـادة، ويقـال لهـا: الغلـو، فأهـل الطريقـة المدرسـية يرفضـون الغلـو والإغـراق في الـكلام، ويقولـون: بـأن بعـض الأمـم أو بعـض العصـور في الأمـة الواحـدة لهـا تخيـل شـعري وليـس لهـا تعقـل.

وقـد جـاءت هـذه الأمـم، أو هـذه العصـور بكثـير مـن المؤلفـات البديعـة التـي لا تخلـو مـن الفوائـد، ولكـن مؤلفاتهـم ليسـت بمدرسـية لوجـود التخيـل الشـعري فيهـا بـدون تعقـل، كـما هـو الحـال في ماهـا بهاراتـه، ورامايانـه مـن أشـعار الحماسـة الهنديـة وفي الشـعر الفـارسي والـتركي القديـم وبعـض أشـعار العـرب المخالطـين للعجـم. فمـن خصائـص العصـور والآداب المدرسـية تحكيـم الـذوق السـليم في مؤلفاتهـا والـذوق السـليم لا يميـل

طبعًا إلا للجمال، والتناسب، والقياس، ولا وجود لما ذكر في زمن تشكل اللسان، ولا في زمن انقراضه.

ولأصحاب الطريقة المدرسية مسألة ثالثة أيضًا، وهي محبتهم الصدق والحقيقة، فهم يذهبون إلى أن أحسن الشعر أصدقه لا أكذبه، ولكنهم لا يقصدون باتباع الحقيقة تصوير الحقيقة بعينها تصويرًا تامًّا كما ذهب إليه أصحاب الطريقة الحقيقية، وورد في مؤلفات إمامهم إميل زولا، كل بل يقولون فقط بلزوم ارتباط التصوير الذهني بالشيء الحقيقي، وبأن التصوير الذهني وحده في الشعر لا يكفي.

وعندهم أيضًا أن التآليف المدرسية يجب أن تكون منحصرة في تصوير الجميل والبديع، فالتآليف المغايرة للآداب الأخلاقية، والموجبة لاشمئزاز النفس يندر فيها الجمال فلا تكون مدرسية، فهم لا يطالبون الكاتب الذي يسلك طريقتهم بأن لا يحرك قلمه إلا في المواعظ الحسنة والأخلاق المستحسنة، ولا يصور فيها شيئًا غير الجمال، ولكنهم ينذرونه بسقوط مؤلفاته إن ملأها بوصف الأشياء القبيحة والأفعال الشنيعة، كما فعل زولا في كتاباته، وصور فيها بؤس المعيشة وسفالة الحياة.

ونظم أحد الأدباء في العام الماضي رواية صور فيها الأمراض الزهرية، والعلل الإفرنجية التي تحدث من الانهماك في العهر وشرح ذلك على مرسح اللعب شرحًا أليق أن يكون في غرفة الطبيب المخصصة لمعاينة الأمراض السرية، فمنع المراقب تمثيلها في باريس كما منع رقصة الشربة والشمعة من المرسح المصري في المعرض الأخير، ويقال: بأن الرواية المذكورة في غاية من البلاغة وباعثة على التعفف.

ويشترطون في الطريقة المدرسية شرطًا أخيرًا وهو أن تكون المؤلفات فيها ملية قومية؛ أي مصورة لأفكار القوم الفلسفية ولأحوالهم الاجتماعية، فإن كان التأليف الأدبي وضع تقليدًا للأجانب فلا يكون مدرسيًّا، فبناء عليه يكون هذا الشرط مرعيًّا في المؤلفات التي استخرج صاحب مجاني الأدب زبدتها في كتابه؛ لأنها من المؤلفات المختصة بالعرب قبل الإسلام وبعده، بخلاف المؤلفات العربية الموضوعة في زماننا على الأسلوب الإفرنجي، وربما كانت مترجمة عن لسان من الألسنة الأجنبية، فإنها ليست على وفق الطريقة المدرسية، مع ما فيها من الفوائد التي سنذكرها في بحث الطريقة الرومانية.

فهذه زبدة الأقوال وخلاصة القواعد التي أسست عليها الطريقة المدرسية، فكان من أتى من الأدباء بعد عصر لويس الرابع عشر، وهو القرن السابع عشر الذي بلغ اللسان الفرنساوي فيه درجة الكمال، لا يخرجون في النظم والتأليف عن الأساس الذي وضعه مشايخ الطريقة المدرسية، ولا عن الأساليب التي راعوها، ويتكلفون لذلك الصعاب ويعانون طول الدرس ومراعاة القواعد؛ ليتمكنوا من تحسين العبارة، ومن تطبيقها على ما يتخيلونه من التشابيه والاستعارات ويلتزمون عدم الخروج عن أوزان العروض المصطلح عليها بين قومهم وجماعتهم، ويجعلون كل بيت في الغالب كلامًا تامًّا، ولا يأتون بشيءٍ من الكلام السوقي المبتذل ولا يصورون رذيلة من الرذائل، ولا سوأة من سوآت الإنسان وعوراته، ولا يصفون شيئًا من بؤس المعيشة، أو سفلة الحياة الدنيا، وينتخبون مواضيع مؤلفاتهم من تواريخ القرون الأولى أي: من تاريخ اليونان، والرومان، والعبرانيين، فكان كلامهم مشتملًا على التخيل

الشعري وعلى التعقل المشروط وجودهما في الطريقة المدرسية، ولكنه بارد ممل بسبب ما فيه من التصنع والتعمل، ومن مراعاة تلك الشروط والقيود التي قيدت عقول أصحابه ومنعتهم عن الخوض في مضمار الوسط الذي هم فيه، ويشعرون به ويريدون البحث عنه فيمنعهم مراعاة تلك القواعد والأساليب الإنشائية، فمؤلفاتهم مع استيفائها للشروط المدرسية لم تحدث تأثيرًا على النفس، ولا تهييجًا للعواطف كمؤلفات الطريقة الرومانية لعدم مراعاة شرط الإحساس القلبي فيها؛ ولذا قالوا: بأن راسين، وقورنيل، ومولير وأهل طبقتهم لو أطلقوا العنان لأقلامهم ولم يقيدوها بسلاسل تلك الشروط المدرسية لأتوا بأحسن مما جاءوا به من درر الألفاظ، وغرر المعاني.

فهذا ما كان عليه فن الأدب الفرنساوي قبيل الانقلاب الكبير؛ ولذا كان الكثير من الكتبة لا سيما النشأة الجديدة يتذمرون من تقيدهم بتلك القيود المدرسية، ويرون أنفسهم كالمقعد الذي يروم النهوض ولا يستطيعه لفقدان القدرة عليه، فكان مثلهم كمثل غلام في مكاتبنا أراد التحرير لوالديه فلم ير أمامه من نموذج الإنشاء سوى ما طبع في الأستانة من رسائل الخوارزمي، والبديع الهمذاني، وكانت هذه النشأة الجديدة ترى أيضًا قصور الطريقة القديمة عن حقيقة البلاغة، وهي مطابقة الكلام للواقع ومقتضى الحال؛ لأن أصحاب الطريقة المدرسية مع محافظتهم على التعقل في الكلام كادوا بكثرة تشابيههم واستعاراتهم لا يسمون الأشياء بأسمائها الحقيقية، ويستعملون الحشو ويتكلفون للعبارات التي لا لزوم لها، فإذا أراد أحدهم أن يعين الوقت وهو يكتب قصة أو رواية، ويقول مثلًا قبل مرور ساعة من الزمان دبج

عباراتـه وكـثر اسـتعاراته، وقـال: «قبـل أن يتـم العقـرب خطـاه المنظومـة، وينقـل عـلى مينـا السـاعة المجـلاة سـتين خطـوة موزونـة ...» إلـخ.

كـما فعـل الشـاعر الفرنسـاوي أنـدره شـينيه، وهـو خاتمـة الشـعراء السـالكين منهـج الطريقـة المدرسـية وأبلغهـم كلامًـا، وكانـت ولادتـه في الأسـتانة وأمـه روميـة، فارتحـل إلى باريـس وصـار فيهـا إمـام أهـل طبقتـه، فلـما قُتـل سـنة ١٧٩٤م مـع مـن قُتـل مـن أفاضـل الرجـال وأكابرهـم بآلـة الكيليوتـين انقرضـت الطريقـة المدرسـية بعـد أن كانـت قواعدهـا وأسـاليبها هـي المرعيـة بـين الأدبـاء، يتبـع فيهـا الخلـف أثـر السـلف، ومـع اعـتراف النشـأة الجديـدة بمـا فيهـا مـن القصـور والخلـل لم يقـدم أحـد منهـم عـلى تركهـا، ولا الخـروج عنهـا لأوائـل القـرن التاسـع عـشر.

فقبـل هـذا التاريـخ كان جمهـور النـاس، وعـوام الأمـة في تسـيب وغفلـة لا يقيـدون عـلى المصالـح انتظمـت أو لم تنتظـم، ويدعـون الأمـور تجـري في مجراهـا حسـنًا كان، أو قبيحًـا، نافعًـا أو مـضرًّا، كـما يجـري المـاء في الأرض الطيبـة بـدون حفـر النهـر ولا كريـه، وكانـوا يسـتعملون هـذا التعبـير «ليسـه ألـه» كـما نسـتعمل تعبـير «طيـب معليـش»، ولا يهتمـون بالمسـائل العمومية والاجتماعيـة كأنهـا لا تعنيهـم ولا يعـود خيرهـا وشرهـا عليهـم، فلـما حـدث الانقـلاب الكبـير في فرنسـا سـنة ١٧٧٩م تغـيرت البـلاد، ومـن عليهـا في بضـع سـنين، وانقلبـت أفـكار النـاس وعاداتهـم وأخلاقهـم، وزال عنهـم التسـيب والغفلـة والكسـل والرخـاوة، وشـغفوا بحـب الانتظـام والدقـة، فتقيـدوا بالمسـائل وتبـصروا بالأمـور، وكانـوا صامتـين ناصتـين، مفكريـن متعقلـين لا يضيعـون أوقاتهـم في مـا لا فائـدة فيـه، ولا يشـتغلون بالعبـث مـن اللهـو

واعتادوا على الآداب العسكرية في انتظام الحركات والسكنات؛ لأن الأمة بأسرها حتى النساء والصبيان كانوا بأجمعهم تحت السلاح الكامل يكرون ويفرون من غرب أوروبا إلى شرقيها، ومن قارة إفريقيا إلى قارة آسيا؛ أي من مصر إلى سوريا، فكان الواحد منهم لا يهمل في قيامه وقعوده أمرًا ولا يغفل في ملابسه عن زرٍّ، ولا يترك فيها فتقًا بغير رتق وإذا وقف استقامت قامته؛ لأن الإنسان مستقيم القامة، وإذا مشى أو ركب لا يتوكأ على الخدم كما تفعل أكابر بعض الأمم دلالًا وعظمة، بل اعتمد في حركاته على نفسه، وانتزع من عقولهم أكثر الخرافات والأباطيل التي تتولد في الإنسان عادة، ويكبرها الوهم في مخيلته ما دام في مكانه لا يخرج منه، ولا يسيح في الأرض فينظر كيف كانت عاقبة المتقين.

فانقلاب الأخلاق، والعادات، والأطوار استلزم انقلاب اللهجة وتغيير التعبيرات؛ ولذا كان العصر الجديد مفتقرًا لأسلوب جديد في النظم، والنثر وكان رجال العصر يترقبون حصول انقلاب في الأدب كما حصل في السياسة والعادات، فولد فيكتور هوكو وللعصر الجديد سنتان، وصار رجل هذا الانقلاب الأدبي.

## (٨) الطريقة الرومانية

•••

أسلوب الطريقة الرومانية ابتدأ ظهوره في مؤلفات شكسبير إمام الأدب وأمير البلاغة، ثم نسج على منوال هذه الطريقة أدباء الألمان وراجت بضاعتهم فيها، ثم جاء فيكتور هوكو وكشف أساس الطريقة، وأوضح مزاياها وصار إمامها المشار إليه بالبنان.

### الأدب عند الإنكليز

فالإنكليز كانوا في مقدمة الأمم الأوروبية التي انتبهت من غفلة القرون الوسطى، وبادرت إلى إصلاح لسانها ووضع فنون الأدب والعلم فيه، وقبل ظهور الأدب الإنكليزي كان الإنكليز أنفسهم يعتنون بأشعار المداحين، وشعراء الربابة من الفرنساويين، وكانت اللغة الفرنساوية لسانهم الرسمي على عهد ملكهم كليوم الفاتح (١٠٢٧-١٠٨٧)، ومن خلفه عليهم من السلالة النورماندية؛ ولذا بقيت الكلمات الفرنساوية مستكثرة في اللغة الإنكليزية شأن الكلمات العربية في التركية والفارسية، ثم اشتغل الإنكليز بتهذيب لغتهم وإصلاحها، فأصبحت اليوم من أغنى اللغات الجديدة أدبًا بعد اللسان الفرنساوي، ونبغ فيهم وليم شكسبير (١٥٦٤-١٦١٦م)، وجمع في مؤلفاته ما تفرد به قورنيل، وراسين من فن المبكيات وما اختص به موليير وبومارشه من فن المضحكات، وصار إمامًا في كثير من الفنون الأدبية كفن التراجيديا التاريخية، والدراما، والكوميديا، والأغاني المعبر عنها بالشعر الموسيقي (ليريك)، فكان في أفانين الأدب كما قال الشاعر:

وليس على الله بمستنكر

أن يجمع العالم في واحد

وألَّف شكسبير نحوًا من ٣٥ رواية ترجمت لجميع اللغات الأوروبية، وترجمها للفرنساوية فرانسوا بن فيكتور هوكو وطبعت في ١٨ مجلدًا. ولم تزل رواياته تمثَّل على مراسح الفرنساويين، والطليان وغيرهما من الأمم، وتمثل أحيانًا في الأستانة، وأزمير، ومصر، والإسكندرية أيضًا، وأشهر ما يمثَّل منها «روميو وچوليت»، وهما فتى وفتاة تحابَّا حبًّا شديدًا، وقاسيا تباريح الجوى بسبب العداوة التي بين أهل الفتى المحب وبين أهل محبوبته، على مثال ما يقع بين قبائل العرب من العداوات التي تحول بين العاشق والمعشوق، بل على مثال ما يحدث في سوريا وفلسطين بين العائلات والبيوت القديمة من العداوات الجاهلية المانعة لوصال المتحابين ليومنا هذا.

ففي أواخر القرن التاسع عشر للميلاد حدث في طرابلس حادثة هائلة تشابه عشق روميو وچوليت من وجوه، لا سيما في اقتران المحبين سرًّا بمعرفة فقيه من المشايخ، كما اقترن روميو بچوليت على يد الراهب لورانس، وأفضى الأمر إلى هلاك المحبين في الحادثتين هلاكًا تذرف الدموع لقص خبره، وتنفطر القلوب لمشاهدة تمثيله. فالتهويل بالموت في الحادثة الممثلة مما يجعلها من فن المبكيات. وتزيين المجلس بظرف الراهب، أو لطف الفقيه مما يقرب الحادثة الممثلة لفن المضحكات الذي مثلناه فيما سبق برواية تارتوف؛ لأنها أحسن

نموذج لهذا الفن، ولكن الفرق عظيم بين تارتوف وبين لورانس؛ لأن تارتوف تمثال مجسم للرياء، والمكر يخدع الناس بحمل السبحة بيده ويصيد قلوب المغفلين بإظهار النسك وكثرة العبادة، وليس فيه شيءٌ من الظرف والمجون، ولا العلم والأدب المتصف بهما أبو زيد السروجي بطل مقامات الحريري. بخلاف الراهب لورانس أو الشيخ ... فاتيما من ذوي الناموس والوجدان. ولم يتداخل كل منهما في الحادثة التي تخصه إلا لإصلاح ذات البين، فيظهر الواحد منهما على المرسح بهيئة الكمال والوقار، وعيون المتفرجين ترمقه بالاستحسان والاعتبار، ومع ذلك فوجوده في الرواية مما يقربها لفن المضحكات.

ومن روايات شكسبير المشهورة أيضًا هاملت، وهو اسم ولد لملك من ملوك الدانيمارك في قديم الزمان، وخلاصة الرواية أن أم هاملت اتفقت مع عمه، وهو أخ الملك وكان شابًّا حسن المنظر فسقى الملك سمًّا وتولى مكانه وتزوَّج أم هاملت فانتقم هاملت من عمه وقتله. وكان لهاملت معشوقة بديعة الحسن تلاهى عنها بتدبير الحيل في طلب الانتقام فماتت كمدًا. وأبلغ ما في الرواية حديث هاملت مع حفار القبور وهم يحفرون قبر معشوقته ويشربون من القرعة ويتنادمون.

فالنكات الفلسفية التي يفوه بها حفار القبور مما يقرب الرواية لفن المضحكات، مع أنها من أبكى المبكيات، وقتل الملك على الوجه المتقدم له أمثال في التاريخ، منها قتل أم خالد بن يزيد لمروان بن الحكم في الدولة الأموية. ولم تزل الممثلة الشهيرة سارة برنار تمثل على المراسح دور هاملت بطل هذه الرواية، وتلبس لباس الرجال كما تمثل

دور النسير، وهو ابن نابوليون الأول، وحفيد إمبراطور النمسا في رواية «ليكلون» التي نظمها شاعر العصر أدمون روستان.

ومن روايات شكسبير أيضًا «ماقبت»، وهو قائد لجيوش دونقان ملك أيقوسيا من بلاد الإنكليز، قتل سيده وتغلب على ملكه وحكم من سنة ١٠٤٩ إلى سنة ١٠٥٧م، فصور الشاعر قصته في تلك الرواية، وخلاصة الكلام فيها: أن ماقبت اجتاز يومًا مع رفيق له بمفازة مقفرة، فمرَّا بثلاث عجائز ساحرات كأنهن جنيات، فقالت إحداهنَّ: السلام عليك يا ماقبت يا أمير غلاميس.

وقالت الثانية: السلام عليك يا ماقبت يا أمير قاودور.

وقالت الثالثة: السلام عليك يا ماقبت يا من سيكون ملكًا على أيقوسيا.

فقال رفيقه بانقو: أعوذ بالله منكن، أي النسوة أنتن؟ أمن الإنس أم من الجان؟ تفاءلتن بكل خير لرفيقي ولم تنبئنني بشيءٍ.

فقالت كبراهن: أما أنت فنخبرك بأحسن مما أخبرنا به رفيقك؛ لأن عاقبته مشئومة ويموت بلا ولد يخلفه في الملك، وأما نسلك فسيملك على أيقوسيا ويمتد الملك فيهم، قلن ذلك واختفين كلمح البصر، وكان الأمر كما تنبأن به.

ففي يوم من الأيام نزل الملك دونقان مع بعض خواصه عند ماقبت، فبالغ لهم في الضيافة والإكرام، وفرش للملك في مخدع، ولقرنائه في الغرفة المجاورة، وكانت زوجة ماقبت حريصة على تحقيق ما أخبرت

بـه السـاحرات، فحرضـت زوجهـا عـلى قتـل ضيفـه وسـيده، فدخـل في ظـلام الليـل الحالـك وأخـذ خنجـرًا لأحـد القرنـاء وهـم غارقـون في النـوم وغطسـه في صـدر الملـك، فلـما قتلـه أخذتـه الرهبـة واسـتولى عليـه الخـوف والدهشـة مـن هـذا الجـرم وغـاب عـن رشـده. فتداركـت زوجتـه الأمـر ودخلـت المخـدع وغرفـت بيدهـا مـن دم المقتـول، ولطخـت وجـوه قرنائـه وأيديهـم لاتهامهـم بإيقـاع الجـرم.

فتمـت الحيلـة وجلـس ماقبـت وزوجتـه عـلى سريـر الملـك، ولكـن لم يهـدأ روع ليـدي ماقبـت ولا اسـتراح ضميرهـا، فصـور الشـاعر ندامتهـا في الفصـل الأخـير مـن روايتـه بأبـدع أسـلوب وأبلـغ تعبـير، وأخرجهـا عـلى المرسـح حاملـة مشـعلًا وهـي لا تـرى في عينيهـا إلا الظـلام، وتفـرك بيديهـا كأنهـا لم تنـقَّ مـن لطـخ الدمـاء، ولا ذهبـت الرائحـة منهـا مـع مـا تطيبـت بـه مـن طيـب جزيـرة العـرب وعطرهـا المشـهور، وتحسـب زوجهـا معهـا فتقـول لـه: اغسـل يديـك والبـس ثـوب النـوم وقلـل مـن اصفـرار لونـك ... إلـخ.

ومـن روايـات شكسـبير أيضًـا «أوتيلـو» بـيَّن فيهـا غـيرة الـزواج وشـدته عـلى زوجتـه، وترجمهـا نظـمًا للفرنسـاوية ألفـرد دوفينيـه، ولـه غـير ذلـك مـن الروايـات.

وجـل شكسـبير في تصويـر أخـلاق الرجـال وتوصيفهـم، وبيـان المزايـا الخاصـة بـكل فـرد مـن أفرادهـم، فسـلك في الأدب طريقـة مسـتحدثة حـاد فيهـا عـن لهجـة القدمـاء المؤسسـة عـلى أسـاليب اليونـان والرومـان، ونبـذ وراء ظهـره قواعـد الطريقـة المدرسـية، ولم يلتفـت في الروايـة إلى وحـدة الزمـان والمـكان، ولا تصنُّـع في الإنشـاء، ولا تقصُّـد فيـه إيـراد البديـع مـن الـكلام،

ولا تهافت على التشابيه والاستعارات، بل أخذ ما يلهمه إياه الوجدان ويمليه عليه الضمير ويصور الإحساسات الباطنية والآداب الاجتماعية بلهجة مألوفة للعموم آخذة بمجامع القلوب يتقلب فيها من طور الحلم، والجود، والكرم، إلى طور الغضب، والبطش، والاستبداد، وبين عوامل الحب، والبغض، واليأس، والقنوط، والحسد، والطمع، وحب الانتقام، والتكبر، والتجبر، والتفاخر، والتكاثر، إلى غير ذلك مما هو مغروس في طينة الإنسان من الأخلاق والطبائع، ويظهر تأثيرها على النفس بعبارات سلسة جلية ليس فيها تصنُّع ولا تعمُّل.

ثم نبغ في الإنكليز الشاعر ميلتون ١٦٠٨-١٦٧٤م، وكان كاتبًا لقرومويل الشهير فلما مات وانقرضت دولته غدر الزمان بالشاعر وعمي بصره، وذهب ماله فأملى على زوجته وبنتيه كتاب «الجنة الضايعة»، وهو في الحماسة المسيحية نظمه سنة ١٦٥٨ بشعر لا قافية له، ورتبه على اثني عشر غناءً فجاء من أحسن أبنية الشعر الإنكليزي، ومن أبدع ما ألفه شعراء الأمم الأوروبية بعد كتاب «المضحكة الإلهية» المشابه لرسالة الغفران.

فتحسنت اللغة الإنكليزية واتسعت دائرة الأدب والتخيلات الشعرية فيها، ومال أدباؤها لقراءة الأشعار القومية الدارجة التي نظمها في القرون الوسطى التروبادور، والزوفير وهم من شعراء الربابة المعاصرين لعرب الأندلس، وأوجدوا للشعر شكلًا جديدًا وأسلوبًا مبتكرًا، ونبغ فيهم مثل شلي (١٧٩٢-١٨٢٢م) وزوجته، واللورد بايرون، وكان ذا نفس عالٍ وتخيل واسعٍ، فنظم القصائد المعروفة بالشرقيات، وتشيع فيها

لليونـان تشـيع العجـم للسـادات، وتفـانى في حبهـم ولم يـزل غـرام العشـق يلعـب برأسـه أثنـاء حـرب المـورة إلى أن حطـه العشـق والهيـام مـن أعـلى قصـور لونـدره إلى أسـفل أكـواخ ميسـولونكي، وهـي قريـة عـلى سـاحل خليـج قورنـت الفاصـل بـين شـبه جزيـرة المـورة وبقيـة بـلاد اليونـان، وبسـبب وخامـة تلـك القريـة وعـدم نظافتهـا كان هواؤهـا فاسـدًا، فأصابـت الحمـى الشـاعر الإنكليـزي، وعجلـت بروحـه إلى الآخـرة ونُقلـت جثتـه إلى إنكلـترا، وأُقيـم لـه في ميسـولونكي تمثـال يشـاهده السـائح في تلـك البقـاع.

فاللـورد بايـرون هـو مؤسـس الطريقـة الرومانيـة باللغـة الإنكليزيـة، ولـه في الشـعر الدراماتيقـي روايـة مـا تفـرد نظمهـا في إيطاليـا عـلى نسـق روايـة فوسـت، وذكـر فيهـا السـحر والأرواح وخـوارق الطبيعـة، ولـه أيضًـا روايـة «دون جيـان» نظمهـا عـلى أسـلوب مبتكـر، وكلتـا الروايتـين تمثـلان الآن عـلى المراسـح الباريزيـة.

ومـن مشـاهير أدبـاء الإنكليـز والترسـقوت (١٧٧١-١٨٣٢) كتـب بالإنكليزيـة أكـثر مـن سـبعين قصـة تاريخيـة بـين سـني ١٨١٤ و١٨٣٢ كلهـا في غايـة التدقيـق عـول عليهـا المؤرخـون، ومنهـم ميشـله المـؤرخ الشـهير؛ لأن صاحـب القصـص لـه في الوقائـع التاريخيـة نظـر دقيـق، وشروح وافيـة قلـما يتيـسر للمـؤرخ الإحاطـة بهـا ونسـج عـلى منـوال والترسـقوت في القصـص التاريخيـة وليـم غودويـن، ثـم ظهـر في عـالم التحريـر المؤلَّـف التحريـر والديبلومـات الشـهير بنيامـين الإسرائيـلي صاحـب القصـص السياسـية، وهـو اشـتهر في التاريـخ باسـم اللـورد بيونسـفيلد، ونبـغ في فنـون الأدب والسياسـة، وسـاح سـنة ١٨٢٩ في إيطاليـا، واليونـان، وبـلاد الأرنـاؤوط، وبـر الأناضـول، وسـوريا،

ومصر، والحبشة ونشر كتب سياحاته على طرز قصصي وبين فيها آراءه السياسية، وعرَّب المقتطف بتصرف، قصة سياحته في سورية وفلسطين، وله قصة أخرى عنوانها «إسكندر بك الأرناؤوط»، وصار هذا الإسرائيلي رئيسًا لوزارة المحافظين، وكان مخالفًا في السياسة لغلادستون رئيس حزب الأحرار، فثبت بيقونسفيلد أمام مطامع روسيا وعارض في إجراء معاهدة أباستافانوس سنة ١٨٧٧، ولكنه طمع في الأجرة على هذه الخدمة وربح أكثر من اللازم في تجارته، وتوفي سنة ١٨٨١.

فيفهم مما تقدم أن أول واضع لأساليب الطريقة الرومانية وليم شكسبير، ولكن أول ناسج على منوال هذه الطريقة، ومُظهر لمزاياها هم شعراء الألمان، وجميعهم من إنكليز، وألمان، وفرنساويين اقتبسوا أفانين الأدب من الإسبانيين، والطليان المخالطين للعرب في القرون الوسطى.

## (٩) الطريقة الرومانية عند الألمان والفرنساويين

•••

أما الألمان فأقدم تأليف أدبي لهم أغاني هيلدبراند نُظمت في القرن التاسع للميلاد بلسان الألمان، كما نُظمت أغاني رولان بلسان رومان، وفي القرن الثالث عشر جمع ديوان نيبلونجن كما جمعت قصة عنتر، وذكر فيه الحروب التي حدثت بين قبائل نيبلونجن، وبين أتيلا الذي هجم عليهم من الشرق وأبادهم. فهذا الديوان هو كتاب الحماسة الألمانية، ثم حدث الانقلاب الديني وظهر لوتر مؤسس أحكام الديانة البروتستانتية، وترجم للألمانية الكتب المقدسة فاتسعت بذلك اللغة وتهذبت نوعًا ما وظهر نفر من الكُتاب والشعراء والعلماء، ومع ذلك استمر الألمان للقرن الثامن عشر للميلاد محرومين من فنون الأدب المعتبرة عند الأدباء، وكان الأمراء والأعيان في ألمانيا مكبين على تحصيل الأدب الفرنساوي، وعلى حفظ الأشعار الفرنساوية والتمثل بها، والتكلم بالفرنساوية في نوادي سمرهم، ومجتمعاتهم، وضيافاتهم تشبهًا بملوك بروسيا وبما في القصر الملوك ببرلين إذ الناس على دين ملوكهم، وكان لفريدريك الثاني ملك بروسيا إعجاب شديد بالشاعر الحكيم فولتير الفرنساوي، فقربه إليه وأحله في قصره محلًّا رفيعًا. والحاصل كانت بضاعة الأدب الفرنساوي رائجة عند الألمانيين كرواجها عند الروس، وكرواجها أيضًا بعد حرب القرم في الأستانة العلية، ومصر القاهرة.

حضرت يومًا في مدرسة العلوم السياسية بباريس امتحان طالب تركي إستانبولي أجاب جوابًا مقبولًا عن أكثر الأسئلة التي ألقيت عليه بما

يتعلق بأحوال فرنسا وشئونها الداخلية اللازم معرفتها لأبنائها، فلما انتبه له المعلم وسأله عن البوسنة والهرسك، وعن أحوال مسلميها وجده لا يعرف شيئًا عنهما، ولا يدري إن كان فيهما مسلمون أم لا.

ورأيت في باريس تلميذًا مصريًّا يحسن التكلم والكتابة بالفرنساوية ويتكلم العربية ولا يكتبها، وله والدة تركية تحرر له المكاتيب باللغة العثمانية، ولم يكن هو يعرف اللغة العثمانية لا تكلمًا ولا كتابة سوى بعض عبارات متعارفة ربما كانت والدته تعرف قدر ذلك من العربية، فيتيسر لهما التفاهم والتكالم باللغة العربية التركية، وأما المخابرة التحريرية فلم يتمكنا منها إلا بواسطة الترجمان والكاتب مع أن كليهما ليسا بأُمِّيين، بل هما على جانب من العلم والأدب، فالانهماك باللغة الأجنبية أدى إلى أن الولد أصبح لا يعرف لغة أمه كما تجب معرفتها أدبيًّا وطبيعيًّا؛ لأن لغة الأم هي اللغة الطبيعية التي يسميها الفرنساويون «لانغ ماترنيل»، ويسميها الأتراك «لسان مادر زاده» ومادر هي الأم بالفارسية.

وهكذا كانت الحال في ألمانيا بسبب تهافتهم على أدب اللغة الفرنساوية، ففي الثلث الأخير من القرن الثامن عشر؛ أي ما بين سنة ١٧٧٠–١٧٨٠م جاء أدباء الألمان بطرز جديد من الأدب كان له رواج على مراسح اللعب، وأقبل الناس عليه إقبالًا عظيمًا، مع أن الطرز الجديد الذي جاءوا به كان عاريًا عن تلك الصور والأساليب البديعة التي في مؤلفات أهل الطريقة المدرسية، وخاليًا عن ذاك التصنع أو التعمل الذي كانوا يتكلفون له، ومجردًا عن تلك المحاسن التي

كانـوا يؤَلِّفونهـا تأليفًـا، وإنمـا كان كلام الأدبـاء الألمانيـين في هـذا الطـرز الجديـد صـادرًا عـن تأثـر وتهيـج وانفعـال في النفـس، وعـن إحسـاس في القلـب، فنفـخ هـذا الانفعـال والإحسـاس الـروح في كلامهـم، وصـيره كلامًـا حيًّـا تألفـه أرواح المسـتمعين وتحـن إليـه، ولم يقصـد أدبـاء الألمـان فيـما ألفـوه الامتيـاز بالفضـل والعلـم بـين الخـواص، وإنمـا كانـت غايتهـم إفهـام كلامهـم لعـوام النـاس ولجميـع الأصنـاف مـن أولاد البلـد الذيـن يقـال لهـم: «بورجـوا»، فمـن أجـل هـذا عدلـوا عـن الأخـذ بعـالي الطبقـة مـن الإنشـاء المصنَّـع، واسـتعملوا اللهجـة المألوفـة بـين قومهـم وأبنـاء بلدهـم، وجعلـوا اهتمامهـم في نفـخ روح الحيـاة في كلامهـم وأدخلـوا فيـه كل مـا يُحـدث انفعـالًا في النفـس، وتهيجًـا في العواطـف بغـير تهافـت عـلى البديـع مـن الألفـاظ ولا عـلى رعايـة القواعـد، وصـوروا في كلامهـم الغرائـب والعجائـب التـي تتشـوق الأسـماع لاسـتطلاع حقائقهـا، ولا تطمـئن القلـوب إلا بعـد الوصـول لنهايتهـا. فـإن الأذن تعشـق بطبعهـا الأخبـار؛ ولـذا نـرى عوامنـا في كل قطـر وبلـد يـدورون وراء القصـاص (الحكـواتي) مـن قهـوة إلى أخـرى، ويتلـذذون بسـماع مـا يتلـوه عليهـم مـن أخبـار عنـترة بـن شـداد، والزيـر أبي ليـلى المهلهـل، والزنـاتي خليفـة، وعـلي الزيبـق عايـق زمانـه، وقصـة الملـك سـيف، والملـك زاد بخـت بـن شـهرمان وجميـع مـا ورد في ألـف ليلـة وليلـة مـن الحكايـات. وإذا بـات بطـل الروايـة في ضيـق وكـرب لا يهـدأ بالهـم ولا تنـام أعينهـم، إلا بعـد تمـام الخـبر وفهـم مـا جـرى لـه.

وكان أدبـاء الألمـان إذا ألفـوا روايـة فاجعـة أخـذوا موضوعهـا مـما يرونـه في قومهـم ويشـاهدونه في بلادهـم، وإذا بحثـوا عـن الوقائـع التاريخيـة اختـاروا مباحثهـم مـن تواريـخ القـرون الوسـطى لا سـيما مـن القصـص

والحكايات الدارجة على ألسنة الأمم الألمانية، والجرمانية ترجيحًا لها على تواريخ القرون الأولى وعلى قصص اليونان والرومان، كما فعل كوته ١٧٤٩-١٨٣٣م شيخ أدباء الألمان، فإنه اختار فوست بطلًا لروايته الشهيرة بهذا الاسم، وتداول اسم فوست على ألسنة العامة في ألمانيا وفي إنكلترة قبل تأليف هذه الرواية الألمانية، واشتهرت سيرته بين الناس بأنه من السحرة الذين باعوا الدنيا بالآخرة، واشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم ولا كانوا مؤمنين، واختاروا بطلًا لرواية أخرى «أكمون»، وهو أمير في البحر هولاندي الأصل اشتهر في تاريخ الألمان بخدمته لشارلكين وانتصاره على الفرنساويين وعلى ملكهم فرانسوا الأول المستنجد بالسلطان سليمان القانوني. ومن بديع ما ألفه أيضًا الشاعر كوته قصة وارتر، ثم ديوان الشرقيات «ديفان أورينتال»، وهو مجموع أشعار نظمها على أسلوب غريب قلد فيها ديوان الحافظ الشيرازي أحد مشاهير شعراء العجم المتوفى سنة ٧٩٤هـ، أو ٧٩١ هجرية، وكان الحافظ ممن اجتمع بتيمورلنك حينما ضبط شيراز، وجرى بينهما لطائف مشهورة.

وقد تُرجم ديوان الحافظ للغات الأوروبية كما ترجمت مؤلفات الأكابر من شعراء الفرس مثل الفردوسي صاحب الشهنامة المتقدم ذكرها، ومثل الشيخ مصلح الدين سعدي صاحب الكلستان والبستان، وترجمه إلى الفرنساوية الموسيو باربيه دومينار مدير مدرسة الألسنة الشرقية بباريس. والكلستان مترجم إلى العربية والتركية، ويدرس في عموم المكاتب العثمانية، وكان الصليبيون قد أسروا مؤلفه وحبسوه في طرابلس الشام، وشغلوه في بناء الأبراج المحيطة بها من جهة البحر،

فـرقَّ لـه أحـد الأغنيـاء مـن أعيـان حلـب وافتـداه بمـال وخلصـه مـن الأسر، وكانـت وفاتـه سـنة ٦٩١هـ. فإفرنـج زماننـا يحترمـون سـعدي قـدر مـا احتقره أسـلافهم، وذكـره فيكتـور هوكـو في مؤلفاتـه ونقـل عنـه.

ومـن مشـاهير أدبـاء الألمـان شـيلر (١٧٥٩-١٨٠٥م) وكان معـاصرًا لكوتـه ورفيقًـا لـه، فاتخـذ وليـم تـل بطـلًا لروايتـه المشـهورة بهـذا الاسـم، وكان وليـم تـل المذكـور رئيسًـا للعصبـة التـي خرجـت في بـلاد السـويس عـلى حكامهـا مـن النمسـاويين، وحـررت البـلاد مـن قيـد أسـارتهم سـنة ١٣٠٧م. والمذكـور مـن خـبره في التاريـخ أن الـدوق؛ أي والي بـلاد السـويس المعـيَّن مـن قِبـل إمبراطـور الألمـان نصـب ذات يـوم عمـودًا في سـاحة المدينـة، ورسـم في رأسـه تـاج الدوقيـة، وأمـر النـاس بالخضـوع أمامـه، فرفـض وليـم تـل الانقيـاد لهـذا الأمـر الـذي فيـه التحقـير والإذلال لنـوع الإنسـان مـع مـا اختصـه اللـه بـه مـن الكرامـة، وورد في القـرآن الشريـف: «وَلَقَـدْ كَرَّمْنَـا بَنِـي آدَمَ»، وكان وليـم تـل مـن أشـد الأبطـال بأسًـا وأمهرهـم رميًـا بالنبـل، فغضـب عليـه الـوالي وأحـضره بـين يديـه وحكـم عليـه بوضـع تفاحـة عـلى رأس ولـده، وفلـذة كبـده ورميهـا بالقـوس والنشـاب، ففعـل ذلـك وقلبـه يتميـز مـن الغيـظ وأصـاب الهـدف بعـد أن كان الخطـاء أقـرب إليـه مـن الصـواب، فصـوَّر الشـاعر هـذه القصـة التاريخيـة، وبـيَّن فيهـا عوامـل الاسـتبداد وعـدم صـبر النفـس الأبيـة عـلى الظلـم والجـور والاسـتعباد، وكان شـيلر يلقـب بشـاعر النسـاء والشـبان لتأثـير أقوالـه فيهـم أكـثر مـن تأثيرهـا في المتأدبـين مـن الرجـال المائلـين إلى التعمـل والتصنـع في الـكلام وإلى الإنشـاء العـالي الطبقـة؛ لأن كلامـه كان سـهلًا بسـيطًا خاليًـا مـما في الطريقـة المدرسـية مـن أصـول الصـك والسـبك، ومـن أنـواع البديـع والاسـتعارات،

وفيه كثير من الألفاظ العامية والتراكيب المتداولة، ولكنه كان على السامع أشد تأثيرًا وأخذًا بمجامع القلوب.

فبعد أن كان الألمان في الأدب عيالًا على الفرنساويين وليس عندهم من المؤلفات الأدبية إلا ما هو ترجمة، أو تقليد لما حرر بالفرنساوية على نهج الطريقة المدرسية صاروا أئمة في الأدب يُقتدى بهم ويُنسج على منوالهم، واشتهرت الطريقة التي سلكها كوته، وشيلر، وليستغ ومن اقتفى أثرهم بالطريقة الرومانية نسبة للغة رومان — وهي اللاتينية الدارجة التي جاء بها جنود الرومانيين وموظفوهم إلى بلاد الغولوا، والسلت؛ أي لفرنسا فتحرفت فيها وامتزجت بلسان الفرانك، وانقلبت إلى اللغة الفرنساوية الحالية. فكلمة رومان كانت تطلق في القرون الوسطى على ما دوِّن بلسان رومان من فني المنظوم والمنثور، وذلك مثل يمين ستراسبورغ وهو أقدم الأبنية في لسان رومان، ومثل رومان رولان ويقال لها أيضًا: أغاني رولان ورومان أرثور، ورومان المائدة المستديرة، ورومان الثعلب، ورومان السيد وكثير غير ذلك فكانت المحررات الرومانية؛ أي المدونة بلغة رومان تعتبر من التآليف الجاهلية بالنسبة للمحررات اللاتينية، وهي ما حُرر باللغة اللاتينية من التواريخ المقدسة وسير الصالحين، والقديسين، والصلوات الدينية، فاللسان اللاتيني كان إذ ذاك لسان المدارس والكنائس والمعول عليه في العلم والدين، وكان في سبكه تصنع وتعملٌ ومراعاةٌ لقواعد الغراماطيقي والعروض وبقية علوم الآلات المدرسية، ويبلغون علوم الآلات في العربية إلى اثني عشر علمًا كما لا يخفى.

فلغة رومان لم يكن فيها شيء من ذلك بل كانت على فطرتها الطبيعية، وليس في سبك عباراتها أدنى تصنع ولا تهذيب، فلما اختار أدباء الألمان مواضيع رواياتهم من رومان القرون الوسطى، ورجحوه على مؤلفات اللاتين واليونان سميت طريق أدبهم بالطريقة الرومانية، وأطلقت كلمة «رومانتيك» الفرنساوية على الأدب المستحدث تسمية له باسم أجنبي، كما أطلقت كلمة «فرانك» الجرمانية على قبائل الغولوا والسلت، وقيل لهم فرنساويون.

فطريقة رومانتيك المنسوبة لفيكتور هوكو تولدت في ألمانيا، واشتهرت برقابتها للطريقة المدرسية، وبميلها لإظهار قريحة القرون الوسطى، وتصوير أخلاق أهلها وعوائدهم وحماسة فرسانها وصلابتهم في الدين، وتعصبهم للمذهب وتهورهم في المسائل، ومبالغتهم في الأخبار، وتصديقهم بالخرافات والخزعبلات، وأراد أهل الطريقة الرومانية الفوز على أهل الطريقة المدرسية — لا بانتقاء الألفاظ، وسبك العبارات وانسجام المعاني ومراعاة القواعد — بل بالإتيان بكل ما يحدث انفعالًا في النفس، ويفتح مجالًا للتصور والخيال؛ ولذا عمدوا إلى القصص الدارجة على الألسن والمنقولة عن الأسلاف والجدود، ووضعوها في قالب شعري وألفوا بها رواياتهم، وأهملوا أساطير القرون الأولى من الإسرائيليات، والخرافات اليونانية والرومانية، وجاء الفيلسوف الألماني هكل وفسر تفسيرًا فلسفيًّا حقيقة الطريقة الرومانية، وهو يبحث في الصور المختلفة التي تغلب فيها العقل البشري، فوجد فيها ثلاث

طـرق في صناعـة الأدب منـذ نشـأته الأولى إلى زمانـه وهـي:

- (١) الطريقة الرمزية (سيمبوليك).
- (٢) الطريقة المدرسية.
- (٣) الطريقة الرومانية كما سنذكره.

ويظهـر الفـرق بـين الطريقـة المدرسـية، والطريقـة الرومانيـة لـكل مدقـق حـضر تمثيـل روايـة مؤلفـة عـلى نهـج الطريقـة المدرسـية مثـل مؤلفـات راسـين، ومنهـا روايـة «أندروماق» اليونانيـة، و«أسـتير» و«أتـالي» الإسرائيليتـين، ومثـل مؤلفـات قورنيـل، ومنهـا «هـوراس» وهـي روايـة الإخـوة الثلاثـة الرومانيـين، ثـم حـضر في مراسـح الأسـتانة وأزمـير أو مراسـح مـصر، وأوروبـا تمثيـل روايـة فوسـت مثـلًا. فـأول مـا يشـاهد عنـد رفـع السـتار شـيخ عليـه الهيبـة والوقـار جالـس عـلى كـرسي في غرفـة المطالعـة، وأمامـه مائـدة تراكمـت فوقهـا الكتـب، والدفاتـر، والأقـلام، والمحابـر وهـو يفكـر فيـما يكـون إليـه المرجـع والمـآب، ويقلـب عـلى ضـوء الـسراج أوراق الكتـاب الـذي خـط فيـه جابـر ومسـلمة علـوم السـحر والكيميـاء، ويتلهـف عـلى أيـام الشـباب وزمـن التصـابي، ويقـول:

إذا كان علـم الناس ليس بنافع

ولا دافـع فالخسر للعلماء

وبعـد أن يسـتولي اليـأس عـلى هـذا الشـيخ الفـاني ينفـخ في رأسـه الوسـواس الخنـاس الـذي يوسـوس في صـدور النـاس، ويحرضـه عـلى دعـوة الشـيطان إليـه وتـلاوة العزائـم عليـه فبـأسرار التـلاوات وخـواص الطلسـمات يظهـر

صاحب الاسم والعزيمة المتوسل بها، وهو خادم من الجنة ويعلمه ما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت، وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر، وهكذا يقول الخادم للشيخ فيبيع الآخرة بالدنيا ويشتري الضلالة بالهدى، ويتعلم منه ما يعيد الشباب والغناء، ولعل ذلك بواسطة الأكسير الذي من خواصه إعادة الشباب وقلب المعادن إلى الذهب على زعم المتقدمين، فينهمك الشيخ فوست في اللذات، ويغرق في الهناء والمسرات، ويعشق بنتًا يقال لها: مارغريت فيراودها عن نفسها ويفرق بسحره بينها وبين أمها، ويستهويها بالجواهر واللآلي ويطغيها الشيطان ... فتستحق لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، فيغتاظ أخو مارغريت من عهر أخته ويقف لعاشقها بالمرصاد ويبارزه بالسيف، فيقتل بوخزة خفية من ذاك الخادم الجني المرافق لفوست، فتستحيي مارغريت من هذه الفضائح ويذهب الرشد منها فتقتل الولد الذي حملت به من فوست، ويأخذها حاكم البلد بما جنت يداها ويلقيها في السجن فيأتي عاشقها لتهريبها، وهذه أشد ساعة على مارغريت حيث يتنازع قلبها عوامل الحب من جهة، وعوامل الندامة من أخرى فلا تجد لها ملجأ غير رحمة الله التي وسعت كل شيء فتحول وجهها عن عاشقها، وتتوب إلى الله توبة خالصة: « وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ»، فيغفر الله لها ما تقدم من الذنب وما تأخر، ويقبضها إليه فتخر ميتة، وتذهب نفسها الناطقة

الخالـدة إلى عـالم الأرواح عـلى شـكل الحمامـة التـي وصفهـا ابـن سـينا بقولـه:

هبطـت إليه من المحل الأرفع

ورقاء ذات تعزز وتمنع

وتنشـق في آخـر الليـل سـماءُ المرسـح وتظهـر مارغريـت بأبهـى الحـلي والحلـل في أعـلى عليـين بجانـب أخواتهـا تحـف بهـن الملائكـة المربـون، وفوسـت ينظـر إليهـا والعـبرات تسـيل مـن عينيـه، واختلفـوا في فوسـت فقالـت طائفـة: بأنـه مـن الهالكـين، ومقـره في الـدرك الأسـفل مـن النـار، وقالـت طائفـة أخـرى: لا بـل استشـهد في الحـب وتـاب إلى اللـه فتـاب اللـه عليـه واللـه خـير التوابـين: « وَاللَّـذَانِ يَأْتِيَانِهَـا مِنكُـمْ فَآذُوهُـمَا فَـإِن تَابَـا وَأَصْلَحَـا فَأَعْرِضُـوا عَنْهُـمَا إِنَّ اللـهَ كَانَ تَوَّابًـا رَّحِيـمًا إِنَّمَـا التَّوْبَـةُ عَـلَى اللـهِ لِلَّذِيـنَ يَعْمَلُـونَ السُّـوءَ بِجَهَالَـةٍ ثُـمَّ يَتُوبُـونَ مِـن قَرِيـبٍ فَأُولَئِـكَ يَتُـوبُ اللـهُ عَلَيْهِـمْ وَكَانَ اللـهُ عَلِيـمًا حَكِيـمًا».

ويـرى المتفـرج عـلى هـذه الروايـة أفعـال السـحر والسـحارات المـكارات اللـواتي يطبخـن المـواد السـحرية في القـدر، ويصببنهـا بـين المفـارق ليسـحرن المارين في الطـرق، ويـرى أيضًـا أعـمال الشـيطان الرجيـم وغوايتـه لمـن يتبعه مـن الإنـس ومقدرتـه عـلى خـرق العوائـد، وإظهـار العجائـب وحكمـه في هـذه الدنيـا الدنيـة الفاسـدة، وكيفيـة اسـتعاذة النصـارى منـه بالصليـب؛ ولـذا جعـل أهـل القـرون الوسـطى قبضـات سـيوفهم عـلى شـكل الصليـب؛ ليتعـوذوا بهـا مـن شر الشـيطان الرجيـم، وبهـذا يكـون السـيف قاطعًـا بقبضتـه في الروحانيـات، وبحـده في الماديـات.

ولما ذهب نابوليون الأول بعساكره إلى بروسيا اجتمع في برلين بالشاعر كوته مؤلف رواية فوست المذكورة وحادثه طويلًا، وعجب به وأحسن عليه بنيشان الافتخار فاتجهت نحو مؤلفاته أفكار الأدباء من الفرنساويين، كما اتجهت قبلًا أفكار أدباء الألمان نحو مؤلفات فولتير حينما كان في سراي برلين من المقربين، وكانت أساليب الطريقة الرومانية دخلت فرنسا على عهد نابوليون الأول بواسطة شاتوبريان وما دام دوستايل.

أما الأول فهو الإمام الذي اقتدى به في الأدب فيكتور هوكو، وقال: «إما أن أكون شاتوبريان أو لا شيء»، واسمه فرانسوا رينه فيقونت دو شاتوبريان نسبة لشاتوبريان أي: لقصر بريان المشيد على نهر لوار بالقرب من نانت، وحيث كان من أشراف العائلات ذهب أيام الانقلاب الكبير إلى أميركا وساح بين أهاليها المتوحشين، وعاد منها لإنكلترة ثم لفرنسا ونشر قصة «أنلا» وذكر فيها ما شاهده في سياحته من عجائب الأمم المتوحشة، ثم نشر قصة «رينه» وقص فيها أخبار نفسه وبيَّن أفكاره وانفعالاته بسبب ما كشف له من الحقائق المزعجة، وامتاز بين الكُتاب برونق الإنشاء، وكثرة التصورات والإحساسات، وبشدة الهيام، وفصاحة الكلام فراجت بضاعته في الأدب ونشر حينئذ «حكمة الديانة المسيحية»، وأقبل على تدقيق هذا الدين وخرج لمشاهدة الأماكن التي ظهر فيها، والبلاد التي انتشر بين أهاليها، فساح في أقطار فلسطين، وسوريا، ومصر، وبر الأناضول. ونشر سنة ١٨٠٩ كتاب الشهداء وبيَّن فيه كيفية ظهور الدين المسيحي على الدين الوثني، ونشر سنة ١٨١١

«دليل السياحة من باريس إلى القدس»، وعرف الفرنساويين بشئون القرون الوسطى بعد أن كان أدباؤهم مشغوفين بتعريف القرون الأولى وبتقليد أدباء اليونان والرومان، وكانت جريدة الديبا المشهورة بحسن الإنشا وجودة التحرير حديثة الظهور، فأقبل على التحرير فيها وبرع في قوة التصوير والوصف والتلوين، وكان لكلامه تأثير على النفوس فصار لمؤلفاته دخل كبير في ظهور أساليب الطريقة الرومانية، ودخل شاتوبريان الوزارة الخارجية وتعين سفيرًا، ثم ناظرًا للخارجية.

أما المادام دوستايل فهي بنت الوزير نيكر الشهير، اشتغلت بالعلوم والمعارف كما هي عادة سيدات النساء في ذاك العصر، ونبغت في فنون الأدب، وأصبحت عالمة فاضلة يشار إليها بالبنان، فحررت سنة ١٨١٠م كتابًا مفيدًا عن ألمانيا، وكتبت عن الأدب باعتبار ما له من العلائق بتشكيل الهيئة الاجتماعية، فدرست درسًا فلسفيًّا أدب اليونان واللاتين، وبينت مدخل الدين المسيحي في تقريب عقول أهل الشمال من عقول أهل الجنوب، وذكرت الخواص المميزة لكل من الأدب الطلياني، والإسباني، والإنكليزي، والألماني، وما لكل منهم من العلائق بالفكر السياسي والأدبي، وشرحت تأثير الدين والأخلاق والشرائع على فنون الأدب، واستنتجت من تدقيقاتها العميقة أن الفكر البشري تابع لناموس الارتقاء مع المعاني الأخلاقية، والفلسفية، والعلمية، والسياسية ... إلخ ولكنه لم يتبع ناموس هذا الارتقاء في التخيلات الشعرية ولا في التصورات الخيالية، فعندها أن الشاعر كوميروس مثلًا لا يذهب رونق كلامه وطلاوته ولا في عصر من العصور، ولا يسمح به الدهر مرة أخرى.

ثـم ظهـر لامارتـين الشـاعر السـياسي الشـهير، ونظـم ديـوان «التفكـرات الشـعرية»، فـكان أول بنـاء مـن أبنيـة الشـعر الجديـد الموسـيقي (ليريـك)، وخالـف فيـه أسـاليب مـن تقدمـه، كـما خالـف المتنبـي أسـاليب الشـعراء الجاهليـة، واشـتمل ديـوان لامارتـين عـلى تمجيـد اللـه الـذي شرف عـن التمجيـد وعـلى اسـتغراقات في الحـب وتجليـات لطيفـة، ووصـف مظاهـر الكـون وعـالم الطبيعـة وصفًـا بديعًـا.

ومـن أحسـن مـا نظمـه قصيـدة «البحـيرة» التـي ترجمهـا نظـمًا للسـان العثـماني سـعد اللـه باشـا سـفير الدولـة العليـة في فيانـا، وباريـس سـابقًا، وفهمـت بـأن أحمـد بـك شـوقي شـاعر الحـضرة الخديويـة ترجـم القصيـدة المذكـورة للعربيـة.

وسـاح لامارتـين في الـشرق وأحسـن عليـه سـاكن الجنـان السـلطان عبـد المجيـد خـان بمزرعـة «جفلـك» في ولايـة أزمـير، فمكـث فيهـا وفي رُبى لبنـان، وحـرر سـياحته الشرقيـة وتاريـخ الدولـة العثمانيـة في ثمانيـة مجلـدات، ونظـم ديـوان الألحـان الشـعرية والدينيـة وغيرهـا.

## (١٠) ظهور فيكتور هوجو

•••

فجميع من ذكرناهم من الشعراء الفرنساويين وغير الفرنساويين تقدموا على فيكتور هوجو أو عاصروه، ومهدوا له طريق الأدب الجديد، وكانت النفوس في ابتداء القرن التاسع عشر تائقة لرؤية أسلوب مستحدث في النظم والنثر، ولحصول انقلاب في الأدب كما حصل انقلاب في السياسة؛ لأن النشأة الجديدة من الخواص كانوا نافرين من قيود الطريقة المدرسية، وجمهور العوام كانوا متألمين من استبداد أصحاب الانقلاب الكبير باسم الحرية، فإن رؤساء هذا الانقلاب لم يكتفوا بتغيير شكل الحكومة بل هدموا أساس الدين، وسببوا حدوث الفوضوية في الأمة؛ أي إنهم فرطوا في جانب الدين، والسياسة كما فرط قبلهم ذوو التيجان من الملوك المستبدين، فكان الجمهور يترقب ظهور إمام في الأدب يعيد لهم الرجاء والأمل بالله، والشعراء يترقبون ظهور هذا الإمام ليخلص فن الأدب من القيود الذي قيده بها بوالو في كتابه المسمى «آربوثتيك» أي صناعة الشعر، فكانوا يتمنون كسر هذه القيود وإعطاء الحرية التامة للفكر، كما كُسرت سلاسل الاستبداد وهُدم بيت المظالم، ألا وهو حبس الباستيلية الشهير، وأطلق سراح المحبوسين فيه ظلمًا وعدوانًا.

فظهر فيكتور هوجو وبرع في اللغة الفرنساوية وفي طرق الإفادة بها، وفضَّلا عن معرفته بالمفردات والتراكيب اللغوية، صار له خبرة بما للكلمات من القيمة الموسيقية؛ أي بالنغمة التي تحدثها كل كلمة والتأثير الذي يحصل من جمع نغمات الكلمات وألحانها؛ لأن الكلمة

عنـد خروجهـا مـن الفـم لهـا نغمـة مخصوصـة، ولحـن بحسـب مخـارج الحـروف، وتختلـف المخـارج باختـلاف الألسـنة؛ ولـذا ورد في الحديـث الشريـف «اقـرءوا القـرآن بلحـون العـرب».

وقـد عـبر أئمـة البلاغـة مـن العـرب عـن هـذه القيمـة الموسـيقية «بأجـراس الكلـم»، ولا يخفـى مـا في هـذا التعبـير مـن الحـلاوة؛ لأن الصـوت يـرن بالألفـاظ رنـة الجـرس، وصـار لفيكتـور هوجـو أيضًـا مهـارة بعلـم القـوافي، فقوافيـه عامـرة مختلفـة ليـس فيهـا مـا هـو مكـرر أو مبتـذل، بـل جميعهـا تـرد عـلى غـير مـا ينتظـره السـامع.

والخلاصـة كان يعـرف أي كلمـة يلـزم وضعهـا في أي بيـت وأي بيـت يقتـضي انتقـاؤه لأي موضـوع، وسـاعده الحـظ في السـفر إلى ريـاض الأندلـس التـي تتغـذى القرائـح بنفحـات أزهارهـا، وتقـر العيـون بحسـن مناظرهـا، فصـار ذهنـه كأنـه آلـة بديعـة تفـي بوظيفـة السـينماتوغراف والفوتوغـراف معًـا، فيصـور مـا يمـر بـه مـن مشـاهد الكـون ويطبـع مـا يسـمعه مـن حـوادث الدهـر، ويعرضـه عـلى القـراء والمسـتمعين بـدون أن يضيـع منـه خـبرًا أو يغفـل منظـرًا، فصـور في أشـعاره الخمائـل وهـي الشـجر المجتمـع الكثيـف، وكيفيـة تلاعـب النسـيم بأوراقهـا والأغصـان الملتفـة، ومـا ترسـمه عـلى بسـاط المـرج الأخـضر مـن الظـل الظليـل والجبـال الراسـية ومـا ينحـدر عنهـا مـن المـاء السلسـبيل والأنهـار الجاريـة، ومـا ينعكـس عـلى مـرآة سـطحها مـن ضيـاء القمـر وشـعاع الشـمس، ووصـف صفـير البلابـل وهديـل الحـمام وبغـام الظبـاء، وسـجع اليـمام وذكـر غدوهـا ورواحهـا مـا بـين الريـاض المزهـرة والأشـجار المثمـرة، والجـداول المنحـدرة وصـور غـير ذلـك

أيضًا تصويرًا حقيقيًّا بأوضح بيان، وأفصح تعبير حتى يخال لمن يقرأ أشعاره أنه ينظر إلى لوح من الألواح المصورة بقلم الرسام وفرشاته، ويسمع خرير الماء وصوت مزمار الراعي وهو يتناقص كلما ابتعد مع محبوبته في جوف الغابة، وجعل الألفاظ تلبس المعاني كما يلبس على الجسم، فجاءت ألفاظه طبقًا على معانيه، وكان بمجرد نظره في المواد تتفجر المعاني من قريحته، فيزنها بميزان الحس ويصوغ لها على قدرها قوالب من الألفاظ والتراكيب كأحسن صائغ للحلي وأمهر سباك للمعادن، فكانت طريقته بادئ الأمر عبارة عن وصف الطبيعة ومناظرها البديعة، ثم هجم على قواعد المتقدمين وأساليبهم هجمة الأمة المستيقظة من غفلتها، وكسر القيود التي قيد بها بوالو عقول الشعراء، ونبذ قواعد الطريقة المدرسية وراء ظهره، وأصلح عروض الشعر الفرنساوي وغيَّر تركيبه بمقاطيع مختلفة وجوز تكميل معنى البيت بالبيت الذي بعده، فوضع الجملة الواحدة في بيتين مما لم يجوزه المتقدمون، وجعل نظم الشعر موافقًا لاحتياجات الفكر، وفتح لإخوانه من ذوي النشأة الجديدة طريقة مستحدثة في الأدب كانوا هائبين اقتحامها والولوج فيها.

فأوجد فيكتور هوجو بذلك الطريقة الرومانية، وحاد فيها عن استعارات الطريقة المدرسية وتشبيهاتها القديمة، ولم يتخذ كلام المتقدمين منوالًا لينسج عليه كما فعل أندره شينيه خاتمة أهل الطريقة المدرسية، بل اتخذ السوق الطبيعي والإحساس الباطني دليلًا له في النظم والنثر كما فعل المتنبي والمعري، وأهل طريقتهما الخارجين عن أساليب العرب المتقدمين، فكلما شعر فيكتور هوجو بشيء صوره بقلمه كما يحس به

في قلبه بدون تهافت منه على ترصيع الكلام بجواهر البديع وتدبيجه بحلل المجاز والتشابيه، فإن أتى بشيءٍ منها في كلامه عفوًا بلا تصنِّع ولا تكلِّف فنعم، وإلا فهو لا يهتم إلا بالمعاني وبما يتخيله فيها من حقائق الشعر. وإذا أراد تعيين الزمان مثلًا لم يتكلف ترتيب تلك الجمل المصنعة، ولم يذكر حركات العقرب على مينا الساعة، ولا شبَّه ذلك بدوران الفلك ولا بمنازل الشمس، بل قال بسوقه الطبيعي: «غدًا اليوم الخامس والعشرون من حزيران سنة ألف وستمائة وسبع وخمسين ...» كما ورد في مطلع رواية قروميل وهي من الروايات التشخيصية المنظومة شعرًا، فهذا مقتضى البلاغة في تعيين الزمان، وهذه الشطرة المطابقة الحال أبلغ من سواها، ومن المثال السابق الذي مثلنا به من كلام أندره شينيه، فكان السالك نهج هذه الطريقة إذا عطش قال: هات اسقني كما قال أبو نواس:

ألا فاسقني خمرًا وقل لي: هي الخمرُ

ولا تسقني سرًّا إذا أمكن الجهرُ

وأما السالك نهج الطريقة المدرسية، فكان يحيد عن السوق الطبيعي ويصنع كلامه، ويقول: «ألا ماءٌ بارد نطفي به حرارة جوفنا»، كما قال ذاك البارد المتنحي.

فإيضاحًا لحقيقة الطريقة الرومانية لا نرى بدًّا من تلخيص القواعد التي أوردها بوالو في صناعة الشعر، ثم تلخيص القواعد التي ذكرها فيكتور هوجو في مقدمة رواية كروميل، وعارض فيها بوالو وجميع المنتسبين للطريقة المدرسية.

## (١١) طريقة بوالو

•••

نظم الشاعر الفرنساوي بوالو كتابه الموسوم بصناعة الشعر سنة ١٦٧٤م، وهي أرجوزة طويلة محكمة البناء عالية النفس جامعة لقواعد الشعر وأنواعه، اعتنى الشاعر في إنشائها كثيرًا وفكر فيها طويلًا لتكون قاعدة ونموذجًا في الشعر، واقتفى في نظمها وتأليفها أثر الشاعر اللاتيني هوراس، وهو نقل عن أرسطوطاليس في كتابه الموسوم بصناعة الشعر ولأرسطوطاليس في الشعر كتاب آخر لخصه القاضي أبو الوليد بن رشد، وطبع التلخيص المستشرق فوستولازينو في مدينة فلورانسه من إيطاليا سنة ١٨٧٣، ولا نظن بوالو اطلع على قصيدة ابن رشيق ولا على مؤلفاته في هذا المبحث؛ لأن الإفرنج لم يكن لهم ألفة بأدب العرب في القرن السابع عشر، وإنما كانت عنايتهم باللغة العربية قبل ذلك حينما ترجموا كتب علمها إلى اللاتينية، ولم يعودوا لدرسها إلا في أواخر القرن الثامن عشر حينما نبغ شيخ المستشرقين سيلفستر دوساسي في باريس، وشرح مقامات الحريري وألف الكتب المعتبرة.

ولما ظهر ضيا باشا من متأخري الأدباء العثمانيين، وقرأ العربية ثم الفرنساوية اقتفى أثر بوالو ونظم بالتركية كتابه المعروف بالخرابات، وانتقد فيه على كثير من شعراء الترك والفرس والعرب، فجاء كمال بك وانتقد عليه في رسالة سماها تخريب الخرابات وخطأه في كثير من مباحثه.

فالفصل الأول من كتاب بوالو في صناعة الشعر يشتمل على تفصيل القواعد التي جملناها في الكلام على الطريقة المدرسية، وأكثر المؤلف في هذا الفصل من الحضِّ على مراعاة قواعد النحو والصرف والمعاني وغير ذلك من علوم الآلات، وحذَّر كثيرًا من الابتعاد عن سلامة الذوق ولو قدر شبر. وشرع في الفصل الثاني والثالث في تطبيق هذه القواعد العمومية على أفانين الشعر المختلفة، وعرف كل فن منها على حدته، وبلغت فنون الشعر عنده إلى نحو أربعة عشر فنًّا، منها أنواع الغزل والتشبيب والمرقصات والمطربات، وما احتوى على ذل العشق ورقة الكلام والأدوار المنسوجة على منوال شعراء التروبادور المعاصرين للأندلسيين، ومنها أنواع المدح وأنواع الهجاء والهزل والسخرية والذم المشابه للمدح، ومنها أنواع الرثاء ونحو ذلك.

وتكلم أيضًا عن الروايات التمثيلية وهي «التراجيديا» أي: الفاجعات و«الكوميديا» أي: المضحكات، وعرف كلًّا منهما وبيَّن الشروط المقتضى مراعاتها في تأليف الرواية التمثيلية، ولزوم وحدة الزمان والمكان والعمل، وعرف الشعر الموسيقي وهو النشيد والتلحين المسمى عندهم «ليريك» من كلمة لير وهي العود الذي يغنى عليه، وعرف أيضًا الشعر الحماسي المسمى عندهم «إيبوبه»، ومعناها في الأصل الخطبة التي يقولها الخطيب.

فالشعر الموسيقي يمتاز عن الشعر الحماسي بخاصته الشخصية أو الفردية؛ أي المتفردة في ذات صاحبها، وذلك أن الشاعر يرى الحسناء فيشعر بالحب وبأمل الوصال، ويظهر له رقيب فيشعر ببغضه

وبانقطاع رجائه من الوصال، وينال معروف الكريم فيشعر بالشكر له، ويموت صديق له فيشعر بالتفجع عليه، فبسبب هذه المشاعر تفيض نفس الشاعر بالغزل والنسيب والمدح والهجاء والرثاء، ويشاهد أيضًا بدائع المخلوقات وينظر في خلق الأرض والسموات، فتفيض نفسه بالتسبيح والتهليل والتقديس والترتيل، فكل واحد مما ذكر فن من أفانين الشعر الموسيقي، ويختلف عروض كل منها وقوافيه باختلاف المشاعر التي يشعر بها، واختلاف الإلهام الذي يهبط عليه، ويعتريه من ذلك دهشة أو انذهال وحيرة وسرور وانشراح أو انقباض وحزن، فيظهر أثر ما ذكر في نظمه وشعره.

وأما الشعر الحماسي فهو رواية الوقائع العجيبة التي يقوم بها الشجعان، فقولنا: رواية أي خبر يفصل هذا النوع من الشعر عن الشعر الموسيقي؛ لأنه نشيد وغناء، وعن الشعر الدراماتيقي أي الدرام؛ لأن أساسه العمل. ولا يلتبس بالتاريخ الذي هو خبر ورواية أيضًا؛ لأن موضوع التاريخ الوقائع الصحيحة بلا إطراء ولا غلو، وأما الشعر الحماسي فموضوعه الوقائع الملفقة المشتملة على غرائب الشجاعة ونوادر الفروسية، وأشهر كتب الحماسة «الإيلياذة والأوذيسة» لهوميروس اليوناني، و«أنيبد» لفرجيل اللاتيني، و«الكوميدية الإلهية» لدانتي الطلياني، و«الجنة الضائعة» لملتون الإنكليزي، و«تخليص أورشليم» لطاسو الطلياني و«هانرياد» لفولتير الفرنساوي و«الحماسة النابوليونية» لفيكتور هوجو.

وعند أهل الشرق «ماهابهاراته ورامايانه» للهنود و«الشهنامه» للفرس، وكتب الحماسة للعرب وأشهرها كتاب «الحماسة» لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي، وقد طبعه مع شرح أبي زكريا يحيى بن علي التبريزي عليه المستشرق الألماني فريتغ سنة ١٨٢٨ في مطبعة مدينة بونه، والجزء الأول من عكاظ الأدب هو في الحماسة الحميدية فهو «إيبوبة» الحرب اليونانية الأخيرة، كما حرر فيكتور هوجو الإيبوبة النابوليونية، ومن أمعن النظر في الشعر العربي وجد أكثره من قبيل الشعر الموسيقي؛ أي النشيد والأغاني وهو الممتاز بخاصته الشخصية، وبإظهار الحواس الباطنة، ووجد فيه أيضًا من الشعر الحماسي، وهو الذي روى فيه أخبار الحروب وأطنب بشجاعة الشجعان، ووجد المقامات تشابه ما عند الإفرنج من فن الكوميديا، غير أن صاحب المقامات جعل اهتمامه في انتقاء الألفاظ وبلاغة التعبير، ولم يلتفت كصاحب الكوميديا لدرس أخلاق الرجال، وبيان المزايا الخاصة بأفراد القوم أو الهيئة الاجتماعية.

وكان الباحثون في أدب العرب لا يجدون فيه مثالًا «للدرام» الآتي تعريفه، فجاء عبد الرحيم أفندي أحمد، وعرض على المستشرقين في المؤتمر الحادي عشر المنعقد سنة ١٨٩٧م في باريس رسالة الغفران للمعري، وبين مشابهتها بالكوميديا الإلهية ووعد بنشرها، وكان يوسف ضيا باشا الخالدي استنسخ رسالة الغفران المذكورة سنة ١٣٠٧هـ من النسخة القديمة المحفوظة الآن بمكتبة الكوپريلي، وهي تجاه نظارة المعارف وتربة السلطان محمود في الأستانة، وهم إذ ذاك بطبعها فحال دونه

سفره لبلاد الأكراد واشتغاله السنين الطوال بترتيب القاموس الكردي، وتدوين قواعد هذا اللسان الذي نبغ من أبنائه أمثال صلاح الدين الأيوبي صاحب الفتح القدسي. فإذا نُشرت رسالة الغفران كما تطبع ترجمة الإيلياذة الآن في مطبعة الهلال تمكن قراء العربية من الاطلاع على فن جديد في أدب العرب غير الشعر الموسيقي والشعر الحماسي، والمأمول ممن ينشر رسالة الغفران أن يقابل بين النسخة المصرية والنسخة الإستانبولية؛ لكيلا يقف ذهن المطالع كما حصل في المثال المنقول سابقًا من كتاب إعجاز القرآن للباقلاني بسبب وجود بياض في الأصل، ومن دقق النظر في لزوميات المعري عرف ما هو عليه هذا الشاعر الحكيم من علو الفكر، واتساع القريحة ولم يشتبه في أن كتابه الموسوم بالأيك والغصون لم يغادر صغيرة ولا كبيرة من فنون الشعر والأدب إلا أحصاها.

وقد أطنب المؤرخون في كلامهم على كتاب الأيك والغصون، وزعموا أنه فيماية مجلد، ولكن إذا نظرنا في قولهم: إن اللزوميات في خمسة مجلدات ثم رأيناها مطبوعة في الهند في مجلد واحد وفي مصر في مجلدين حملنا ذلك على الظن بأن المائة مجلد من كتاب الأيك والغصون هي بمثابة عشرين مجلدًا من اللزوميات طبعة الهند أو أربعين مجلدًا طبعة مصر. وعلى كل فهو من أعظم دوائر المعارف الأدبية في لسان العرب، ولا يعجز عن الإتيان بمثلها رهين المحبسين. والأيك هو الشجر الكثيف الملتف، فكأنه أشار بهذا الاسم إلى أن الكتاب شامل لأصول الأدب وفروعه.

ثـم إن بوالـو بعـد مـا فـرغ مـن بيـان القواعـد العموميـة للشـعر وبيـان فنونـه، ولـزوم اتبـاع الصـدق والحقيقـة فيـه ذكـر في الفصـل الرابـع مـن كتابـه في صناعـة الشـعر مـا ينبغـي أن يتخلـق بـه الشـاعر مـن الأخـلاق الحميـدة، ومـا يجـب أن يحـض عليـه مـن الخـير والمعـروف، فاعترضـوا عليـه بذلـك، وقالـوا: بـأن هـذا الفصـل مـن مباحـث علـم الأخـلاق لا مـن مباحـث الشـعر والأدب، ولامـوه أيضًـا عـلى اعتبـاره الشـعر في مجـرد قوالـب الألفـاظ، وعـلى تحديـده بالحـدود والتعاريـف، وإلـزام الشـاعر بمراعـاة هـذه الحـدود في كل فـن مـن فنونـه وعـدم الخـروج عنهـا، وقالـوا: بـأن الشـعر هـو إلهـام مـن اللـه والطبيعـة، ونـور يفيـض عـلى القريحـة التـي فيهـا اسـتعداد طبيعـي لقبولـه، ولا يمكـن تعليـم ذلـك ولا تحديـده بالحـدود والتعاريـف.

والصحيـح أن بوالـو يعـترف بـأن أسـاس الفكـر؛ أي المعـاني الشـعرية لا يمكـن تعليمهـا بالقواعـد، ويقـول بأنهـا هبـة مـن اللـه واسـتعداد فطـري وغريـزي في قريحـة الشـاعر، وإنمـا الـذي يدخـل عنـده تحـت القواعـد المذكـورة هـو شـكل التعبـير؛ أي قوالـب الألفـاظ التـي تقـاد بهـا تلـك المعـاني الشـعرية.

## (١٢) هوكو والأدب الفرنساوي

•••

ولما ألف فيكتور هوجو رواية كروميل التمثيلية سنة ١٨٢٧، وضع لها مقدمة بيَّن فيها ما هو الأساس الذي أنشأ عليه أبنية أوراقه، وما هو أصل الشجرة التي أثمر فرعها فاكهة روايته، كما وضع المعري مقدمة للزوم ما لا يلزم وافتتحها بقوله: «كان من سوالف الأقضية أني أنشأت أبنية أوراق توخيت فيها صدق الكلمة، ونزهتها عن الكذب والميط.» ثم ذكر القواعد التي راعاها في تأليف هذا الكتاب، وبين اللوازم التي تلزم القافية بدون أن يفتقر إليها حشو البيت وأتى لها بالأمثال والشواهد المعتبرة من كلام الحكمة والموعظة الحسنة، كما هو مفصل في بابه. فخلاصة مقدمة كروميل أن الإنسان منذ النشأة الأولى إلى الزمان الحاضر تقلب باعتبار التمدن؛ أي الحضارة والعمران في ثلاث أدوار:

- (١) القرون الابتدائية.
- (٢) القرون القديمة.
- (٣) القرون الأخيرة.

وحيث كان الشعر سابقًا على الاجتماع الإنسان وملازمًا له، فقد تقلب معه أيضًا في ثلاثة أشكال:

- (١) الشعر الموسيقي؛ أي الغناء (ليريك).
- (٢) الشعر الحماسي؛ أي الحماسة (إيبيك).

• (٣) الشعر الدراماتيقي؛ أي الهائلة (دراماتيك).

وذلك أن الإنسان لما انتبه في القرون الابتدائية لعوالم الموجودات — وكانت قريبة عهد بالحدوث — انتبه معه الشعر، فانبهر من رؤية بدائع المخلوقات وأسكرته الدهشة حتى لم يكن أول كلامه إلا «هيللة»، وكان تفكره تجليًا وجذبًا وتصوره وحيًا لقربه من موجد الكائنات وهو الله، فكان يناجي بقلبه ويهلل بلسانه كما يتنفس برئتيه. ولم يكن لعوده إلا ثلاثة أوتار الخالق والنفس والمخلوقات، غير أن هذا السر المثلث يشمل كل ما في الوجود، وكانت الأرض مقفرة تقريبًا وليس عليها من بني آدم إلا بطون وفصائل، ولم توجد بعد القبائل ولا الشعوب وكان لهم آباء لا ملوك، وكل عرق من عروق البشر متمتع ببقائه ولا معرفة لأفراده بالملكية ولا بالشريعة، ولا بالخصومة ولا بالحرب، بل الكل لكل واحد وللكل، فكان الاجتماع الإنساني شركة لا شيء فيها يضايق أفراد الإنسان، فكانوا يعيشون عيشة الرعاة والبداوة التي ابتدأ منها كل تمدن وعمران، وهذه المعيشة أوفق ما يكون لسائحات الفكر وهواجس القلب، فكانت نفس الإنسان سائحة على جناح الأهواء سابحة في بحر الخيالات وفكره أشبه بسحابة تسيرها الرياح، وتغير شكلها ووجهتها بحسب مهبِّها. فهذا هو الإنسان الأول، وهذا هو الشاعر الأول، فهو شاب وموسيقي، ودينه الصلاة بمعناها اللغوي فقط وهو الدعاء وشعره الغناء، فهذا الشعر وهذا الغناء الذي للقرون الابتدائية هو «سفر التكوين».

ثـم زال عـن الإنسـانية هـذا الشـاب رويـدًا رويـدًا، واتسـعت فيهـا جميـع الدوائـر، وصـار البطـن قبيلـة والقبيلـة شـعبًا وأمـة، واحتشـد كل مجتمـع مـن هـذا الاجتـماع الإنسـاني العظيـم حـول مركـز مشـترك وتأسسـت الممالك، وحلـت طبيعـة العمـران محـل طبيعـة البـداوة، وتبدلـت الخيـام بالقصـور ومحطـات الرجـال بالمدائـن وتابـوت العهـد بالهيـكل، وأصبـح رؤسـاء هـذه الـدول المسـتحدثة رعـاةً — للمـواشي — بـل للشـعوب والأمـم، وتبدلـت عصـا الرعايـة بصولجـان الملـك، ووقـف كل شيء وتعـين، وأخـذ الديـن شـكلًا مخصوصًـا وانقلبـت الصـلاة مـن المعنـى اللغـوي إلى المعنـى المصطلـح عليـه عنـد أهـل كل مذهـب، وتعينـت أقوالهـا وأفعالهـا بحسـب ذاك المذهـب، وضرب الاعتقـاد نطاقـه عـلى العبـادة، وعـلى هـذا الوجـه اقتسـم الكاهـن والملـك أبـوة الشـعب، وعـلى هـذا الوجـه قامـت مقـام الشركـة الأبويـة الجمعيـة الثيوقراتيـة وهـي الدولـة الجامعـة أحكامهـا بـين الديانـة والسياسـة.

وازدحمـت الشـعوب والأمـم عـلى سـطح الكـرة، فتضايقـوا وتخاصمـوا وانتشـبت بينهـم الحـروب واصطدمـت الممالـك بعضهـا ببعـض، وطغـى قـوم عـلى قـوم فأوجـب هـذا الطغيـان مهاجـرة الشـعوب والأمـم، وتغريبهـم ورحلاتهـم وتصـور الشـعر هـذه الوقائـع العظيمـة، وانتقـل بذلـك مـن الأفـكار إلى الأشـياء وتغنـى بالقـرون والشـعوب والممالـك وصـار حماسـةً وولـد هومـيروس. فهـذا الشـاعر في الحقيقـة أحسـن معـرِّف للاجتـماع الإنسـاني في القـرون القديمـة، وكل مـا في هـذا الاجتـماع بسـيط وحـماسي،

والشعر عندهم دين والدين شريعة؛ أي قانون، فبعد بكارة الدور الأول ظهرت طهارة الدور الثاني من أدوار الإنسانية، واستولى نوع من الوقار والاحتشام على الأخلاق البيتية والأخلاق العمومية، ولم تحفظ الشعوب من عوائد بداوتها إلا حرمة الغريب ورعاية ابن السبيل، وصار للعائلة وطن يربطها ونشأت محبة الوطن والدار وزيارة القبور، فالتعبير عن مثل هذا التمدن لا يمكن أن يكون بأشعار الحماسة.

وتقلبت أشعار الحماسة في أشكال كثيرة بدون أن تضيع خاصتها المميزة لها، فإذا تأملنا كلام الشاعر اليوناني بندار، وهو من أهل القرن الخامس قبل الميلاد والملقب بأمير الشعراء الغنائين لجودة قريحته في الشعر الموسيقي نجد كلامه كهنوتيًّا أكثر مما هو أبوي وحماسيًّا أكثر مما هو موسيقي، وفي هذا الدور الثاني من أدوار العمران ظهر المؤرخون، وجمعوا الآثار وأرخوا القرون ومع ذلك فظهور التاريخ لم يستلزم محو الشعر من الوجود، بل استمر التاريخ حماسةً وكان المؤرخ هيرودوس كأنه هوميروس ثانٍ، ومن نظر في روايات التراجيديا القديمة التي ألفها شعراء اليونان ومثلوها على مراسحهم تبينت له جليًّا أساليب شعر الحماسة، ورأى علوهم في كل شيء وتجاوزهم الحد في العظمة والجبروت والهيبة والفخامة، فالأشخاص الممثلة في هذه الروايات هم من الجبارين وأنصاف الآلهة والآلهة، ومواضيع الروايات أحلام وهواتف ومقدرات وألواحها تعداد نفوس وتشييع جنازات وحروب وغارات، وما كان ينشده الرواة من الأشعار كان يشدو به الممثلون، ففن التمثيل عند اليونان كان مقتصرًا على هذا فقط.

وكانوا يبنون مراسحهم على سفح الجبل بلا سقف يقي حر الشمس ومطر السماء، وإنما هي درجات بعضها فوق بعض على شكل نصف الدائرة المسمى عندهم (أمفيتياتر)، وموضع التمثيل على الأرض في صحن المرسح وهو غاية في السعة والجسامة، ويستوعب تمثيل معبد بفنائه وسراي بدوائرها وقصورها وأبراجها ومدينة بأسواقها، ومعسكر بمهماته وكذا محل المتفرجين يستوعب ثلاثين ألف متفرج، مع أن مراسح الأوروبيين لا تستوعب الأربعة آلاف، والمرسح الفرنساوي في باريس لا يستوعب إلا ١٤٠٠ ومرسح الأوبرة فيها يستوعب ٢٢٠٠، ومرسح الشاتلة وهو أكبر المراسح في باريس يستوعب ٣٦٠٠، وكان التمثيل عند اليونان يبتدئ في الصباح، ولا ينتهي إلا في المساء، وربما مثل في المرة الواحدة روايتين أو أكثر، وكان الممثلون يفخمون أصواتهم، ويعظمون قيافاتهم ويتبرقعون بالبراقع المناسبة للرواية حتى يحاكي الواحد منهم الجبار العنيد، أو البطل الصنديد الذي يمثل دوره، فيمثل برومته بن تيتان وهو مقيد بالسلاسل فوق جبل قفقاس والنسر يأكل في أحشائه؛ لأنه صور من طين الأرض على هيئة الإنسان ثم أراد أن يأخذ من نار السماء أو نورها؛ لينفخ فيه الروح فأغضب الآلهة وجازاه كبيرهم بذاك الجزاء على ما اقترفت يداه.

ويمثل أيضًا أنتيغون وهي في أعلى الأبراج تفتش عن أخيها الذي كان في معسكر الأعداء من الفينيقيين، وقد ذكر خبرها الشاعر سوفوقل في رواية نظمها قبل الميلاد بأربعمائة سنة، وسماها «أديب الملك»، ونسج على منوالها الشاعر الفرنساوي فولتير، وسمى روايته الفرنساوية بهذا الاسم أيضًا، وأديب هذا ابن ملك من ملوك اليونان قتل أباه وملك

على قومه، وتزوج بأمه بدون علم منه، فلما وقف على حقيقة الأمر لم يتحمل هذه المصيبة، فقلع عيني نفسه بيديه وخرج من مُلكه هاجًا وابنته أنتيغون تقود به.

ويمثل الممثلون أيضًا على مراسح اليونان مركبًا كبيرًا ينزل منه خمسون أميرة بما يتبعهنَّ من الخدم والحشم، كما في الرواية التي ألفها الشاعر أيشيل قبل الميلاد بخمسة قرون، فكان يجتمع على مراسحهم فخامة البناء مع فخامة الكلام، ويمتزج التاريخ بالدين، وكان أول المضحكين عندهم من الكهان، وكانت ألعابهم احتفالات دينية ومواسم أهلية.

فجميع الروايات المحزنة اليونانية هي من أشعار الحماسة، وجميع الشعراء المتقدمين عيال على هوميروس ورواياتهم مستنتجة من الإلياذة والأوذيسة، ومواضيع الجميع منها يعود إلى محاصرة تروادة.

## (١٣) الديانة المسيحية والأدب

•••

ثم أخذ هذا الدور الثاني من أدوار الشعر يتقلص، ويعتق كما تعتق العمران القديم، وجاء الرومانيون، ونسجوا على منوال اليونانيين، ونسخ شاعرهم فيرجيل عن هوميروس وانتهى دور الشعر الحماسي وفتح دور جديد للشعر والتمدن بظهور الديانة المسيحية، فالديانة الوثنية مادية ظاهرية والديانة المسيحية روحانية باطنية، فلما حلت إحداهما محل الأخرى، ودخل الإيمان بالمسيح قلب التمدن القديم قتله، ووضع في جنازته المتعفنة جرثومة التمدن الحديث، وثبت بتعاليمه دعائم الأخلاق، وأول حقيقة جاء بها هذا الدين هي القول؛ بوجود حياتين للإنسان: إحداهما فانية والثانية خالدة. إحداهما على الأرض والثانية في السماء، وأعلم الإنسان بأنه مركب من حيوانية ونطق؛ أي من جسد ونفس، وأنه نقطة الفصل المشترك وهو في علم الهندسة النقطة المشتركة بين خطين، والخط المشترك بين سطحين، والسطح المشترك بين جسمين، أو بأنه الحلقة المشتركة بين سلسلتين من المخلوقات إحداهما تتألف من الماديات، والثانية من الروحانيات، إحداهما تبتدئ من الجماد وترتقي للإنسان، والثانية تبتدئ من الإنسان وتصعد إلى الله.

ربما فقه بعض الحكماء المتقدمين شيئًا من هذه الحقائق، ولكن من أوضحها وجلاها الإنجيل الشريف. فأصحاب الديانة الوثنية خبطوا خبط عشواء وساروا في ظلام الليل على غير هدى، ولم يفرقوا في طريقهم بين الحق والباطل، والبعض من فلاسفتهم أفاض من نبراس حكمته على

الأشياء نورًا طفيفًا لم يضئ منها إلا الجانب الأصغر، وزاد في الظل الممتد وراء جانبها الأكبر، فنشأ من ذلك جميع تلك الأشباح والخيالات التي وردت في فلسفة المتقدمين وأساطيرهم؛ لأن إضاءة تلك الأشياء بتمامها لا يتيسر إلا بنور الحكمة الإلهية، فلما جاء أمر الله قام النور الإلهي مقام هاتيك الأنوار المرتجة التي أتت بها الحكمة الإنسانية؛ وكان فيثاغورس وبقراط وسقراط وأفلاطون سرج الليل، فجاء المسيح ابن مريم (عليهما السلام) ضوءًا للنهار، فحيث كانت عبادة الأوثان ديانة مادية لم يخطر على بال الأقدمين التفريق بين الروح والجسد كما في الديانة المسيحية؛ بل أوجدوا شكلًا وهيئة لغير الماديات وشخصوا المعنويات، فكل شيءٍ عندهم مرئي، محسوس، متجسد، وآلهتهم مفتقرون لسحابة يختفون فيها عن الأبصار، فهم يأكلون ويشربون وينامون، وتصيبهم الجراح فتسيل منهم الدماء، ويلقى بهم من السماء إلى الأرض فيتحطمون كما حدث لفولكين إله النار حينما حملت به أمه من «جوبيتر» المشتري كبير الآلهة، ووضعته في أشنع صورة فاستنكفت منه أن يكون ابنها، ورمت به إلى الأرض فهبط على جزيرة ليمن من جزر الممالك العثمانية وانكسرت رجله، وذهب لبركان أتنا ووضع فيه كور الحديد؛ فهو يعرج من وقعته ويشتغل في صنعته أبد الآبدين ودهر الداهرين.

ومن هؤلاء المعبودات ما هم آلهة، ومنهم ما هم أنصاف آلهة فقط، ودنياهم معلقة بسلسلة من الذهب يمسكها كبير الآلهة، وشمسهم يجرها في مركبه أربع رءوس من جياد الخيل، وجهنمهم هاوية عميقة يعين الجغرافيون فوهتها على سطح الكرة، وجنتهم على جبل أوليمبوس في تساليا يسكنها الآلهة ويتلذذون بنعيمها، فالديانة الوثنية

عجنت جميع المفتريات من أساطيرها في طينة واحدة، وصغرت آلهتها وكبرت أوادمها حتى تشابه الفاني بالحي الذي لا يموت، فالأبطال الذين تكلم عنهم هوميروس في أشعاره كادوا يكونون أقرانًا للمعبودين.

فأبو الفوارس أجاكس غضب على جوبيتر وهو راجع من محاربة ترواده، وأعلن الحرب عليه وعلى جماعته، وأشيل عنترة الحروب اليونانية يضاهي في القوة والشجاعة المريخ (مارس) إله الحرب وجلاد الفلك، بخلاف الدين المسيحي فإنه فرق بين المادة والروح، وحفر واديًا عميقًا بين الجسد والنفس، ووواديًا آخر بين الإنسان والآلهة، فبظهور النصرانية وبنشر تعاليمها دخل قلب الناس شعور جديد لم يكن معروفًا للمتقدمين، واتسعت دائرة هذا الشعور عند المتأخرين اتساعًا غريبًا. فهذا الشعور هو الماليخوليا؛ أي السوداء، وهي أشد من الوقار المستولي على قلوب القدماء وأخف من الحزن. فالنصرانية وضعت في طبع المتدينين بها المزاج السوداوي، وجعلت الصلاة للفقير كالغنى للغني، وأسست بين الناس المساواة والشفقة والحرية، فمنذ أدخل الإنجيل النفس بين الحواس ووضع الخلود وراء الحياة أصبح المتمسكون به يرون الأشياء بشكل جديد.

وعدا هذا ففي التاريخ الذي انتشرت فيه الديانة المسيحية حدث في العالم انقلاب كبير لم يتيسر معه أن لا يحصل انقلاب في العقول؛ لأن الانقلابات التي حدثت قبل ذاك التاريخ كانت عبارة عن سقوط دولة، وقيام أخرى ولم يكن لذلك تأثير كبير في قلوب العموم؛ بل المصيبة الحاصلة من تلك الانقلابات كانت كالصاعقة لا تصيب إلا

الأماكـن العاليـة، والمقامـات المرتفعـة فعـبروا عنهـا بأشـعار الحماسـة.

ففـي الاجتـماع الإنسـاني القديـم كان الفـرد سـافلًا حتـى كانـت المصائـب لا تؤثـر عليـه؛ إلا إذا نزلـت بيتـه وأصابـت أهلـه، ولا يعـرف الواحـد مـن أهـل تلـك القـرون الخاليـة البـؤس ولا التعاسـة خـارج الآلام البيتيـة، ولا كان يُسـمع في تلـك الأجيـال بـأن المصائـب العموميـة الحادثـة في المملكـة تمـس المعيشـة الفرديـة؛ فلـما حدثـت تلـك الانقلابـات الكبـيرة إبـان انتشـار الديانـة المسـيحية، وأصبحـت الأمـم الأوروبيـة في هـرج ومـرج يتلاطمـون كالأمـواج في البحـر العجـاج، وانقـرض التمـدن القديـم باسـتيلاء الأقـوام البربريـة عـلى ممالـك الرومـان حـدث مـن ذلـك تأثـير في قلـوب العامـة، وانفعـال في نفـس كل فـرد مـن أفرادهـم، وأخـذوا يفكـرون في مصائـب الدهـر ومـرارة الحيـاة، وعرفـوا بـأن هـذه الدنيـا الفانيـة مـا هـي إلا هـزر ولعـب وكـدر وتعـب لا ينبغـي للعاقـل أن يغـتر بهـا. فهـذا الشـعور الـذي ولـد اليـأس في قلـوب المشركـين كـما علـم مـن حـال الأديـب الرومـاني قاتـون، ولـد في قلـوب المنتصريـن الماليخوليـا وهـي السـوداء.

وفي ذاك التاريـخ أيضًـا تولـد فكـر التجسـس والاختبـار؛ لأن تلـك الوقائـع العظيمـة كانـت أشـبه بروايـة كبـيرة مثلـت عـلى مرسـح الدنيـا، وشـهد المتفرجـون عواقبهـا المدهشـة، فهـذه الوقائـع عبـارة عـن وثبـة وثبهـا الشـمال عـلى الجنـوب، وتغـير بسـببها شـكل العـالم الرومـاني، فأصبـح يقـاسي نـزاع المـوت وبلغـت روحـه التراقـي، فلـما مـات هـذا العـالم قـام جمهـور مـن النحويـين والبيانيـين والسفسـطائيين يتقاتلـون عـلى جنازتـه، ويقلبـون جسـده الـذي لا حـراك بـه، ويشرحـون ويفـسرون ويعـبرون ويحللـون

ويناقشون، ويجادلون كأنهم ذباب يتساقط على جيفة التمدن القديم، فمن سعادة هؤلاء المشرحين للعقول، وحسن حظهم أنهم وجدوا جيفة يجرون عليها أول تجاربهم، ويسبرون قروحها بمسبارهم، فكان أول جسد شرحوه جسد أمة ميتة.

وعلى هذا الوجه نرى الآن ظهور جنية المالیخوليا، والتفكر بجانب عفريت التحليل والتضاد، ونجد في أحد طرفي هذا الدور الانتقالي البياني الشهير لونجين (٢١٠-٢٧٣م)، ولد في حمص من سوريا، وألف باليونانية في علم البيان رسالة الإعجاز التي ترجمها بوالو للفرنساوية.

ونجد في الطرف الآخر القديس أوغوستين (٣٥٤-٤٣٠م) صاحب المؤلفات اللاتينية، فجميع أدباء القرون الوسطى استقوا أفانين العلم والأدب من حياض الروم في القسطنطينية، ولا يجوز لنا احتقار هذا الدور الانتقالي من أدوار الأدب؛ لأن فيه النطفة التي تخلقت وولدت وكبرت حتى صارت عروسًا نتمتع اليوم ببديع جمالها. فكتبة ذاك الدور — ونرجو هضم هذا التعبير الحر مع أنه سوقي مبتذل — زبلوا رياض الأدب ليجتني المتأخرون ثمارها.

فحيث كان هناك دين جديد، وأمة جديدة اقتضى أن ينشأ على هذين الأساسين أبنية جديدة في الشعر؛ لأن شعر المتقدمين كان حماسة صرفًا، وبسبب تأثير الدين الوثني والفلسفة القديمة كان الشعراء لا يدرسون من الطبيعة الواجب عليهم تقليدها إلا وجهًا واحدًا وهو وجه الجمال، وينبذون وراء ظهورهم جميع ما لا علاقة له بشيء من

نموذج الجمال بدون أن تأخذهم رأفة على صناعة الأدب المقتضى لها تقليد ما في الطبيعة من خير أو شر، فهذه الطريقة كانت في بادئ أمرها معتبرة. ولكن باضطرادها على قياس واحد زال رونقها وذهبت طلاوتها، ونقصت قيمتها كما هو شأن كل ما اضطرد على وتيرة واحدة، فلما ظهر الدين المسيحي جرَّ الشعر إلى الحقيقة ووضعه في مكانه، وصارت قريحة الشاعر النصراني ترى الموجودات بعين أوسع وأرق مما كانت تراها قريحة الشاعر الوثني، فشعرت هذه القريحة الجديدة بأن المخلوقات ليست كلها جميلة باعتبار الإنسان، بل الشنيع منها بجانب الجميل والمستظرف بقرب المستقبح، والشر أكثر من الخير، والظلام سابق النور، والجد مخلوط بالهزل، وكلام السخرية وراء الإعجاز بالفصاحة، فقالت القريحة في نفسها:

أحكمة الشاعر النسبية الجزئية أحسن من حكمة الخالق المطلقة الكلية؟

أبلغ من حد الشاعر أن يقوِّم ما اعوجَّ على زعمه من خلق الله؟

وهل الأبتر والأجدع والأجذم أجمل من كامل الأعضاء؟

وهل يحق لصناعة الأدب أن تنزع بطانة الثوب الذي تردت به الإنسانية، والحياة والمخلوقات؟

وهل يجوز نزع عضلة من الجسم، أو لولب من الدولاب إن أريد انتظام دورانه؟

وهل من الواجب على المطرب أن لا يعرب؟

ثـم نظـرت هـذه القريحـة الجديـدة في وقائـع العـالم فوجدتهـا مضحكـةً مرهبـةً معًـا، واعتراهـا المـزاج السـوداوي بسـبب الاعتقـاد المسـيحي، وأثـر عليهـا أيضًـا الانتقـاد الفلسـفي المسـتفاد مـن ذاك الـدور الانتقـالي، فخطـت في الأدب خطـوة كـبرى زلزلـت بهـا العـالم العقـلي، وقلبـت عاليـه سـافله وحـذت في الشـعر حـذو الطبيعـة، وخلطـت في اختـلاق المعـاني النـور مـع الظـلام، وكلام السـخرية مـع الإعجـاز بالفصاحـة بـدون أن تمـزج أحدهـما بالثـاني، وبتعبـير آخـر جمعـت في الشـعر بـين النفـس والجسـد وبـين الحيوانيـة والنطـق؛ لأن الشـعر والديـن متلازمـان، والنقطـة التـي يسـير منهـا أحدهـما يسـير منهـا الآخـر؛ فأوجـدت في الشـعر نموذجًـا جديـدًا وأسـلوبًا غريبًـا بالنظـر للمتقدمـين، وشرطـت فيـه شرطًـا قلـب شـكله وأصلـح قالبـه، فهـذا النمـوذج وهـذا الـشرط هـو كلام السـخرية الـذي يظهـر في قالـب الكوميديـة، فهـذا هـو الفـرق الـذي يفـرق في نظرنـا بـين صناعـة الأدب الجديـدة، وصناعـة الأدب القديمـة، وبـين الشـكل الجديـد الحـي، والشـكل القديـم الميـت، أو بتعبـير أشـهر مـن هـذا ولـو كان مبهـمًا، هـذا هـو الفـرق بـين أدب الطريقـة الرومانيـة، وأدب الطريقـة المدرسـية.

فيقـول لنـا حينئـذ أهـل الطريقـة المدرسـية: هـا نحـن أمسـكناكم، وأخذناكم بألسـنتكم، أنتـم تتخـذون مـن القبيـح نموذجًـا للتقليـد ومـن كلام السـخرية أسـلوبًا لصناعـة الأدب؟ ولكـن أيـن اللطافـة في ذلـك أيـن حسـن الـذوق؟ أمـا تـدرون أن صناعـة الأدب ينبغـي لهـا أن تقـوِّم مـا اعـوج مـن الطبيعـة؟ أمـا تعلمـون أن الواجـب عليهـا إعـلاء شـأن الطبيعـة؟ أمـا تعلمـون أن الأجـدر بهـا انتخـاب الأحسـن مـما في الطبيعـة؟ هـل أدخـل المتقدمـون

القبيح أو السخرية في كلامهم؟ هل مزجوا الكوميديا بالتراجيديا؟ فاتبعوا يا سادة أساليب المتقدمين، واقتفوا في فنون الأدب أثر أرسطو وبوالو ولاهارب ... إلخ.

وفي الواقع أن حجج أهل الطريقة المدرسية دامغة، ولكن لسنا مكلفين بالرد عليهم؛ لأننا لا نريد وضع قواعد جديدة ولا تقييد العقل بالعقال كما قيدوه؛ إذ حمانا الله من القواعد ... وإنما نحن حققنا وجود أمر، فنحن مؤرخون ولسنا منتقدين ولا مشرعين، فهذا الأمر موجود سواء أعجبهم أو لم يعجبهم، فقريحة الشعر الجديد تولدت من انضمام نموذج السخرية بالكلام إلى نموذج الإعجاز بالفصاحة، وهي غريزة المنبع في ابتكاراتها مختلفة الأشكال في تصويراتها، بخلاف الشعر القديم فإنه وحيد الشكل وحيد الأسلوب لبساطته واضطراده على وتيرة واحدة، فهذا هو الفرق الحقيقي والأساسي بين أدب الطريقتين الرومانية والمدرسية.

نعم إن المتقدمين لم يجهلوا بالكلية حقيقة الكوميديا، ولا السخرية التي نحن بصددها إذ لا بد لكل شيء من أصل، وجرثومة الدور الثاني لا بد أن تكون في الدور السابق عليه، ففي الإيلياذة كل من «فولكين» و«نيرميت» نموذج لهذه السخرية والكوميديا، والأول مثال للآلهة وقد مر ذكر السبب في عرجه، وليس على أعرج من حرج، والثاني مثال للبشر، ووصف هوميروس في الفصل الثاني من الإيلياذة هذره في المنطق، وهذيانه في الكلام، وبين كثرة جلبته واستهزائه بجميع الناس حتى بالملوك، فكان في محاربة ترواده مضحكة اليونان يسخر بهم

ويسخرون منه؛ لأن فيه جميع النقائص والعيوب، ومن أمثلة السخرية أيضًا مكالمة منيلاس مع بواب القصر في رواية «هيلانه» التي نظمها الشاعر اليوناني أوريبيد في القرن الخامس قبل الميلاد.

ومن السخرية أيضًا ما نراه عند اليونان من الأشخاص الخارقة للطبيعة كالذي نصفه الواحد إنسان ونصفه الآخر سمكة، والذي بعين واحدة في جبهته، وعرائس الجن اللواتي يظهرن على الإنس كأنهن حور الجنان، كل واحد من ذلك نموذج للسخرية، غير أن أدباء اليونان الأقدمين لم يتمكنوا من إيفاء هذا الموضوع حقه بسبب ما في أشعار حماستهم من الفخامة، وما في رواياتهم من العظة والجلالة، فالسخرية في كلامهم ليست في موقعها؛ لأنها مستورة بجلالة الشكل الحماسي، وأسلوب الحماسة يفوق فيها على أسلوب السخرية ويمنعها من الظهور والبيان، بخلاف الأدباء المتأخرين فإن أسلوب السخرية له في شعرهم ورواياتهم موقع مهم، وهو في كل موضع من كلامهم. ويصورون بهذا الأسلوب الشناعة والفظاعة من جهة، والهزر واللعب من جهة أخرى، ويلحقون به في الدين ألف وسوسة وأباطيل غريبة، وفي الشعر ألف معنى مبتكر وتصور بديع فأسلوب السخرية هو الذي أوجد في القرون الوسطى جميع هذه المخلوقات التي اعتقد الناس وجودها بين الإنسان، والله من عوالم الجن والروح والملك، وملئوا بها الهواء والماء والأرض والنار فلم يبقَ محل في الفضاء إلا وهي ساكنة فيه. ومنها من هو على أكتافنا يكتب أعمالنا، ومنها من يأكل ويشرب معنا من طعامنا وشرابنا، ومنها من يلبسنا لبس الجلد على اللحم، ولا يخرج منا إلا بالضرب الشديد والتعذيب، وهذه السخرية هي

التـي جعلـت لشـيطان النصـارى قـرون التيـس، وأرجـل الخنزيـر وأجنحـة الخفـاش، وجـرت الشـاعر دانتـي الطليـاني وملتـون الإنكليـزي إلى تصويـر تلـك الصـور الجهنميـة العجيبـة ووصفهـا بالأوصـاف الهائلـة والأشـكال المخيفـة، حتـى جـاء في القـرن السـادس عـشر المصـور الشـهير ميـكل أنجلـو ونقـش عـلى جـدار كنيسـة في الفاتيـكان الـذي يسـكنه البابـا صـورة مفخـة بديعـة سـماها اليـوم الآخـر وهـو يـوم العـرض والحسـاب، ولـو قـرأ القـرآن الكريـم لصـور جهنـم ترمـي بـشرر كالقـصر كأنـه جمالـة صفـر.

ومـن أمثلـة هـذه السـخرية أيضًـا الخـادم الجنـي ميفسـتوفلس المرافـق لفوسـت في الروايـة المتقـدم ذكرهـا، ومنهـا السـاحرات التـي مركزهـن في روايـة ماقبـت وأنـواع كثـيرة مـن الخـدام والرصـد القائمـين عـلى حفـظ الكنـوز المخفيـة، والعيـون الجاريـة والأشـجار الكبـيرة، وكـذا الحـوت الـذي يظهـر في البحـر كالجزيـرة المعشـبة، والثعابـين التـي تحـاكي في الضخامـة الفيلـة، وتحـرق بنفسـها كل مخـضر ونحـو ذلـك. فالمتأخـرون عـبروا عـن جميـع مـا ذكـر بـكلام أفصـح، وأبلـغ مـن كلام المتقدمـين.

فأسـلوب السـخرية مـا هـو في نظرنـا إلا ضـد قـام بجانـب أسـلوب الإعجـاز بالفصاحـة ليميـزه ويظهـره؛ لأن الأشـياء تتميـز بضدهـا، فهـو أغـزر المنابـع التـي فتحتهـا الطبيعـة لصناعـة الأدب، فطريقـة المتقدمـين أورثـت الملـل والـكلال باضطرادهـا عـلى نسـق واحـد، ومراعاتهـا لأسـلوب واحـد وهـو أسـلوب الإعجـاز؛ لأن الإعجـاز عـلى الإعجـاز، والبلاغـة وراء البلاغـة، والبيـان تلـو البيـان متعـب للفكـر مجهـد للذهـن، فـإذا فصـل بينهـما بـكلام السـخرية تفكـه العقـل وارتـاح مـما أجهـده وأضنـاه، واسـتأنف السـير نحـو

الإعجاز وهو في نشاط وارتياح بسبب توقفه بكلام السخرية والهزل، ثم لا يخفى أن الجميل إذا قُرن بالقبيح زاد جماله رونقًا وصفاءً، وتلألؤًا واعتلاءً؛ ولذا كانت الجنة التي وصفها ميلتون ألذ وأشهى من جنان الإيليزة التي وصفها هوميروس وفرجيل؛ لأن ميلتون صور تحت جنة عدن جهنم أشد دهشة ونكالًا من «تارتار» المتقدمين، ولو لم يصف لنا دانتي حبس ذاك الجبار العنيد في برج مدينة بيزه، وسد باب البرج عليه حتى هلك جوعًا بعد أن أكل أولاده لما وجدنا طلاوة لحسن فرانسواز دوريمني، ولا لجمال بياتريس التي دخلت به جنان النعيم، إذ لو لم يكن في كلامه تلك الشدة والقسوة والعذاب الأليم لما كان فيه تلك الحلاوة الرائقة والعذوبة السائغة.

ففي شعر المتأخرين الإعجاز بالفصاحة يشبه النفس الناطقة المطمئنة بتعاليم النصرانية، والسخرية؛ أي الهذر بالكلام يشبه الجسد الحيواني الذي في الإنسان، فالنموذج الأول بتجرده من الهذيان، وسلامته من العيوب حاز كل الحسن والجمال والرشاقة والاعتدال والجذب واللطافة والرقة والحلاوة، وأخرج من خدور الأفكار عرائس مثل جوليت وأوفيليه اللتين صاغهما شكسبير في رواية روميو وجوليت ورواية هاملت، ولعلهما تشبهان ليلى التي افتتن بها قيس العامري على عهد الدولة الأموية، ولقب لأجلها بمجنون ليلى، وفاطمة التي هام بحبها أمرؤ القيس، وقال لها: «أفاطم مهلًا بعض هذا التدلل».

والنموذج الثاني ظهرت فيه جميع العيوب، والعلل واتصف بالبشاعة، والشناعة، والهذيان، والانهماك في الشهوات الحيوانية، والرذائل الدينية

وفي جـر المنافـع ولـو بإيقـاع المفاسـد والجنايـات، فهـو فسـيق، دني، شره، مهـذار، بخيـل، طـماع، مـرائي، مفسـد، مفـتن، قـواد، غـدار، كـذاب، محتـال، ويتمثـل في صـورة باصيـل وفيغـارو وتارتـوف وهارباغون، والأول اسـم راهب يحـب مسـايرة العاشـقين عـلى أهوائهـم ولكنـه كثـير الطمـع في أموالهـم، والثـاني اسـم خـادم نشـيط ظريـف قـواد لسـيده أوصلـه إلى معشـوقته، ومكنـه مـن وصالهـا بمهـارة حيلـه ودسائسـه، وهـما مـن الأشـخاص التـي أوجدهـا مارشـه في روايـة «حـلاق إشـبيليه» و«زواج فيغـارو»، ونكـت بهـا عـلى أخـلاق المعاصريـن مـن الفرنسـاويين قبـل الانقـلاب الكبـير؛ أي في عهـد لويـس السـادس عـشر، والخامـس عـشر، وبـين إسرافهـم واسـتهزأ بأفعالهـم، وفي سـنة ١٨٥٤؛ أي في عهـد الإمبراطوريـة الثانيـة أنشـأ أحـد الكتبـة جريـدة هزليـة سـماها «فيغـارو» إشـارة إلى أنهـا تخـدم خدمـة فيغـارو مـع التنكيـت والتبكيـت، وعـدم المبـالاة بـشيء ولا التعصـب لأمـر، فأصبحـت جريـدة الفيغـارو اليـوم مـن أعظـم الجرائـد اليوميـة في باريـس، و«تارتـوف» نمـوذج الريـاء، و«هارباغـون» نمـوذج البخـل وهـما مـن أشـخاص روايـات مولـير، ويمكـن أن يعـد مـن هـذا القبيـل أيضًـا أبـو زيـد السروجـي في وعظـه للنـاس بالمواعـظ الحسـنة، ثـم جمعـه الفلـوس واشـترائه اللحـم والخمـر والجلـوس للمنادمـة مـع غلامـه كـما هـو موضـح في مقامـات الحريـري.

فالجميـل ليـس لـه إلا نمـوذج واحـد، والقبيـح لـه ألـف نمـوذج؛ لأن جـمال الجميـل مـا هـو إلا نسـبي بالنظـر إلى الإنسـان وباعتبـار تركيـب أعضائـه، والقبيـح لـه نسـبة وعلاقـة مـع غـير الإنسـان، فهـو جميـل بالنسـبة إلى عمـوم المخلوقـات، وقبيـح بالنظـر للإنسـان وحـده.

ففـي القـرون الوسـطى نـرى لـكلام السـخرية موقعًـا بجانـب الإعجـاز بالفصاحـة، وكـثر اسـتعمال السـخرية في الأدب في الرسـم والتصويـر والحفـر، وفي الأخـلاق والعـادات كالرسـوم التـي أحسـن في تصويرهـا المصـور الشـهير ميـكل أنجلـو الطليـاني، والمصـور مويلـو الإسـباني وأبـدع مـا أتـت بـه قريحتـه الراسـمة التـي نقـش فيهـا كيفيـة الصعـود إلى السـماء، ثـم ظهـر شكسـبير وصـار ملـك الشـعراء كـما قـال دانتـي عـن هوميـروس، ومـزج كلام السـخرية بـكلام الإعجـاز وصـاغ منهـما الـدرام، فشكسـبير هـو أبـو الـدرام والـدرام هـو الخاصـة المميـزة للـدور الثالـث مـن أدوار الشـعر والأدب العـصري، وهـو جامـع للمرهـب والمضحـك مـن الـكلام؛ أي للكوميديـا وللتراجيديـا.

## (١٤) الإجمال

•••

فإجمالًا لما تقدم لنا ذكره نقول: إن الشعر له ثلاثة أدوار وهي الغناء والحماسة والدرام، ولكل منها مناسبة بدور من أدوار الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، فالقرون الابتدائية غناءة، والقرون القديمة حماسية، والقرون الجديدة درامية، والغناء يترنم في الأزل، والحماسة تحتفل بالتاريخ، والدرام يصور حياة الإنسان، وخاصة الأول السذاجة، وخاصة الثاني البساطة، وخاصة الثالث الحقيقة.

فرواة اليونان — ويسمونهم رايزود، وهم أشبه برواة العرب الذي جاء منهم حماد الراوية، وكانوا يطوفون القرى ويروون أشعار بندار وهوميروس وأيشيل — يدلون على دور الانتقال من الشعراء المغنيين؛ أي الناظمين لشعر الأغاني إلى الشعراء الحماسيين. والرومانيون؛ أي مؤلفو الرومانات وهي الأقاصيص الموضوعة يدلون على دور الانتقال من الشعراء الحماسيين إلى الشعراء الدراميين، وبظهور الدور الثاني ظهر المؤرخون، وبظهور الدور الثالث ظهر الباحثون في حكمة التاريخ وبيان أسباب الوقائع وعللها.

وأشخاص شعر الأغاني عظام الأجسام طوال القامات والأعمار مثل آدم، وقابيل، وهابيل، ونوح، ويدخل في زمرتهم عوج بن عناق، وأشخاص شعر الحماسة من القوم الجبارين وهم أقوياء أشداء؛ مثل أشيل بطل الحروب اليونانية، وأستره آلهة العدل، وأوريست بن أغا ممنون الذي ألف فيه شعراء اليونان رواياتهم ثم جاء فولتر ونسج على

منوالها روايته المشهورة باسم أوريست. ويدخل في زمرتهم عنترة بن شداد. وأشخاص الدرام هم بشرٌ على الصورة الحقيقية للإنسان مثل هاملت، وماقبت، وأوتيلو الذين صورهم شكسبير في رواياته المشهورة بهذه الأسماء، وربما دخل في زمرتهم أبو زيد السروجي في مقامات الحريري، والشيخ علي بن منصور الحلبي في رسالة غفران المعري، ومنبع الأغاني الوهم والخيال ومنبع الحماسة العظمة والفخامة، ومنبع الدرام الحقيقة، وتتفجر هذه الينابيع الثلاثة من ثلاثة بحور كبيرة التوراة وهوميروس وشكسبير.

فهذه هي أشكال الفكر المختلفة بحسب اختلاف القرون التي تقلب فيها الإنسان والعمران، وهي في ثلاثة أدوار الشباب والكهولة والشيخوخة، فسواء نظرنا في أدب أمة على حدتها، أو في أدب البشر على وجه العموم، فالنتيجة التي نستنتجها من جميع ذلك واحدة؛ وهي تقدم الشعراء المغنين أو الغنائيين، وهم الناظمون أشعار الأغاني على الشعراء الحماسيين؛ أي الناظمين شعر الحماسة وتقدم الشعراء الحماسيين على الشعراء الدراميين، ففي فرنسا ماليرب (١٥٥٥-١٦٢٨م) سابق على شابلين (١٥٩٥-١٦٧٤م) وشابلين سابق على قورنيل (١٦٠٦-١٦٨٤م)، والأول هو الشاعر الغنائي «ليريك» الذي أصلح اللغة الفرنساوية، وقال فيه بوالو: «وفي النهاية أتى ماليرب ...» فذهبت مثلًا.

وأما الثاني فانتقد عليه بوالو في الشعر وسخر به حتى جعله أعجوبة وهزءًا، ويلقب الثالث بأبي التراجيديا وهي الروايات الفاجعات، وكذا الحال عند قدماء اليونان، فشاعرهم المسمى «أورفيوس» متقدم على

هوميروس، وهوميروس متقدم على «أيشيل» الملقب بأبي التراجيديا اليونانية. وفي كتاب العهد القديم؛ أي التوراة سفر التكوين متقدم على سفر الملوك، وسفر الملوك متقدم على سفر أيوب — عليه السلام — وإذا نظرنا في أدب البشر على وجه العموم نرى التوراة قبل الإيلياذة، والإيلياذة قبل شكسبير.

ولا غرو في ذلك فإن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم يبتدئ في الترنم بما يتخيله، ثم يقص ما يعمله، ثم يصور ما يفتكره، فالدرام بجمعه بين الأوصاف المتضادة كان أوعب للأفكار الفلسفية والتصورات العميقة، وكل ما في الطبيعة وما في الحياة يتقلب في هذه الأشكال الثلاثة، وهي الغناء والحماسة والدرام؛ لأن كل ما في الوجود يولد ويعمل ويموت. ولو أبيح التعبير عن الحقائق البرهانية بالتخيلات الشعرية لقال الشاعر بلسان الشعر: إن الشمس عند طلوعها ترنم بالغناء، وعند القائلة؛ أي الظهيرة تفاخر بالحماسة، وعند الغروب تفجع بالمصيبة وهي الدرام، فهذا التعبير هو من باب الشعر، وربما كان ضربًا من الجنون، انتهى كلامه ببعض تصرف وزيادة.

ثم شرع صاحب مقدمة كروميل في الرد على أصحاب الطريقة المدرسية في تقسيمهم الشعر إلى الأجناس، التي سبق ذكرها في الكلام على بوالو وفي تحديدهم كل جنس منها بالحدود والتعاريف، وفي تفريقهم بين التراجيديا والكوميديا، وأبطل قولهم: بلزوم وحدة الزمان والمكان في الروايات التمثيلية، ولم يقبل من وحداتهم الثلاثة إلا وحدة العمل. وقد ضربنا صفحًا عن إيراد كلامه في هذه المباحث لعدم التطويل؛

ولأن الروايات التمثيلية على ما فيها من الفوائد الجليلة في أساليب البلاغة لم تشتهر لهذا الزمان بين المتكلمين بالعربية، ولا اعتنى فحول أدبائنا في تأليف الروايات لا بالنظم، ولا بالسجع، ولا بالنثر كما فعلت النشأة الجديدة من أدباء اللسان العثماني.

وقد حض فيكتور هوجو في تلك المقدمة على تأليف روايات «الدرام» بالشعر لا بالنثر، وقال: بأن بيت الشعر يحيط بالمعنى إحاطة الثوب الإفرنجي بالبدن، ويضيق عليه ويوضحه معًا، ويعطيه شكلًا ألف وأدق وأتم من شكل النثر، ويديره علينا كأنه نوع من أنواع الأكسير الذي استخرجه الكيميائيون من خمير الذهب، وزعموا أن فيه لذةً للشاربين وشفاءً للأجسام من جميع العلل والأسقام، فبيت الشعر على رأي فيكتور هوجو هو القالب الشفاف للمعنى، وإذا تلطف الشاعر في نظمه وإنشائه أكسب المعنى رونقًا لولا بيت الشعر لمرَّ ذاك المعنى غير ملتفت إليه.

فالشعر هو العقدة التي تربط سلك المعاني، أو المنطقة التي تضم حواشي الهدم على الجسم وتطويه طيات متناسبة بالهندام. والشعر يزيل من الألفاظ ما هو سوقي مبتذل، أو عامي سخيف ويكسب المعاني حلاوة وطلاوة ورشاقة، سيما إذا اقتصر الشاعر على استعمال الألفاظ المتعارفة بين الناس المتداولة على الألسن، وترك ما كان وحشيًّا غريبًا في اللغة.

وعرَّض فيكتور هوجو بالذاهبين إلى أن «أعذب الشعر أكذبه» بقوله: ليت شعري ما الذي يضيع من الشعر إن دخلت فيه الطبيعة

والحقيقة؟ وهل تنقص الخمر صفة من أوصافها إن وضعت في أباريق الزجاج وختم عليها؟ كلا بل تصير رحيقًا معتقة ختامها مسك يتنافس بها المتنافسون. وختم المؤلف مقدمة كروميل ببيان المقتضى للشاعر من النسج على منوال الطبيعة (لأن كل ما في الطبيعة هو في صناعة الشعر)، وإن كان الشاعر جيد القريحة فلا حرج عليه في شيء من القواعد، وله الحرية المطلقة في التصرف بجميع أفانين الشعر على حسب ما يرتئيه.

فهذه خلاصة مقدمة كروميل الشهيرة بين الأدباء على اختلاف لغاتهم وتباين مذاهبهم، ومنها يفهم أن الطريقة الرومانية أرجعت الشعر إلى الحقيقة، والطبيعة، والحياة وتركت فيه التصنع وزخرفة الكلام وأجراس الألفاظ، ولم تلتفت إلى زعم أهل الطريقة المدرسية بأن زخرف القول من مقتضى الذوق السليم للشاعر، وأزالت جميع الحواجز التي تعرض أما سجية الطبع، وتصد الفكر عن تصوُّر الحقيقة والطبيعة، وتوصيف الموجودات بحسب ما هو مغروس في جبلة كل منها سواءٌ كان من صفات القبح، أو صفات الجمال بلا تفريق بينهما؛ ولذا نكتت بعض الجرائد بقولها على سبيل التقريظ والتبكيت: «فليعش الإنكليز والألمان، فلتعش الطبيعة الهمجية الوحشية التي نشاهد جمالها في أشعار فيكتور هوجو وإخوانه من أهل الطريقة الرومانية.» إشارة إلى أن أساليب هذه الطريقة أول ما ظهرت في أدب الإنكليز والألمان، كما تقدم بيانه، وعرَّف بعضهم الروماني؛ أي السالك نهج الطريقة الرومانية «بأنه رجل ابتدأ عقله في الاختلال.»

فمن أمعن النظر في المبحث الأخير من تلك المقدمة وجده مطابقًا لما ذكره أئمة البلاغة والأدب في لسان العرب، كأبي بكر الباقلاني وعبد القاهر الجرجاني وابن خلدون وأمثالهم، ولا حاجة لإيراد أقوالهم في هذا الباب، فإنها معلومة ومحصلها وجوب نصرة المعنى على اللفظ؛ لأن الألفاظ خدم المعاني، قال الباقلاني: «والشعر وإن ضيق نطاق القول فهو يجمع حواشيه، ويضم أطرافه ونواحيه، فهو إذا تهذب في بابه، ووفى له جميع أسبابه، لم يقاربه من كلام الآدميين كلام، ولم يعارضه من خطابهم خطاب.» وقول فيكتور هوجو: بأن الخاصة المميزة لأدب الطريقة الرومانية عن غيره هي الجمع بين نموذج السخرية ونموذج الإعجاز بالفصاحة أشبه بقول المتنبي: «وبضدها تتميز الأشياء»، ولعل السبب الذي حمل المتنبي والمعري على ترك أساليب الجاهلية، والنسج على منوال جديد هو الذي ذكره فيكتور هوجو من أن أساليب المتقدمين كانت معتبرة في بادئ أمرها، ثم باضطرادها على قياس واحد مراعاة للقوانين ثقلت على السمع وملها الطبع، وسترى حقيقة ذلك في التعريف الآتي للطريقة الرومانية.

أما عدم تعرض فيكتور هوجو لأدب العرب كما تعرض لأدب الأمم الأوروبية ولأدب الفارسية العذبة؛ فهو لجهله — سيما في ذاك التاريخ الذي ألف فيه مقدمته — بفصاحة العرب، وإعجاز القرآن، وحضارة الإسلام، فإن التمدن العربي لم يدرس حق درسه ليومنا هذا. ولم يزل صاحبنا المستشرق البودابستي العلامة كولدزير يحض المستشرقين من كل أمة على التعاون، والاشتراك في تأليف دائرة للمعارف الإسلامية، فإن تم هذا المشروع وأُنجزت ترجمة المهم من كتب الأدب العربية ربما

تيسر بعد ذلك للباحث الاطلاع على كنه العلوم والآداب الإسلامية، ولم يزل المستشرقون يترجمون في الصوربون القرآن الكريم، وتفسير البيضاوي ترجمة صحيحة مدققة، ولا يكملون في كل سنة أكثر من بضع صحائف، ولم يترجم من كلام المعري سوى وريقة فيها نحو مائتي بيت نشرت بالألمانية في فيينا عاصمة النمسا سنة ١٨٨٨م، فهم يتقربون من فهم حقيقة الأدب العربي رويدًا رويدًا.

وقد رأينا فيما تقدم أن صاحب أغاني رولان يعتقد بأن الإسلام فرع من عبادة الأصنام، ويحسب أبولون من جملة أوثان المسلمين، ولو علم فولتير من أحوال الشرق ما يعلمه علماء هذا العصر لاستحى من نفسه، ومزق الرواية التي حررها باسم «محمد النبي» — عليه السلام — وقدمها للبابا بنوا الرابع عشر بعد أن سجد لديه وقبَّل قدميه. ولما ذهب فيكتور هوجو لإسبانيا رأى آثار العرب في المباني والقصور والقناطر، وقدَّرها حق قدرها ولكنه لم يفهم من الآيات والأبيات المنقوشة على جدرانها أكثر مما نفهمه من أحرف الصين المنقوشة على البضائع الصينية، وسيما على علب الشاي. ولما ظهر رينان وصار شيخ العلماء في عصره درس أدب العرب الأندلسيين من حيث الفلسفة، ولخص ما حققه في كتاب سماه «ابن رشد»، فقام اليوم البارون قرادوفو معلم العربية في الأنستيتو الكاثوليكية بباريس، ونشر كتابين أحدهما «ابن سينا»، والثاني «الغزالي»، ودرس في الأول أدب العرب وفلسفتهم الشرقية، وفي الآخر علومهم الكلامية والإلهية، فالكتب الثلاثة المذكورة من أحسن ما حرر في هذا الصدد، ولكن الموضوع محتاج إلى تعميق وتدقيق، ولا يتيسر ذلك إلا بعد استخراج الكتب

العربية وفهمها، وقد خبط رينان في بعض ما حرره عن الإسلام خبط عشواء، وفتح لشارل ميزر وأمثاله بابًا للاعتراض عليه، كما أن البارون الكاثوليكي تعصب على ابن سينا والغزالي في ما حرره، ومع هذا قال رينان في الخطاب الذي نشره سنة ١٨٨٣: «بأن أوروبا ظلت منحطة في العلم والأدب عن العالم الإسلامي وخاضعة فيهما إليه حتى أوائل القرن الثالث عشر، وفيه أخذ العالم المسيحي يرقى درجات العلم والعمران، والعالم الإسلامي يهبط في الدرك الأسفل من الجهل وانحطاط الحضارة، واندثرت علوم العرب بعد ما لقحت جراثيم الحياة في جسم العالم اللاتيني الغربي، واستمر المترجمون من سنة ١١٣٠م إلى سنة ١١٥٠ يترجمون في مدينة طليطلة كتب العلم من العربية إلى اللاتينية، وهم تحت حماية الأسقف ريموند، وفي السنين الأولى من القرن الثالث عشر شرعت مدرسة باريس الكلية في تدريس كتب ابن رشد أرسطوطاليس العرب، أما ارتحال البابا سيلفتر الثاني لطلب العلم في إشبيلية؛ وإن كان مشكوكًا فيه فقسطنطين الإفريقي علامة عصره لا شبهة في أخذه العلم عن المسلمين.» ا.هـ.

وقسطنطين الإفريقي الذي يذكره رينان ولد سنة ١٠١٥م في قرطاجنة، وبعد أن حصل علوم الطب والحكمة صار كاتبًا لأحد الأمراء، ثم دخل سلك الرهبنة في إيطاليا وأدخل فيها علوم العرب، وله مجموعتان كبيرتان باللاتينية طبعتا في بال سنة ١٥٣٩م.

ودام قول فيكتور هوجو هو المعول عليه في الطريقة الرومانية إلى أن اشتهرت الطريقة الطبيعية (ناتوراليزم) في سنة ١٨٦٠ على عهد

الإمبراطورية الثانية، وقام أصحابها يناقشون فيكتور هوجو وشيعته وينتقدون عليهم، على أن الرجل وإن ظهرت له معجزات في آيات البيان، فهو ليس بنبي ولا تجب له العصمة عن الخطأ والنسيان، ومن هو الرجل الذي تُحمد كل سجاياه؟ ومن هو المُبرأ من كل عيب؟ وكفاه نبلًا أنه خطا في الأدب خطوة للأمام ومهد الطريق لمن أتى بعده، ولولا ظهور الطريقة الرومانية لما ظهرت الطريقة الطبيعية، ولا حصل ارتقاء ونهضة في الأدب، ثم إن مقدمة كروميل وإن بحث فيها المؤلف عن تاريخ الأدب، وبيان الخاصة المميزة لأدب الطريقة الرومانية عما سواه، فهي أحق بأن تكون تعريفًا لنوع الدرام وحده، وهو فن من فنون الشعر والأدب.

وأما التعريف الشامل لجميع ما حرر من فنون الأدب على نهج هذه الطريقة المستحدثة منظومًا كان أو منثورًا، فهو ما يأتي: إذ من شرط التعريف أن يكون جامعًا للأفراد مانعًا من دخول الأغيار فيه، ولا يكفي أن يكون منطبقًا على فرد من الأفراد فقط.

وتعريف الطريقة الرومانية تعريفًا جامعًا مانعًا ليس بالأمر السهل، ولا يتيسر إلا بالنظر في الخواص الظاهرة والمشتركة بين جميع فنون الأدب المنسوجة على أساليب الطريقة الرومانية والمنشأة في قوالبها.

## (١٥) تعريف الطريقة الرومانية

•••

الطريقة الرومانية هي أدبٌ يبحث فيه عن مشاعر النفس وبدائع المخلوقات، وهذا الأدب من قسم الشعر الموسيقي أو الغنائي الممتاز بخاصته الشخصية كما سبق تعريفه، وبيان الفرق بينه وبين شعر الحماسة والدرام، فإذا نظرنا في أعراض النفس نجدها على نوعين أحدهما أعراض قائمة بالنفس كالشعور بالحب والرجاء، والشعور بالبغض واليأس، والشعور بالفرح والطرب والابتهاج، أو بالحزن والغم والانقباض ... والثاني انفعالات تحصل للنفس بواسطة الحواس الخمس وهي البصر، والسمع، والذوق، والشم، واللمس، فهذه الحواس منها ما هو حائز على الصفة التمثيلية للعالم كالبصر والسمع وهما بهذه الصفة آلات يبني الإنسان بها العالم الخارجي الذي يحمل صورته في نفسه، ومنها ما لم يحز على هذه الصفة التمثيلية بسهولة وبلا واسطة، كبعض الانفعالات العضلية وحاستي الشم والذوق عند أكثر الناس.

فأهل الطريقة الرومانية اكتفوا بالتعبير عن النوع الأول وعن القسم الأول فقط من النوع الثاني، وصوروا بدائع المخلوقات بصور يخال منها للقارئ أنه يسمع ويرى، كما يتضح لمن طالع وصفًا من أوصاف فيكتور هوجو في مناظر الطبيعة وأصواتها، وفي بيان حنين النفس وانفعالاتها، وتركوا التعبير عن القسم الثاني من النوع الثاني؛ أي عن الحواس التي لم تحز الصفة التمثيلية لخلفائهم من المتأخرين، وهم

أهـل الطريقـة الطبيعيـة الذيـن قادهـم إميـل زولا، فصـور هـذا الإمـام في الأدب حقيقـة كل مـا بحـث فيـه وتكلـم عنـه ومثلـه تمثيـلًا حقيقيًّـا، وعـبر عـن حاسـة الشـم بمـا كتبـه عـن الهـال وهـو سـوق الخـضر في باريـس، وجعـل القـارئ يشـم مـا فيـه مـن روائـح السـمك والقديـد، فضـلًا عـما يسـمعه مـن جلبـة البائعـين والمشـترين، ويـراه مـن السـلع والمركبـات، وانهـماك الغـادي والبـادي في الأخـذ والعطـاء.

ثـم إذا نظرنـا فيـما حـرره الشـعراء والأدبـاء مـن أيـة أمـة، وفي أي لسـان نجـد منهـم مـن يتكلـم عـن شـعور وتصـور، ومنهـم الذيـن يقولـون مـا لا يفعلـون، وينظمـون قصائـد الغـزل والرثـاء، وهـم لا يشـعرون بـشيء مـن الغـرام أو التفجـع، ويمدحـون الممـدوح قبـل معرفتـه، ويصفـون الحبيـب قبـل مشـاهدته، ويهيمـون في ذكـر الطلـول والرسـوم وفي التشـبيه بالشـمس والقمـر والترشـيح بكـثرة الرمـاد، وطـول النجـاد حتـى يلتبـس الأمـر عـلى السـامع، فـلا يـدري هـل القائـل مـن أهـل القـرن الرابـع عـشر للهجـرة أم مـن الذيـن مضـوا قبـل البعثـة، فمـن شرط السـالك نهـج الطريقـة الرومانيـة أن يتكلـم عـن مشـاهدة وتصـور وشـعور وإحسـاس وانفعـال، وتأثـر واعتقـاد واقتنـاع، وإذا سـمع العامـيُّ شـيئًا مـن كلامـه في الحـب مثـلًا قـال: هـذا كلام عاشـق محـروق.

وإلى ذلـك أشـار ابـن رشـيق فيـما نقـل عنـه مـن كتـاب العمـدة بـأن مـن بواعـث الشـعر العشـق والانتشـاء، ومـن شروطـه الخلـوة واسـتجادة المـكان المنظـور فيـه مـن الميـاه والأزهـار، وكـذا المسـموع مـن غنـاء البلابـل وطنـين الأوتـار، فاهتمامنـا بانفعـالات الشـاعر التـي ليسـت بانفعالاتنـا، وبإحساسـه

الـذي ليـس بإحساسـنا إنمـا هـو لكوننـا بـشرًا، والشـاعر بـشر مثلنـا، فبيننـا وبينـه مشـاركة في الطبيعـة وفي منبـع الحـس والانفعـال، ويزيـد الشـاعر عنـا باقتـداره عـلى الإبانـة عـن المعـاني الكامنـة في نفسـه ونفوسـنا؛ لأن لـه سـجية الشـعر وملكـة راسـخة في التعبـير عـن شـعوره وإحساسـه. ولعـل هـذا مقصـد ابـن خلـدون في قولـه: «المعـاني موجـودة عنـد كل واحـد، وفي طـوع كل فكـر منهـا مـا يشـاء ويـرضى فـلا يحتـاج إلى صناعـة، وتأليـف الـكلام للعبـارة عنهـا هـو المحتـاج للصناعـة، فالـذي في اللسـان والنطـق إنمـا هـو الألفـاظ، وأمـا المعـاني فهـي في الضمائـر.» قـال الفيلسـوف الألمـاني هيـكل: «لا تكـون شـهوات النفـس وعواطـف القلـب مـن معـاني الشـعر إلا إذا كانـت عامـة، متينـة، دائمـة.» بحيـث يكـون الشـعر المشـتمل عـلى شـهوة مـن شـهوات النفـس، أو عاطفـة مـن عواطـف القلـب مؤثـرًا في كل مـن قـرأه أو سـمعه، ويكـون هـذا التأثـير دائمًـا في جميـع الأزمـان مثـل الإيليـاذة والأوذيسـة وماهـا بهاراتـه وراماياناـ المؤلفـة قبـل الميـلاد بقـرون كثـيرة، ولا يكفـي أن يكـون الشـعر مؤثـرًا عـلى فـرد أو أفـراد معـدودة في مجلـس أو مجالـس محـدودة، وقـول امـرئ القيـس: «قفـا نبـك مـن ذكـرى حبيـب ومنـزل» يؤثـر عـلى جميـع الخبيريـن بلسـان العـرب في عصرنـا هـذا وفي العصـور الآتيـة، كـما أثـر عـلى آبائنـا الأولـين في العصـور الحاليـة، فالـكلام العـالي المتـين المنسـوج عـلى منـوال الطريقـة الرومانيـة هـو الـذي تشـخص فيـه الإنسـانية، وتأثـيره عـلى السـامعين إنمـا هـو مـن جهـة عمومـه وشـموله في تصويـره مـا في سـويداء القلـب مـن العشـق والغـرام والهمـوم والأحـزان، وفي وصفـه المناظـر المبهجـة التـي في الطبيعـة، وبيـان مـا لهـا مـن الأشـكال الغريبـة البديعـة، وفي اسـتطلاعه حالـة الإنسـان وحظـه مـن هـذا

العـالم عـلى حـد قـول الشـاعر العـربي:

سـبحان من قسم الحظوظ

فلا عتاب ولا ملامه

أعمى وأعشى ثم ذو

بصر وزرقاء اليمامة

فالسـالك نهـج الطريقـة الرومانيـة لا يكتفـي بقولـه: لا عتـاب ولا ملامـه؛ بـل يسـأل في كل موضـع مـن كلامـه مـن نحـن؟ إلى أيـن ذاهبـين؟ ويفكـر في هـذا الـسراج الـذي يـضيء فينـا مـدى العمـر ثـم ينطفـئ بالمـوت، وفي أمـر هـذه الحيـاة التـي تجـري كالسـيل ثـم تنقطـع، فيسـتفهم عـن هـذه الأنانيـة المختفيـة فينـا وعـن معنـى «أنـا»؟ ويقـول: مـا هـو هـذا المـوت الـذي يطفـئ سراج العمـر، ويقطـع مجـرى الحيـاة؟ هـل هـو نهايـة، أو وقفـة، أو بـاب تمـرُّ بـه مـن بـرزخ لـبرزخ؟ مـاذا يوجـد وراء ذلـك؟ والحاصـل مـا هـو السـبب؟ مـا هـو سـبب «أنـا» الموجـود؟ مـا هـو سـبب هـذا العـالم الـذي أعكسـه في نفـسي؟ فـإن كان المفكـر بمـا ذكـر قـادرًا عـلى تأليـف شيء موافـق لأسـاليب الطريقـة الرومانيـة، فهـو يفتـش عـن هـذا الـشيء في خفقـان قلبـه، وفي مناظـر الطبيعـة. فـأدب الطريقـة الرومانيـة تشـف معانيـه عـن الخشـية الحاصلـة لأصحابـه مـما وراء الطبيعـة، وهـذه هـي الخاصـة المميـزة لـه والمظهـرة لعظمتـه واعتلائـه، وفي تصويـره الإحسـاس الباطنـي، وتوصيفـه مناظـر الطبيعـة يعطـي الإنسـان فكـرًا عـن الأمـر الـكلي ويرمـز لـه عـن المجهـول.

فموضوع أدب الطريقة الرومانية هو مجموع هذه الانفعالات الشخصية المختصة بكل فرد من أفراد الإنسان، وتلك الشروط الضرورية للمجتمع الإنساني، فهذا جل ما يبحث فيه السالكون نهج الطريقة الرومانية، ويبقى عليهم ما ذكرناه في قواعد الطريقة المدرسية من تمام النسبة بين أساس الفكر وشكل التعبير؛ أي فصاحة اللفظ وبلاغة المعنى، ووجود الموازنة بين التخيل الشعري وبين التعقل، واتباع الصدق والحقيقة في الشعر. فأهل الطريقة الرومانية لا يهتمون لا بالقواعد التي وضعها علم الروح (بسيكولوجي) ولا بالحقائق العلمية، وليس لهم عناية لا بصناعة التفكر ولا بصناعة التعقل؛ وإنما دليلهم في النظم والنثر الإحساس، بخلاف أهل الطريقة المدرسية فإن دليلهم في ذلك العقل والذوق السليم، وهذا ما جعل لمؤلفاتهم التي ألفوها في القرن الثامن عشر، وفي النصف الثاني من القرن السابع عشر فائدة وقيمة وندرة، فالطريقة الرومانية تتميز عن الطريقة المدرسية بأمرين أحدهما نفي، والثاني عكس قضية:

أما النفي فهو عبارة عن حذف القواعد التي أسست عليها المؤلفات الأدبية ونفيها عن الأدب، وكانت هذه القواعد على ثلاثة أنواع: (١) تعريف كل من الفنون الأدبية على حدته كالغزل والمدح والرثاء والهجاء ... إلخ والتفريق بينهما تفريقًا لا اتصال فيه. (٢) وضع قواعد لكل فن من هذه الفنون من شأن هذه القواعد توحيد النموذج وتغليبه على جميع الأمزجة المختلفة. (٣) قواعد الذوق وهي التي تعين حدًّا للشاعر في اختيار أساليب التقليد، وكيفيات التعبير وتحصر فكره.

وأما عكس القضية فهو عبارة عن العمل بضد ما عمل به أرباب الطريقة المدرسية، فأدب القرن الثامن عشر في جميع أوروبا كان على أساليب أدباء الفرنساويين الذين نبغوا في عصر لويس الرابع عشر؛ أي في القرن السابع عشر مثل قورنيل، وراسين، وبوالو، وموليير وهؤلاء نسجوا على منوال المتقدمين من اليونان والرومان، واختاروا مواضيعهم من القرون القديمة، كما هو الحال في رواية «استير» و«اتالي» و«اندروماق» إلخ. وأما أهل الطريقة الرومانية، فاتخذوا مواضيعهم من القرون الوسطى والبلاد الأجنبية، وتاريخ النصرانية كما هو الحال في رواية «فوست» و«كليوم تل» وجميع روايات فيكتور هوجو التمثيلية.

فالطريقة الرومانية وسَّعت أولًا دائرة الأدب، أو بالحري نقلت هذه الدائرة من مركزها لمركز آخر، ثم مزجت أساليب الفنون الأدبية من تراجيديا وكوميديا بعضها ببعض؛ فنشأ عن ذلك تشويش في بادئ الأمر ثم ظهر من هذا التشويش ترتيب جديد، وجاء الأدباء بشعر موسيقي وأدب مبهج وتاريخ حي، فالطريقة الرومانية أزالت تلك الأساليب المعينة المحدودة التي من شأنها أن تمنع الشاعر من أن يتصرف فيها بفكره واختياره، كما أنها أزالت عن السبك والإنشاء هاتيك العوائد الاستبدادية التي من خصائصها أن تصفي إلهامات الشاعر وترفع منها الغرابة، فبتغييرها أساليب الفنون والقواعد والذوق واللغة والعروض، وضعت الأدب في قالب غير معين، وساقت أدباء العصر الجديد للتحري بكل حرية على أساليب وقواعد وفنون جديدة، فعثروا أول الأمر على قواعد الطريقة الطبيعية، وهم الآن شارعون في وضع قواعد للطريقة

الإنسانية، ويقربون بذلك إلى الكمال شيئًا فشيئًا، ويرقون معارج البلاغة درجة فدرجة.

فإذا تأملنا كلام المعري ومن سلك مسلكه من الشعراء نجد فيه اهتمامًا زائدًا بأمر الآخرة وبما بعد الموت، وتفكرًا عميقًا في خلق السموات والأرض، ودهشة مقلقة وحيرة زائدة وانفاعالًا نفسانيًّا وإحساسًا غريبًا، فكان كلامه يدخل تحت التعريف المتقدم ذكره للطريقة الرومانية، ولكن بسبب فقده حاسة البصر التي لها المكان في هذه الطريقة لم يتيسر له وصف الطبيعة وصفًا لائقًا بها وبفصاحة لسانه، ولا حاجة لإيراد مثال من كلام المعري، فإن كل كلمة من اللزوميات تشعر بهذه الدهشة والخشية والحيرة والانفعال والإحساس والتألم ألمًا يهون معه الموت، ولا يحسب بجانبه مصيبة، وهذا بخلاف الجاحظ الذي يقول في أول كتاب الحيوان: «جنَّبك الله الشبهة، وعصمك من الحيرة، وجعل بينك وبين المعرفة سببًا، وبين الصدق نسبًا، وحبب إليك التثبت، وزين في عينك الإنصاف، وأذاقك حلاوة التقوى، وأشعر قلبك عز الحق، وأودع صدرك برد اليقين، وطرد عنك ذل اليأس، وعرَّفك ما في الباطل من الذلة، وما في الجهل من القلة.» فهو بعيد عن القلق والحيرة متثبت في الفكرة، وتأليف الكلام على هذا النمط يسمى طريقة الجاحظ وهي مخالفة لطريقة السجع.

وقد تصدى ابن رشيق (٣٩٠-٤٦٩هـ) لما تصدى إليه بوالو ووضع كتابًا في قواعد الشعر سماه «العمدة». قال ابن خلدون: «وهو الكتاب

الـذي انفـرد بهـذه الصناعـة وأعطاهـا حقهـا، ولم يكتـب فيهـا أحـد قبلـه ولا بعـده مثلـه»، فليـت شـعري هـل اطلـع عـلى شيء مـن مؤلفـات اليونـان في قواعـد الأدب والبيـان، كالـذي ألفـه أرسـطوطاليس، وترجـم شـيئًا منـه ابـن رشـد في القـرن السـادس للهجـرة، والـذي ألفـه البيـاني لونجـين الحمـصي، وترجمـه بوالـو للفرنسـاوية وسـماه «رسـالة الإعجـاز»، فـإن أدبـاء العـرب كان لهـم عنايـة بالقواعـد الأدبيـة باعتبـار أنهـا مـن جملـة المنطـق والفلسـفة؛ وإن لم يعتنـوا بأشـعار اليونـان ورواياتهـم التمثيليـة. وكان ابـن رشـيق في القـيروان فلـما حدثـت فيهـا الفتنـة فـر منهـا إلى جزيـرة صقليـة ونـزل مدينـة «ميـزر»، وأقـام بهـا إلى أن تـوفي ودفـن بمقبرتهـا. وكان الإفرنـج مسـتولين عـلى بعـض الجزيـرة والمسـلمون في بعضهـا الآخـر، ولعـل ذلـك كان عـلى عهـد رجـار الأول (روجـر)، ونظـن البعـوض آذى ابـن رشـيق أيـام فـراره ومحنتـه حتـى قـال:

يـا رب لا أقوى على دفع الأذى

وبك اسـتعنت على الضعيف الموذي

مـا لي بعثت إليَّ ألف بعوضة

وبعثت واحدة إلى نمروذ

ولـه غـير كتـاب العمـدة أيضًـا «الأنمـوذج» وكتـاب «الشـذوذ»، وهـو جامـع لشـواذ اللغـة و«قراضـة الذهـب»، وقـد تصـدى لوضـع قواعـد الشـعر وبيـان أسـاليبه كـما يفهـم مـن القصيـدة الآتيـة المفـردة لـه، وهـي أشـبه شيء بقصيـدة بوالـو التـي جمعـت فأوعـت قـال:

لعن الله صنعة الشـعر ماذا

مـن صنوف الجهال منه لقينا

يؤثـرون الغريب منه على ما

كان سـهلًا للسامعين متينا

ويـرون المحال معنىً صحيحًا

وخسـيس الكلام شيئًا ثمينا

يجهلـون الصواب منه ولا يد

رون للجهـل أنهم يجهلونا

فهم عند من سـوانا يلامو

ن وفي الحـق عندنا يعذرونا

إنما الشـعر ما يناسب في النظم

وإن كان في الصفـات فنونا

فأتى بعضه يشـاكل بعضًا

وأقامـت له الصدور المتونا

كل معنـى أتاك منه على ما

تتمنـى ولم يكن أو يكونا

فتناهـى من البيان إلى أن

كاد حسـنًا يبين للناظرينا

فكأن الألفاظ منه وجوه

والمعـاني ركبن فيها عيونا

فإذا ما مدحت بالشـعر حرًّا

رمت فيه مذاهب المشـتهينا

فجعلت النسـيب سهلًا قريبًا

وجعلـت المديح صدقًا مبينا

وتعليت ما يهجن في السـمع

وإن كان لفظه موزونا

وإذا ما عرضته بهجاء

عبـت فيه مذاهب المرقبينا

فجعلـت التصريح منه دواء

وجعلـت التعريض داءً دفينا

وإذا مـا بكيت فيه على العا

ديـن يومًا للبين والظاعنينا

حلـت دون الأسى وذللت ما كا

ن مـن الدمع في العيون مصونا

ثـم إن كنت عاتبًا جئت بالوعـ

ــد وعيدًا وبالصعوبة لينا

فتركـت الذي عتبت عليه

حـذرًا آمنًا عزيزًا مهينا

وأصـح القريض ما قارب النظم

وإن كان واضحًا مسـتبينا

فـإذا قيل أطمع الناس طرًّا

وإذا ريـم أعجز المعجزينا

فذكـر ابـن رشـيق مـن صنـوف الشـعر أو فنونـه المـدح، والنسـيب، والهجـاء بالتصريـح أو بالتعريـض، والرثـاء، وفرقـة الأحبـاب، والعتـاب بالوعـد أو بالوعيـد ... وذكـر غـيره مـن هـذه الصنـوف بـكاء الديـار وأهلهـا، فقـال:

وإذا بكيـت به الديار وأهلها

أجريت للمحزون ماء شـوونه

فبوالـو ذكـر هـذه الأجنـاس أو الأنـواع في قصيدتـه «صناعـة الشـعر»، وزاد عليهـا التراجيديـا، والكوميديـا، والأيبوبـة، وعـرف كل نـوع منهـا وجعـل لـه أحكامًـا وقواعـد كـما مـر، وتوسـع في هـذا البحـث حتـى تألـف مـن كلامـه رسـالة مطولـة.

## (١٦) مؤلفات فيكتور هوجو

•••

طبعت مؤلفات فيكتور هوجو مرارًا عديدة في قطع متفاوت في الصغر والكبر، ومنها ما هو مزين بالتصاوير والرسوم البديعة ومنها ما هو على أجمل ورق تمكنت المعامل الأوروبية من طبخه وصقله، وآخر طبعة طبعت للجمهور في أجزاء صغيرة الحجم (قطع ٣٢) يقرب عددها من ثلاثمائة جزء ثمن الجزء ٢٥ سنتيمًا، وأواسط هذه الطبعات ما كان بالقطع المثمن في ٤٨ مجلدًا ثمن المجلد عشرة فرنكات يضاف إليها اثنا عشر مجلدًا طبعت بعد وفاة المؤلف، فيبلغ بذلك عدد المؤلفات ستين مجلدًا، منها ١٦ مجلدًا في الشعر وهي:

(١) المدائح والمطربات.

(١) الشرقيات. أوراق الخريف.

(١) أغاني الشفق. الأصوات الداخلية. الأشعة والظلال.

(١) القصاص. (٢) التأملات أي سانحات الفكر.

(٤) سير الدهور.

(١) أغاني الشوارع والأحراج. (١) السنة المهولة.

(١) صناعة كون الإنسان جدًّا.

(١) البابا. الرحمة العالية. الأديان والدين. الحمار.

(١) رياح العقل الأربع.

ومنهـا خمسـة مجلـدات في الروايـات التمثيليـة المنظومـة وتسـمى «درام» وهـي:

(١) هان الاسلاندي.

(١) كروموبل.

(١) إيرناني. ماريون دولورم. الملك تيسـلي.

(١) لوكريـس بورجيا. أنجلو. ماري تيدور.

(١) روى بلاس. أسـميرالده. بورغراف.

(١) توركماده. امي روبار.

ومنها أربعة عشر مجلدًا في القصص، وتسـمى «رومان» وهي:

(١) هان الإسلاندي.

(١) بـوغ جارغال. آخر يوم مـن أيام المحكوم عليه أو قلودكو.

(٢) نوتردام دوباري أو كنيسـة باريس الجامعة.

(٥) البؤساء.

(٢) المشـتغلون في البحر وفي مقدمته أرخبيل بحر المانش.

(٢) الإنسان الضاحك.

(١) ثلاث وتسعون.

ومنهـا ثلاثة مجلدات في التاريخ وهي:

(١) نابوليون الصغير.

(٢) تاريخ جرم.

ومنها مجلدان في السياحة عنوانهما «نهر الرين».

ومنها مجلدان في الفلسفة أحدهما أدب وفلسفة، والآخر وليم شكسبير.

ومنها ستة مجلدات في الأقوال والأعمال وهي:

(١) قبل النفي.

(١) مدة النفي.

(١) بعد النفي.

(٢) فيكتور هوجو تاريخه.

هذا ما سلمه الشاعر بعد التنقيح والتهذيب للطبع فنشر في حياته، وله مؤلفات أخرى جُمعت من التساويد التي سودها، والأوراق التي تركها، وطُبعت بعد وفاته بغير تصحيح في اثني عشر مجلدًا، وهي: (١) الأشياء المرئية. (١) الله. (١) عاقبة الشيطان. (٣) كل العود.

(١) المرسح الحر. (١) التوائم. (١) مراسلات الخطيبة.

(١) السياحة في فرنسا والبلجيك. (١) السياحة في جبل الألب وفي جبل البيرينة.

(١) السنون المشئومة.

فما ينشر بعد موت المؤلف يسمى Posthumes، ويجوز فيه التنقيح والتهذيب عند إعادة طبعه، والذي يُنشر في حياة المؤلف يسمى ne Varietur أي الذي لا يتغير ولا يجوز التبديل فيه بعد وفاة صاحبه،

ولا تحريف الكلم عن مواضعها، ولو وجد من يتحرى في أوراق فيكتور هوجو لربما تمكن من استخراج مجلد أو مجلدين أيضًا. كما جُمعت أخيرًا المكاتيب التي حررها العلامة رينان لأمه وهو في المدرسة حديث السن وطُبعت في مجلد. ولعل القارئ يستكثر عدد هذه المؤلفات التي لا يجد الإنسان وقتًا لمطالعتها فضلًا عن تحريرها، وسبك إنشائها سيما ما يحتاج منها لدقة وتلطف؛ كقرض الشعر ونظم الروايات التمثيلية، ولكن إذا تأمل في همة رجال العلم والأدب، وإقدامهم زال استغرابه، وعلم أن ملكتهم رسخت في النظم والإنشاء حتى صار التحرير طبيعة ثانية لهم كالكلام. وإنا نشاهد المبعوثين في مجلس نواب الأمة يتكلم الواحد منهم الساعات الطوال بدون أن يتلعثم، ويضبط كلامه بالأصول المعروفة بالاستنوغرافيا، وينشر في جرائد المساء فيملأ الأعمدة الكثيرة والصحائف الكبيرة. وقد بلغنا عن مبعوث في بلاد المجر أنه تكلم في موضوع اثنتي عشرة ساعة، بحيث إنه بدأ في الصباح وبعد استراحة الظهر عاد لموضوعه، وأكمل بحثه في اليوم الثاني، فتألف من كلامه مجلد ضخم، ولو قرأنا فهرست الكتب التي ألفها الكندي، والرازي، وأصحاب المعاجم والتآليف الضخمة لوجدناها تقارب هذا المقدار أو تزيد عليه، ورأينا فيما تقدم ما ألفه العرب في أفانين الأدب من المؤلفات الكبيرة ككتاب الأيك والغصون للمعري ونحوه. على أن لفيكتور هوجو معينين في أعماله، فتاريخ فيكتور هوجو في مجلدين حررته زوجته الشرعية الشاهدة على حياته، وكانت الممثلة البارعة جوليت دروه تنسخ له وهو يملي عليها. وربما كتب له أيضًا الشاعر أوغوست فاكيري، وحرر ابنه فرانسوا من جزيرة كيرنزي لأحد

أصحابـه في فرنسـا يقـول:

نحـن كلنـا نشـتغل، والـدي يتمـم نظـم الحماسـات الصغـيرة، وشـارل يصنـف رومـان، وأنـا أتحـف فرنسـا بشكسـبير وأجتهـد بـأن أكـون ترجمانًـا صادقًـا لهـذه القريحـة الواسـعة.

وفي الحقيقـة أن فرانسـوا هوجـو ترجـم مؤلفـات شكسـبير أحسـن ترجمـة، فطبعـت في ثمانيـة عـشر مجلـدًا بعـد أن عرضهـا عـلى أبيـه، واسـتكتبه عليهـا المقدمـات والحـواشي، فجميـع المؤلفـات كانـت تعـرض عـلى فيكتـور هوجـو، وبعضهـا يطبـع باسـمه؛ لأنـه كان رأس هـذه العصبـة ومديـر هـذه الجمعيـة المؤلفـة مـن زوجتـه وصاحبتـه وأولاده وأصحابـه، ولم يـزل صغـار الكتبـة والشـعراء في أوروبـا ينسـبون مؤلفاتهـم وأشـعارهم إلى مشـاهير الرجـال ترويجًـا لهـا وإنفاقًـا لبضاعتهـم في سـوق العلـم والأدب. فـإن المـؤرخ الشـهير الفرنسـاوي ميشـله المسـتند في مؤلفاتـه عـلى القصـص التاريخيـة، التـي ألفهـا والترسـقوت الإنكليـزي نسـب لنفسـه في التاريـخ الطبيعـي الكتـب الأربعـة التـي عنوانهـا الطـير، الحـشرة، البحـر، الجبـل مـع أن المحـرر الحقيقـي والمصنـف لهـذه الكتـب النفيسـة عـلى مـا يقـال هـي زوجتـه المـادام ميشـله، وكانـت مـن الفاضـلات. ووجـد المحققـون في تاريـخ الكيميـاء أن بعـض كتبهـا القديمـة حررهـا أصحابهـا في القـرون الوسـطى، وعزوهـا إلى جابـر وهرمـس تقويـة لسـندها وإقناعًـا بصحتهـا، فانتحـال الشـعر أو الكتـاب المصنـف شـائع بـين الكُتـاب والشـعراء، وتـارة يكـون برضـاء المؤلـف الحقيقـي، وتـارة يكـون بغـير رضائـه وهـو السرقـة. وقـد يكـون السـارق المنتحـل أشـعر وأقـدر مـن صاحـب الشـعر

والتصنيف، ولكن وقته لم يسمح له بالإتيان بمثل ذاك المؤلف؛ ولذا اتهمت الأكاديمية فيكتور هوجو بسرقة القصيدة التي عرضها على لجنة التحكيم والمسابقة، وسماها «فوائد المطالعة» ولم يعطوه الجائزة التي استحقها.

وكان يحدث أمثال ذلك في أيام العرب وفي حضارة الإسلام كما اتهم الحريري في مقاماته، وكان قد عمل مقامة واحدة على مقامات البديع الهمذاني، وعرضها على أنوشروان بن خالد بن محمد وزير السلطان محمود السلجوقي، وكان الحريري خصيصًا به، فأمره الوزير بإنشاء المقامات وإتمامها فصنف أربعين مقامة، وأتى بها من البصرة محل تحصيله العلم إلى بغداد ونزل في الحريم، وهي سرة العاصمة والمحلة المشتملة على دار الخلافة وقصور الأمراء والأعيان، وكان ذلك في خلافة المقتدى بالله سابع وعشرين الخلفاء العباسيين، فاستحسن الأدباء طرز المقامات، وحسدوه عليها واتهموه بسرقتها، ولما امتحن سد عليه ولم تجد قريحته بشيء، وهو في الحريم وسط تلك العاصمة الكثيرة الزحام والجلبة فنُفي إلى المشان، قرية بقرب البصرة مشتملة على نخل وزرع، ولكن هواءها فاسد بسبب المستنقعات، وكان إذا غضب على شخص نفي إليها، فألف الحريري في المشان عشر مقامات أخرى، وكملت مصنفاته خمسين مقامة فقال فيه ابن جكينا يهجوه:

شيخ لنا من ربيعة الفرس

ينتف عثنونه من الهوس

أنطقه الله بالمشان وقد

ألجمه في الحريم بالخرس

وكان الحريري ينتسب إلى ربيعة الفرس وهي قبيلة من قبائل العرب على حدود فارس، وكان أولع بنتف لحيته والعبث بها، ووعده أحد الأمراء يومًا بولاية على شرط أن يترك نتف لحيته، فامتثل برهة ولم يستطع الصبر، فقال: «أحب إليَّ أن تعاد لي الولاية على لحيتي من كل ولاية.» ونشأ الحريري في مجمع العلماء والأدباء، وإليهم نسبت الأقوال الكثيرة في النحو، فقيل: مذهب البصريين ومذهب الكوفيين وكانت ولادته في البصرة، وقيل: لا بل ولد بالمشان المجاورة لها (٤٤٦–٥١٥هـ). وكانت السلطة والنفوذ في ذاك العصر للدولة السلجوقية التي ظهرت في العراق العجمي، واتخذت مدينة الري عاصمة لها ويقال للمنسوب لها: الرازي وقد صار علمًا على كثير من العلماء والفلاسفة، ولم تزل خرابات الري مشاهدة بظاهر طهران عاصمة الدولة الإيرانية، ويقال لها عبد العظيم نسبة لأحد الأولياء المدفون فيها، وهناك كان مقتل الشاه السابق، وسميت ملوك هذه الدولة السلجوقية بسلاجقة إيران تمييزًا لهم عن سلاجقة الروم الذين اتخذوا قونية عاصمة لهم، وعن سلاجقة كرمان الذين حكموا في الجنوب الشرقي من بلاد العجم، وظهر في سلاجقة إيران ١٤ ملكًا في ظرف ١٦١ سنة، وأعظمهم ثالثهم ملكشاه (٤٤٥–٤٤٧هـ) ابن ألب أوسلان ويسمى أبا الفتح جلال الدين، وإليه ينسب التاريخ الجلالي الذي وضعه عمر الخيام الأديب الفلكي الشهير، وكان وزيره نظام الملك صاحب المدرسة النظامية في بغداد،

فيفهم من ذلك أن ملوك هذه السلالة ووزراءها، وأمراءها كلهم حريصون على تعزيز جانب العلم والأدب، ولا غرو أن أتى الأدباء في زمانهم بمثل المقامات الحريرية، وألف كمال بك إمام الأدب في اللسان العثماني رواية بليغة سماها «جلال»، وجعل لها مقدمة يعدها الأدباء من أبلغ ما حرر في اللسان العثماني على الأسلوب الجديد.

فيتضح مما سبق أن مؤلفات فيكتور هوجو على نوعين؛ منظوم ومنثور، وكل واحد منهما يشتمل على فنون ومذاهب في الكلام، فالمنظوم منه ما هو شعر ويشتمل على فنون كثيرة مثل الأود والبلاد والإيليجي ... إلخ ولكل منها عروض مخصوص، ومنه ما هو روايات تمثيلية تُتلى على المراسح كما يتلى النثر المرسل بغير التفات إلى أوزان النظم ولا قوافيه؛ أي بلا ترنم ولا تطريب ولا تغريد ولا ترخيم في الصوت، ولا وقوف على القافية، ونظمت هذه الروايات التمثيلية التي يقال لها درام على عروض البحر الإسكندري في الغالب، وهو المبني على اثني عشر هجاء.

فإذا جرى التوقيع بالروايات الدراماتيقية على آلات الطرب، ولحن فيها على طريق الصناعة الموسيقية سميت «أوبرة»؛ ولأجلها بُنيت المراسح الكبيرة التي يقال لها أوبرة؛ كالأوبرة الخديوية في القاهرة، والمرسح الذي بُني في الأستانة، ثم احترق ولم يُجدد بناؤه، ويقال لأوبرة باريس أكاديمية الموسيقى؛ لأنها شعبة من شعب أكاديمية الصنائع النفيسة التي هي في عداد الأكاديميات الخمس الشهيرة في باريس، ومثال ذلك أوبرة فوست التي صنف قصتها الدراماتيقة الأديب الألماني كوته،

ثـم جـاء الملحـن الفرنسـاوي كونـو ووفـق ترجمـة كلامهـا عـلى صناعـة الألحـان، وكـذا روايـة عائـدة (آيـده) التـي وضعهـا عـلى صناعـة الألحـان الملحـن الشـهير الطليـاني فـردي، ثـم نظمهـا بالفرنسـاوية أديبـان مـن أدبـاء الفرنسـاويين، وأول مـا مثلـت هـذه الروايـة الأخـيرة في الأوبـرة الخديويـة بالقاهـرة سـنة ١٨٧١، ثـم مثلـت في باريـس عـلى المرسـح الطليـاني سـنة ١٨٧٦، وتمثـل اليـوم عـلى جميـع المراسـح الفرنسـاوية في العاصمـة والإيالات، وفي أكـثر المـدن الأوروبيـة ولعـل هـذه الروايـة هـي التـي تُرجمـت للعربيـة باسـم «عائـدة».

فالأوبـرة هـي تأليـف دراماتيقـي اجتمـع فيـه الشـعر والموسـيقى؛ ولـذا فهـي تشـتمل عـلى أوزان العـروض وأنغـام المزامـير وأقاويـل الشـعر؛ أي مـا فيـه مـن التشـبيه والتخييـل، فـإن دخـل في الأوبـرة مـع الـكلام المنظـوم كلام منثـور أيضًـا سُـميت أوبـرة «كوميـك كروايـة كرمـن»، وإن لم يكـن موضـوع الروايـة دراما؛ أي فاجعـة، بـل كان كوميديـا مضحكـة سـميت «بـوف» و«بوفـون» و«أوبيريـت» تصغـير أوبـرة. واجتهـد بعـض الأدبـاء الـترك في التأليـف بـين الشـعر والموسـيقى في اللسـان العثـماني، فترجمـوا روايـة كرمـن نظـمًا للتركيـة، وشـخصوها مـع الأنغـام الموسـيقية عـلى المراسـح المتخـذة مـن الأخشـاب في محلـة أقـسراي، وفي متنزهـات ضواحـي الأسـتانة، ومـع أن مشروعهـم ابتـدائي فالتمثيـل كان لا بـأس بـه رغـمًا عـن حداثـة نشـأته، فلـو حصلـت عنايـة في تنشـيط هـذا المـشروع بقـوة المـال، وهمـة الرجـال لنجـح ولا شـك باللغـة التركيـة، وباللغـة العربيـة أيضًـا. فـإن دوائـر البلديـة في مـدن أوروبـا الثانويـة فضـلًا عـن العواصـم تنفـق النفقـات الباهظـة في كل سـنة لإعانـة المراسـح؛ لأن مـا يُجمـع مـن أجـرة الدخوليـة لا يكفـي

لتحسين المراسح إلى الدرجة التي بلغتها مراسح أوروبا، وكان لعلماء العرب وفلاسفتهم المتقدمين اهتمام بعلم الموسيقى، وللفارابي فيه اليد الطولى ومما ألفه كتاب الموسيقى الكبير، ونقل صاحب الأرز في ما نشره من الأزجال والموشحات عبارة عن ابن رشد وردت له في تلخيصه كتاب أرسطوطاليس في الشعر الذي طبعه المستشرق فوستو لازينو في مدينة فلورنسه سنة ١٨٧٣ قال ابن رشد: «المحاكاة في الأقاويل الشعرية تكون من قبل ثلاثة أشياء، من قبل النغم المتفقة ومن قبل الوزن ومن قبل التشبيه نفسه. وهذه قد يوجد كل واحد منها مفردًا عند صاحبه مثل وجود النغم في المزامير والوزن في الرقص والمحاكاة في اللفظ، أعني الأقاويل المخيلة الغير الموزونة، وقد تجتمع هذه الثلاثة بأسرها مثل ما يوجد عندنا في النوع الذي يسمى الموشحات والأزجال، وهي الأشعار التي استنبطها في هذا اللسان أهل هذه الجزيرة؛ أي الأندلس» ا.هـ. ولا شبهة في أن أعاريض الموشحات والأزجال من أنسب العروض لنظم روايات الأوبرة لسهولة التوقيع بها على آلات الطرب بخلاف البحور الستة عشر في العربية، أو البحور الثمانية عشر بالفارسية والتركية، ولا نطيل الكلام في هذا المبحث، فإن أهله أولى بالبحث فيه والتفتيش عن دقائقه وخوافيه ونعود للصدد الذي كنا فيه.

وأما النثر الذي ألفه فيكتور هوجو، فكله من قبيل المرسل وهو الذي يطلق فيه الكلام إطلاقًا، ولا يقطع أجزاء بل يرسل إرسالًا من غير تقييد بقافية ولا غيرها، وليس عند الإفرنج سجع، وهذا المنثور على أقسام وفنون شتى منها القصص التي يقال لها «رومان» وهي ما صور فيها مؤلفها غرائب الوقعات، وعجائب الاتفاقات، واستلفت

نظـر القـارئ أو السـامع بمفترياتـه واختلاقاتـه وتخيلاتـه البديعـة، وسـميت هــذه القصــص رومــان أو رومانــس باســم اللغــة القديمــة التــي كتــب فيهـا رومـان رولان، وأمثالهـا مـن القصـص والحكايـات المنظومـة والمنثـورة والرومانــات عــلى أقســام كثــيرة منهــا الرومــان التاريخــي والغرامــي، أو الإحسـاسي والروحـاني والفنـي والسـياسي إلـخ، ومـن منثـور فيكتـور هوجـو أيضًـا التاريـخ والسـياحة والفلسـفة والأقـوال والأعـمال والرسـائل والخطـب والسياسـات وغـير ذلـك.

## (١٧) نظم فيكتور هوجو

•••

قرض فيكتور هوجو الشعر في أعاريض مختلفة، منه ما هو على وزن البحر الإسكندري المنسوب لأحد الشعراء اليونانيين، أو المدينة الإسكندرية التي زهت فيها العلوم والمعارف والآداب اليونانية على عهد البطالسة. ويتألف عروض البحر الإسكندري من اثني عشر هجاء إذا كانت القافية مذكرة، ومن ثلاثة عشر إذا كانت مؤنثة، ويقسم كل بيت إلى شطرين بوقفة Césure تأتي بعد الهجاء السادس المساواة للشطرين، والنظم في هذا البحر صعب يحتاج إلى نفس عالٍ وتلطف كثير ومهارة زائدة، وبه تظهر قوة الشاعر واقتداره على التصرف في الكلام؛ ولذا اختص بالمواضيع الجدية العالية لقصائد الحماسة وروايات الفاجعة. واختاره فيكتور هوجو لنظم روايات الدرام التمثيلية المذكورة في الكتب الخمسة المتقدم بيانها ولنظم غيرها من الأشعار الحماسية والتاريخية، ولكنه غيَّر فيه كثيرًا ولم يراعِ الوقوف على الهجاء السادس بل قسم البيت إلى شطرين غير متساويين، وجوز تكميل معنى البيت الأول بألفاظ من البيت الثاني، مع أن العرب يشترطون أن يكون كل بيت من أبيات الشعر تامًّا في بابه مستقلًّا في معناه، ويمكن تشبيه البحر الإسكندري بالبحور العربية الستة عشر، أو البحور الفارسية الثمانية عشر.

ومن شعر فيكتور هوجو ما هو على أوزان متخالفة متألفة من ستة أو ثمانية أو عشرة هجاءات نُظمت أسماطًا أسماطًا وأغصانًا أغصانًا،

وجعل لها أدوارًا ولازمات على نسق ما استحدثه الأندلسيون، وبقية شعراء العرب المتأخرين من الموشحات والأزجال، وهي أسهل طريقة وأقرب تناولًا من البحر الإسكندري كما أن الموشحات والأزجال العربية أسهل من بقية البحور، ولها عند الإفرنج أسماء بحسب أجناسها مثل أود وبالاد ورونـدو وإيليجي إلخ، ولها أدوار تسمى قوبله وستروف ولها أيضًا لازمات refrain إلخ. واقتبس الفرنساويون هذه الأعاريض من شعراء تروبادور تلقوها عن عرب الأندلس، كما أخذوا عنهم علو القوافي، فإن شعراء الإفرنج على الإطلاق لم يكن لهم معرفة بالقوافي، وإنما كانوا يعتاضون عنها في أشعارهم بما يسمونه «أسونانس»، وهو شبه القرادي والعتابي كما مر ذكره، ومثلنا فيما سبق للقافية بكلمتي «ساج» و«باج»، ولما يسمونه أسونانس بكلمتي «ساج» و«ترم». والإفرنج لا يلتزمون في القصيدة أو المنظومة قافية واحدة أو رويًّا واحدًا كما يفعل العرب، ففيكتور هوجو لم يلتفت كثيرًا لأوزان العروض التي نظم فيه من تقدم عليه من الشعراء، بل تساهل جدًّا في جانب الألفاظ واستحدث من عند نفسه أنواعًا جديدة، ووضع هذه القاعدة، وهي «أن الشعر ليس في قوالب المعاني، وإنما هو في المعاني نفسها، فالشعر هو الأمر الباطني لكل شيء في الوجود.»

فهذه القاعدة ليست مجهولة بالتمام عند أدباء العرب، ولعل ابن رشد أشار إليها في العبارة السابقة بقوله عن المحاكاة في اللفظ: «أعني الأقاويل المخيلة الغير الموزونة.» وحكي عن حسان بن ثابت حينما أتاه ابنه عبد الرحمن وهو صبي يبكي، ويقول: لسعني طائر.

فقال حسان: صفه يا بني.

فقال: كأنه ملتفٌّ في بردي حبرة، وكأن لسعه زنبور.

فقال حسان: قال ابني الشعر ورب الكعبة.

فمقصود الصبي أن الطائر الذي لسعه يشبه في أجنحته وشكله المنقش العجيب الشخص الملتف برداء موشى ومصبغ، وقول حسان حجة على أن الشعر لا ينحصر في الكلام المقفى الموزون، وإنما حقيقة الشعر في المعاني والتخيل، وفيما يحدثه على النفس من التأثير، ولكن درج تعريف الشعر على الألسنة بأنه كلام مقفى موزون، وسبق لنا ذكر تعريف ابن خلدون للشعر بأنه «الكلام البليغ المبني على الاستعارة أو الأوصاف، المفصل أجزاء متفقة في الوزن والروي، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده، الجاري على أساليب العرب المخصوصة.» وعلى هذا التعريف يكون كلام المتنبي والمعري ليس من الشعر في شيء. وقال أبو الفداء عن المعري: «وطبق الأرض ذكره ... وأكثر مصنفاته ركيكة فهجرت لذلك.» والصحيح أن كلًّا منهما إمام مجدد في الأدب خرجا بالكلام عن تلك القيود المدرسية، وأطلقا للقريحة عنان الحرية، وكان النوع المعروف بين الأدباء هو نوع القصيد، وله أساليب معروفة عندهم تختص بمطلع القصيدة، وبيت التخلص والختام وذكر الأطلال والرسوم والراحلة والسفر، فالمعري والمتنبي خرجا عن هذه الأساليب، ولكنهما أفرطا في إيراد التشابيه الغامضة، والألفاظ اللغوية واحتاج شعرهما إلى شرح طويل وتفسير، ثم صار هو أيضًا شعرًا مدرسيًّا بسبب نسج المتأخرين على منواله، وتهافتهم على التشابيه

الغامضة. وقال فيكتور هوجو في كتابه المسمى أدب وفلسفة:

لا يكفي أن يكون للشعر قالب حسن للألفاظ، بل يلزم أن يحتوي على معنى، أو تشبيه أو إحساس؛ ليكون له رائحة ولون وطعم، تسعى النحلة في بناء الواجهات الست لبيوتها من الشمع، ثم تملأها بالعسل، فهذه البيوت أو الخلايا هي أبيات الشعر، والعسل هو الشعر ا.هـ.

فشبه الشعر بالشهد وهو العسل في شمعه، وبالخمر أيضًا ولها أوصاف ثلاثة: رائحة تفوح منها كما يفوح المسك، وتسمى باصطلاحهم «بوكه»، ولون كأنه ياقوتة سيالة أو صفراء فاقع لونها، وطعم يعرفه أهل الذوق كما تعرف طعوم المآكل، ويميزون فيه بين الحسن والأحسن والضار والنافع والأنفع. ورأيت في أهل الذوق من رسخت لهم ملكة حتى أصبحوا يعرفون الخمر من أي كرم وقرية، ومن محصول أي سنة بمجرد معاينة أوصافها الثلاثة بالحواس الثلاث حاسة البصر، وحاسة الشم، وحاسة الذوق. وتشبيه الشعر بالخمر والعسل معروف عند العرب، ويقولون فلان من أهل الذوق في الكلام وتقول العامة «كلام بلا طعم». ومما يؤيد أن الشعر في المعاني قول أبي محمد الخازن من أدباء أصفهان، وكان ينتسب للصاحب بن عباد ويراسل أبا بكر الخوارزمي قال:

لا يحسن الشعر ما لم يسترق له

حر الكلام وتستخدم له الفكر

انظر تجد صورة الأشعار واحدة

وإنما لمعانٍ تعشق الصور

ثم إن تقسيم الشعر عند الإفرنج إلى أود وبالاد وإيليجي ... إلخ، هو تقسيم باعتبار الشكل الخارجي؛ أي باعتبار قوالب الألفاظ وبحور العروض والأدوار ... إلخ. وأما باعتبار المعنى، فيقسم إلى ثلاثة أقسام غرامي وحماسي ودرامي؛ فالغرامي؛ ويسمى الموسيقي أيضًا؛ لأن الأصل فيه الإنشاد على نغمات الأوتار؛ هو كل شعر أعرب عن الحواس الشخصية، فمؤلفه يبين فيه إحساسه وعواطفه وحبه وبغضه وشقاءه وسعادته، فإذا جرى التوقيع به على آلات الطرب كان أشد وقعًا وتأثيرًا على النفوس، والشعر الحماسي هو ما وصف به شجاعة الشجعان، وذبهم عن الحريم والأوطان وفيه أحاديث الشهامة والغيرة والحمية فهو بهذه الصفة تاريخي، والدرام هو ما صور فيه الحياة الإنسانية وتقدم تفصيل الكلام عليه.

فالأود والبالاد والأيليجي ... إلخ يقابلها في العربية المدح، والغزل والرثاء ... إلخ غير أن هذه الأقسام في العربية من الأقسام المعنوية، وأما عند الفرنساويين فهي من الأقسام اللفظية التي لكل منها عروض مخصوص وشكل معروف. ومن هذه الأقسام اللفظية أيضًا الشعر الفاجع؛ وهو ما صور فيه الشاعر حادثة مهمة من شأنها تهييج العواطف، وتحريك الغضب واستجلاب الشفقة والرحمة، وتنتهي الرواية الفاجعة في الغالب بمصيبة. فروايات المتقدمين التي على هذا

الطـراز تسـمى تراجيديـا، وروايـات أصحـاب الطريقـة الرومانيـة التـي عـلى أسـلوبها تسـمى درام.

وأمـا الكوميديـا فهـي مصـورة لأخـلاق الهيئـة الاجتماعيـة بمسـاويهم ومعايبهـم بصـورة هزليـة مضحكـة، كروايـات موليـر ومنهـا روايـة تارتـوف وهـي مترجمـة للتركيـة، ومنشـورة في مطبعـة أبـو الضيـاء، وأشـعار الهجـاء عنـد الإفرنـج تشـتمل عـلى الهجـو والـذم والانتقـاد والتعريـض والاسـتهزاء، وخلـط الجـد بالهـزل ونحـو ذلـك.

ومـن أنـواع الشـعر عندهـم أيضًـا الشـعر البـدوي المصـور لأخـلاق البـدو والرعـاة، وهـم في الباديـة والجبـال، ولقـد أحسـن لبيـد بـن ربيعـة العامـري في تصويـر أخـلاق الباديـة والمعيشـة البدويـة قبـل الإسـلام، وديوانـه مطبـوع في فينـا عاصمـة النمسـا.

ومـن الشـعر مـا تقـص فيـه الحكايـات، وتُـضرب الأمثـال عـلى ألسـنة الحيوانـات كحكايـات لافونتـين، ومنـه أيضًـا الشـعر الـذي عـلى نهـج الرسـائل والمكاتيـب ... ولـه أمثـال عنـد العـرب، ومـن شـعراء دمشـق المتأخريـن مـن نظـم حجـة شرعيـة بجميـع مـا يلزمهـا مـن القيـود والـشروط.

وجـل مهـارة فيكتـور هوجـو في الشـعر الغرامـي أو الموسـيقي المعـرب عـن الإحسـاس الشـخصي، ولشـعره نغمـة مطربـة وقـوافٍ عامـرة، وألحـان تحـن لهـا القلـوب وترتـاح لسـماعها النفـوس، وهـو الـذي أوجـد عنـد الفرنسـاويين الهجـو الموسـيقي في المنظومـات التـي هجـا بهـا نابوليـون الثالـث، ولم تـزل هـذه الأنغـام والقـوافي والألحـان هـي الباعثـة عـلى رواج أشـعاره وإقبـال الجمهـور عليهـا.

وكـما أن فيكتـور هوجـو غـيَّر أفاعيـل الشـعر وتفاعيلـه، وأصلـح عروضـه عـلى المثـال المشـار إليـه آنفًـا، أصلـح كذلـك ألفـاظ الشـعر ومعانيـه، وأبطـل جميـع اصطلاحـات الأدبـاء؛ أي الأسـاليب والتعبـيرات المصطلـح عليهـا بينهـم، والتـي لا يفهمهـا إلا أهـل الغـوص عـلى المعـاني وهـم خـواص النـاس، وقـال بـأن جميـع الألفـاظ سـواء، لا فـرق فيهـا بـين اللفـظ الـذي وقـع اختيـار الآدبـاء عليـه، وبـين اللفـظ الـذي رفضـوه وقالـوا عنـه: سـوقي مبتـذل، وجـوز للكتبـة والشـعراء الأخـذ بـكل واحـد مـن نوعـي الألفـاظ المختـارة والسـوقية، واسـتعمالهما بـلا فـرق في النظـم والنـثر عـلى شرط توافقهـما لقواعـد النحـو والـصرف. وأبطـل أيضًـا مـا كان يسـتعمله الأدبـاء في كلامهـم مـن المقدمـات والـدوارات، التـي مـن شـأنها تغطيـة المعنـى، والتثقيـل عليـه وكـذا التعبـيرات العموميـة والإجماليـة التـي يتـلاشى بهـا المعنـى، ويسـتبهم كـما يفعـل أدبـاء العـرب في خطبـة الكتـاب المصنـف وفي مقدمتـه، ولم يـرضَ مـن جميـع ذلـك إلا بالتعبـير الأصـلي، والمعنـى الحقيقـي الـدال عـلى خصوصيـة الموضـوع؛ لأن الغـرض مـن تأليـف الكلـمات وتصنيـف الـكلام إنمـا هـو تشـخيص الموضـوع وبيـان مزيتـه وغرابتـه، فـلا حاجـة للاسـتعارة ولا للمعنـى المجـازي، ويقـوم مقـام الاسـتعارة التشـبيه، أو التخيـل الـذي هـو نـوع مـن الإحسـاس لا التشـبيه والتخييـل المسـتفاد مـن طـرز الكتابـة، فالواجـب عـلى الكاتـب أن لا يشـغل نفسـه بالاسـتعارات وأنـواع البديـع، وأن لا يتصنـع ولا يتعمـل في الـكلام، بـل ينبغـي لـه أن يهتـم ببيـان الموضـوع الـذي هـو فيـه، وإيضاحـه ووصفـه بالأوصـاف السـديدة المظهـرة لـه ظهـور الشـمس في رابعـة النهـار، ويوضـح انفعالاتـه النفيسـة في ذاك الموضـوع؛ ليكـون أشـد تأثـيرًا عـلى السـامع، فتأثـير الـكلام يكـون مـن جهـة الانفعـال

النفسي والتصوير الطبيعي لا من جهة الاستعارات.

غير أن فيكتور هوجو وأهل طريقته لم يمنعوا أنفسهم من استعمال الاستعارات المدرسية، والتعبيرات المصنعة لرسوخ ملكتهم فيها، ومن الاستعارات التي وردت لفيكتور هوجو على الطراز القديم قوله: «نجوم المركبة»، ويريد المصابيح التي تنار بها المركبات ليلًا وتظهر عن بعد كالنجوم.

فأدباء العرب قالوا: بأن جل محاسن الكلام إن لم تكن كلها متفرعة عن التشبيه والتمثيل والاستعارة والكناية، وجعلوها أقطابًا تدور عليها المعاني؛ ولذا تجد غزلهم مثلًا يدور دائمًا حول التفنن في تشبيه القدود بالأغصان، والنهود بالرمان، والخدود بالورد والجلنار، والعيون بالنرجس ونحو ذلك، على حد قول الشاعر:

قلبي على قدك الممشوق بالهيف

طير على الغصن أم همز على الألف

وهل سويداؤه خال بخدك أم

خويدم أسود في الروضة الأنف

وهي قصيدة غراء من كتاب ريحانة الألباء المطبوع في بولاق، والمراد تشبيه قد المعشوق بالغصن أو بالألف، وقلب العاشق بالطير أو بالهمزة، وفي البيت الثاني تشبيه سويداء القلب، وهي الجنة السوداء التي فيه بالخال الذي على خد المحبوب، وتشبيه الخال بالخادم الصغير الأسود، وهو في الروضة؛ لأن جسد الحبيب في اصطلاحهم بستان

فيـه جميـع الأزهـار والفواكـه والأشـجار والأنهـار والتـلال والوهـاد والأغـوار والأنجـاد؛ فـكأن جميـع المخلوقـات الطبيعيـة تتشـخص في هـذا الجسـد، فجميـع أشـعارهم في الغـزل، وجميـع تفنناتهـم فيـه يـدور ويرجـع لأصـل واحـد، وأحسـن مثـال لـه القصيـدة الآتيـة:

نالـت على يدها ما لم تنله يدي

نقشًـا على معصم أوهت به جلدي

كأنـه طرق نمل في أناملها

أو روضة رصعتها السـحب بالبرد

خافت عـلى يدها من نبل مقلتها

فألبسـت زندها درعًا من الزرد

مدت مواشـطها في كفها شركًا

تصيد قلبي به من داخل الجسـد

وقـوس حاجبها من كل ناحية

ونبـل مقلتها ترمي به كبدي

وعقـرب الصدغ قد بانت زبانته

وناعـس الطرف يقظان على الرصد

إن كان في جلنـار الخد من عجب

فالصـدر يطرح رمانًا لمن يرد

وخصرهـا ناحل مثني على كفل

مرجـرج قد حكى الأحزان في الخلد

إنسـية لو رأتها الشمس ما طلعت

مـن بعد رؤيتها يومًا على أحد

سـألتها الوصل قالت أنت تعرفنا

مـن رام منا وصالًا مات بالكمد

وكم لنا عاشـق في الحب مات جوى

مـن الغرام ولم يبدِ ولم يعد

فقلت أسـتغفر الرحمن من زلل

إن المحـب قتيل الصبر والجلد

وخلفتنـي طريحًا وهي قائلة

ما تنظرون فعال الظبي بالأسـد

قالـت: لطيف خيال زارني ومضى

باللـه صفه ولا تنقص ولا تزد

فقـال: خلفته لو مات من ظمأ

وقلـت: قف عن ورود الماء لم يرد

قالت: صدقت الوفا في الحب شـيمته

يـا برد ذاك الذي قالت على كبدي

واسـترجعت سألت عني فقيل لها:

مـا فيه من رمق دقت يدًا بيد

وأمطرت لؤلؤًا من نرجس وسـقت

وردًا وعضـدت على العناب بالبرد

ونشـدت بلسان الحال قائلة

مـن غير كره ولا مطل ولا مدر

واللـه ما حزنت أخت لفقد أخ

حـزني عليه ولا أم ولا ولد

فأسرعـت وأتت تجري على عجل

فعند رؤيتها لم أسـتطع جلدي

وأغمرتنـي بفضل من عواطفها

فعادت الروح بعد الموت للجسـد

هم يحسـدوني على موتي فوا أسفي

حتى على الموت لا أخلو من الحسـد

فهـذه القصيـدة اشـتملت عـلى كثـير مـن التشـابيه وعـلى شيء قليـل مـن المعـاني، وعـلى شيء أقـل مـن الإحسـاس، فشـبه النقـش الـذي تنقشـه الماشـطة عـلى يـد العـروس بطـرق النمـل، وهـم ذاهبـون لمسـاكنهم قطـارًا بجانـب قطـار، وبالـبرد النـازل عـلى روضـة البقـل وبـدرع الـزرد، وبـشرك الصيـد؛ أي شـبكته، وشـبه الحاجـب بالقـوس، والأهـداب بالنبـل، والكبـد

بالهـدف، وشـبه الشـعر الأسـود عـلى الصـدغ بالعقـرب وطرفـه الملـوي بالزبانـة، وزبانتـا العقـرب قرناهـا، وشـبه الخـد بالجلنـار وهـو زهـر الرمـان وبالـورد أيضًـا والثـدي بالرمـان، وشـبه نفسـه بالأسـد، وشـبهها هي بالشـمس والظبـي، وشـبه دموعهـا باللؤلـؤ وعينيهـا بالنرجـس وأناملهـا المصبوغـة بالحنـا الأحمـر بالعنـاب وأسـنانها بالـبرد، وردفهـا بالحـزن وهـو مـا غلـظ وارتفـع مـن الأرض، ويسـمى الرابيـة والكثيـب أيضًـا.

وأمـا المعـاني التـي في هـذه القصيـدة فهـي سـؤاله الوصـل وجوابهـا بالـرد، وصـبره وجلـده عـلى البعـد ووفـاه في الحـب حتـى لم يبـقَ فيـه رمـق، فشـفقت عليـه وبكـت وحزنـت حـزن الأخـت لفقـد أخيهـا والأم عـلى ولدهـا، وأتـت إليـه تجـري عـلى عجـل، وتعطفـت عليـه وأنعشـته فحسـده العـوازل.

فأدبـاء العـرب يسـتعذبون هـذا الـكلام المصنـع المرصـع، كـما يستحسـنون النقـش عـلى اليـد والصبـغ الأحمـر عـلى البنـان، والفـرق بـين اليـد البيضـاء الطبيعيـة والأنامـل المنظفـة بالمـبرد والمقـص وبقيـة آلات التنظيـف، وبـين اليـد المنقـوش عليهـا نقشًـا وحشـيًّا والأنامـل المخضبـة بالحنـاء لا يخفـى عـلى أهـل النظـر والـذوق، والأمـم المتوحشـة لا يسـتحلون العرائـس إلا إذا كـثر عـلى أجسـادهن النقـش والوشـم، وشُرِّحـت خدودهـن وكُسرت أسـنانهن ليحصـل فيهـا الفلـج، وثُقبـت أنوفهـن وشـفاههن وآذانهـن ليُعلـق فيهـا الأقـراط والحلقـات فهـم يبدلـون خلقـة اللـه بمـا يرونـه حسـنًا بحسـب أذواقهـم. وكذلـك الأدبـاء يعدلـون بالـكلام عـن السـوق الطبيعـي إلى تلـك التشـابيه والاسـتعارات، وإذا نظـرت إلى مدحهـم رأيتـه أيضًـا يـدور حـول

طـول النجـاد، وكـثرة الرمـاد كقولـه:

طويـل النجاد رفيع العماد

كثير الرماد إذا ما شـتى

فهـذا البيـت يليـق مدحًـا حقيقيًّـا بشـيخ قبيلـة بدويـة، أو بملـك أمـة متوحشـة مـن أمـم أواسـط أفريقيـا لا في كل ممـدوح؛ وإذا مـدح بـه ملـك أمـة لهـا حـظ مـن الحضـارة ينقلـب المـدح ذمًّـا، وهكـذا يقـال في بقيـة فنـون الـكلام وضروبـه مثـل الهجـاء، والرثـاء، والاسـتماحة، والشـفاعة، والشـكر، والاسـتعطاف، والافتخـار، وبـث الشـكوى، والمواعـظ، والحجـج لا سـيما الوصـف وهـو أعمهـا وأكثرهـا ضروبًـا، فـإن كل فـن مـن هـذه الفنـون يـدور حـول تشـابيه معلومـة، وأسـاليب مدرسـية ينـدر فيهـا الإحسـاس الشـخصي، والإنفعـال النفـسي؛ وإنمـا هـي تقاليـد يتبـع فيهـا الخلف السـلف.

ففيكتـور هوجـو، وأهـل طريقتـه لا يـرون شـيئًا مـن الحسـن في هـذه التشـابيه والاسـتعارات المدرسـية، ولا يسـتعذبون معنـى مـن تلـك المعـاني التـي ليسـت بطبيعيـة؛ بـل يجدونهـا مـن المعـاني السـخيفة الغـير المعقولـة، خـرج بهـا أصحابهـا عـن الـذوق السـليم وعـن دائـرة الطبيعـة، وشـوهوا وجـه الـكلام بتلـك الاسـتعارات كـما سـخموا وجـه العـروس وبدنهـا بالنقـش والوشـم والصبـغ، ثـم جـاءوا يقولـون: «نالـت عـلى يدهـا مـا لم تنلـه يـدي»، ورأينـا في معـرض بارنـوم الـذي يطـوف بـه صاحبـه مـدن العـالم القديـم والجديـد شـخصًا مـن المتوحشـين وشـم جميـع بدنـه فـكان يتجـلى أمـام الناظريـن، كأنـه لابـس ثوبًـا مبرقشًـا، والوشـم هـو أن يغـرز الجسـد بإبـرة

ثم يذر عليها النئور وهو النيلج (نبات النيلة)، وفي الحديث: لعن الله الواشمة والمستوشمة.

**المدائح والمطربات**

هو أول ديوان نشره فيكتور هوجو في الشعر، وافتتحه بمقدمات نثرية بليغة ترجمنا إحداها لمناسبتها المقام، ومنها يعلم أن تعبيرنا عن الأُود والبالاد بالمدائح والمطربات فيه تساهل؛ لأن قصائد هذا الديوان لا تقتصر على المدح والغزل، بل فيها أيضًا الرثاء والهجاء ممزوجة بعضها ببعض.

قال فيكتور هوجو:

هذا ديوان في الشعر الموسيقي (الغرامي)، فيه نوعان من أفانين الشعر أحدهما «أود» ويدخل تحته جميع المنظومات المشتملة على إلهامات دينية أو مطالعات قديمة، أو المترجمة عن واقعة عصرية، أو عن تأثر شخصي. والثاني «بالاد» وهو نوع مخالف للفرع المتقدم، ومنظوماته إنما هي مسودات فن هوائي، وهي عبارة عن ألواح مصورة وخيالات وأحلام ومناظر بديعة، وحكايات دارجة وأحاديث خرافة وأساطير ووسوسة، والقصد من نظمها إعطاء فكر عن ماهية الأشعار والقصائد التي نظمها في القرون الوسطى شعراء التروبادور المتقدمون الذين هم رواة الشعر في عالم النصرانية. وكانوا لا يملكون من الدنيا إلا السيف والرباب، ويطوفون على الأمراء في قلاعهم وقصورهم، ويتضيفون على موائدهم وينشدونهم الأشعار استجداءً لإحسانهم. ولو لم يكن في التعبير فخفخة لقال المؤلف: بأنه وضع روحه في الأود وتخيله في البالاد، على

أنه لا يعبأ بتقسيم الشعر إلى أنواع وأفانين، ولا بتصنيفه أصنافًا متباينة؛ لأن حقيقة الشعر واحدة مهما اختلفت عروضه وأدواره؛ ولذا فهو لا يبالي باعتراض من يزعم أن ما ورد في هذا الكتاب ليس هو في شيء من الأود ولا من البالاد — كما قيل عن شعر المتنبي والمعري؛ لأنهما لم ينسجا على منوال شعر الجاهلية، ولا حافظا على الأساليب القديمة — فدعهم يقولون ما يشاءون ويسمونها بما يشتهون من الأسماء.

فإن العبرة للمسمى لا للاسم، ونسمعهم يتشدقون كل يوم بصلاحية الفن الفلاني من فنون الشعر، وأوفقية الفن الآخر، ويقولون بمحدودية هذا وبوسعة ذاك.

ويمنعون في فن التراجيديا ما يجيزونه في فن الرومان، ويسمحون في نوع الغناء بما يحظرونه في نوع الأود ... إلخ، فمن سوء حظ هذا أنه لا يفهم شيئًا مما يقولونه، ويفتش في كلامهم عن المعاني ولا يرى فيه إلا التشدق بالألفاظ، فالذي يظهر له أن ما هو في الحقيقة ونفس الأمر جميل صحيح يكون جميلًا وصحيحًا في كل مكان، وما كان دراماتيقيًّا؛ أي فاجعًا في قصة من القصص يكون دراماتيقيًّا أيضًا في رواية ممثلة على المرسح، وما كان موسيقيًّا؛ أي غراميًّا في دور (قويله) من أدوار الشعر يكون موسيقيًّا أيضًا في سمط (سنروف) من أسماط الشعر المنظوم أسماطًا أسماطًا وأغصانًا أغصانًا، والحاصل التمييز الوحيد الحقيقي في محصولات الفكر إنما هو التمييز بين الحسن والقبيح، والفكر أرض مخصبة لم تفتلح تبغي محصولاتها النماء فيها بحرية، أعني حسب التصادف بدون أن تصنف صنفًا صنفًا، أو تجعل صفًّا صفًّا في أحواض

مصنعة كما جعلت الأزهار في البستان الصناعي، أو كما جمعت نوابغ الكلم في رسائل البيان، وقيدت المنتخبات في سفائن الأشعار.

ومع ذلك فلا ينبغي لك أن تظن هذه الحرية مستلزمةً للتشويش، كلا بل هي بالعكس باعثة على حسن الانتظام. وإيضاحًا لذلك نقول: تأمل في الحديقة الملوكية التي في قصر فيرسايل بالقرب من باريس تجدها في غاية من التسوية، والتعشيب، والتقضيب، والتنظيف، والجرف، والكري، والترميل مشتملة على كثير من الشلالات الصغيرة، والبحيرات الصغيرة، والروضات الصغيرة، وفيها من التصاوير النحاسية ما هي على هيئة آلهة البحر، نصفها سمكة والنصف الآخر إنسان، وهي سابحة على الماء، ومتجمعة فوق بحار صناعية جلبت من نهر السين بصرف النفقات الباهظة، وفيها من تماثيل المرمر والرخام ما هو على صورة آلهة اليونان والرومان، وهم يغازلون حور الجنان، ويعزفون بالمزامير والعيدان، وقد أحدقت بهم أشجار السرو العالية على هيئة رمزية، وترى شجر اللبان في شكل أسطواني، وشجر الليمون في شكل كروي، وشجر الآس في شكل منحرف، وأشجارًا كثيرة لم تكن في أصل خلقتها الطبيعية على أشكال منتظمة، ولكنها اقتضبت بمقص البستاني وهندمت بآلاته الزراعية، ثم قايس بفكرك بين هذه الحديقة المصنعة وبين غابة عذراء من غاب العالم الجديد تجد فيها أشجارًا ونباتات على سائر الأشكال من غياض، وآجام، وآيك، ودوح، وكلاء،وحشيش، وعشب طويل، ونبات متعرش بلبالب وشوك وأوراق مختلفة، وفيها مروج نضرة كأنها بين تلك الأشجار الصلبة الشامخة شوارع، أو طرق واسعة لا يسقط فيها نور الشمس، ولا يمتد ظل الشجر إلا على بساط

مـن الخـضرة، ويطـير في تلـك الغابـة ألـف نـوع مـن الطـير بألـف لـون مـن الريـش، وتجـري فيهـا أنهـار كبـيرة تقتلـع الأشـجار وتسـحب جـزرًا مكللـة بالأزهـار، وتتدفـق الميـاه الجاريـة مـن مـكان أعـلى إلى مـكان أسـفل فتحـدث الشـلالات، ويتخلـل الضيـاء بـين تلـك الميـاه السـاقطة فينقلـب إلى قـوس قـزح، ويتألـف مـن هـذا الهديـر والخريـر والتغريـد والزئـير ألحـان وحشـية لا مثيـل لهـا؛ فنحـن لا نقـول أيـن العظمـة؟ أيـن العـزة والجـبروت؟ أيـن الجـمال الحقيقـي؟ بـل نسـأل فقـط أيـن الانتظـام وأيـن عـدم الانتظـام؟ فهنـاك ميـاه حُبسـت وحُولـت عـن مجراهـا الطبيعـي؛ لتتدفـق مـن ينابيـع صناعيـة وتركـد في حيـاض محتفـرة ثـم تنـتن فيهـا. وهنـاك أيضًـا آلهـة تحجـرت، وأشـجار قلعـت مـن الأرض التـي أنبتـت فيهـا، ونقلـت مـن الإقليـم الـذي ربيـت فيـه، وحرمـت مـن شـكلها الطبيعـي، ومـن ثمارهـا الطيبـة، وأكرهـت عـلى تحمـل منجـل البسـتاني يفعـل فيهـا حسـب أهوائـه ومشـيئته، ويدبرهـا كيـف دار حبـل اسـتقامته، فالانتظـام الطبيعـي مضـاد، معكـوس، مقلـوب، مخـروب.

وأمـا هنـا فبالعكـس كل شيء خاضـع لنامـوس لا يتغـير، وفي كل شيء آيـة عـلى وجـود إلـه حـي، وقطـرات المـاء تنحـدر في مصبهـا، وتجـري أنهـارًا تجتمـع وتصـير بحـارًا، وبـذور النبـات يختـار الأرض الصالحـة لـه أو يصـير أحراجًـا، وكل نجـم وكل شـجرة صغـيرة أو كبـيرة تنبـت في فصلهـا، وتنمـو في أرضهـا وتثمـر ثمرتهـا فتنضـج في أوانهـا، فـكل مـا في هـذه الغابـة جميـل حتـى الشـوك، فنسـأل أيضًـا أيـن الانتظـام؟

فاخـتر إذن بـين أحسـن مـا أتـت بـه الصناعـة البسـتانية وبـين مصنوعـات

الطبيعة، بين ما هو جميل بحسب الاصطلاح وبين ما هو جميل بغير القواعد الاصطلاحية، بين أدب مصنع مرصع، وبين شعر مبتكر لم ينسج على منواله أحد.

ربما قال معترض بأن الغابة العذراء البعيدة عن الناس قد يربض فيها ألف حيوان مفترس، وأما حياض الحديقة الصناعية التي استنقعت المياه فيها، فلا تحتوي في الغالب إلا على قليل من الضفادع المستقذرة، فهذا الاعتراض وارد مع الأسف. ولكن إذا خُيرنا فنحن نفضل التمساح المفترس على الضفدع القذر، كما نفضل بربرية الشاعر الإنكليزي شكسبير على خسافة عقل الشاعر الفرنساوي قاميسترون (ولد في طولوز ١٦٥٦-١٧٢٣م).

ومن المسائل المهمة المقتضى بيانها هو أن الانتظام يمتزج بالحرية في الأدب، كما يمتزج بها في السياسة؛ لا بل الانتظام نتيجة للحرية فيهما جميعًا، ولكن ينبغي التفريق بين الانتظام وبين رعاية القواعد، فرعاية القواعد أمر لا يتعلق إلا بالشكل الخارجي، وأما الانتظام فينتج في باطن الأشياء؛ أي من ترتيب العناصر الأصلية التي في الموضوع المبحوث عنه ترتيبًا يستحسنه الذوق، فرعاية القواعد هو تأليف مادي ووضع إنساني، وأما الانتظام فهو أشبه بالأمر الإلهي، فهاتان الخاصتان المتخالفتان في ذاتهما كثيرًا ما توجد إحداهما بدون الأخرى، فالكنيسة المبنية على القالب القوطي يظهر لنا فيها انتظام بديع رغمًا عن سذاجتها وعدم رعاية قواعد البناء فيها، وأما الأبنية الفرنساوية الحديثة التي بنيت على قوالب أبنية اليونان والرومان، وقلد البناءون

في بنائها تقليدًا أعجميًّا بغير ذوق، ولا مهارة فتظهر لنا غير منتظمة رغمًا عما في بنائها من رعاية القواعد المعمارية، فالمؤلف العادي لا يتعذر عليه تصنيف تأليف على حسب القواعد، وأما وضع الانتظام في التأليف فلا يتيسر إلا لذوي العقول الكبيرة من المؤلفين؛ لأن الخلاق الذي ينظر من الأعلى ينظم، والمقلد الذي ينظر من القرب يطبق على القواعد، فالأول يعمل بمقتضى ناموس طبيعته، والثاني يتبع قواعد طريقته، فالصناعة إلهام للأول، وعلم للثاني، والحاصل رعاية القواعد هي ذوق التوسط، والانتظام هو ذوق القريحة؛ ومن هنا يفهم الفرق بين أدب الطريقة الرومانية وبين أدب الطريقة المدرسية.

واعلم أن الحرية في هذا المقام لا ينبغي أن تصل إلى الفوضوية، وأن الخروج عن الأسلوب لا يقتضي أن يكون وسيلة لتجويز التخن والغلظ، فبقدر ما يتهور المؤلف في الخروج عن الأسلوب يلزم أن لا يكون في تأليفه لومة للائم؛ لأنه إذا أراد التفوق في حق واحد على غيره يجب أن يكون معه عشرة حقوق زائدة عليه، وبقدر ما يهمل علم البيان والمعاني يجب عليه أن يراعي علم النحو والصرف، ولا يجوز له خلع أرسطوطاليس البياني إلا إذا أجلس مكانه فوجيلاس النحوي، وتنبغي محبة «صناعة الشعر» التي ألفها بوالو لأجل إنشائها على الأقل إن لم يكن لأجل ما فيها من القواعد. فالكاتب الذي له أقل اهتمام بما يكتبه يجتهد دائمًا بأن يصفي منطقه بدون أن يمحو الصفة الخصوصية التي يفصح بها تعبيره عن شخصية فكره، فإدخال التعبيرات الجديدة في الكلام ما هو إلا دليل على عدم المقدرة. واللحن في الإعراب لا يأتي بمعنى جديد، فالإنشاء مثل الزجاج كلما صفا تلألأ.

ربما أوضح مؤلف هذا الكتاب في غير هذا المحل كلما أشار إليه هنا، ولكنه قبل أن يختم كلامه يستميح القراء في بيان أن رأي التقليد (أي: رعاية الأسلوب) الذي وصى به المتقدمون باتباعه حفظًا للطرق الأدبية، ظهر له دائمًا بأنه بلاء على صناعة الأدب، فهو لا يجوز للكتبة التقليد ولا لأساليب الطريقة الرومانية فضلًا عن الطريقة المدرسية؛ لأن الذي ينسج على منوال شاعر من شعراء الطريقة الرومانية يصير بالضرورة مدرسيًّا ما دام أنه يقلد، فسواء عليك كنت صدى الشاعر الفرنساوي راسين، أم كنت انعكاسًا لنور الشاعر الإنكليزي شكسبير، فما أنت أبدًا إلا صدى وما أنت إلا انعكاس، ولو تيسر لك النسخ بالتمام على صورة شاعر من ذوي القريحة، تفوتك دائمًا غرابته أي: قريحته، فلنعجب بأكابر الشعراء ولا نقلدهم، ولنعمل بطريقة أخرى فإن نجحنا فنعم؛ وإن سقطنا فما الأهمية؟

يوجد مائعات للتصبير إذا غطست فيها زهرة، أو ثمرة، أو عصفورة وتركتها مدة تكسوها قشرة سميكة حجرية، وتحفظ في الحقيقة أشكالها الأصلية، ولكن رائحة العطر، ولذة الطعم، وحركة الحياة فقدت، فالتعاليم المتشدق بها، والقياسات المنطقية الاسكولاستيقية، وسريان داء العادة، وجنون التقليد ينتجن عين هذه النتيجة، فإذا دفنت فيهن قواك الغريزية وتخيلك وفكرك، فلا تخرج منهن أبدًا، وما تستخرجه منهن ربما تجده محافظًا على شيء من ظاهر العقل والقريحة والذكاء، ولكنه يكون متحجرًا كتلك الأشياء المصبرة.

فأصحاب الطريقة المدرسية يقولون: «يحيد عن طريق الحقيقة

والجمال كل من لم يتبع الأثر الذي طبعه بأقدامهم السالكون قبله في هذا الطريق» فهذا خطأ، وأصحاب الطريقة المدرسية يخلطون بين العادة والدأب وبين صناعة الأدب، ويمشون على أثر العجلات توهمًا بأنها الطريق.

فالشاعر لا ينبغي أن يكون له إلا نموذج واحد وهو الطبيعة، ودليل واحد وهو الحقيقة، ولا ينبغي له أن يكتب مع ما كتب بل مع نفسه وقلبه، ومن جميع الكتب المتداولة بأيدي الناس ينبغي له درس كتابين فقط، أوميروس والتوراة، فهذان الكتابان المحترمان — اللذان هما أول الكتب تاريخًا وقيمة، وكادا يكونان قديمين كالدنيا — هما في حد ذاتهما علنان للمعاني، ويجد فيهما الكاتب بنوع ما الخليقة بأجمعها مصورة في شكل مضاعف، ففي أوميروس مصورة بقريحة الإنسان، وفي التوارة بإلهام الله.

انتهى في أكتوبر سنة ١٨٣٦

وبعد المقدمات النثرية البليغة ورد في هذا الديوان المنظومات، وهي تزيد على خمسين منظومة بديعة أظهر فيها من رقة الألفاظ، وجودة المعاني وقوة التخيل والتصور ما حمل أدباء العصر وشعراءه على الإقرار، والاعتراف له بالفضل والشاعرية، وبالقبض على زمام الصناعة الأدبية، وأحسن هذه المنظومات المنظومة التي عنوانها «فانده» وهو اسم أيالة على شاطئ البحر المحيط في شمال بوردو اشتهرت أيام الانقلاب الكبير بالحرب الأهلية، التي حدثت فيها بين حزب الجمهورية وبين المنتصرين للملوك من الأعيان والرهبان. وكذا المنظومة التي عنوانها

«عـذارى فـيردون» وفـيردون مدينـة عـلى الحـدود الألمانيـة، ومشـهورة في التاريـخ قديمًـا وحديثًـا، وأبـدع فيكتـور هوجـو في رثـاء الذيـن قتلـوا ونكبـوا في تلـك الحـروب الأهليـة، وكان إذ ذاك عـلى مذهـب الكاثوليكيـين وسياسـة الملوكيـين، ومـن قصائـد هـذا الديـوان ومنظوماتـه البديعـة «لويـس السـابع عـشر» و«إعـادة تمثـال هانـري الرابـع» و«مـوت دوق بـري» و«ولادة دوق بـوردو» و«تعميـد دوق بـوردو» و«جنـازة لويـس الثامـن عـشر» و«تتويـج شـارل العـاشر» و«إلى عمـود ميـدان فانـدوم» و«إلى والـدي» و«حـرب إسـبانيا» ... إلـخ.

**الشرقيات**

افتتـح الشـاعر هـذا الديـوان بمقدمتـين، وختمـه بـشروح مفيـدة، وأورد فيـه إحـدى وأربعـين منظومـة وقـال: بـأن الباعـث عـلى نظمهـا اتجـاه أنظـار الأدبـاء نحـو الـشرق بعـد أن كانـوا منـذ عهـد لويـس الرابـع عـشر لا يبحثـون إلا في آداب اليونـان والرومـان ومعارفهـم، ففـي القـرن التاسـع عـشر أقبلـوا عـلى درس لغـات الـشرق وآدابـه وتاريخـه وعلومـه، فوجـدوا فيـه الأفـكار والتخيـلات عبرانيـة، تركيـة، يونانيـة، فارسـية، عربيـة، إسـبانية؛ لأن إسـبانيا جـزء مـن أفريقيـا وأفريقيـا جـزء مـن إسـبانيا لوجـود مشـابهة وعلاقـة بـين كل منهـما والأخـرى، وشـبه مـا في هـذا الديـوان مـن المعـاني والتخيـل بمـدن إسـبانيا القديمـة المشـادة عـلى نمـط المـدن الشرقيـة، ووصفهـا بـأن فيهـا منتزهـات لطيفـة تظللهـا أشـجار الليمـون وتجـرى مـن تحتهـا الأنهـار، ويسـطع نـور الشـمس عـلى ميادينهـا الواسـعة المعـدة للاحتفـال بالمواسـم والأعيـاد، وأزقتهـا ضيقـة موصلـة بعضهـا مظلـم، وبعضهـا غـير نافـذ ولا

مستقيم، وأبنية دورها من جميع الأزمان وعلى سائر الأشكال، منها العالي والمنخفض والمسود والمبيض والمصبوغ والمنحوت والمنقوش، واتصلت العمارات بعضها ببعض من دور وقصور وفنادق وأديرة وثكنات للعساكر، وكل منها يختلف عن الآخر في طرز البناء والأسلوب المعماري، ويدل على نوع غريب قائم بذاته، وأسواقها غاصة بالأنام يعلو فيها الصياح والخصام. وإذا دخل الأحياء مقابرها وقفوا سكوتًا كأنهم أموات، وفيها المراسح والكنائس والمشانق التي بقي أثرها من الأزمان الغابرة. وفي وسط كل مدينة كنيستها الجامعة مبنية على القالب القوطي المعروف، وهناك أيضًا الجوامع قائمة بين أشجار النخيل والجميز، وفيها مغشاة بالنحاس والقصدير وأبوابها مصبغة وحيطانها مجلاة منقشة ونوافذها عالية، وعلى كل باب كتبت آية قرآنية، ورصفت الأرض ورصعت الجدران بالفسيفساء، فأصبح كل جامع من هذه الجوامع كأنه زهرة كبيرة تفتحت في نور الشمس وفاح طيبها في الجو.

وكان تأليف هذا الديوان في أثناء حرب المورة واستقلال اليونان؛ لأن الثورة ظهرت سنة ١٨٢١ في المورة، وسرت إلى بقية الولايات والجزر اليونانية، واستولى الثائرون على أثينا، وأسسوا فيها حكومتهم وعينوا ماورو قورداتو رئيسًا عليهم، وكان من جملة زعماء الثورة ربان سفينة يونانية يدعى قناري هجم ليلة ١٨ و١٩ حزيران سنة ١٨٢٢ على الأسطول العثماني الراسي على جزيرة ساقز وأحرق بعض مراكبه، فساقت الدولة العلية على اليونان رشيد باشا من الروم ايلي وإبراهيم

باشا من مصر، وكانت العساكر المصرية مدربة على النظام الجديد، فخرجت بالمراكب إلى شبه جزيرة المورة وأخمدت ثورتها، واسترد رشيد باشا أثينه، وكادت الفتنة تنام لو لم توقظها أوروبا بإحراق المراكب العثمانية، وذلك أن الإفرنج لما رأوا انخماد ثورة اليونان قامت الجرائد والشعراء تهيج الأفكار العمومية في أوروبا على العثمانيين، وتنتصر لأرباب الفساد والعصيان من اليونانيين، فتداخلت في المسألة إنكلترة وروسيا وفرنسا، وبعثوا أساطيلهم فأحرقت الأسطول العثماني وأغرقته بدون إعلان حرب على الدولة العلية، ولا مراعاة للحقوق المتعارفة بل الملل والأمم، وجرت هذه الحادثة المؤلمة بتاريخ ٢٠ تشرين أول سنة ١٨٢٧ أمام فرضة نافارين في جنوب المورة، واشتهرت في التاريخ بواقعة نافارين، ثم انتشبت الحرب بين الدولة العلية وروسيا، وأخلت العساكر العثمانية بلاد اليونان وعاد إبراهيم باشا لمصر، وصارت اليونان أيالة ممتازة تحت سيادة الباب العالي، ثم أعلن استقلالها تمامًا.

فشعراء الإفرنج لم يقتصروا كشعراء العرب على مدح الأمراء والتغزل والرثاء، بل هم يبحثون في السياسة الداخلية والخارجية، ويروجون الرأي الذي يرونه؛ ولذا اتبع فيكتور هوجو في السياسة خطة أستاذه شاتو بريان وخطة اللورد بايرن. وهذا الشاعر الإنكليزي بعد أن خدم السياسة اليونانية بقلمه أراد أن يجرب فيها سيفه، ويثبت اقتداره في ميدان الحرب، كما أثبته في ميدان الأدب، فنزل من قصور لوندره إلى أكواخ ميسولونكي من بلاد اليونان ومات فيها بالحمى، وتهور في فعله وخاطر بنفسه كما خاطر المتنبي حينما خرج قاصدًا الكوفة سنة ٣٥٤،

فلقيه أعراب من عشيرة فاتك بن الجهل الأسدي وأخذوا ما معه وانصرفوا، فقال له مفلح وكان من أتباعه ألست القائل:

فالخيل والليل والبيداء تعرفني

والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فقال: بلى؛ وأظهر الشجاعة حيث ينبغي إظهار الحزم والرأي، وكر على الأعراب كرة الفوارس فقتلوه وقتلوا ابنه معه.

وأسس الإنكليز جمعية دعوها جمعية بايرن (بايرن سوستي)، وغايتها حماية المسيحيين في الممالك العثمانية كما هو مقاصد هذا الشاعر وأمانيه، ولهذه الجمعية شعبة في الأستانة وأخرى في أثينه وغيرها، ولها علاقة بالمسألة المكدونية كما كان لها علاقة بالمسألة الكريدية.

وتوهم شعراء الإفرنج في انتصارهم لليونان أن الموجودين في هذه العصور هم من نسل أولئك الأبطال والفلاسفة الذين انقرضوا في القرون الغابرة، وأورثوا المسلمين علومهم وفلسفتهم، فهذا هو السبب الذي حمل فيكتور هوجو على التعصب لليونان على العثمانيين، وعلى تحريضه أمم النصارى على قتال المسلمين، ومناداته بالحرب الصليبية، وكان لم يزل في سن الشباب، وعلى سياسة المذهب الكاثوليكي والحزب الملوكي، ولم يك بعد اهتدى للتوحيد الفلسفي، ومحبة الإنسانية ولا لاتباع الإنصاف الذي ذكره المعري بقوله:

والدين إنصافك الأقوام كلهم

وأي دين لأبي الحق إن وجبا

وفعل الإفرنج ما فعلوه من الانتصار لليونان بلا مشوق ولا مستصرخ فظن الأرمن، والبلغار في يومنا بأنهم يتمكنون من استمالة أوروبا إليهم بالاستصراخ والتصويت، والأناشيد الحماسية فعقدوا في أوروبا المجتمعات، وخطبوا فيها الخطب المهيجة على غير فائدة. وبعد انقضاء المعرض الأخير بباريس بعث المقدونيون شاعرهم المفلق ميخايلوفسكي مع وفد من أدبائهم لأمهات مدن أوروبا، فكان يكثر من إنشاد القصائد الشرقيات لفيكتور هوجو، ومن إنشاد أشعار بايرون الإنكليزي، ومن تنظير هذه القصائد والنظم على منوالها باللسان البلغاري، ثم ترجمتها للفرنساوية وتلاوتها على الحاضرين في المجالس بكل شوق وحماسة وطنية وهيجان عظيم، ومع ذلك لم تنفعل أوروبا ولا تأثرت الأفكار العمومية فيها كما تأثرت أيام استقلال اليونان لأسباب كثيرة منها أن الجمال لا يتكرر، والأمم أصبحت تنظر لمنافعها الاقتصادية والتجارية أكثر من التفاتها للحماسة الجاهلية.

وتوهم شبان مصر ما توهمه هؤلاء أيضًا أيام بعثوا صاحب جريدة اللواء إلى باريس يحمل صورة عظيمة تمثل مصر، وهي في الأسر وتحتها أبيات عربية تستغيث فيها من مجلس النواب الفرنساوي كما هو معلوم ومطلع الأبيات: أفرنسا يا من نصرت البرايا ... انصري مصر إن مصر بسوء ... إلخ.

أما عنوان المنظومات التي في هذا الديوان، فهي «الصاعقة» و«قناري» سمى هذه المنظومة باسم أحد زعماء الثورة المتقدم ذكره، ووصف بها المحاربات البحرية، وصور فيها أعلام الدول وهي تخفق على

المراكب الحربية، وقصيدة «رءوس السراي» نظمها سنة ١٨٢٦ على أثر الإشاعة الكاذبة التي أشاعتها الجرائد عن موت قناري بقنبلة أصابته في محاربة ميسولونكي، وعن إرسال رأسه مع رءوس رفائقه إلى الأستانة. ووصف في هذه المنظومة السراي وما فيها من السراري والطواشية والبذخ والقصف، ورثى قناري ورفيقين له أفجع رثاء، وحرض أمم النصارى على قتال المسلمين، و«نافارين» صور فيها محاربة نافارين العدوانية، وأظهر الشماتة بحرق المراكب العثمانية ومن أبياتها قوله: «مضت ست سنوات ونحن نرى أفريقيا تركض لمساعدة آسيا على أمة تعلمت كيف تموت، وإبراهيم الذي لا يسكنه شيء طار من البرزخ إلى السطح كأنه صقر بلا وكر، كأنه ذئب يحكم في حظيرة الغنم، فهو يجري إلى حيث تستدعيه الغنيمة، فإذا عاد إلى خيمته رمى بيده الرءوس إلى السراي.»

ومن منظومات هذا الديوان أيضًا «حض المفتي على الجهاد» و«كدر الباشا» صور فيها جلوس الباشا في دائرة الحرم حزينًا، وارتباك رجال المعية والخدام والخصيان، وتساؤلهم عن سبب حزنه وعما ينقصه من النعم التي هو غريق فيها بين رقص الجواري، وغناء الغانيات في قصور عاليات مفروشة بالحرير والديباج تعبق فيها روائح المسك والعنبر ودهن الورد، فوجدوا كدره لا على خراب البلاد ونهب العباد، وكثرة الظلم والاستبداد؛ وإنما هو على موت خصيه الحبشي.

ومن هذه المنظومات أيضًا «أغاني قرصان البحر» صور فيها كيف كانت المراكب تجري في البحر المتوسط، وتغير على ما في سواحله من

بلاد الإفرنج، وتأسر البنات والغلمان، وتبيعهم في السرايات وللباشاوات، ومنها «الأسيرة» و«ضياء القمر» و«النقاب» صور في هذه المنظومة غيرة الإخوة على أختهم، وقتلها لانكشاف الحجاب عنها بسبب الهواء، وهي مارة في الطريق أمام باب الجامع، وبعد قتلها كفنوها، وقالوا لها: هذا حجاب لا يكشف ستره، ونحو ذلك من القصائد.

ولم يدع مدينة من مدن الشرق المشهورة إلا وذكرها في هذا الديوان، وأكثر من ذكر مدن إيطاليا وإسبانيا إدخالًا لهما في الشرق، وكان لهذا الديوان رواج عظيم حينما نُشر لعلاقته إذ ذاك بالمسائل السياسية الحاضرة، أما اليوم فقد ذهبت طلاوته وزال رونقه وقلت الرغبة فيه؛ لأن فيكتور هوجو فضلًا عما كان عليه إذ ذاك من التغرض والتعصب الأعمى لم ير الشرق بعينه، ولا عرفه إلا بدرس الكتب ومطالع ما نظمه الشعراء مثل شاتوبريان وبايرون وكوتيه ناظم «ديوان أورينتال» وأمثالهم، وطالع أيضًا ما ترجم من كلام الحافظ الشيرازي والشيخ سعدي صاحب الكلستان، ومن شروط أهل الطريقة الرومانية الكتابة والنظم عن رؤية وانفعال نفسي؛ ولذا يجدون شعور فيكتور هوجو في الشرقيات مبهمًا وكلامه مصنعًا لا طبيعيًّا، بخلاف القسم المتعلق بالأندلس وإسبانيا من هذا الديوان، فلم يزل له رونق واعتبار عند أدباء الإفرنج؛ لأن الشاعر زار إسبانيا في صباه وقرأ مع أولادها في المدرسة، فساعدته ذاكرته على وصف ما فيها بأحسن صورة وأبدع أسلوب، ومنظومته التي عنوانها «غرناطة» هي السحر الحلال كأنها كتاب في الجغرافية أُفرغ في قالب شعري، ومنها يتضح تبحر الشاعر في

علـوم الجغرافيـا والتاريـخ والآثـار القديمـة والفلسـفة، وقـد ترجمنـا هـذه القصيـدة بالحـرف لتعلـم أسـاليب الشـعر الإفرنجـي ومناحيـه.

**غرناطة**

لا توجـد مدينـة لا بعيـدة ولا قريبـة، لا عربيـة ولا إسـبانية تنـازع غرناطـة الجميلـة في تفاحـة الحسـن، ولا تُظهـر أكـثر منهـا أبهـة شرقيـة ولا رشـاقة تحـت سـماء ألطـف مـن سـمائها، قـادس فيهـا النخـل، مرسـية فيهـا أشـجار البرتقـان، جيـان فيهـا القـصر القوطـي ذو القلـل الغريبـة، أغريـدة فيهـا الديـر الـذي بنـاه القديـس أدمـون، سـيغوفه فيهـا الهيـكل الـذي تقبـل أعتابـه وفيهـا قنـاة قائمـة عـلى ثلاثـة صفـوف مـن القناطـر تجـر إليهـا الميـاه مـن قمـة الجبـل، ليـر فيهـا الأبـراج، برشـلونه فيهـا عمـود عـلى رأسـه منـارة مطلـة عـلى البحـر، تودلـه (تطيلـه) راعيـة لصداقتهـا لملـوك أراغـون، وهـم في قبورهـم العتيقـة وحافظـة لصولجانهـم الحديـد، طلوشـه فيهـا سـوق الحدادين المظلـم كان دكاكينـه في الدجـا منافـس عـلى جهنـم.

السـمكة التـي شـفت في غابـر الأزمـان عـين توبيـا مـن العـماء تلعـب في جـوف الخليـج، الـذي رقـدت فيـه «فونتارابي»،اليقانـت تمتـزج فيهـا المـآذن بالجرسـيات، قومبـو سـتله فيهـا قديسـها، قرطبـة فيهـا الـدور العتيقـة وفيهـا الجامـع الـذي تحـار العـين في عجائبـه، مادريـد فيهـا نهـر مانزانـارس، بلبـاوَ تغطيهـا أمـواج البحـر ويكـسي المـرج الأخـضر سـورها المسـود مـن الهـرم، مدينـة ذات الشـجاعة العظيمـة تخفـي فقرهـا مـن كبرهـا تحـت رداء دوقاتهـا، وليـس لهـا شيء سـوى شـجر الجميـز؛ لأن قناطرهـا الجميلـة مـن بقايـا العـرب وقنواتهـا مـن بقايـا الرومـان، بلنسـية فيهـا جرسـيات

كنائسها الثلاثمائة، القنطرة ذات التقى أسلمت لهبوب النسيم رايات الترك المعلقة على عواميدها، سلمنكه تجلس وهي ضاحكة على ثلاث تلال، وتنام على نغمات الأوتار، وتستفيق مذعورة من جلبة أولاد المكاتب الصغار، طرطوشة غالية على القديس بطرس، بويسرده الغنية فيها المرمر مثل الأحجار، تويه تفتخر بقلعتها المثمنة الشكل، طرَّاكونة تفتخر بأسوارها التي بناها أحد الملوك، سموره يجري من تحتها نهر دورو، طليطلة فيها القصر العربي، إشبيلية فيها جيرالدة، برغه وضعت ثروتها على قمتها، بيتافلور مركيزه، جيرونه دوقة، بيغاره كأنها زهدت في الحلي الفخيمة، بامبلونه المظلمه متهيئة دائمًا للحرب، وقبل أن تنام على ضوء القمر تقفل الأبراج المحاطة بها كالمنطقة.

فهذه المدن الإسبانية إما منثرة في السهول، أو مرتفعة على الجبال، وفي جميعها قلاع لم تضرب يد الأعداء فيها بالنواقيس، وفي جميعها كنائس جامعة لها جرسيات حلزونية الشكل، ولكن غرناطة فيها الحمراء.

الحمراء وما أدراك ما الحمراء قصر زوقته الجن وملأته بالمحاسن كأنما هو في الحلم، بل وقلعة ذات شرف مخرمة، مقلبة إذا جن الليل سمعت منها أصواتًا سحرية، وإذا طلع القمر من وراء أقواسها العربية الكثيرة، وانعكس نوره على الجدران أحدث عليها نقوشًا بيضاء عجيبة، غرناطة فيها من العجائب أكثر ما في الرمانة من الحَب الذي لونه كلون العقيق، وينبت الرمان في وديانها بكثرة، غرناطة اسم على مسمى، غرناطة إذا اشتعلت نار الحرب فقعت في وجوه أعدائها أشد من فقع القنبلة الحمراء بمائة مرة.

إذا أجابت «فيفاتوين» (فيقاقونلد) بدفها المزين بالأجراس، أو تتوجت (جنة العريف) بالنور وأمست كأنها خليفة، ورفعت في ظلام الليل قمتها المضيئة، فلا شيء أجمل من ذلك ولا شيء أعظم من ذلك، وتعزف الأبواق من «أبراج العقيق» كأنها جمهور نحل تسوقه الرياح، وفي القوافة نواقيس مهيئة دائمًا لإعلان الأفراح، وتطنطن في أبراجها الأفريقية لتوقظ من في البيضاء، غرناطة لا تجاريها الرقباء ولا في شيء، غرناطة تغني الأغاني الرقيقة بأرق مما هي، وتصبغ دورها بأبهى الألوان، ويقال: بأن النسيم تحبس أنفاسها إذا نثرت غرناطة في ليلة من ليالي الصيف نساءها وأزهارها في سهولها.

جزيرة العرب جدتها، والعرب الرحل المقتحمون إنما قطعوا آسيا وإفريقيا من أجلها فقط، ولكن غرناطة كاثوليكية، غرناطة ضحكت منهم، غرناطة تلك المدينة الظريفة لو أمكنها أن تكون اثنتين لكانت إشبيلية أخرى. انتهى.

فإن كان هذا وصف غرناطة عند فيكتور هوجو، فكيف يكون وصف إشبيلية، ولا يخفى ما في تعداد هذه المدن الإسبانية من الأهمية في تاريخ آداب العرب لانتساب الكثير من العلماء والأدباء إليها، كالشريشي شارح المقامات والشاعر الإشبيلي والشاطبي ناظم الشاطبية، وكثير من أمثالهم، وأما قوله: إذا أخرجت غرناطة نساءها وأزهارها للسهول تحبس النسيم أنفاسها، فهو من تشابيه أصحاب الطريقة المدرسية على حد قول العرب: إذا برزت الحسناء احتجبت الشمس خجلًا ونحو ذلك.

أمـا غرناطـة فهـي في أسـفل جبـال نفـاده (سـيبرانفاده)، وعـلى مجتمـع نهـري دارُّو وجنيـل المنصـب في الـوادي الكبـير، وهـي مبنيـة عـلى ثـلاث تـلال يمتـد تحتهـا سـهل واسـع مـن أجمـل السـهول يسـمى لافيكـه، وغالـب أبنيتهـا مـن القرميـد الأحمـر رصفـت بعضهـا فـوق بعـض، فأشـبهت الرمانـة الملفوفـة؛ ولـذا سـميت غرناطـة ومعناهـا الرمانـة. وأشـهر أبنيتهـا الحمـراء وهـي عـلى تلـة يجـري مـن تحتهـا نهـر دارو، وفيهـا بـرج عظيـم عـلى رأسـه شُرَف ولونـه عقيقـي؛ ولـذا قيـل لـه «ثورفيرمبـل»، وتجـاه الحمـراء «البايسـين» أي البيضـاء وهـي حـارة مـن حـارات غرناطـة، وهـي مشـتملة عـلى دور لطيفـة للسـكن، وبقـرب الحمـراء جنـة العريـف (جنراليـف) وهـي قـصر للصيـف مـن أبـدع القصـور مرتفـع عـلى قمـة عاليـة، وسـميت الحمـراء؛ لأنهـا مبنيـة بالقرميـد الأحمـر، ومنظرهـا الخارجـي ليـس بعجيـب فـإذا دخـل الزائـر مـن بابهـا انبهـر مـما يـراه داخلهـا مـن التزيـين والنقـش العـربي (أرابسـك) والتزويـق والترصيـع بالفسيفسـاء، والتصفيـح بأنـواع المرمـر والقيشـاني وكُتبـت عليـه آيـات قرآنيـة وعبـارة «لا غالـب إلا اللـه»، وفي كل زينـة مـن تزيناتهـا أو تزويقـة مـن تزاويقهـا دليـل عـلى سـلامة الـذوق والمهـارة التامـة في الصنعـة وحسـن الانتخـاب.

ومشـتملات الحمـراء دوائـر كثـيرة وسـاحات ومخـادع وأروقـة، وجنـات تجـري مـن تحتهـا الأنهـار، وفيهـا جامـع وحمامـات وأشـهر مشـتملاتها حـوش السـباع؛ وهـي سـاحة سـماوية مبلطـة بالرخـام الأبيـض يقـرب طولهـا مـن ٣٠ مـترًا، وعرضهـا ١٦ مـترًا وعـلى جوانبهـا أروقـة قائمـة عـلى عمـدان مـن الرخـام وأقـواس بديعـة، وفي وسـط السـاحة قصعـة بيضـاء قائمـة عـلى اثنـي عـشر سـبع مـن المرمـر الأسـود يتفجـر المـاء مـن أفواههـا، ويجـري في

قنـوات مكشـوفة إلى البيـوت والمخـادع، ولكـن المـاء منقطـع اليـوم عنهـا. ومـن مشـتملاتها الظريفـة قاعـة السـفراء وقاعـة الأختـين وغـير ذلـك، وقـد مثلـت الحمـراء في كثـير مـن المـدن الأوروبيـة، ومثلـت في معـرض باريـس الأخـير أحسـن تمثيـل.

وتغـزل شـعراء العـرب في غرناطـة بأشـعار كثـيرة، ونظـم رئيـس كتابهـا عبـد اللـه بـن زمـرك موشـحات لطيفـة منهـا:

لازمة

نسيم غرناطة عليل

لكنه يبري العليل

وروضها زهرة بليل

ورشفه ينقع الغليل

دور

عقيلة تاجها السـبيكة

تطلُّ بالمرقب المنيف

كأنها فوفه مليكهْ

كرسيها جنة العريفْ

تطبع من عسـجد سبيكهْ

شموسها كلها تطيفْ

... إلخ.

وقـال أيضًا ووجه بها من فاس إلى غرناطة:

لازمة

أبلغ لغرناطة سلامي

وصف لها عهدي السـليم

فلـو رعى طيفها ذمامي

ما بتُّ في ليله السـليم

دور

أعندكم أنني بفاس

كابد الشوق والحنين

أذكر أهلي بها وناسي

والليل في الطول كالسـنين

الله حسـبي فكم أقاسي

من وحشـة الصحب والبنين

لازمة

مطارحًا ساجع الحمام

شوقًا إلى الإلف والحميم

والدمع قد لج في انسـجام

منتثرًا عقده النظيم

دور

يا ساكن جنة العريف

أسكنتم جنة الخلود

كم ثم من منظر شريف

قد حف باليمين والسعود

ورب طود به منيف

أدواحه الخضر كالبنود

•••

والنهر قد سُلَّ كالحسام

لراحة الشرب مستديم

والزهر قد راق بابتسام

مقبلًا راحة النديم

ولد هذا الأديب في غرناطة واتصل بواسطة لسان الدين بن الخطيب الشهير إلى أميرها، وأحرز منه على رئاسة الكتاب، وترجمة لسان الدين في كتابه «الإحاطة»، وأثنى عليه وقيل: بأن ولده كتب هامشًا على ترجمة عبد الله بن زمرك، وطعن فيه وقال بأنه تقرب للأمير بالإفساد والوشاية على والده لسان الدين، وتوفي ابن زمرك مقتولًا سنة ٧٥٥هـ قتلته زوجته مع ولدين له. ومما قاله أيضًا في غرناطة:

غرناطة منزل الحبيب

وقربها السؤال والوطرْ

تبهر بالمنظر العجيب

فلا عدا ربعها المطرْ

•••

عروسة تاجها السبيك

وزهرها الحلي والحللْ

لم تـرض من عزها شريكْ

بحسنها يضرب المثلْ

أيدهـا الله من مليكْ

يملك المجد للدولْ

بدولة المرتجى المهيب

الملك الطاهر الأغرْ

تختال من بردها القشـيب

في حلَّة النور والزهرْ

•••

كرسيها جنة العريف

مرآتها صفحة الغديرْ

وجوهر العلي عن شنوف

تحكمه صنعة القديرْ

والأنس فيه على صنوف

فمن هديلٍ ومن هديرْ

كـم خرق الزهر من جيوب

وكلل القضب بالدرر

فالغصن كالكاعب اللعوب

والطير تشدو بلا وتر

وهـي طويلـة اقتصرنـا منهـا عـلى مـا يناسـب المقـام، فجنـة العريـف التـي أكـثر الشـعراء مـن ذكرهـا هـي أشـبه بقولنـا اليـوم بلديـز. ونظـم في باربـة أيضًـا موشـحات لطيفـة، ووصـف قصرهـا العجيـب، فقـال:

عليك بارية السلام

ولا عدا ربعك المطر

مـذ حل في قصرك الإمام

فقربك السؤْل والوطر

•••

عروسـة أنت يا عقيلهْ

تجـلى على مظهر الكمال

مُدَّت لك ألف مسـتقيله

تمسح أعطافك الشمال

والبحر مرآتك الصقيله

يشف من ذلك الجمال

إلى آخره، وقال أيضًا في هذا القصر من موشح آخر:

يـا حبذا مبناك فخر القصور

بروجه طالت بروج السما

ما مثله في سـالفات العصور

ولا الذي شـاد ابن ماء السما

كـم فيه من مردى بهيج وقور

في مرتقى الجو به قد سـما

إلخ.

ومـما ورد عـلى منـوال منظومـة فيكتـور هوجـو القصيـدة الشـهيرة التـي مطلعهـا «لـكل شيء إذا مـا تـم نقصـان» حيـث ورد فيهـا:

فاسـأل بلنسية ما شأن مرسية

وأين شـاطبة أم أين جيان

وأيـن قرطبة دار العلوم فكم

من عالم قد سـما فيها له شان

وأيـن حمص وما تحويه من نزه

ونهرهـا العذب فيضان وملآن

قواعـد كنَّ أركان البلاد فما

عـسى البقاء إذا لم تبق أركان

تبكي الحنيفية البيضاء من أسـف

كـما بكى لفراق الإلف هيمان

على ديار من الإسـلام خالية

قـد أقفرت ولها بالكفر عمران

حيث المسـاجد قد صارت كنائس ما

فيهـن إلا نواقيس وصلبان

حتـى المحاريب تبكي وهي جامدة

حتـى المنابر ترثي وهي عيدان

يـا غافلًا وله في الدهر موعظ

إن كنت في سِـنَةٍ فالدهر يقظان

وماشـيًا مرحًا يلهيه موطنه

أبعـد حمص تغر المرء أوطان

وحمـص هـي إشـبيلية وهـي عـلى الضفـة اليـسرى للنهـر؛ أي الـوادي الكبـير المنصـب في المحيـط عنـد خليـج قـادس، وارتفـع وراء المدينـة جبـل؛ ولـذا قـال فيهـا أحـد واصفيهـا:

ذكرتـك يا حمص ذكر هوى

أمات الحسود وتعنيته

كأنك والشـمس عند الغروب

عروس من الحسـن منحوته

غـدا النهر عقدك والطود تا

جك والشـمس أعلاه ياقوته

وهـذا أشـبه بقـول الشريـف العقيـلي المنتسـب لعقيـل بـن أبي طالـب في مدينـة الفسـطاط قاعـدة الديـار المصريـة في أوائـل الإسـلام:

تبدت عروسًـا ومقطم تاجها

ومـن نيلها عقد كما انتظم الدر

ونظمـوا في إشـبيلية كثيرًا مـن الأشـعار؛ لأنهـا كانـت دار أنسـهم وسرورهـم، ومركـز عزهـم وحضارتهـم، وكان أهلهـا يزيـدون عـلى أربعمائـة ألـف نفـس، وأمـا اليـوم فـلا يبلـغ سـكانها المائـة وخمسـين ألفًـا، وفيهـا القـصر الشـهير المعـروف عنـد الإفرنـج باسـم «القـازار»، وفيهـا منـارة جيرالـده وارتفاعهـا (٩٤) مـترًا، وكان يرصـد فيهـا الأفـلاك، ومـما قيـل في بلنسـية المعروفـة بمدينـة فالانـس، وهـي عـلى شـاطئ البحـر المتوسـط عنـد مصـب «غـواد الأفيـار» وإليهـا ينسـب كثـير مـن الأدبـاء:

بلنسية جنة عاليه

ظـلال القطوف بها دانيه

عيون الرحيق مع السلسبيل

وعين الحياة بها جاريه

قاله أبو العباس أحمد بن الزقان، ومدحها بأشعار كثيرة، ومما قيل في قرطبة أيضًا:

بأربع فاقت الأقطار قرطبة

وهن قنطرة الوادي وجامعها

هاتان ثنتان والزهراء ثالثة

والعلم أفضل شيء وهو رابعها

وقرطبة كما تقدم على نهر الوادي الكبير والزهراء مارة من حاراتها.

**أوراق الخريف**

افتتح الشاعر هذا الديوان بمقالة أدبية تاريخية سياسية نظر فيها نظرة عامة إلى الأحوال الجارية في سنة ١٨٣١ وإلى المسائل الخارجية، وشبه القرن السادس عشر للميلاد بصراط مرَّت عليه الأمم الأوروبية من الجامعة الدينية والسياسية إلى حرية الضمير، وحرية المدنية؛ أي استقلالها بإدارة بلديتها، ومن الفلسفة المنطقية الرهبانية إلى الفلسفة الحسية التحليلية المؤسسة على البحث والتفتيش، ومن الدين الكاثوليكي إلى الدين البروتستانتي، ومن أفانين الصناعة القوطية إلى أفانين الصناعة المدرسية، وهي المستفادة من درس آثار الرومان واليونان، قال: ولم يكن حينئذ في أوروبا إلا حروب دينية، وحروب أهلية، وحروب على الاعتقاد بالسر المقدس وعدم الاعتقاد به، ولم يكن

يسمع فيها إلا صليل السيوف ولغط العلماء المتعصبين، فظهر لوتر مؤسس الدين البروتستانتي وظهر ميكل آنج مصور «اليوم الآخر» وهو شيخ المصورين وإمامهم، وحدث انقلاب وتبدل في أوروبا، ولكن القلب الإنساني مثله كمثل الأرض، يتيسر لك حرثها وزرعها وبناء ما تريد بناءه عليها، ومع ذلك لا تنفك عن إنبات العشب المغروس في طبيعتها وبزوره في داخل جوفها، ولا يتمكن المحراث من الوصول إلى أعماقها ولا قلب سافلها لعاليها، وكذا القلب الإنساني لم يزل مغروسًا فيه شيء من الأفكار العتيقة، ولا تزول هذه الأفكار تمامًا إلا بهدم القلب الإنساني؛ إذ لا يكفي أن يقلب عاليه سافله فقط، فالذي يهدم القلب الإنساني هو الشعر.

وترنم الشاعر في هذا الديوان بمحبة الوالدة، وبذكر المعاهد البيتية وأحوال الطفولية، وعبر عما يجده في نفسه، ويحس به في قلبه؛ ولذا كان تأثيره على نفوس القراء أشد من تأثير ديوان الشرقيات، غير أن الشرقيات أكثر سناءً وضياءً من أوراق الخريف.

أما المنظومة الأولى فمطلعها «كان لهذا العصر سنتان» يعني حينما ولد سنة ١٨٠٢، فشخص كيفية ولادته وحضانة أمه وحنوها ورأفتها عليه، وذكر في القصيدة الثانية بيت أبيه، وكيفية الذهاب إليه وما في طريقه من المدن وما حوله من الرسوم والأطلال، وما أبقاه في ذهنه من التصور والخيال، وقال في منظومة أخرى: «حينما يولد الطفل تهتف العائلة بأصوات الفرح وتقر عيونهم جميعًا برؤية لحظه اللطيف اللامع، وتتهلل وجوههم بالبِشر مهما كانت حزينة أو عبوسة

... وأطنب في وصف ما يتعلق بالمولود ومحبة أمه له وخفقان قلبها عليه، وكيفية نومه وقعوده وبكائه وأكله، وصور جميع ذلك بأسلوب بديع يخال منه للقارئ كأنه في دار الولادة يسمع ويرى ما يحدث فيها من الاحتفال بالمولود. وعلى منوالها منظومة أخرى مطلعها «ما أجمل الطفل وهو يبتسم»، وكان تزوج وولدت زوجته، فاختبر لذة العائلة وعرف محبة الأولاد؛ ولذا خالف في هذا الموضوع المعري القائل:

على الولد يجني والد ولو أنهم

ولاة على أمصارهم خطباء

وزادك بعدًا عن بنيك وزادهم

عليك حقودًا أنهم نجباء

يرون أبًا ألقاهم في مُؤَرب

من العقد ضلت حلة الأرباء

وله أيضًا:

أبوك جنى شرًّا وإنما

هو الضَّبُّ إذ يسدي العقوق إلى الحِسل

وهو ولد الضب؛ ولذا كني أبا حِسل ويقال في المثل: هو أعق من الضب.

وهو القائل في اللزوميات أيضًا من قصيدة غراء مطلعها:

ترنم في نهارك مستعينًا

بذكر الله في المترنمات

ومنها:

ولا ترجع بإيماء سلامًا

على بيض أشرن مسلمات

إلى أن قال:

خمور الريق لسـن بكل حال

على طلابهن محرمات

ولكن الأوانس باعثات

ركابـك في مهالك مقتمات

صحبنك فاسـتفدت بهن ولدًا

أصابك من أذانك بالسمات

ومَـن رُزق البنين فغير ناءٍ

بذلك عن نوائب مُسْـقِمات

فمِـن ثُكل يهاب ومن عقوق

وأرزاء يجئن مصممات

وإن تعـطَ الإناث فأي بُؤس

تبيَّن في وجوه مقسَّمات

يُـردْنَ بُعولة ويردن حَليًا

ويلقين الخطوب مُلوِّمات

ولسن بدافعات يوم حرب

ولا في غارةٍ متغشمات

ودفنٌ والحوادث فاجعاتٌ

لإحداهن إحدى المكرمات

وقد يفقدن أزواجًا كرامًا

فيا للنسوة المتأيمات

يَلدن أعاديًا ويكن عارًا

إذا أمسين في المتهضمات

يَرُعْنَـك إن خدمن بغير فنٍّ

إذا رُحن العَشي مُخدَّمَات

ومنها:

وما الجارات إلا جاريات

بعيبـك إن وُجدن مُهيَّمات

فلا تسـأل أهند أم لميسٌ

ثوت في النسـوة المتخيمات

ولا ترمـق بعينك رايحات

إلى حمامهن مكممات

إلى أن قال:

وساوِ لديك أتراب النصارى

وعينًا من يهود ومسلمات

ومن جَاورتُ من حُنُفٍ وسرب

صوابي فليَبِنَّ مكرمات

فإن الناس كلهم سواء

وإن ذكت الحروب مضرمات

ومنها:

وواحدة كفتك فلا تجاوز

إلى أخرى تجيء بمولمات

إلخ.

وفي هذا المعنى أبيات من قصيدة لعلقمة بن عبدة من شعراء الجاهلية، مدح بها الحرث الغساني وأولها:

طحا بك قلب في الحسان طروب

بعيد الشباب عصر حان مشيب

تكلفني ليلى وقد شط أهلها

وعادت عواد بيننا وخطوب

ومنها:

فإن تسألوني بالنساء فإنني

بصير بأدواء النساء طبيب

إذا شاب رأس المرء أو قل ماله

فليس له في ودهن نصيب

يردن ثراء المال حيث وجدنه

وشرخ الشباب عندهن عجيب

فكأن فيكتور هوجو عارض المعري، وصور في هذا الديوان سرور العائلة بالأولاد، وكان لما نظمه في زهو الشباب، فالشاعران في هذا المبحث على طرفي نقيض، ولكنهما يتفقان «في تمجيد الله الذي شرف عن التمجيد، ووضع المنن في كل جيد»، وفي الحيرة، وهي مذهب الذين قالوا: رب زدني فيك تحيرًا، كما قال ابن الفارض:

زدني بفرط الحب فيك تحيرًا

وارحم حشا بلظى هواك تسعرا

فأظهر فيكتور هوجو حيرته في منظومة عنوانها «ما يسمع على الجبل»، قال فيها: بأنه صعد على جبل مشرف على المحيط الغربي، ووقف صامتًا ساكنًا يرى السماء فوقه والماء تحته، ويسمع تلاطم الأمواج، وتضارب الرياح وامتزاج أصوات البر بأصوات البحر، وصعودهما إلى الملأ الأعلى، فالصوت الذي يصعد من البحر فيه جلالة وسرور وهو من تلاطم الأمواج والهدير، والصوت الذي يأتي من البر فيه كآبة وحزن، وهو من تضارب الرياح وتأفف الإنسان من مصائب الحياة،

فالبحر يرتل آيات الفرح والسلام كترتيل المزامير في صهيون، ويحمد الخالق على ما أبدعه من جمال المخلوقات، فيصعد كلامه الطيب إلى الله، وكلما فرغت موجة من تسبيحها قامت وراءها موجة أخرى تسبح الله، وأما البر فينادي بأصوات الويل والحرب، ويصرخ ويشتم ويلطم؛ فهذا الصراخ والعويل إنما هو بكاء الأرض وصراخ الإنسان، وهذان الصوتان أحدهما يقول: «الطبيعة»، والثاني يقول: «الإنسانية»، قال الشاعر: وتأملت طويلًا في هذا المنظر الباهر وفكرت في لج البحر الذي تعلوه الأمواج فانفتح في قلبي لجة عميقة لا قعر لها، وقلت في نفسي: لِمَ نحن هنا؟ ما هو الغرض من كل هذا؟ ما تصنع النفس؟ أيهما أحسن البقاء أم الفناء؟ والله الذي يقرأ وحده في لوحه المحفوظ لأي سبب يمزج على الدوام غناء الطبيعة ببكاء الجنس البشري: قال المعري:

أرى الخلق في أمرين ماضٍ ومقبلٍ

وظرفين ظرفي مدة ومكان

إذا ما سئلنا عن مراد الهنا

كنى عن بيان في الإجابة كان

ونظم فيكتور هوجو في هذا المعنى قصيدة أخرى عنوانها «الشموس الغاربات» صور فيها غروب الشمس، وظهور الشفق، وتكاثف الغيام على الأفق، واستدل بنظره في المخلوقات على وجود الخالق: « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» فأولو الألباب من الشعراء لا سيما الذين نهجوا منهم نهج الطريقة الرومانية لا يفترون عن التفكير في هذا الأمر، ومما في منظومة الشموس الغاربات من لطائف الأبيات قوله: «هذه السحب المتلونة بألوان الرصاص والذهب والنحاس والحديد تسكن فيها الزوبعة والإعصار والصاعقة والجحيم وتدمدم دمدمة خفية، فهو الله الذي يعلقها جميعًا في السموات العميقة كما يعلق الفارس على أوتاد البيت أسلحته المتصلصلة».

ومما ورد لفيكتور هوجو في هذا الديوان من القصائد البديعة، التي سماها «الدعاء للجميع» قال: يا بنتي قومي للصلاة؛ انظري قد عسعس الليل، ونزل الضباب على الأفق، وطلع النجم من وراء السحاب كأنه دينار، أنصتي لم يبقَ إلا مركبة تكر في الظلام على بعد، والكل دخل ليستريح، والشجرة التي على الطريق نفضت غبار النهار بريح المساء «وهي الدبور».

زحزح الشفق على النجوم ستار الليل وفجر كل نجم كالشرارة الحامية، ورقق المغرب حاشيته الحمراء، وفضض الليل في الدجا وجه الماء، وامتزجت أتلام المحراث بالمسالك وبما حولها من الشوك، واختفى الجميع عن العيان، والتبست الطريق على ابن السبيل.

النهار للأذى والتعب والبغض، فلنشرع في الصلاة حيث دخل الليل، ما أصفى الليل وما أوقره! الراعي يعود والماشية تجأر، والريح تعزف في نوافذ البرج، والمياه تركد في المستنقعات، والجميع يتألم ويشكو؛ لأن

الطبيعة من شدة تعبها أمست في احتياج للنوم والصلاة والحب.

هذه الساعة هي التي يتكلم فيها الأولاد مع الملائكة، وأما نحن فنهرع فيها لملاهينا الغريبة، فجميع الأولاد الصغار يدعون في آن واحد بدعاء واحد وهم راكعون على الأرض، وأعينهم شاخصة إلى السماء، وأيديهم مضمومة وأرجلهم حافية، ويطلبون لنا الرحمة من الله تعالى.

ثم ينامون — وحينئذ تتناثر أحلامهم الذهبية في حندس الليل بعد أن تتولد من هوشات آخر النهار، فإذا رأت عن بعد أنفاسهم متصاعدة وشفاههم محمرَّة طارت إلى ناموسياتهم كما يطير النحل إلى الأزهار ورفرفت حولها.

فيا عجبًا لنوم السرير! ويا عجبًا لدعاء الصغار! فهو صوت حنو ورأفة لا عدوان فيه، وما أحلى هذا الدين الذي يقر العين ويضحك السن! هذا مطلع النشيد في ليلة السعود، فيُنِيم الولد عقله الصغير في الدعاء كما يضع الطير رأسه تحت جناحه.

•••

يا بنتي قومي للصلاة — وادعي أولًا وخاصة للتي هزت الليالي الطوال في سريرك، للتي التقطتك من عالم الذر وأنت نفس لطيفة، ووضعتك في الدنيا وصارت لك أمًّا شفوقة وقسمت لأجلك نصيبها من هذه الحياة المرة إلى قسمين، فشربت الحنظل وأسقتك العسل.

ثم ادعي لي، فإني أحوج منها لدعائك؛ لأنها هي مثلك صالحة، بسيطة، صادقة، قلبها صافٍ، ووجهها راضٍ، شفقت على كثيرين ولم تحسد أحدًا،

عاقلة، حليمة، صابرة على غصص الحياة، متحملة للشر بدون أن تعرف فاعله.

طالما قطفت الزهور ويدها الطاهرة لم تمس قشر الشجرة المنهي عنها،ولم تقع بالفخ مع ضحكة سنها، وتنسى دائمًا كل ما سلف ومضى، ولا تعرف الأفكار الخبيثة التي تمر في الذهن كما يمر الظل على الماء.

تجهل — واجهلي مثلها دائمًا — ما في هذا العالم من الشقاء الملوِّث للنفس، والحظوظ الكاذبة، والأباطيل الفانية، وكل ما عاقبته الندامة وتبكيت الضمير، والشهوات التي ترغي على القلب كالرغوة، وخواطر الخجل والمرارة الباعثة على احمرار الوجه.

أنا أخبر بالحياة ويمكنني أن أقول لك: متى كبرت واقتضى تعليمك بأن الجري وراء السلطنة والسعادة والتفنن هو جنون ودناءة، وبأن كأس الانتخابات تدور علينا وتسقينا الخزي بدلًا عن الفخار، وبأن الإنسان يخسر نفسه في لعب هذا القمار.

كلما عاشت النفس تعطشت، والأمور وإن شفَّت بدايتها عن نهايتها وظهرت أسبابها في عاقبتها؛ فالإنسان مع ذلك يشيب على الرذيلة، وعلى الضلال المنفور منه، من كثرة المشي يتيه الإنسان ويداخل عقله الشك، والكل يترك شيئًا على شوك الطريق التي سلكها، فالغنم تترك صوفها والرجل يترك فضيلته.

قومي إذن وادعي لي، وقولي في مقام كل دعاء: «يا الله يا الله يا ربنا أنت أبونا فارحمنا إنك أنت الرحيم، فارحمنا إنك أنت العظيم.» ودعي قولك يذهب إلى حيث ترسله نفسك، ولا تقلقي فلكل شيء

طريـق، فـلا تقلقـي عـلى الطريـق التـي يذهـب فيهـا.

لا شيء في هـذه الدنيـا إلا ولـه مجـرى، فالنهـر يجـري ملتويًـا بـين السـهول حتـى يصـب في البحـر، والنحلـة تعـرف الزهـرة التـي فيهـا العسـل، وكل طائـر يطـير ويقـع دائمًـا عـلى غرضـه، فالنـسر يطـير ويرتفـع نحـو الشـمس، والعقـاب يهبـط عـلى المقـبرة، والخطـاف (السـنونو) يطـير في الربيـع، والدعـاء يصعـد إلى السـماء.

فـإذا ارتفـع صوتـك إلى اللـه بالدعـاء لي أكـون كالعبـد الـذي جلـس في الـوادي بعـد أن حـط حملـه عـلى حافـة الطريـق، وأشـعر بخفـة نفـسي؛ لأن دعـاءك يأخـذ بيـده وهـو صاعـد جميـع مـا يثقـل عـلى عاتقـي مـن الآلام والأوزار والخطايـا.

قومـي ادعـي لأبيـك؛ لأصـير أهـلًا لرؤيـة طيـف ملـك يمـر في المنـام كطـير الحـمام، ولتشـتعل نفـسي مـع اشـتعال البخـور، امحـي خطايـاي بنفسـك الطاهـر؛ ليصـير قلبـي معصومًـا نقيًّـا كأنـه صحـن الهيـل الـذي يُغسـل في كل مسـاء.

•••

ادعـي أيضًـا لجميـع مـن يمـر عـلى هـذه الأرض مـن الأحيـاء، ولجميـع الذيـن اندثـرت مآثرهـم بهبـوب الريـاح وتلاطـم الأمـواج عليهـا، وللأحمـق الـذي يفـرح بلمعـان الحريـر وبسرعـة عـدو الخيـل، ولـكل مـن يتـألم ويشـتغل سـواء كان غاديًـا أو باديًـا، سـواء عمـل خـيرًا أو شرًّا.

ادعـي للمنهمـك في اللـذات والعاكـف عـلى القبـلات إلى الصبـاح، ولمـن

يتخـذ وقـت الصـلاة ليلهـو بالرقـص أو الجلـوس عـلى المائـدة، ويشـتغل بالفحشـاء في السـاعة التـي تتلـو النفـس الزكيـة فيهـا دعـاء المسـاء، وإذا فرغـت مـن دعائهـا رجعـت خائفـة مـن أن اللـه لم يسـمع رجاءهـا.

يـا ولـدي ادعـي للعـذارى المسـتورات، وللمحبـوس في القلعـة، وللعواهـر اللـواتي يبعـن اسـم الحـب الغـالي، وللعاقـل الـذي يسـتغرق في مطالعاتـه ويتفكـر في الخلـق، وللكافـر الملعـون الـذي يطعـن في الشريعـة المقدسـة — لأن الدعـاء لا نهايـة لـه؛ لأنـك تؤمنـين عـن الـذي يجحـد والطفوليـة تقـوم مقـام الإيمـان.

ادعـي أيضًـا للذيـن هـم راقـدون تحـت حجـر القـبر، يـا لهـا مـن حفـرة سـوداء تُفتـح أمامنـا في كل آن، جميـع هـذه النفـوس الهالكـة مفتقـرة لمـن يزيـل عنهـا صـداء الجسـم هـل سـكوتها دليـل عـلى أنهـا لا تتـألم؟ يـا أولادي لننظـر تحـت الأرض؛ لأن الشـفقة عـلى الأمـوات.

•••

اركعـي اركعـي اركعـي عـلى الأرض؛ حيـث وضـع أبـوك أبـاه، حيـث وضعـت أمـك أمهـا، حيـث يرقـد كل مـن عـاش عليهـا رقـدة عميقـة حفـرة يمتـزج فيهـا الغبـار بالغبـار، ويجـد الإنسـان تحـت أبيـه آبـاء، كاللـج تحـت اللـج في بحـر لا قعـر لـه.

يـا ولـدي حينـما تنامـين تتبسـمين، فيـأتي الطيـف وهـو فـرحٌ في الظـلام الـذي غطسـت فيـه، فيجفـل مـن نفختـك ثـم يعـود إليـك أيضًـا، وفي النهايـة تفتحـين عينيـك الإلهيتـين اللتـين أحبهـما، في الوقـت الـذي يفتـح فيـه الفجـر عـلى الأفـق جفنـه، ولـه أهـداب ذهبيـة فـإن الفجـر عـين إلهيـة أيضًـا.

ولكـن الأمـوات لـو تعلمـين أي نـوم ينامـون! فراشـهم بـاردة وثقيلـة عـلى عظامهـم؛ ولـذا شـنعتهم، والملائكـة لا يسـبحون وهـم مجتمعـون حولهـم وطيـف الخيـال يثقـل عليهـم بجميـع مـا جنتـه أيديهـم، ليلهـم ليـس فجـر، والندامـة تنقلـب دودًا في القـبر وتفتـت قلوبهـم.

يمكنـك بكلمـة يمكنـك بقـول أن تجعـلي ندامتهـم تتخـذ لهـا جناحًـا وتطـير، وأن تبعثـي بحـرارة لطيفـة تُلـذذ عظامهـم، وأن تجعـلي الشـعاع يصيـب أيضًـا أجفانهـم الغامضـة، وأن توصـلي لهـم خـبرًا مـن النـور والحيـاة، وشـيئًا مـن الريـاح والأحـراج والميـاه.

قـولي لي حينـما تذهبـين وأنـت طفلـة متفكـرة تدوريـن عـلى شـاطئ البحـر المتلاطـم، أو تحـت الشـجر الـذي يمـلأ القلـب مهابـة بظلـه، وبتضـارب الريـاح عليـه، ألا تسـمعين صوتًـا يقـول لـك: يـا بنـي حينـما تدعـين ألا تدعـين لي؟

هـذه شـكوى الأمـوات! فالأمـوات الذيـن يدعـى لهـم ينبـت عـلى قبرهـم نبـات أشـد اخـضرارًا وأكـثر أزهـارًا، ولكنهـم منسـيون وا حسرتـاه! حتـى الشـيطان لا يضحـك لهـم ولا ضحكـة اسـتهزاء، ليلهـم بـارد مظلـم، وبعـض الشـجر الهائـل الـذي يظلـل قبورهـم يغـرس دائمًـا عروقـه في قلوبهـم بـلا شـفقة عليهـم.

ادعـي! حتـى إن الأب والعـم والأجـداد الذيـن لا يطلبـون منـا إلا الدعـاء فقـط، يهتـزون في قبورهـم عنـد سـماع ذكرهـم، ويعلمـون أن عـلى وجـه الأرض مـن يتذكرهـم بعـد، ويشـعرون بحصـول دمعـة في عينهـم الفارغـة، كـما أن ثلـم المحـراث يشـعر بتفتـح الزهـرة.

•••

يـا حمامتـي، لا ينبغـي لي أنـا أن أدعـي لجميـع الهالكـين، ولا للأحيـاء المارقـين مـن الديـن، ولا لجميـع الذيـن ضمهـم القـبر، والقـبر أصـل المعابـد.

لا ينبغـي لي أنـا الـذي نفسـه فانيـة، مملـوءة بالخطايـا، وفارغـة مـن الإيمـان، أن أدعـي للجنـس البـشري؛ لأن صـوتي يـكاد لا يكفـي ليسـتغفر اللـه عـن ذنـوبي.

كلَّا بـل لـو أمكـن أحـد أن يدعـي اليـوم لهـذه الأرض الفاسـدة لـكان أنـت، أنـت الـذي صوتـك يسـبح، ودعـاؤك الطاهـر يـا ولـدي يمكنـه أن يتكلـف بالآخريـن.

اسـئلي هـذا الأب العظيـم الـذي يبسـم في أفقـك لمـاذا الشـجرة الكبـيرة تخنـق الشـجرة الصغـيرة؟ ومـن الـذي يميـل بالعقـل البـشري عـن الحـق إلى الباطـل.

اسـئليه هـل الحكمـة لا تختـص إلا بالأزليـة؟ لمـاذا نفختـه تحطنـا؟ لمـاذا تحـشر الإنسـانية في القـبر بـلا انقطـاع؟

الأولاد يسـهرون في المـكان المقـدس عـلى الذيـن أفناهـم الإثـم، فهـم أزهـار يعطرونهـم وهـم بخـور يفـوح عليهـم، وهـم أصـوات ترتفـع إلى اللـه.

فلنـترك هـذه الأصـوات العاليـة تفعـل، ولنـترك الأطفـال جاثـين عـلى الركـب، أيهـا المذنبـون كلنـا ولنـا ذنـوب، كلنـا عـلى شـفا جـرف هـار، فينبغـي للطفوليـة أن تدعـو لنـا.

•••

... إلخ ... إلخ.

وقصيدة الدعاء للجميع طويلة ومشتملة على قواعد الإنسانية، والفلسفة الاجتماعية التي شرعها وأوضحها في كتاب البؤساء؛ لأن النثر أوسع مجالًا من الشعر الذي يضيق عنه الكلام ولا يتيسر فيه إلا الرمز للمسائل والإشارة إليها، واللبيب تكفيه الإشارة، وإنما أوردنا منها ما ذكر لتعلم الأساليب الشعرية التي جرى عليها المؤلف في النظم على نهج الطريقة الرومانية ولتظهر أفكاره في الموجودات، وكان نظمه لهذه القصيدة، وهو في سن الشيخوخة؛ أي في سنة ١٨٨٠ وهي معتبرة من أبلغ كلامه.

وعساه اتبع في هذا الدعاء الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة عن النبي — عليه السلام.

قيل: يا رسول الله من أحق الناس بحسن الصحبة؟

قال: أمك ثم أمك ثم أباك ثم أدناك ثم أدناك.

ومما ورد في القرآن قوله تعالى: « وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا»

وقال المعري في اللزوميات:

وأعط أباك النصف حيًّا وميتًا

وفضل عليه من كرامتها الأما

أقلـك خفًّا إذا أقلتك مُثقلًا

وأرضعـت الحولين واحتملت تمًّا

وألقتـك عن جهد وألقاك لذةً

وضمت وشـمت مثل ما ضم أو شمَّا

والنصـف هـو النصفـة والإنصـاف، وأقـل بمعنـى حمـل، واحتملـت تمًّـا؛ أي أتمـت أيـام حملهـا وولـدت لتـمام. ولـو تتبعنـا كلام المعـري أو مـا ورد عـلى شـاكلته مـن الشـعر العـربي لوجدنـا فيـه أكـثر المعـاني الـواردة في قصيـدة الدعـاء للجميـع.

**أغاني الشفق**

ويشـتمل هـذا الديـوان عـلى نحـو خمسـين قصيـدة بديعـة أبلغهـا المنظومـة التـي عنوانهـا «إلى العمـود»، وهـو المركـون في ميـدان فانـدوم بباريـس، وكان نُصـب عـلى عهـد الإمبراطوريـة الأولى تـذكارًا لانتصـارات نابوليـون الأول عـلى النامسـاويين والروسـيين، واغتنامـه منهـم الغنائـم الكثـيرة، وفي جملتهـا ١٢٠٠ مدفـع فبنـي العمـود بالأحجـار وصفـح بنحـاس المدافـع المغتنمـة بعـد أن نقـش عليـه صـور المحاربـات عـلى الأسـلوب المعـروف عنـد الرومـان، وبقيـة الأمـم الفاتحـة القديمـة التـي نصبـت المسـلات والأعمـدة والأهـرام، وصـورت الصـور عـلى جـدران المعابـد والقبـور، وعـدَّد الشـاعر في هـذه المنظومـة مظفريـات نابوليـون ومآثـره ومفاخـره، وقـال: بـأن يـد قدرتـه شـيدت هـذا العمـود بالمجـد والنحـاس، والقصيـدة مـن أبلـغ أشـعار الحماسـة، وقـد صـدرت مـن أفصـح شـاعر في حـق أعظـم فاتـح.

ومن قصائد هذا الديوان المنظومة التي عنوانها «نابوليون الثاني»، ومطلعها: ألف وثمانمائة وإحدى عشرة، وهي السنة التي ولد فيها الممدوح، وهذا المطلع من أساليب الطريقة الرومانية، وليس فيها تعمل ولا تصنع كما في مطلع القصائد المنظومة على نهج الطريق المدرسية، ونابوليون الثاني هو ابن نابوليون الأول وحفيد إمبراطور النامسا ويسمى دوق ريشتاد، وكانت نشأته في فيينا عند أمه، وألف فيه شاعر العصر أدمون روستان رواية بديعة سماها النسير (ليكلون) تصغير نسر، وتمثل في يومنا على المراسح.

وفي هذا الديوان أيضًا منظومتان عنوانهما «قناري»، وهو بطل اليونان المتقدم ذكره في ديوان الشرقيات، وكانت ولادته سنة ١٧٩٢ في جزيرة إبصاره المجاورة لجزيرة ساقز، ووفاته سنة ١٨٧٧، وكان رئيسًا على مركب صغير وبعد استقلال اليونان صار رئيسًا للأسطول، وناظرًا للبحرية ثم رئيسًا للوزارة.

وفيه أيضًا قطعة عنوانها «الرجاء بالله»، ومنها يعلم حسن اعتقاد الرجل وإن كان من أهل الحيرة. وهي: ضع يا ولد أملك في الغد، ثم في الغد أيضًا، ثم في الغد دائمًا، ولنعتقد في المستقبل، ضع أملك وكلما طلع الفجر لنكن هناك حاضرين لنستغفر كما أن الله حاضر ليغفر، خطايانا ياحبيبي وملكي هي المسببة لآلامنا، فلعلنا إذا أطلنا القعود على الركب يغفر الله لنا بعد فراغه من الغفران لجميع المعصومين ولجميع التائبين.

**الأصوات الداخلية**

نقل المؤلف في مقدمة هذا الديوان عن شكسبير أنه قال في بعض مؤلفاته: بأن كل إنسان في داخله موسيقة فتبًّا لمن لا يسمعها، وأورد في هذا الديوان اثنتين وثلاثين قصيدة غراء، ومن أبلغها قصيدة «البقرة»، صور فيها قرية بما حولها من الدجاج والكلاب، ينبح هؤلاء والناس نيام، وتصرخ أولئك عند طلوع الفجر، فالديوك حراس النهار والكلاب حراس الليل، وفي تلك القرية بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين وقفت بكل هيبة ووقار لا تعبأ بالذين حولها، وجاء صبية بشعور مغبرة وأطمار بالية، وأسنان حادة وصحة تامة، وهم في صراخ وجلبة يزاحم بعضهم بعضًا، وينادي كل فريق منهم رفاقه، واغتنموا فرصة غياب اللبان، وانقضوا على البقرة يعصرون ثديها بأصابعهم، ويلتهمون حلماتها الكثيرة بأفواههم ويمتصون حليبها، وهم متكأكئون حول أحشائها وهي غير مكترثة بما يفعلون، وشاخصة ببصرها تنظر إلى بعض النقاط حولها.

فمثل هذه البقرة كمثل الدنيا أم المخلوقات وملجأهم الوحيد يلتقطون العشب واللبن من تحت أحشائها الأبدية، قال المؤلف: فنحن معشر العلماء والشعراء تعلقنا بثديك المتين أيتها الطبيعة وارتوينا بما أدره علينا، فكان لبنك دمًا وروحًا لنا، واستفدنا من نورك وحرارتك وأوراق شجرك ومن جميع ما عليك من الجبال الراسية والأنهار الجارية، والمروج الخضراء والسماء الزرقاء، وأنت تفكرين بربك ولا تنزعجين منا.

فبقرة فيكتور هوجو أشبه بأم دفر المعري حيث قال:

دنياك تكنى بأم دفر

لم يكنها الناس أم طيب

والدفر هو النتن والتعفن، ولا تخفى مناسبته في تكوين الحيوان والنبات، ولكن بقرة فيكتور هوجو تدر على أبنائها بلبن سائغ للشاربين، والمعري:

يحلف ما جادت الليالي

إلا بسم لنا قطيب

والقطيب الممزوج.

الأشعة والظلال

افتتح هذا الديوان بمقالة أدبية نثرية قال فيها:

كتب شاعر عن جنة عدن الضائعة، وكتب شاعر آخر عن النار، فالدنيا بين الجنة والنار، والحياة بين البداية والنهاية، والإنسان بين أول إنسان وآخر إنسان، فالإنسان موجود باعتبارين أحدهما بالنظر للجمعية، والثاني بالنظر للطبيعة، ووضع الله الشهوة في الإنسان، ووضعت الجمعية فيه العمل، ووضعت الطبيعة فيه الخيال، فمن الشهوة الممزوجة بالعمل؛ أي من الحياة في الحاضر ومن التاريخ في الماضي تولد «الدرام»، ومن الشهوة الممزوجة بالخيال تولد الشعر بمعناه الأصلي، فإذا نزل توصيف الماضي إلى التفصيلات العلمية، وإذا نزل توصيف الحياة إلى التشريحات الدقيقة صار الدرام رومانا،

فالرومان ما هو إلا درام مفصل تارة بالفكر، وتارة بالقلب تفصيلًا لا يليق بالتمثيل على المراسح، وعدا هذا فالشعر فيه درام، والدرام فيه شعر، فالدرام والشعر ينفذ كل منهما في الآخر كما تنفذ الحواس في الإنسان، أو كما ينفذ النور في الأجسام، والعمل فيه أحيانًا خيال، مثال ذلك ما قاله السيد في الرواية التي ألفها قورنيل: «هذا النور المظلم الذي يهبط من النجوم.»

لا أحد في هذا الكون يتخلص من السماء الزرقاء والشجر الأخضر، والليل المظلم والرياح العاصفة والطيور المغردة، وليس من مخلوق يقدر على التجرد من الخليقة — على حد قول المعري: أأخرج من تحت هذي السماء، فكيف الأباق وأين المفر — ومن جهة أخرى الخيال فيه أحيانًا عمل ... لأن الواحد يتمم الآخر والشيء يكمل بعضه البعض، فالجمعية تقوم في الطبيعة والطبيعة تظرف الجمعية.

فالشاعر تنظر إحدى عينيه للإنسانية والأخرى للطبيعة، والعين الأولى تسمى الملاحظة، والأخرى تسمى التصور، فمن هاتين العينين الشاخصتين في موضوعهما يتولد في مخ الشاعر إلهام يقال له: القريحة ... إلخ.

ثم افتتح المؤلف هذا الديوان بقصيدة عنوانها «وظيفة الشاعر»، وكان تكلم على هذه الوظيفة في مقدمة الديوان الأول، وقال: ينبغي للشاعر أن يكون للأمة نورًا يسعى بين يديها، ويريها طريق الصواب، ويقودها إلى المبادئ الحسنة، وهي الانتظام والشرف ومكارم الأخلاق؛ ولتكون سلطة الشاعر هينة على الأمة يلزم أن يهتز بين أصابعه جميع ألياف

القلب الإنساني كما تهتز أوتار العود، ويلزم أن لا يكون كلام الشاعر صدى لكلام أحد سوى كلام الله تعالى، وينبغي للشاعر أن يذكِّر الأمة بأن لها دينًا وأن لها وطنًا، وهذا ما أغفل ذكره المتقدمون، وأن ينشر دائمًا بأشعاره ما يكون لبلاده من الإقبال والإدبار، وما في دينه من الزهد والاستغراق في الحب حتى ينال المتقدمون عليه والمعاصرون له شيئًا من قريحته ومن روحه وحتى لا يقول عنه من يأتي بعده في المستقبل بأنه كان ينشد أشعاره بين قوم جاهلين.

وبيَّن فيكتور هوجو في القصيدة التي عنوانها وظيفة الشاعر أفكاره، وشرحها أحسن شرح وشبه الطبيعة بعود كبير وشبه الشاعر بريشة إلهية يضرب بها على أوتار هذا العود، فالشاعر يُلهَم الشعر وهو يسبح بين غياض الأشجار، وعلى سواحل البحار ويسمع هدير الماء، وتلاعب النسيم بالأوراق.

وقال في آخر القصيدة الرابعة: انشر أيها الشاعر نشيدك الديني بين العائلات وبين الصبيان والبنات وبين الشيوخ، وأرد بإصبعك الساحل للذين سارت بهم السفن في لج البحر والأرياح متغيرة، وأرِد للعذارى العصمة وهي كوكب السعد والشرف، وأرد للجمهور المحراب الذي غطاه الكفر، وأرد للشبان المستقبل وللشيوخ الخلود، وصب دليلك في عقول الرجال والنساء، وأرد لكل منهم الصحيح من الجهة المقنعة حتى يجد عندك كل مفكر ما يفتش عليه، أُغرس محبة الله في القلوب والق في كل نفس كلمة إلهية من جنس ما تشعر به ... إلخ.

وهذا ما أشار إليه المعري في مقدمة لزومياته، حيث قال: أنشأت

أبنيـة أوراق توخيـت فيهـا صـدق الكلمـة ونزهتهـا عـن الكـذب، فمنهـا مـا هـو تمجيـد للـه وبعضهـا تذكـير للناسـين، وتنبيـه للرَّقـدة الغافلـين وتحذيـر مـن الدنيـا الكـبرى التـي عبثـت بـالأول، واسـتجيبت فيهـا دعـوة جـرول إذ قـال لأمـه:

جـزاك الله شرًّا من عجوز

ولقـاك العقوق من البنينا

فهي لا تسـمح لهم بالحقوق وهـم يباكرونها بالعقوق ... إلخ.

فهـذه صفـة الشـاعر الـذي ينبغـي الاقتـداء بـه والنسـج عـلى منوالـه، لا الشـعراء الذيـن يتبعهـم الغـاوون، وفي كل واد يهيمـون ويقولـون مـا لا يفعلـون حتـى صـار لهـم الكـذب خلقًـا، والتملـق للأمـراء سـجية اسـتجداء لمعروفهـم وطلبًـا لإحسـانهم.

وأرق مـا في هـذا الديـوان المنظومـة التـي عنوانهـا «حـزن أوليمبيـو» كنـي بهـذا الاسـم عـن نفسـه، وقايـس فيهـا بـين جـلال الطبيعـة وجمالهـا، وبـين قلـة حـظ الإنسـان وقـصر أيـام سـعادته وليـالي أنسـه، وانقضـاء شـهواته وفنـاء لذاتـه؛ إذ كل مـن عليهـا فـان ويبقـى وجـه ربـك ذو الحـلال والإكـرام، قـال فيكتـور هوجـو في آخـر هـذه القصيـدة: يقرضنـا اللـه المـروج النـضرة، والعيـون الجاريـة، والأشـجار الملتفـة، والصخـور الوعـرة، والسـموات الـزرق، والبحـيرات، والغـدران، والسـهول لنضـع فيهـا قلوبنـا وأمانينـا وأشـواقنا، وهـذا القـرض لأجـل مسـمى، ثـم يسـترد جميـع ذلـك منـا ويطفـئ سراجنـا، ويغمـس في الليـل المغـارة التـي كنـا مسـتنيرين ونحـن فيهـا، ويقـول للـوادي الـذي انطبعـت عليـه روحنـا أن يمحـى أثرنـا وينـسى ذكرنـا، فـلا حيلـة،

انسـينا أيتهـا الـدار والبسـتان والظـل والخـضرة، وابـلي بأعتابنـا، واخـف بالشـوك أثـر أقدامنـا وغـردي يـا طيـور، واجـري يـا أنهـار وانمـي يـا أوراق، فـإن الذيـن نسـيتموهم لا ينسـونكم أبـدًا ... إلـخ. وهـي طويلـة محزنـة، وفي هـذا المعنـى أو مـا يقاربـه قصيـدة المعـري التـي يقـول فيهـا:

للمليك المذكرات عبيد

وكذاك المؤنثات إماء

فالهـلال المنيف والبدر والفر

قد والصبح والثرى والماء

والثريَّا والشـمس والنار والنثر

ة والأرض والضحى والسماء

هـذه كلها لربك ما عا

بـك في قول ذلك الحكماء

خلني يا أخي اسـتغفر الله

فلـم يبق فيَّ إلا الذماء

ويقـال: الكرام قولًا وما في العصـ

ـر إلا الشخوص والأسماء

وأحاديث خبرتها غواة

وافترتها للمكسب القدماء

وهـي طويلـة مدروجـة في اللزوميـات وكلهـا حكـم، ونفَـس المعـري ونفَـس فيكتـور هوجـو يتقاربـان، ولكـن الأول أعمـى والثـاني بصـير يـرى بهجـة الطبيعـة وزينتهـا، فيظهـر وصفهـا في شـعره، ويزيـد فيكتـور هوجـو عـلى المعـري بأنـه مـن أهـل عـصر جديـد بزغـت في أفقـه شـمس الحريـة والمدنيـة، واتسـع فيـه نطـاق العلـوم، وأفانـين الصناعـات، فارتفعـت مـدارك الشـاعر.

ويشـبهون قصيـدة «حـزن أوليمبيـو» بقصيـدة البحـيرة التـي نظمهـا الشـاعر الشـهير لامارتـين، وترجمهـا للسـان العثـماني سـعد اللـه باشـا سـفير الدولـة العليـة في ويانـة وباريـس سـابقًا. ورأيـت في كتـاب فرنسـاوي نُـشر حديثًـا بـأن أحمـد بـك شـوقي شـاعر الحـضرة الخديويـة ترجـم قصيـدة لامارتـين المذكـورة للعربيـة، ومؤلـف هـذا الكتـاب الفرنسـاوي فرديناند دي مرتينـو وعبـد الخالـق بـك ثـروت، وعنوانـه منتخبـات مـن غـزل العـرب ترجـما فيـه مـن كلام الجاهليـة، وأهـل الطبقـة الإسـلامية ومـن أقـوال المعاصريـن أيضًـا مثـل حسـن حسـني ومحمـود باشـا سـامي البـارودي وإسـماعيل باشـا صـبري وحفنـي بـك ناصيـف.

•••

هـذا مـا نظمـه فيكتـور هوجـو مـن الشـعر الموسـيقي في الـدور الأول مـن حياتـه، وأمـا مـا نظمـه في الـدور الثـاني؛ أي في منفـاه فهـو أعـلى طبقـة وأحسـن ديباجـة، وأشـد تأثـيرًا وإهاجـة وأكـثر توقـدًا وتوهجًـا؛ لأن قريحتـه نضجـت في شـمس الغربـة، وهـو معتـزل عـن النـاس بتلـك الجزيـرة، واسـتبحر فكـره بمجاورتـه المحيـط الغـربي؛ لأن للجـوار حقًّـا، فنظـم أحسـن

مؤلفاتـه وهـي ديـوان القصـاص وديـوان التأمـلات وديـوان سـير الدهـور، فأبلـغ هجـاء لفيكتـور هوجـو مـا هجـا بـه نابوليـون الثالـث في ديـوان القصـاص، وأفجـع رثـاء لـه مـا رثى بـه بنتـه في ديـوان التأمـلات، وأحسـن شـعر حـماسي لـه مـا ورد في ديـوان سـير الدهـور، كـما قـرره العارفـون بكلامـه.

**القصاص**

ألـف فيكتـور هوجـو ديـوان القصـاص بعـد انقـلاب الجمهوريـة الثانيـة إلى الحكومـة الإمبراطوريـة، وذلـك أن البرنـس لويـس نابوليـون بونابـرت ابـن لويـس بونابـرت الـذي كان ملـكًا عـلى هولانـدا وأخ نابوليـون الأول انتخـب رئيسًـا للجمهوريـة لأربـع سـنوات ختامهـا سـنة ١٨٥٠، فحلـف أمـام مجلـس نـواب الأمـة، وبحضـور فيكتـور هوجـو الـذي كان عضـوًا فيـه عـلى أن لا يبـدل القوانـين الموضوعـة، ولا يخالـف أحـكام القانـون الأسـاسي، ولا يخـون عهـد الجمهوريـة، ثـم صـارت الأكثريـة في المجلـس لحـزب الأورليانيـين، وأرادوا توليـة كونـت باريـس وهـو شـاب مـن العائلـة الملوكيـة في فرنسـا، وكان يعارضهـم حـزب الوارثـين الذيـن يقولـون بـأن حـق الوراثـة في الملـك إنمـا هـي لكونـت شـامبور، فهـو الـذي ينبغـي توليتـه عـلى سريـر الملـك الفرنسـاوي، فاغتنـم رئيـس الجمهوريـة هـذه الفرصـة؛ وكان حـق الوراثـة في الإمبراطوريـة التـي أسسـها نابوليـون الأول منتقـلًا إليـه لوفـاة نابوليـون الثـاني عنـد أهـل أمـه في فيينـا، وهـو الملقـب بليكـون؛ أي النُّسـيْر ودوق ريشـتاد. وكان لنابوليـون الأول شـهرة عظيمـة واعتبـار زائـد في نظـر أفـراد الأمـة، فأخـذ رجـال المعيـة وحاشـية القـصر يشـوقون ابـن أخيـه عـلى

الاستبداد بالأمر كما يفعل المقربون من أولي الأمر في كل جيل وفي كل أمة، وكما فعلت بطانة هارون الرشيد ودسوا للمغنيين الشعر المهيج، واحتالوا على سماعه للخليفة تحريضًا له على البرامكة، ومن هذا الشعر قولهم:

ليت هندًا أنجزتنا ما تعد

وشفت أنفسنا مما تجد

واستبدت مرة واحدة

إنما العاجز من لا يستبد

فلما سمعها الرشيد قال: إي والله، إني عاجز حتى بعثوا إليَّ بأمثال هذا، وهكذا كانت بطانة البرنس بونابرت رئيس الجمهورية يغرونه على الاستبداد، ونكث العهد وقلب الحكومة.

ففي ٢ ديسمبر سنة ١٨٥١؛ أي قبل حلول الأجل المضروب لانتهاء رئاسته نكث الأيمان الذي حلفها وغيَّر القانون الأساسي الذي تعهد برعاية أحكامه وعدم تغيير مضمونه، وبدَّله بقانون أساسي آخر يخوله حق البقاء في رئاسة الجمهورية عشر سنين، ثم أبدله أيضًا بقانون أساسي ثالث أعلن به الحكومة الإمبراطورية بدل الحكومة الجمهورية، وصدَّقت الأمة على هذين القانونين، وكان عدد أصوات المصدقين يزيد على ٧ ملايين صوت، فأعلن لويس نابوليون إمبراطور على فرنسا، وتلقب بنابوليون الثالث، وشرع في اضطهاد المخالفين لسياسته وتعذيبهم، ففرَّ فيكتور هوجو من بطشه وبعث يقول له بما معناه:

وحلفـت أنك لا تميل مع الهوى

أيـن اليمين وأين ما عاهدتني

فأجاب لسـان الحال عن نابوليون الثالث:

والظلم من شـيم النفوس فإن تجد

ذا عفـة فلعلَّة لا يظلم

وخـرج مشـير القـصر الإمبراطـوري يجـول بالعسـاكر في شـوارع باريـس، ويقـول بمـا معنـاه:

إن المعـالي عروس غير وامقة

ما لم تخلق ردايها برشـح دم

وكان أول هـذا الملك من رجل

سـعى إلى أن دعوه سيد الأمم

فهـذا الرجـل هـو نابوليـون الأول الـذي لا يختلـف في شـجاعته ومهارتـه اثنـان؛ ولكـن عسـاكر الإمبراطوريـة الثانيـة لم تظهـر البسـالة عـلى قـول فيكتـور هوجـو إلا في طـرق باريـس وميادينهـا بقتـل أحـرار الرجـال، بـل النسـاء والأطفـال ونفيهـم مـن الأرض، وتغريبهـم عـلى الجـواري المنشـآت في البحـر، ولما انتشـبت الحـرب بينهـم وبـين جيرانهـم ولُّوا مدبريـن؛ ولـذا كان يقـول لهـم الشـاعر متهكـمًا: «أسـد عـليَّ وفي الحـروب نعامـة». عـلى أنـا نحـن معـشر العثمانيـين لا ننكـر بسـالة عسـاكر الإمبراطوريـة، ولا شـجاعة ماقمهـون حينـما صعـد عـلى قلعـة مالاكـوف في مدينـة سباسـتابول مـن

شبه جزيرة القرم فقيل له بأن الروس وضعت تحت البرج بارودًا لتطيره، فأجاب «أنا هنا واقعد هنا»، فذهبت مثلًا وكان ذلك في الحرب التي حدثت بين الدولة العلية والروسيا سنة ١٨٥٥، وكانت فرنسا وإنكلترة متفقتين مع العثمانيين.

يشتمل ديوان القصاص على نحو مائة منظومة تفجرت منها سهام السخط والغضب، وتساقطت كالرجوم والشهب على نابوليون الثالث، وعلى أشياعه وأحزابه ولم يدع منهم أحدًا إلا وعرض به، ورماه بنبال هجوه فندد بأعضاء «مجلس المبعوثان» و«مجلس الأعيان» لتصديقهم على لائحة القانون الأساسي للحكومة الإمبراطورية، وبالذين نفذوا هذا القانون من الوزراء وأمراء العسكر، وسائر رجال الدولة والمعية، وبالذين تملقوا لرجال القصر الإمبراطوري، وقبلوا أعتابهم جرًّا لمغنم أو دفعًا لمغرم، وبالحكام الذين راعوا خواطرهم في الأحكام، وحكموا على أحرار الرجال بل والنساء بالحبس والنفي والإعدام، وبالأقسة والرهبان الذين دعوا في كنائسهم بتأييد عز الدولة الإمبراطورية، وسلق الجميع بألسنة حداد، وكلما ذكر سيئة أو رذيلة لنابوليون الثالث قارنها بحسنة أو فضيلة من حسنات نابوليون الأول وفضائله؛ ولذا لُقب الأول بالكبير والثالث بالصغير فورد في أشعاره كثير مما يسميه أدباؤنا في فن البديع بالطباق، وهو الجمع بين متضادين سيما في الهجوية التي عنوانها الاستغفار، أو تكفير السيئات فإنه جعلهما فيه على طرفي نقيض، فأهاجي ديوان القصاص تتخللها أشعار المدح والحماسة.

وفي هذا الديوان أيضًا «رثاء في الذين قُتلوا في حادثة ٤ ديسمبر»،

وتحانين الذين أخرجوا من ديارهم ونفوا بعيدين عنها، وأناشيد «الذين سفروا على البحر ووصف حالة أولئك المصابين والمحكومين والمنفيين، وحنينهم إلى أوطانهم وشوقهم لمن تركوه فيها من الأرامل والأيتام ومن الأخوات والبنات، أو الآباء والأمهات اللواتي يبكين عليهم بكاء الخنساء على أخيها مما تنفطر له القلوب، وتتفتت الأكباد لا سيما من قرأ شعره وهو يتألم بلدغة الاستبداد».

فمما ورد في هذا الديوان من بدائع المعاني القصيدة الثالثة من الفصل الثاني، وعنوانها «تذكار ليلة ٤»، وهي الليلة الثانية من جلوس نابوليون على تخت الإمبراطورية، نظمها الشاعر ليلة عيد الجلوس سنة ١٨٥٢، وصور فيها ما شاهده في تلك الليلة وجسم الحادثة بكيفية بديعة، ومضمونها أن صبيًّا يتيمًا حسن الصورة حسن الأخلاق كان يلعب مع الصبيان أمام دارهم فأصابته رصاصتان من بنادق عسكر الإمبراطورية، وهم يتجولون في شوارع باريس لإرهاب الناس وتسكينهم؟ ولم يكن لهذا الصبي المقتول إلا جد وجدة طاعنان في السن ليس لهما وارث سواه، فأدخلته جدته الدار والدم يسيل من جراحاته ومات بين يديها، فأخذت تنوح وتلطم وتقول: وا سوأتاه! وا حسرتاه! كيف أعيش بعدك يا ولدي ومهجة كبدي، لم تخلف لي أمك سواك، أفهموني أنتم يا حاضرون لماذا قتلوه؟ أريد أن تعرفوني السبب، الصبي لم يصرخ لتحي الجمهورية.

قال الشاعر: أما نحن فكنا واقفين صامتين مدهوشين وفرائصنا ترتعد أمام هذا المأتم الذي لا عزاءَ له ... إلى أن قال لها مخاطبًا: أيتها

الجـدة إنـك لا تفهمـين السياسـة أبـدًا، الموسـيو نابوليـون — وهـذا اسـمه الصحيـح — فقـير بـل وأمـير أيضًـا (برنـس)، يحـب القصـور ويقتـضي أن يكـون لـه خيـل وخـدم، ونقـود للعـب القـمار ولسـفرة الطعـام ولخزائـن الملبوسـات وللخـروج للصيـد، وبهـذه الوسـيلة يخلـص العائلـة والكنيسـة والجمعيـة، ويريـد أن يكـون قـصر سـن كلـو مملـوءًا بالـورد طـول الصيـف لتـأتي إليـه ولاة البـلاد وأعيانهـا ويسـجدوا لـه، فهـذا هـو السـبب الـذي أوجـب الجـدات العجائـز أن يخطـن بأصابعهـن المرتجفـة مـن الهِـرم أكفـان صبيـان لم يتجـاوزوا مـن العمـر سـبع سـنين.

والقصيدة السادسـة من الفصل الثالـث عنوانها «الشرقية» قال فيها:

لمـا رأى عبـد القـادر وهـو في سـجنه قـد دخـل عليـه ذاك الرجـل الضيـق العينـان، الـذي يسـميه التاريـخ نابوليـون الثالـث قـال مزدريًـا: مـن يكـون هـذا الرجـل؟ رأى وهـو في نافذتـه رجـل قـصر الإيليـزة الأحـول يمـشي وخلفـه قطيـع كالغنـم في خدمتـه، أمـا هـو فـكان أسـد الصحـراء والسـلطان الـذي ولـد تحـت أشـجار النخيـل، وصاحـب السـباع الـكاسرة، فهـو الحـاج النافـر وعينـاه هاديتـان، والأمـير المفكـر الشـديد الرحيـم، وهـو رجـل عابـس متشـائم وشـبح أصفـر في بُرنـس أبيـض، وثـب وهـو خمـران بمداومـة الحـرب ثـم وقـع في الظـل عـلى الركـب، وهـو الـذي يصـلي عـلى قارعـة الطريـق، ويجلـس في الخبـاء المرفـوع الأطنـاب ويـري النجـوم يديـه المصبوغتـين بـدم الإنسـان وهـو سـاكن الجـأش، وهـو الـذي يسـقي السـيوف ويجلـس عـلى الـرءوس المقطوعـة مفكـرًا في بديـع خلـق السـموات، فلـما رأى لحـظ هـذا الرجـل الخائـن المحتـال وجبهتـه المظلمـة مـن الخجـل أحجـم عنـه هـو

العسكري الجميل، والشيخ المهيب الجليل ونفر من شاربي ذاك الشنيع.

فقيل له: انظر أيها الأمير بلطاة العساكر وهي مارة، فهذا الرجل هو قيصر الحرامي، اسمع هذه الشكايات المُرة وهذا الصراخ المتعال، فهذا الرجل الذي لعنته الأمهات ولعنته الزوجات؛ لأنه رَمَّلهن وكسر قلوبهن، وأخذ فرنسا وقتلها وهو الآن يلغ في دمها، فحينئذ سلم عليه الحاج عبد القادر، ولكنه في الباطن احتقر هذا الدني الدموي. فهذا النمر الأشم الأنف شم ذاك الذئب وهو مستخف به ا.هـ.

نظم فيكتور هوجو هذه الهجوية، وهو في جزيرة جرسي في نوفمبر سنة ١٨٥٢، وكان الإمبراطور نابوليون بعد جلوسه يذهب للاصطياف في مدينة بو التي هي من أجمل المدن الفرنساوية على حدود جبال البيرينة، وفي مدينة بياريس التي على ساحل المحيط الغربي بالقرب من الحدود الإسبانية، فزار في إحدى سفراته الأمير عبد القادر الجزائري ولطفه وأطلق سراحه.

فإن هذا الأمير الخطير بعد أن ثبت أمام الفرنساويين ١٥سنة، وأظهر من البسالة والدراية في الحرب ما لا مزيد عليه اضطر سنة ١٢٦٤ على تسليم نفسه، فسيره الدوق دومال والي الجزائر في ذلك الحين إلى فرنسا، فأنزل في قصر لا مانع من مدينة طولون، ثم نقل منه إلى قصر مدينة بو ويسمى قصر هنري الرابع، وهو من أحسن القصور بناءً وزينة، ولم يزَل السائح يشاهد فيه الدائرة التي سكنها الأمير عبد القادر سنة ١٨٤٨م، ثم نقل منه إلى قصر إمبواز وهو بالقرب من مدينة تور، التي انتهت إليها فتوحات العرب في أوائل القرن الثاني من

الهجرة، وفي سنة ١٢٦٩هـ حضر الأمير عبد القادر للأستانة، ونال التفات السلطان عبد المجيد وذهب يقيم في مدينة بروسه، ولما حصلت فيها الزلازل ارتحل عنها إلى دمشق سنة ١٢٧٢هـ، وتوفي سنة ١٣٠٠هـ في قصره الذي بقرية دامر فنقل نعشه إلى الصالحية، ودفن بتربة محيي الدين بن العربي — رحمهم الله جميعًا — والأمير عبد القادر هو رب السيف والقلم، وله تآليف معتبرة مطبوعة وترجم إحداها للفرنساوية الموسيو دوغا، وكان الأمير عضوًا فخريًّا في الجمعية العلمية الفرنساوية.

ومما في هذا الديوان من الأهاجي والمناجات البليغة المنظومة الثالثة من الفصل السادس، وعنوانها «دعاء المغربين»، وفيها توسلات إلهية ومخاطبات لحمام الوادي، ونسيم الصبا كأنها مترجمة عن العربية قال فيها:

يا الله يا كبير إليك ترتفع أكُفنا، ونحوك تشخص أبصارنا، اللهم إن هؤلاء المكبلين بالحديد وعبراتهم تسيل على الخدود لهم أشد الممتحنين بلاءً، مع أنهم أصلح الناس حالًا، أيتها الطيور المارة إن هناك منازلنا، أيتها الرياح الجارية إن هناك أخواتنا وأمهاتنا يبكين ليلًا نهارًا، بلغيهم يا طير بؤسنا، واحمل إليهم يا نسيم الصبا أشواقنا، وأنت يا الله نرسل إليك فكرنا، ونسألك أن تنسى هؤلاء المحكوم عليهم بالقتل ظلمًا، ولكن أن تجعل مجدهم لفرنسا المهانة، وأن تتركنا نحن المظلومين نموت في هذا العذاب الأليم ... إلخ.

وهـذا يذكرنا بقول ابـن المعتز حينما أخد ليقتل:

يـا نفس صبرًا لعل الخير عقباك

خانتـك من بعد طول الأمن دنياك

مرت بنا سـحرًا طير فقلت لها:

طوبـاك يا ليتني إياك طوباك

إن كان قصدك شـوقًا بالسلام على

شـاطئ الفرات أبلغي إن كان مثواك

مـن موثق بالمنايا لا فكاك له

يبـكي الدماء على إلف له باكي

ولا أدري إن كان لهـا بقيـة أم لا، ولكـن الغالـب في الشـعر العـربي أن يعلـو بـه النفـس، ثـم ينقطـع قبـل أن يشـفى غليـل النفـس بذكـر الوسـط الـذي يقـوم فيـه الشـاعر وشرحـه وتوصيفـه بجميـع مـا فيـه، كـما يفعـل شـعراء الإفرنـج، نعـم إن شـعراء الجاهليـة ومـن نسـج عـلى منوالهـم شرحـوا أوصـاف الفَـرس أو الناقـة مثـلًا، وأطنبـوا في ذلـك، ولم يتركـوا عضـوًا ولا حركـة ولا هيئـة إلا ذكروهـا، وتخيلـوا فيهـا ولكنهـم مـع ذلـك حـصروا نظرهـم في نقطـة واحـدة، ولم يلتفتـوا يمينًـا وشـمالًا إلى مـا حولهـم مـن مناظـر الطبيعـة وبدائـع المخلوقـات.

وابـن المعتـز أشـعر بنـي هاشـم وهـو ابـن الخليفـة العبـاسي المعتـز بالله بن المتـوكل، ويسـمى خليفـة يـوم؛ لأنـه ولي الخلافـة يومًـا واحـدًا، ثـم خانتـه

الأيام وغدرت به السياسة فسلم لمؤنس الخادم فقتله. وتشبيهات ابن المعتز وأشعاره مشهورة ومن مؤلفاته كتاب الزهر والرياض، كتاب البديع، كتاب مكاتبات الإخوان بالشعر، كتاب الجوارح والعين، كتاب السرقات، كتاب أشعار الملوك، كتاب الآداب، كتاب حلي الأخبار، طبقات الشعراء، كتاب الجامع في الغناء، أرجوزة ذم الصبوح، ومن قوله:

سقى الحظيرة ذات الظل والشجر

وديـر عبدون هطال من المطر

فطالما نبهتني للصبوح بها

في غرة الفجر والعصفور لم يطر

ومن كلامه البديع قوله: أنفاس الحي خطاه إلى أجله. وكان مستجمعًا للكمالات الإنسانية، وقيل في رثاه:

ما فيه لولا ولا ليت فتنقصه

وإنما أدركته حرفة الأدب

قرأ على المبرد وثعلب، وتاريخ ولادته (٢٤٧-٢٩٦هـ).

والفصل السابع من هذا الديوان هجوية عنوانها «هاتين قدوركنَّ يا ساحرات شكسبير» إشارة إلى رواية ماقبت التي ألفها شكسبير وما فيها من خبر الساحرات اللواتي يطبخن السحر في القدور، ويفتحن للنساء الفال، فقال فيكتور هوجو: هاتين قدوركن يا ساحرات شكسبير، وخذن عني يا ساحرات ماقبت كل الإمبراطورية من قديمة وحديثة، وضعن في كانون واحد برجه السمين والكونت فروشو، وفلان وفلان ... وعددًا

كثيرًا من رجال نابوليون إلى أن قال: واحنين رءوسكن وانفشن شعوركن وحملقن عيونكن، واكشفن نحوركن وانفخن بملء رآتكن على النار التي تحت القرعة، وانظرن؛ فإن الصغير يخرج من الكبير، وصيرن باروش وطالبران بخارًا، وكذا ابن الأخ الذي يهبط بينما أن العم يعلو، فما الذي بقي في قعر الإنبيق؟ العار.

فكان فيكتور هوجو وهو في جزيرة جرسي كلما سمع بنفي المتهمين بالسياسة لبلاد الجزائر أو لأميركا؛ يفور غضبه، ويشتد غيظه، ويهدر كهدير البحر. وشبه السفن التي تحمل المنفيين بالبوم التي تنادي على خراب البلاد بإبعاد نخبة الشبان الأحرار منها، ولكنه مع ذلك لم ينقطع رجاه ولا خابت أمانيه، بل كلما نظر في المستقبل لاح له قبس الفلاح ولمع في عينيه نور الصباح، وراقت أشعاره وصفا كلامه؛ ولذا شبهوه بالبحر الذي يهيج تارة ويسكن أخرى، وله في البحر تشابيه واستعارات لم يسبق إليها.

وقال في خاتمة هذا الديوان بأنه سوف ينبلج صبح العدل، ويزهق ليل الباطل إن الباطل كان زهوقًا، وأنذر باستيقاظ الأمة من رقدة الغفلة، ومجازاتها الظالمين المستبدين المجرمين، إن المجرمين في ضلال وسعر، « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ الله لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا» ولو اطلع السيد عبد الله نديم على ديوان القصاص لما حرر كتاب المسامير.

**ديوان التأملات**

وعُـرف هـذا الديـوان بتسـميته أيضًـا «سـانحات الفكـر»، ولخـص فيـه أعـمال ربـع قـرن مـن حياتـه، ومـا شـعر بـه مـن فـرح وتـرح، وقـال في مقدمتـه: بأنـه تاريـخ حـظ مـن الحظـوظ البشريـة في شـقائه وسـعادته، أو هـو ديـوان الحيـاة الإنسـانية منـذ خرجـت مـن معمـي المهـد إلى أن نزلـت في معمـي اللحـد، وأبـواب هـذا الكتـاب هـي: الفجـر، النفـس الزاهـرة، التنـازع والأمـاني، في المسـير، عـلى سـاحل اللامتناهـي، ومنهـا يفهـم فكـر الشـاعر في ترتيـب المنـازل التـي يقطعهـا المسـافر في طريـق الحيـاة، وأجـاد في وصـف المناظـر الطبيعيـة وتصويـر وجـوه الأرض عـلى حـد قـول أبي تمـام:

يـا صاحبيَّ تقصيا نظريكما

تريـا وجوه الأرض كيف تصور

تريا نهارًا مشمسًـا قد زانه

زهـر الربا فكأنما هو مقمر

ومن ذلك أيضًا قول القاضي عياض وقد تولى قضاء سـبتة وغرناطة:

انظر إلى الزرع وخاماته

تحكي وقد ماسـت أمام الرياح

كتيبة خضراء مهزومة

شـقائق النعمان فيها جراح

وأبـدع مـا في هـذا الديـوان الرثـاء الـذي رثى بنتـه حينـما أنشـبت فيهـا المنيـة أظفارهـا، وهـي في ريعـان الشـباب وأشـهر العـرس، وأتى بالبدائـع والعجائـب في وصـف قلـب الوالـد عـلى ولـده، ومـا يكابـده بسـبب موتـه مـن آلام الحيـاة وعذابهـا، ولعلـه تابـع في النظـم شـعوره وإحساسـه، فجعـل أول المـراثي تفجعًـا وبـكاءً، ثـم ارتفـع صوتـه بالنحيـب والعويـل، ثـم زاد ألم الرزيئـة عليـه، وكـبرت المصيبـة في عينيـه فصـار يهـدر كـما يهـدر المجنـون، ولا يعـي مـا يقـول فطـورًا يقاتـل القضـاء، وتـارة يلعـن القـدر وانقطـع مـن الدنيـا وزال رجـاؤه بالآخـرة، ويئـس مـن هـذه الحيـاة الفانيـة.

ثـم بـرد قلبـه شـيئًا فشـيئًا، وهـدأ بالـه رويـدًا رويـدًا، فصـار ينـدب ميتـه ويعـدد محاسـنها، ويتذكـر زمـان طفوليتهـا وشـبابها وعرسـها، وكل ذاكـرة منـه تسـيل مـن عينيـه عـبرة، وتـودع في قلبـه حـسرة، ولم يـرَ لـه ملجـأً إلا في تسـليم الأمـر للـه والرضـاء بمـا قـدره وقضـاه فصـبر عـلى البـلاء، ورجـع بانكسـار وتزلـل إلى اللـه، وانكـب عـلى أعتـاب مراحمـه كأنـه عمـل بنصيحـة الشـيخ محمـد عليـش حيـث قـال:

الـزم باب ربك واترك كل دون

واسـئله السلامة من دار الفتون

لا يضيـق صدرك فالحادث يهون

الله المقدر والعالم شـئون

لا تكـثر همك ما قدر يكون

نحـن والخلائق كلنا عبيد

والإلـه فينا يفعل ما يريد

همـك واغتمامك ويحك لا يفيد

القضا تحكم فالزم السـكون

لا تكـثر همك ما قدر يكون

ومنها أيضًا:

مولاك المهيمن إنه يراك

فوض له أمورك وأحسـن في الظنون

ومنها:

الرضا فريضة والسـخط حرام

والقنـوع راحة والطمع جنون

وأفجـع رثـاءٍ وأحسـن توسـل لفيكتـور هوجـو مـا جـاء في المرثيـة التـي عنوانهـا «إلى فيلكيـه»، وهـي المدينـة التـي غرقـت بقربهـا ليوبولديـن، وهـي تتنـزه مـع زوجهـا في زورق عـلى نهـر السـين، وقـد أتينـا عـلى ترجمتهـا بالحـرف بيانًـا لأسـلوبه في التفجـع والرثـاء، قـال فيكتـور هوجـو وكان خـرج مـن باريـس، وذهـب إلى جبـال البيرينـة وسـواحل المحيـط الغـربي:

إلى فليكيه

الآن باريـس وطُرقهـا وجدرانهـا وضبابهـا وسـطوحها بعيـدة عـن عينـي، الآن أنـا تحـت غصـون الأيـك وأسـتطيع التفكـر في حسـن السـموات، الآن

خرجتُ مصفرًّا من المأتم الذي أظلمت منه روحي، وشعرت بأن سلام الطبيعة الكبرى دخل قلبي.

الآن استطعت أن أجلس على شاطئ البحر متأثرًا من هذا الأفق اللطيف الهادي، وأن أفحص في ضميري عن الحقائق الغامضة، وأن أنظر إلى الأزهار وهي في الحدائق.

الآن يا ربي، حصلَتْ لي سكينةٌ محزنةٌ أستطيع بسببها أن أرى بعيني رأسي الحجر، الذي أعرف أنها نامت في الظل تحته نومةً أبدية.

الآن قد رقَّت عواطفي بهذه المناظر الإلهية ما بين سهولٍ وغاباتٍ، وصخور وأودية ونهر كالفضة.

ولما رأيت عجزي، ورأيت معجزاتك رجع لي عقلي أمام جلالك، فجئت إليك يا الله يا من يَجِبُ علينا الإيمان به، وأحضرت لك قِطَعَ هذا القلب الذي كسرته وهو مملوءٌ بحمدك.

جئت إليك يا الله، معترف بأنك رءوف رحيم حليم وبأنك إله حي. وأُقر بأنك وحدك تعلم ما تصنعه، وبأن الإنسان ما هو إلا ريشة في مهب الريح.

أقول: بأن القبر الذي ينغلق على الأموات يفتح الفلك الأعلى، وأن ما نحسبه في هذه الدنيا نهايةً هو البداية.

أُقرُّ أيها الإله العظيم وأنا راكع بأنك وحدك مالكٌ لما هو حقيقي، مطلق، لا نهاية له، أُقرُّ بأن انجراح قلبي هو خيرٌ وهو عدل؛ لأن الله أراد ذلك.

لا أعترض أصلًا على جميع ما أصابني بإرادتك، فالنفس تتدحرج في الأبدية من مأتم لمأتم والإنسان يتدحرج من ساحل لساحل.

لا نرى من الأشياء إلا طرفًا واحدًا والطرف الآخر غاطس في سر ليل مرعب. فالإنسان يتحمل الأذى بدون أن يطلع على الأسباب، وجميع ما يراه قصير، زائل، لا فائدة فيه.

أنت تلقي الإنسان دائمًا في طريق الشك، ولم تُرِد أن يكون له على هذه الأرض يقين ولا سرور.

لا يملك الإنسان خيرًا إلَّا ويسترده القدر منه، فهو لم يُعطَ شيئًا في أيامه السريعة الزوال؛ ليتمكن أن يتخذ له مسكنًا، ويقول: هنا بيتي وأرضي وأحبائي. جميع ما تراه عيناه ينبغي أن يراه في مدة قليلة، ثم يهرم وتخور قواه، فما دامت هذه الأشياء واقعة وأنا أُقرُّ بأنها حدثت كما يلزم أن تحدث. يا الله! العالمُ مظلمٌ، والحانة التي لا تتغير مؤلفة من البكاء ومن الغناء أيضًا، والإنسان ما هو إلا ذرة في هذا الظلام الغير المتناهي، فهذا ليلٌ يصعد فيه الأبرار ويهبط الأشرار. أعرف بأن لك يا الله أشياء أخرى كثيرة تشتغل بها عوضًا عن أن تشفق علينا جميعًا، وبأن الولد الذي يموت ويخلف الحزن لأمه لا يضرك منه شيءٌ.

أعرف بأن الثمر يسقط من الريح الذي يهزه، وبأن الطير يفقد ريشه والزهر يفقد رائحته، وبأن الخليقة دولاب كبير لا يمكنه أن يدور بدون أن يسحق أحدًا.

الشهور، والأيام، وأمواج البحر، والعيون الذارفة بالبكاء تمر جميعًا تحت السماء الأزرق. أعرف يا ربي أنه يلزم للعشب أن ينبت وللأولاد أن

يموتوا، لعلك في سمواتك ما وراء طبقة الغيم، وفي أعماق هذه الزرقة النائمة التي لا تتحرك تصنع أشياءً مجهولةً يدخل فيها ألم الإنسان كأنه عنصر من عناصرها.

لعل هلاك الأشخاص الملاح بتيار المصائب فيه فائدةٌ لمقاصدك التي لا تحصى، طوالع نحوسنا تسير تحت نواميس واسعة لا يغيرها شيءٌ، ولا يرقق عواطفها شيءٌ، وليس في الإمكان أن تأتي المراحم الإلهية فجأةً وتغير ناموس العالم.

أتوسل إليك يا الله بأن تنظر لنفسي، وتعتبر بأني أتيت لعبادتك خاضعًا خضوع الصبي ولينًا لين المرأة.

واعتبر أيضًا بأني منذ طلوع الفجر اشتغلت، وقاتلت، وافتكرت، وسعيت، وجادلت وأنا أفسر الطبيعة للناس الذين يجهلونها، وأنير كل شيءٍ بنورك، وأني عملت الواجب عليَّ في هذه الدنيا وأنا أقتحم المهالك والمخاطر، ولا يمكني أن أنتظر هذا الجزاء ولا أقدر أن أتأمل بأنك أنت أيضًا تُنزِل يد بطشك على رأس المنحني، وبأنك أنت الذي ترى قلة حظي تأخذ أيضًا ولدي على عجل، وأعتبر بأن النفس التي أصيبت بمثل هذه المصيبة هي مدفوعة على الشكوى، وبأني اجترأت على سبك وعلى رفع صوتي عليك كالولد الذي يرمي البحر بحجر، اعتبر يا ربي بأن المرء قد يشك في الله حينما يشتد عليه الألم، وأن العين التي تبكي كثيرًا تعمى في النهاية، وأن الشخص الذي يلقيه مأتمه في أظلم هاويةٍ لا يمكنه أن يضرع إليك وهو لا يراك.

اليوم وأنا ضعيف القلب كالوالدة أنحني على أعتابك تحت سمواتك

المنكشفة، وأشعر في مرارة ألمي بأني استترت بنظرة وقعت مني على العالم.

يا ربي، أنا أعترفُ بأن الإنسان إذا جسر على الشكوى منك فهو في حالة الجنون، فها أنا تركت الشكوى وتركت السبَّ، فدعني أبكي، وا حسرتاه! دع الدموع تجري في جفوني؛ لأنك خلقت البشر لذلك، دعني أنحني على هذا الحجر البارد، وأقول لولدي: أتشعرين بأني هنا؟

دعني أكلمها في المساء حينما يسكن كل شيءٍ وأنا منحنٍ على ما بقي من جسدها، وهي كأنها ملك ينصت لي وكأنها تفتح في الليل عينيها السماويتين.

وا حسرتاه! لم يبق في الدنيا شيءٌ يسليني، فالتفتُّ نحو الماضي بعين الاشتياق، ونظرت إلى تلك اللحظة من حياتي فرأيتها تفتح جناحيها وتطير، وسأرى تلك اللحظة حتى مماتي، تلك اللحظة التي فاضت فيها دموعي وصرخت قائلًا: ماذا إذن الولد الذي كان لي الآن فقدته بالكلية!

لا تغضب عليَّ يا ربي إن قلت هذا؛ لأن جرحي سال دمه زمانًا طويلًا والضيق في نفسي لم يزل شديدًا، وقلبي وإن خضع لكنه لم يسلم ولم يرضَ.

لا تغضب يا ربي! حيث يصعب علينا أن نخرج نفسنا من هذه الأكدار العظيمة، أنت يا ربي أعلم بأن أولادنا لازمون لنا، إذا رأى الإنسان ذات يوم في حياته وهو بين أكداره وأتعابه وفقره، والبلاء الذي رمته به أقداره قد ولد له ولد جميل ضاحك بشوش يخال أنه رأى باب

السموات فُتح له، فإذا رأى مدة سبع عشرة سنة ولده الذي هو قطعة من جسده يكبر وينمو ويعقل، وإذا عرف أن هذا الولد الذي يحبه هو نورٌ في قلوبنا وضياءٌ في بيوتنا، وأنه هو السرور الوحيد الذي لنا من جميع ما نتمناه في هذه الدنيا، فلا يخفى عليك يا ربي أنه إذا فُقد منا يكون حزننا عليه عظيمًا ا.هـ. فيلكيه في ٤ سبتمبر سنة ١٨٤٧.

وبعد أن طال رثاء فيكتور هوجو وندبه حصلت له ألفة بالموت واعتاد عليه، فانحنى على القبر كأنه يريد انتزاع السر المكنون فيه ونظم قصائده التي عنوانها «كلام على الكثيب» و«وقفة في المسير» و«ما هو الموت»، ولكن لم يتيسر له رفع الستر عن القبر ولا إزالة الحجاب عن هذا الباب، وأكثر في كلامه من توحيد الله وذكر الآخرة وخلود النفس.

ومن القصائد المشهورة في رثاء الأولاد القصيدة العينية، التي نظمها أبو ذؤيب الهذلي المتوفى سنة ٢٧ للهجرة، وكان مات له في سنة واحدة خمسة أولاد في الطاعون الذي حدث بمصر، ومطلع قصيدته:

أمن المنون وريبه تتوجع

والدهر ليس بمعتب من يجزع

ومنها:

أودى بنيَّ فأعقبوني حسرة

عند الرقاد وعبرة لا تقلع

فالعـين بعدهم كأن حداقها

كحلت بشـوك فهي عور تدمع

وفي أشـعار فيكتـور هوجـو مـا يحـاكي كلام أم حكيـم زوجـة عبيـد اللـه بـن عبـاس والي اليمـن مـن قبـل عـلي — رضي اللـه عنـه — حينـما أتاهـما بـشر بـن أرطـاة قائـد عسـاكر معاويـة، وذبـح لهـا ابنـين صبيـين فلـم تملـك أمهـما نفسـها، ولا قـدرت أن تقـر في مكانهـا، بـل كانـت تحـوم حـوم الطـير حـول وكـر صغارهـا، وقـد ذهـب عقلهـا وفـرغ صبرهـا، فقالـت تبكيهـما وتولـول:

هـا من أحس بابنيَّ اللذين هما

كالدرتين تشـظى عنهما الصدف

هـا من أحس بابنيَّ اللذين هما

قلبي وسـمعي فقلبي اليوم مختطف

هـا من أحس بابنيَّ اللذين هما

مـخ العظام فمخي اليوم مردهف

مـن ذل والهة حيرى مدلهة

على حبيبين ذلًّا إذ غدا السـلف

خـبرت بشرًا وما صدقت ما زعموا

مـن إفكهم ومن القول الذي اقترفوا

أنحـي عليَّ ودجى ابني مرهفة

مشحوذة وكذاك الإثم يقترف

ومثل ذلك مراثي شواعر العرب وجمع كلامهن أحد أفاضل العلماء ونشره في بيروت، وسيدة شواعر العرب الخنساء القائلة:

أعيني جودا ولا تجمدا

ألا تبكيان لصخر الندى

ألا تبكيان الجريء الجميل

ألا تبكيان الفتى السيدا

ومن شواعر العرب برة بنت عبد المطلب جد النبي — عليه السلام — قالت في وفاة أبيها:

أعيني جودا بدمع درر

على طيب الخيم والمعتصر

على ما جد الجد واري الزناد

جميل المحيَّا عظيم الخطر

والبكاء على الأموات وندبهم من عادة نساء العرب؛ ولذا نبغت فيه الشواعر منهن سيما وأن قلب المرأة أرق وأحن؛ ولذا قال فيكتور هوجو: بأنه صار ضعيف القلب كالوالدة.

ومما ورد للعرب في هذا المعنى قول أبي بكر بن زهر الأندلسي:

ولي ولد مثل فرخ القطا

صغير تخلف قلبي لديه

وأفردت عنه فيا وحشتا

لذاك الشخيص وذاك الوجيه

تشوقني وتشوقته

فيبكي عليَّ وأبكي عليه

وهذا الشاعر الرقيق اشتهر بفن الطب وعلم الأدب، وسارت الركبان بموشحاته وهو حفيد أبي العلاء بن زهر الطبيب المشهور، وكان صاحب هذه الأبيات بُعث به إلى مراكش وسمم فيها فمات سنة ٥٩٦هـ، وله بنت وأخت ماهرتان في الطب والقيلة نُفيتا أيضًا إلى مراكش، وقُتلتا مثل أخيهما بالسم، وأبقى ولده في الأندلس، فقال الأبيات المذكورة متشوقًا.

**سير الدهور**

ديوان جليل ملأه الشاعر بالحكمة والفلسفة فأحوج مطالعه إلى الدقة والتبصر فيه، ومراجعة كتب التاريخ والفلسفة لفهم دقائق معانيه، كما يحتاج لذلك قارئ اللزوميات ورسالة الغفران، وأشباههما من كتب الأدب والفلسفة التي خفيت وقائعها على كثيرين فنسبوا لها الركاكة. ومن هذه الكتب أيضًا ما ألفه الصفدي شرحًا على الطغرائي صاحب لامية العجم والقصائد المعروفة في الكيمياء. ومنها أيضًا ما ألفه أبو بكر بن الوحشية صاحب الفلاحة النبطية سنة ٩٠٤م، ومنها نسخة في مكتبة أيا صوفيا، وزعم المستشرق الروسي شولسن بأن لابن الوحشية معرفة بعلوم الأراميين والبابليين وفنون أدبهم، ومن منظوماته «الشوق

المستهام» تكلم فيه عن خطوط المتقدمين وكتاباتهم، وله أيضًا «سدرة المنتهى» بحث فيها عن مواضيع دينية فلسفية، ومثل ذلك أيضًا «أزهار الأفكار في المعادن والأحجار» لشهاب الدين أبي العباس التفاشي، المتوفى سنة ١٢٥٣م تكلم فيه عن المعادن والأحجار الثمينة، وطبعه المستشرق رافيوس في أوتراخت من هولانده سنة ١٧٨٤م ثم طبعه كليمان موله سنة ١٨٦٨م، ومن ذلك أيضًا «ديوان شذور الذهب» لبرهان الدين بن أرفع رأسه من مدينة جيان في إسبانيا، المتوفى سنة ١١٩٧م في فاس. وغير ذلك.

وجمع فيكتور هوجو في هذا الديوان سِيرًا حماسية انتخبها من تاريخ البشر في القرون الأولى والوسطى والأخرى، وصورها في ألواح معظمة وسبكها في قوالب مكبرة، وقصها قصصًا مفجعة شرح فيها سير الإنسان في مراقي العمران وخروجه من الظلمات إلى النور، ومن قيد العبودية إلى سراح الحرية، وجعل الحق للأمم والقوة للملوك الجبابرة المستبدين بالرعية، وبين كيفية تغلب الحق على القوة كلما خطا الإنسان خطوة في التاريخ، وارتقى درجة في سلم الحضارة. وبذلك قاعدة «الحكم لمن غلب» من بين الأمم شيئًا فشيئًا ويعلو الحق، وينتصر رويدًا رويدًا؛ لأن الحق يعلو ولا يعلى عليه.

فنظم فيكتور هوجو في تصوير القرون الأولى قصيدة «تيتان»، وسلك فيها طريقة الشاعر اليوناني إيشيل مؤلف رواية «برومته» المقيد بالسلاسل، وبين فيها ظلم الجبارين ومحاربتهم للآلهة، ثم سقوطهم في مهاوي الخزلان، أما تيتان فورد ذكرهم في أساطير اليونان بأنهم من

أولاد السماء والأرض، وقيل بأنهم عصوا على الآلهة وأرادوا أن يبنوا لهم صرحًا؛ ليبلغوا به أسباب السموات؛ أي نواحيها، فعمدوا إلى الجبال ووضعوا جبلًا فوق حتى كادوا يبلغون السماء الدنيا لولا أن كبير الآلهة جوبتير صعقهم بصاعقة دكت الجبال دكًّا.

«ونظم فيكتور هوجو أيضًا ضمير قاين»، ويُعرف عندنا بقابيل الذي قتل أخاه هابيل، ثم ندم على ما فعل،فصور الشاعر ندامته وعين الله ناظرة إليه بالغضب، وعظم هذه القصة وجسمها تجسيمًا لائقًا برجال ذاك العصر الذين منهم عوج بن عناق، ولشعراء الترك والفرس مبالغات عجيبة في تصوير مثل هذا الموضوع، كالشاعر نفعي الذي وصف شدة الحر، وقال: بأن زفرة من زفرات النمل كافية لتنشيف البحور السبع وجعلها سرابًا، ووصف شاعر آخر رستم عنترة الفرس، وقال: بأن النبل الذي رمى به من قوسه اخترق السموات السبع ودخل في اللامكان. واستخرج فيكتور هوجو من التوراة والإسرائيليات غير هذا الموضوع، وصوره كذلك في هذا الديوان.

ونظم في تاريخ القرون الوسطى عدة منظومات مثل لاديسلاس، وسيجسموند وغيرهما من الظَّلمة وقطاع الطرق الذين توصلوا بالقتل والنهب والحيل والدسائس إلى لبس تاج الملك، والجلوس على كرسي الإمبراطورية، وقارنهما بالسيد ورولان، وغيرهما من الفوارس الشجعان الذين جاهدوا بأنفسهم في سبيل النصرانية، وتفانوا في الغيرة والحمية الدينية. ورولان هو ابن أخ شارلمان وقائد جيوشه، وشارلمان هو الإمبراطور المعاصر لهارون الرشيد، وتقدم ذكرهم وذكر السيد أيضًا

وهـو عنـترة الإسـبانيين كـما أن رولان عنـترة الفرنسـاويين وكلاهـما اشـتهرا في الحـروب مـع مسـلمي الأندلـس. وصـوَّر فيكتـور هوجـو القـرون الوسـطى بمـا فيهـا مـن المظـالم والجرائـم الفظيعـة، وإراقـة الدمـاء، والاسـتبداد، والنخـوة الجاهليـة، والتعصـب الدينـي وأطنـب غايـة الإطنـاب في توصيـف ذلـك وتعظيمـه وتجسـيمه.

ونظـم في القـرون الأخـرى مقـبرة أيلـو، وهـو مـكان في ألمانيـا انتـصر فيـه نابوليـون عـلى عسـاكر الـروس وبروسـيا، ونظـم فصـلًا سـماه جماعـة الظـلام وافتتحـه بقصيـدة عنوانهـا الحريـة قـال فيهـا: بـأي حـق تضـع الطيـور في الأقفـاص؟ بـأي حـق تغتصـب هـؤلاء المغردين وتحـرم منهـم الغابـات والأنهـار والفجـر والريـاح؟ بـأي حـق تسـلب هـؤلاء الأحيـاء حياتهـم؟ أتظـن أيهـا الإنسـان بـأن اللـه خلـق الجنـاح لتعلقـه عـلى مسـمار في بيتـك؟ ألا يمكنـك أن تعيـش سـعيدًا مـسرورًا بـدون ذلـك؟ مـا الـذي فعلـه هـؤلاء المعصومـون؛ ليوضعـوا في الحبـس؟ مـن يعلـم كيـف يمتـزج حظهـم مـع حظنـا؟ مـن يعلـم إذا كان العصفـور الـذي ينهـب مـن الأغصـان، ومـن يعلـم إذا كان الأذى الـذي تـؤذى بـه الحيوانـات، وإذا كان الاسـتعباد الـذي يجـري عـلى البهائـم بـلا فائـدة لا ينقلـب عـلى رءوسـنا ظلـمًا كظلـم نـيرون؟ مـن يعلـم إذا كان زنجـير الحبـس لم يخـرج مـع إرسـان الحيوانـات ...؟

خـذ حـذرك مـن العدالـة الإلهيـة؛ لأن اللـه ينظـر إلى المـكان الـذي يبـكي الأسـير فيـه ويـصرخ، ألا تفهـم أيهـا الإنسـان بأنـك ظـالم؟ أطلـق سراح هـؤلاء المحبوسـين ودع البلابـل تطـير في الحدائـق، فميـزان العدالـة وإن اختفـى عـن الأعـين، فلـه كفتـان تـزن الأعـمال ... إلـخ ... إلـخ.

ونظم قصيدة أخرى عنوانها «الحرامي والملك»، وبين المشابهة بينهما وما يرجح به كل واحد على صاحبه، ونظم قصيدة أخرى عنوانها «للملوك» خاطبهم فيها بكلام ترتعد منه الفرائص، وتقشعر الجلود، فقال لهم: أتظنون أنتم بأننا نحن نحبكم! نحن الذين نشتغل في هذه الأرض ونستخرج ثروتها ونكد، ونجد في حر الشمس وبرد الشتاء ولا ننال من أتعابنا غير الجوع والعطش. وأنتم على سرر مرفوعة من العز والنعيم، وعلى جانب من التبذير والإسراف والفحش، نحن الخدم وأنتم الملوك. نحن الغنم وأنتم الذئاب، نحن الفريسة وأنتم المفترسون، تبنون القصور والسرايات من أموالنا وأتعابنا وترتعون فيها وتلعبون، ونحن نقاسي نزاع الموت على لقمة، لا شغل لكم إلا الأكل والنوم والسكر والفحش والقتل والظلم، فأنتم لا فرق بينكم وبين الأسود الكاسرة والوحوش الضارية ... إلخ ... إلخ.

وأطنب فيكتور هوجو في بيان الحرية، وتعريفها بأساليب كثيرة وصور مختلفة وأشكال متنوعة، ومن كلامه ما ورد على حد قول المعري في اللزوميات:

يكفيك حزنًا ذهاب الصالحين معًا

ونحن بعدهم في الأرض قطان

إن العراق وإن الشام مذ زمن

صفران ما بهما للملك سلطان

سـاس الأنام شياطين مسلطة

في كل مضر من الوالين شـيطان

من ليـس يحفل خمص الناس كلهم

إن بـات يشرب خمرًا وهو مبطان

تشـابه النجر فالرومي منطقه

كمنطـق العرب والطائيُّ مِرطان

أمـا كلاب فاغنني من ثعالبهم

كأن أرماحهم في الحرب أشـطان

متى يقوم إمامٌ يسـتقيد لنا

فتعـرف العدل أجبالٌ وغيطانُ

صلـوا بحيث أردتم فالبلاد أذى

كأنهـا كلها للإبل أعطانُ

وقال أيضًا:

مـلَّ المقام فكم أعاشر أمةً

أمـرت بغير صلاحها أمراؤها

ظلموا الرعية واسـتجازوا كيدها

فعَـدَوا مصالحها وهم أجراؤها

وقال أيضًا:

يـا ملوك البلاد فزتم بنسء الـ

ـعمر والجور شأنكم في النساء

مـا لكم لا ترون طرق المعالي

قد يزور الهيجاء زير نسـاء

يرتجـي الناس أن يقوم إمامٌ

ناطق في الكتيبة الخرسـاء

كذب الظن لا إمام سـوى العقل

مشيرًا في صبحه والمساء

فـإذا ما أطعته جلب الرحمة

عند المسير والإرساء

إنما هذه المذاهب أسبابٌ

لجذب الدنيا إلى الرؤساءِ

غـرض القوم متعةٌ لا يرقون

لدمع الشماء والخنساء

كالـذي قام يجمع الزنج بالبصرة

والقرمطي بالإحساء

فانفرد ما اسـتطعت فالقائل الصا

دق يضحى ثقيلًا على الجلسـاء

ومـما يحاكي بعض أبيات قصيـدة الحرية المتقدم ذكرها قول المعري:

أعـاذل إن ظلمتنا الملوك

فنحـن على ضعفنا أظلم

توسـط بنا سائرات الرفـ

ــاق لعل ركائبنا تسلم

إلى أن قال:

فـلا تغبطن ذوي نعمة

فخلفهم وقعة صيلم

تسـامت قريش إلى ما علمت

واستأثر الترك والديلم

وهل ينكر العقل أن يسـتبد

بالملك غانيةٌ غيلم

وما ظفر الملك في جيشـه

سـوى ظفرٍ بالردى يقلم

وقوله:

وأقصاني من الرؤساء كوني

وكونهم لخالقنا عبيدا

وقوله:

قـد عمنا الغش وأزرى بنا

في زمـنٍ أعوز فيه الخصوص

أن نصح السـلطان في أمره

رأى ذوي النصح بعين الشـصوص

وكل مـن فوق الترى خائن

حتـى عدول المصر مثل اللصوص

وقوله:

لقد سـاس أهل الأرض قومٌ تفتقت

أمـورٌ فما ألفت لهم يد راتق

هم هتكوا بالراح أسـتار عاذل

ولم يحفظوا بالنسـك حرمة ناتق

إذا جرحـوا دنًّا فلم يرج عندهم

قصاصًـا أجادوا قتل عذراء عاتق

وصاغـوا بما تجني الولاة مراكنًا

وزادوا على أسـيافهم والمناتق

ولـو كان للدنيا لدى الله قيمةٌ

لما نظروا في آهلات الرسـاتق

وقال أيضًا:

صاحـب الشرطة إن أنصفني

فهـو خير لي من عدل ظلم

مـن أراد الخير فليعمل له

فعليـه لذوي اللب علم

حكـم الناس غواةٌ مثلما

حكمـت قبل حصاةٌ وزُلَم

لا تهـاون بصغير من عدًى

فقديمًـا كسر الرمح القلم

ويعجبنـي مـا قالـه في هـذا البـاب شـاعر العـصر أحمـد شـوقي بـك مـن القصيـدة التاريخيـة، التـي تلاهـا في مؤتمـر المسـتشرقين في جنـوه (جنيـف) سـنة ١٨٩٤م قـال:

إن ملكـت النفوس فابغ رضاها

فلهـا ثورة وفيها مضاء

يسـكن الوحش للوثوب من الأسـ

ــر فكيف الخلائق العقلاء

يحسـب الظالمون أن سيسودو

ن وإن لـن يؤيد الضعفاء

والليـالي جوائر مثل ما جا

روا وللدهـر مثلهم أهواء

**أغاني الشوارع والأحراج**

وهـو ديـوان كالـذي سـبق، ولا حاجـة إلى إيـراد مثـال منـه. وأمـا مـا نظمـه فيكتـور هوجـو في شـيخوخته فهـو:

السنة المهولة

هجـا في بعـض هـذا الديـوان نابوليـون الثالـث، وعـد سـقوط حكومتـه الإمبراطوريـة كفـارة لمـا اقترفـه مـن السـيئات عـلى زعمـه في حادثـة ٢ ديسـمبر، وبـين في بعضـه الآخـر مـا جـاد بـه الفرنسـاويون مـن الغـيرة والشـجاعة في الدفـاع عـن الأوطـان أثنـاء حـرب السـبعين الألمانيـة، ومـا قامـوا بـه مـن الثبـات في حصـار باريـس، واعتـبر الحـرب الفرنسـاوية الألمانية كأنهـا آخـر حلقـة لسلسـلة الحـروب التـي أثارتهـا دول القـرون الوسـطى المعـبر عنهـم بالقيوَداليـنة، وهـم أشـبه بمـا كان في بلادنـا مـن أصـول التيـمار والزعامـة، وبحكومـة الأمـراء الذيـن قيـل لهـم: «درة بـك»، وعُـد انقطـاع تلـك السلسـلة وزوال هاتيـك الأفـكار العسـكرية بظهـور الفكـر الجديـد

والتقدم العصري، وتكلم في القسم الثاني من هذا الديوان على ويلات الحرب الأهلية، وما اقترفه الرعاع (كومين) في باريس من الفظائع الدموية، وأظهر حمقهم وجهالتهم في إحراق الديار وذبح الرجال وختمه بطلب العفو عن المجرمين المغلوبين.

**صناعة كون المرء جدًّا**

تكلم في هذا الديوان على الأطفال والأولاد، وشبههم بالملائكة، واعتبر وجودهم على الأرض دليلًا على رحمة الله، وتأييدًا لما يرجوه الناس من الحياة الآخرة، وكان فيكتور هوجو يطرب لبأبأة الأطفال ومناغاتهم، وللعب الصغار وهوشاتهم ويفرح لابتسامهم وضحكهم، وتبريق عيونهم وتهلل وجوههم، ويحصل له من جميع ذلك تجلٍّ واستغراق ظهر أثره في نظمه، وبعد ما أصيب في أولاده عكف على حب حفيده جورج وحفيدته حنه (جان)، وشغف بهما شغفًا زائدًا والتزم تربيتهما بنفسه، فكان يشاهد نشؤهما وتفتح الروح وانفتاق الذهن فيهما، وينظم مطالعاته وما يلهم به من الشعر، فنظم جميع ما يتعلق بالأطفال والأولاد من تهليل وترقيص وتلهية وتلعيب، وصور جميع حركاتهم وسكناتهم ونومهم وقيامهم وجريهم ونطهم ولعبهم، مثال ذلك القصيدة التي عنوانها «أغاني لترقيص الأولاد الصغار في الحلقة»، وكذا المنظومة التي عنوانها أيضًا «حنه كانت في الغرفة المظلمة على الخبز الحاف»، وذلك أن مربيتها جازتها بهذا الجزاء تأديبًا لها، فجاءها جدها من وراء الباب المقفل وأطعمها الحلواء خفية فقالت له: تبت وما عدت أدخل إصبعي في أنفي ولا أدع الهرة تخمشني، فذهب يتشفع

لها عند مربيتها، فاعترض عليه أهل الدار، وقالوا له: أطعمتها كثيرًا وأفسدت تربيتها، وكيف ينتظم أمر البيت إن لم يكن فيه وازع ورادع وقانون يتبع، فأقر بخطئه واعترف بأن كثرة المرحمة مضرة بمصلحة العائلة كضررها بمصلحة الأمة، وبعث على انحطاطها وهلاكها، وقال لهم: أنا المخطئ ضعوني مكانها في الغرفة المظلمة على الخبز الحاف، فقالوا له: أنت مستحق لذلك؛ لأن القانون ينبغي أن ينفذ على الكبير والصغير، فنظرت إليه حنه بعين الشفقة والمرحمة، وقالت له بصوت منخفض: «وأنا أجيب لك الحلواء»، فنظم الشاعر هذه القصة بصورة بديعة وألفاظ عذبة، وهي مثال لمواضيع قصائده، فكان كالصغير مع الصغار؛ ولذا انتقد عليه بعض الأدباء وقالوا: بأن في أشعاره ما هو أشبه ببأبأة الأطفال لا لذة فيه ولا طعم له.

ثم نظم أربعة دواوين صغيرة لخص فيها مسلكه الفلسفي، وجميع معارفه العلمية وأفكاره الدينية وإلهاماته الربانية، وسماها «الأديان والدين»، «البابا»، «الحمار»، «الرحمة العالية»، ونظم فيها شيئًا كثيرًا مما نقرأه في «لزوميات المعري» على حد قوله:

دين وكفرٌ وأنباء تقص وفر

قان ينص وتوراة وإنجيل

في كل جيل أباطيل يدان بها

فهل تفرد يومًا بالهدى جيل

وقوله:

جاء القرآن وأمر الله أرسـله

وكان سـترٌ على الأديان فانخرقا

مـا أبرم الملك إلا عاد منتقضًا

ولا تألف إلا شـت وافترقا

مذاهب جعلوها من معايشـهم

من يعمـل الفكر فيها تعطه الأرقا

ولكـن كلام فيكتـور هوجـو أوضـح وأظهـر وأجمـع وأكـثر تفصيـلًا وترتيبًـا، وإن كان الشـاعران يتفقـان كثـيرًا في أصـل الفكـرة، وتتـوارد خواطرهـما عـلى المعـاني الواحـدة، ويظهـر في كلامهـما أثـر الحـيرة والدهشـة مـن النظـر في الكـون، ولكـن فيكتـور هوجـو لم يسـتول عليـه اليـأس، ولا القنـوط الـذي اسـتولى عـلى أفـكار المعـري، وأحرمـه مـن نعيـم الدنيـا ولذائـذ الحيـاة مـع مـا كان لـه مـن سـعة الـرزق، وكـثرة المـال، ومـما أنشـده في ذلـك:

واتهامـي بالمال كلف أن يطلـ

ــب مني ما يقتضي التمويل

ويقـول الغواة: خولك الله

كذبتم لغيري التخويل

عيشـة ضاهت الهواذير ما فيها

مفيد وكلها تطويل

إن حبـاك القدير كالنيل تبرا

فليفضـه العطاء والتنويل

إلى أن قال:

وإذا هولت عليَّ المنايا

راقنـي من وعيدها التهويل

حولينـي عن ظاهر الأرض فالقلـ

ــب يسلي همومه التحويل

إلخ.

ووردت ترجمتـه في بعـض الكتـب الفارسـية، وقيـل فيهـا: بأنـه كان مـن أهـل الـثروة واليسـار مـع زهـد وتقشـف.

**الأديان والدين**

ديـوان مشـحون بالحِكـم، ولكـن ضيـق الوقـت منعنـا عـن تدقيقـه ومقابلتـه بما ورد عـلى مثالـه مـن شـعر العـرب، وهـو عـلى خمسـة أبـواب: بـاب الجـدل، بـاب الفلسـفة، بـاب لا شيء، بـاب الأصـوات، بـاب النتيجـة، ونظـم في بـاب المجـادلات تسـع منظومـات: (١) يـوم الأحـد (٢) أول التفكـر (٣) التيولوجـي ونسـميه المتكلـم أو المتكلمـون، وهـم الباحثـون في علـم الـكلام والتوحيـد. (٤) للتيولوجـي؛ أي خطابًـا لهـم ومطلعهـا: أيهـا الرهبـان، أيهـا اللابسـون الحـرام والطيلسـان، سـواءٌ عليكـم أتعممتـم بعمائـم البـز أو تتوجتـم بالتيجـان المرصعـة بالجواهـر واللآلـئ، فحيـث جعـل لكـم في هـذه

الدنيا حق بالحماقة، فأنتم تتجاوزون فيها الحد بشدة لا مثيل لها؛ لأن العلي الأعلى يغض بصره ويصم أذنه عنكم ... إلخ. (٥) الاختراع. (٦) الأيدي المرفوعة نحو السماء. (٧) أحسن الصنع وبين فيها ما يقوله المتكلمون من النصارى في حق الله. (٨) بقية. (٩) مسائل.

ثم ذكر في الباب الثاني آراء الفلاسفة، وفي الباب الثالث آراء الملحدين الجاحدين الذين يقولون: بعدم وجود شيءٍ، إن هي إلا أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا إلا الدهر، وإنما مثلنا كمثل الزجاجة إذا انكسرت لا يعاد لها سبك، وأما الخاتمة فهي منظومة طويلة نظر بها في حسن السماء ونجومها التي هي زينتها، وفي الشمس والقمر ونورهما، وفي الكون بأجمعه وقال في ختامها: هو موجود! هو موجود! انظري أيتها النفس، فله أوج وهو الضمير، وله محور وهو العدالة، وله نقطة اعتدال وهي المساواة، وله فجر واسع وهو الحرية، وشعاعه ينير فينا ما تتصوره النفس فهو موجود! موجود! موجود! بلا نهاية، بلا بداية، بلا كسوف، بلا ليل، بلا فراغ من العمل، بلا نوم.

فارجع يا دودة الأرض عن خلق الشمس، أهو هذا على حد قولنا لا تتفكر في ذات الله وحقيقته، بل تفكر في خلقه ومصنوعاته.

**الحمار**

أراد المؤلف بنظم هذا الديوان بيان أفضلية الطبيعة، والسوق الطبيعي على العلم لا سيما على العلم الكاذب والأباطيل، وقايس فيه بين صبر الحمار وصلاحه، وبين خشونة الرجل وعبث الصبي؛ لأن الحمار وإن كان في عرفنا كناية عن البلادة والغباوة ومن أوصاف الذم، ولكنه

في عـرف المتقدمـين رمـز عـن الصـبر؛ ولـذا سـمي مـروان الحـمار وكان ذا شـجاعة وحـزم، وسـمى اليونـان بعـض رجالهـم وأظنـه أشـيل بالحـمار أيضًـا. ففيكتـور هوجـو سـمى حـماره الصـبر وقايـس بينـه وبـين الفيلسـوف كانـت، وجعـل بينهـما مخاطبـات فلسـفية بديعـة، وقـال لِكانـت: مـا الـذي وجدتـه بعـد خـوض بحـار العلـوم، ومـا الـذي اسـتنتجته مـن سـبر غورهـا، وإلى أيـن أوصلتـك هـذه الكتـب والدفاتـر، فهـي لم تـدوَّن ولا وُضعـت في الكتيبـات إلا لترعـى في حواشـيها الأرضـة، وتتخـزن فيهـا الرطوبـة، فالعلـم الحقيقـي هـو في وجـه الطبيعـة والطفوليـة، وفي الابتسـام والصـلاح والبشاشـة ... إلـخ.

**الرحمة العالية**

صـور في هـذا الديـوان الظلـم والاسـتبداد، وبـكاء المظلومـين، ولعنهـم الظالمـين وشـخص القـوة المسـتبدة أحسـن تشـخيص، وبـين الحامـل للمسـتبد في أمرهـم عـلى الشـكوى، ولكـن المفكـر في باطـن الأمـر ونفـس الحقيقـة يـرى أولئـك الظالمـين الملعونـين في حاجـة وافتقـار للشـفقة عليهـم أيضًـا؛ لأن حمـل الحكومـة والدولـة مـن أثقـل الأحـمال، سـيما وأن أولي الأمـر وأصحـاب الاسـتبداد محاطـون دائمًـا بالمداهنـين والمتملقـين، فالظـالم شـنيع ولكـن المغـري لـه والمتبصبـص أشـنع فالمتملقـون يفسـدون أخـلاق الملـوك منـذ حداثـة سـنهم، وهـم يكـررون عليهـم في كل صبـاح ومسـاء «كل هـذه الأمـة هـي لـك»، فحـب الملـك خصلتـه كبقيـة الخصـال الإنسـانية والملـوك يسـتوون في الخصـال مـع بقيـة النـاس، ولكنهـم يفرقـون عنهـم بـأن الحقيقـة تخفـى عليهـم بالكليـة، ولا يطلعـون عـلى جـلي الخـبر فهـم أحـق وأولى بالرحمـة العاليـة.

(١٨) الدرام

استعملنا هذا الاسم لبينما يضع أدباء العرب اسمًا مقابلًا له، أو يعربوه كما عرب المتقدمون كلمة موسيقى، أو أرتماطيقي ونحوهما من الكلمات اليونانية، والمقتضى لهم إيجاد كلمة تكون على وزن من أوزان الأسماء العربية، ويسهل النطق بها على اللسان؛ لأنا في عصر نحتاج فيه لإدخال كلمات جديدة في لغة العرب كما أدخل السلف فيها الكلمات اليونانية والفارسية، وغيرهما على عهد الخلفاء العباسيين.

كروموبل

أول درام ألفه فيكتور هوجو هو درام كروموبل، وتقدم ذكر مقدمة هذه الرواية في تعريف الطريقة الرومانية، أما كروموبل فهو من أشهر رجال الإنكليز في القرن السابع عشر للميلاد اشتغل بالسياسة حتى صار رئيسًا للحزب الجمهوري وأحدث «الثورة» الانقلاب الذي قُتل فيه شارل الأول ملك الإنكليز سنة ١٦٤٩، كما قتل لويس السادس عشر ملك فرنسا سنة ١٧٩٣م، واستبد أوليفيه كروموبل بالجمهورية، وصار صاحب الأمر والنهي كأنه ملك، ولم يقنع بما استحوذ عليه من السلطة والنفوذ، بل وسوس له الخناس الذي يوسوس في صدور الناس بأن يتملك على الإنكليز، فأخذ في تهيئة الأسباب وإعداد المعدات كما فعل نابوليون الثالث حينما تتوج بتاج الإمبراطورية، واستعدت بلدية لوندره لتقديم الصولجان له، وتهيأ البرلمان لإلباسه التاج وكاد الاحتفال برسم التتويج يتم في كنيسة وستمنستر حسب الأصول والتقاليد القديمة، ولم يبق بينه وبين الفوز بأمانيه إلا قاب قوسين أو أدنى، فحينئذ

اكتشف على عصبة سرية من أصحاب الجمهورية يأتمرون على قتله، ولا يؤخرهم عن الفتك به إلا انتظار رسم التتويج؛ ليغمدوا سيفهم المسلول في قلب ملكٍ لا في قلب رئيس للجمهورية، فخاف ورجع عما تشتهيه نفسه وأظهر ميله للمحافظة على قوانين الجمهورية، وكراهته في لبس التاج والتملك، وأخفى شوقه لعروس المملكة وحرصه الزائد على نيل وصالها؛ لأن الظلم من شيم النفوس.

وكان أوليفيه كروميل ذا أخلاق غريبة، وطينة عجيبة، وطبيعة متقلبة اجتمع في خصاله الضدان من شهامة ودناءة، وجبن وشجاعة، وشدة ورحمة، ولين جانب وقساوة، وحرية أفكار ونفاق ومجاملة؛ ولذا اتخذه فيكتور هوجو بطلًا لروايته وصور أخلاقه تصويرًا بديعًا وجعل مجرى الرواية في ويت هال سنة ١٦٥٧، وافتتح الرواية بقوله: «غدًا الخامس والعشرون من حزيران سنة ألف وستماية وسبع وخمسين»، وختمها بقول كروميل: «إذن متى أصير ملكًا؟» إشارة إلى شدة حرصه على الملك، فالأدباء الناهجون منهج الطريقة الرومانية يعتبرون هذا المطلع وهذه الخاتمة من أبدع المطالع والخواتم، وأبلغها مع بساطتها وخلوها عن التشابيه والاستعارات المدرسية. ويقولون: بأن إنشاء الرواية من أعلى طبقات الإنشاء، ولكن تمثيلها على المراسح متعسر لطولها وكثرة أشخاصها، فهي أشبه بكتاب تاريخي مدقق منها بالرواية التمثيلية، وعدا هذا فمؤلفها لم يحسن توصيف أخلاق الرجال، ولم يستطع إعطاء كل رجل صفته الحقيقية بدون إفراط ولا تفريط، بل اتبع في الوصف تصوراته وخيالاته، والمطلوب في الرواية التمثيلية تصوير الرجل بذاته وأفكاره بلا غلوٍّ ولا إطراءٍ ولا مبالغة، ولكل رجل تاريخي

أحـوال مخصوصـة تكتنـف بـه ينبغـي مراعاتهـا في تأليـف الروايـة، فنابوليون مثـلًا لـه تعبـيرات، وأفـكار وأطـوار، لـو خـرج عنهـا مؤلـف الروايـة لأفسـد تأليفـه، وكـذا الملـك صـلاح الديـن الأيـوبي مثـلًا. ولكنـا لم نـزل نجهـل حقيقـة تاريخنـا فضـلًا عـن معرفـة أخـلاق كل رجـل وأطـواره.

أمـا الإفرنـج فلكـثرة معلوماتهـم وسـعة اطلاعهـم لـو حـضر أحدهـم تمثيـل روايـة، وكان مـن أصحـاب الـذوق في الـكلام لا يكتفـي بالتبـصر في محاسـن الألفـاظ، وتنسـيق الـكلام ورونـق الأشـعار وعلـو الإنشـاء، بـل ينظـر مـع ذلـك إلى الأهـم وهـو حسـن الموضـوع، وتصويـر أخـلاق الرجـال واسـتنتاج النتائـج الأدبيـة الفلسـفية الأخلاقيـة، بخـلاف مـن يتلـو منـا مقامـات الحريـري والهمـذاني أو يسـتمع تلحـين الأشـعار وإنشـادها عـلى العـود والقانـون، فـإن طربـه في الغالـب إنمـا هـو لحـلاوة التعبـير ويلهـو بهـا عـما يحتويـه مـن الفكـرة والمعـاني، فحـلاوة التعبـير هـي كالديبـاج والحـلي للأفـكار والمعـاني، وربمـا يلهـو المـرء بحـلي الغانيـة وزينتهـا عـن جمالهـا الحقيقـي، كـما نشـاهد ذلـك عـلى المراسـح في المشـخصات المتوسـطات في الحسـن إذا بـرزن بزينـة الأمـيرات وبأثـواب الملـكات.

إيرناني

وسـماها المؤلـف أيضًـا الـشرف القشـتالي وقشـتالة أيالـة في وسـط إسـبانيا، وصـور فيهـا الدولـة الإسـبانية، وهـي في ذرى مجدهـا وأوج عزهـا.

وذلـك أن العـرب بعـد فتحهـم إسـبانيا، وتأسيسـهم الدولـة الأمويـة فيهـا فـرَّ بقيـة أمـراء القـوط إلى جبـال أسـتوريا في الشـمال الغـربي مـن إسـبانيا، وأسسـوا فيهـا دولًا صغـيرة، فلـم يعبـأ بهـم المسـلمون وحسـبوهم مـن

المتشردين، فلم يستأصلوا جرثومتهم ولا أجلوهم إلى ما وراء جبال البيرينة كما كانت تقتضيه الحكمة السياسية من تحكيم الثغور في هذه الجبال، واتخاذها سدًّا مانعًا لهجوم الأعداء على المملكة الإسلامية، ثم ظهرت ملوك الطوائف من المرابطين والموحدين وبني زيان، وبني هود وآخرهم بنو الأحمر، ومؤسس هذه الدولة عبد الله محمد بن أحمر سنة ٦٣٣هـ، وعدة ملوكها عشرون واستمر ملكهم ٢٦٥ سنة، وكان آخرهم أبا عبد الله الصغير وكانت عاصمتهم غرناطة.

فلما ضعف أمر المسلمين وكثر النزاع والجدال بين أمرائهم قويت شوكة المسيحيين في شمال إسبانيا، وكان يوان الثاني حاكمًا على أراغون، وهي أيالة في شمال إسبانيا على ساحل البحر المتوسط وعلى صقلية، فزوج ابنه فرديناند بابنة حاكم قشتالة وهي إيزبلا، وتلقب فرديناند بالكاثوليكي، وخلف أباه في الملك واستولى على قشتالة بالوصاية عن زوجته، وحارب المسلمين وأخذ منهم غرناطة وأخرجهم من إسبانيا، وأخذ من الفرنساويين مملكة نابولي في إيطاليا، وفي أيامه اكتشفت أميركا وحمل ما فيها من الذهب إلى أوروبا، وبعد وفاة إيزابلا انتقل ملك قشتالة بالإرث إلى بنتها حنه المجنونة، وكانت متزوجة بفيليب الجميل أرشيدوق أوستريا، وخلفت منه ولدًا اسمه الدون قارلو، فانتقل إليه بالإرث ملك جده فرديناند وجدته إيزابلا، واجتمعت له المملكة الإسبانية بما فيها من الثروة الأميركية، ثم ورث من جده الثاني إمبراطورية ألمانيا، وصار انتخابه لها وتلقب بشارلكين وحاز على جميع الممالك.

أما إمبراطورية ألمانيا فكانت مجموع إمارات ومدائن حرة، وكانت الإمبراطورية فيها بالانتخاب لا بالوراثة، وذلك أنه عند موت الإمبراطور يجتمع أمراء الإمارات السبعة، وهم أكبر الأمراء الذين تتألف منهم الإمبراطورية؛ ولذا لقبوهم «المنتخبين السبعة»، وانتخبوا إمبراطور من أوستريا في الغالب؛ أي من العائلة التي تملك على إمارة أوستريا، فلما مات مكسمليان إمبراطور ألمانيا سنة ١٥١٩م انتخب حفيده شارلكين، وكان فرانسوا الأول ملك فرنسا صاحب عظمة وثروة ونفوذ وعسكر، فكان يسعى مع المنتخبين في انتخاب نفسه، ورشاهم بكثير من الأموال والهدايا، فأخذوا ماله وانتخبوا عدوه شارلكين فاشتدت الرقابة والعداوة بينهما، وكاد شارلكين يتفرد بالملك في أوروبا، ولم يبق له رقيب فيها سوى فرانسوا الأول ملك فرنسا، فحاربه وأسره وأحضره إلى مدريد عاصمة ملكه، وعقد معه معاهدة موافقة لسياسته، ثم أطلق سراحه، فلما وصل أرض فرنسا نقض العهد، واستمد السلطان سليمان القانوني، وكان أقوى ملوك الأرض قاطبة، وجرت محاربة بحرية في مياه تونس بين أسطول شارلكين وأسطول خير الدين باشا المشهور باسم باربا روس؛ أي ذي اللحية الشقراء، وانتصر فيها العثمانيون، وانتصرت العساكر الإنكشارية أيضًا على العساكر الألمانية في محاربة أخرى برية وقعت على حدود النامسا وألمانيا، وكان شارلكين شديد الحرص على التفرد بالملك والسؤدد، فلما لم يستطع إدخال جميع أوروبا في حكمه، وتحت نفوذه استولى عليه اليأس وانقطعت آماله، فتنازل عن ملك إسبانيا لابنه فيليب الثاني، وتفرغ عن إمبراطورية ألمانيا لأخيه فرديناند، واعتكف هو في دير من الأديرة إلى أن مات حزنًا وكمدًا.

أما موضوع رواية إيرناني فهو أن الدون قارلو قبل أن يصير إمبراطور على ألمانيا، ويتسمى شارلكين كان يهوى في مادريد غانية اسمها الدونة سوله، وكان يهواها أيضًا عمه الدوق روى غوميز، أما هي فكانت تعشق شابًّا من الأشقياء وقطاع الطريق اسمه إيرناني، وكان ثلاثتهم يترددون عليها بدون أن يشعر أحدهم بالآخر، فصادف الدون قارلو عند معشوقته هذا الشاب مرتين، ففي المرة الأولى مكنه من الخروج، ولم يتعرض له وفي المرة الثانية ضيق عليه بالحرس وحصره بالعسكر، وأباح لهم دمه وجعل جائزة لمن يأتيه برأسه ففر إيرناني بكل مشقة من بيت حبيبته واختفى عن الأبصار، فلما انقطع أمل هذه الغانية من الملك ومن حبيبها الشاب ألقت نفسها بين أيدي عاشقها الثالث، وكان شيخًا هرمًا ففرح بها وحملها إلى قصره وأراد الدخول بها، ثم اهتدى إيرناني إلى حبيبته وجاء إليها، وبينما هو يغازلها ويعانقها وإذ دخل صاحب البيت وهو الدوق روى غوميز، ووجدهما متعانقين، ثم جاءهم الملك بغتة وأراد القبض على إيرناني، فامتنع الدوق من تسليمه وعدَّ أخذه من بيته إهانة لشرفه، وأشار إلى صور آبائه وأجداده المعلقة على جدران الغرفة، وهم حماة الملهوفين ومغيثو المستجيرين، فترك الملك إيرناني وأخذ الغانية عوضًا عنه وخرج بها من القصر، فلما نجا إيرناني من الهلاك طلب من الدوق أن يطلق سراحه؛ ليتعقب أثر محبوبته ويخلصها من أيدي الملك، وعاهده على أن يعود إليه متى طلبه، وأعطاه بوقًا لينفخ فيه متى أراد أن يستدعيه، فإذا سمع صوت البوق حضر إليه بالحال.

ثم ينتقل مجلس التشخيص إلى إكس لاشابل في ألمانيا، وكانت عاصمة

الإمبراطـور شـارلمان، وفيهـا قـبره ثـم جـرت العـادة بتتويـج الإمبراطـور في هـذه المدينـة، فـإذا أرادوا توليـة إمبراطـور اجتمـع المنتخبـون وهـم الملـوك أو الأمـراء السـبعة الذيـن لهـم حـق الانتخـاب، واختـاروا أحدهـم وألبسـوه التـاج وأطاعـوه، وكان الـدون قارلـو مرشـحًا لهـذا الأمـر، فائتمـرت عصبـة عـلى قتلـه وفيهـم عمـه الـدوق روى غوميـز، واختفـوا في المحـل الـذي فيـه قـبر شـارلمان وأخـذوا معهـم إيرنـاني ليطعنـه بخنجـره، فعلـم بهـم الـدون قارلـوس ودخـل المقـبرة، ونـزل لقـبر شـارلمان وفـاه بـكلام هـو مـن ملـول الـكلام، ومـن أبلـغ مـا نظمـه فيكتـور هوجـو، ثـم أطلقـت المدافـع ودقـت الأجـراس إعلانًـا بانتخابـه إمبراطـور عـلى ألمانيـا وخليفـة لشـارلمان، وألقـى القبـض عـلى المتآمريـن وأراد قتـل إيرنـاني؛ لأنـه ليـس مـن ذوي الرتـب والـشرف، ولكنـه بـيَّن نسـبه وظهـر بـأن اسـمه الحقيقـي هـو جـان داراغـون دوق سـيغورب وقاردونيـا، فعفـى عنـه وزوجـه بمعشـوقته الدونـة سـوله، فلـما أخذهـا وأراد الخلـوة بهـا في قـصره سـمع صـوت البـوق فتذكـر عهـده، وفضـل المـوت عـلى عـدم الوفـاء بالوعـد فـشرب السـم وشربـت حبيبتـه، ثـم قتـل الـدوق روى غوميـز نفسـه أيضًـا مـن شـدة حبـه لتلـك الغانيـة، فهـذه الروايـة ليـس لهـا حقيقـة تاريخيـة، وإنمـا هـي مـن مختلقـات الشـاعر وتخيلاتـه، ولكنهـا في أعـلى طبقـة مـن البلاغـة والانسـجام وحسـن الـذوق.

**روى بلاس**

صـور المؤلـف في هـذه الروايـة التاريخيـة انحطـاط دولـة إسـبانيا في أواخـر القـرن السـابع عـشر للميـلاد، وذلـك أنـه بعـد فيليـب الثـاني ابـن شـارلكين، المتقـدم ذكـره، جلـس عـلى كـرسي المملكـة الإسـبانية ابنـه فيليـب الثالـث،

ثم فيليب الرابع ثم شارل الثاني آخر ملوك هذه السلالة النامساوية، ولما جلس سنة ١٦٦٥م كان عمره أربع سنوات، وهو لا يستطيع المشي ولا الكلام فكانت الوصاية لأمه، ثم لأخيه وامرأته ووزراء دولته، وبعد أن كبر أيضًا لم يلتفت لمصالح الملك، وأهمل إدارة مملكته وبيته وزوجته، وكان يقضي أيامه في الصيد والتجول في البراري والغابات وامرأته في هم وكدر من وحدتها، وتكلفها بمراسم التشريفات وبالتقاليد المرعية في قصر الملك، ولم يكن لشارل الثاني ولد فأوصى بالملك لحفيد لويس الرابع عشر ملك فرنسا، وانتقلت دولة إسبانيا من آل أوسترياإلى آل بوربون سنة ١٧٠٠ وزال نفوذها واعتبارها من بين الدول الأوروبية، ولم تزل في انحطاط لم تتخلص منه للآن، وترى بعين الحسد تهافت الدول الأوروبية على استعمار أفريقيا، ومدهم فيها السكك الحديدية وجرهم المنافع التجارية، وهي شاخصة ببصرها كالمقعد الذي يروم النهوض ولا يستطيعه، وأضاعت بالأمس آخر مستعمراتها في أميركا وهي جزيرة كوبه، ثم جزائر فيلبين، ولم تكسب اليوم من تقسيم البلاد المراكشية إلا جزاءً موهومًا على ساحل المحيط الغربي يسمى «ريو دورو» أي: نهر الذهب ويشاهد رسمه على الخريطة المرسومة بعد عقد المعاهدة بينها وبين فرنسا، ولا يرى أثر لحقيقة مسماه وجل ما يعلم عنه أن ليس هناك لا نهر ولا ذهب.

فصور الشاعر في هذه الرواية انحطاط المملكة الإسبانية، وشرح أسباب انقراض دولتها، فإذا رُفع الستار عن المرسح ظهرت غرفة من غرف قصر الملك في مادريد وفيها وزير المملكة، وقد غضبت عليه الملكة وطردته من القصر؛ لأنه لم يقبل بأن يتزوج بنتًا من حاشيتها بعد أن

راودها وحظي بها، وقبل أن يخرج من القصر ليلتزم بيته صمم على الانتقام من الملكة، فاستدعى ابن عم له يسمى قيصر، وكان لفقره معاشرًا للهمل وقطاع الطريق مع ما له من الحسب والنسب، وأراد أن يتخذه آلة لدسائسه، فاستنكف من ذلك وردَّ ما عرضه عليه من المال والجاه، فأمر بنفيه للهند فنفي إليها وألبس خادمه روى بلاس لباس الأشراف، ودعاه بابن عمه قيصر وقدمه لرجال الدولة وأعيانها بعد أن استكتبه أوراقًا يعترف فيها بأصله، وخدمته له وكان روى بلاس يعشق الملكة، فتقرب منها وحظي لديها بالقبول، وصار من أعظم وزرائها وأكبر مستشاريها، وبينما هو حائز على رضاء الملكة وعلى أعظم مسند في المملكة، وإذ ظهر له سيده وأخذ يتهدد الملكة ويوبخها على هيامها في خادمه وعلى تفريطها بنفسها، وطلب منها إمضاء ورقة ليتخذها حجة عليها، ولا يبيح بسرها ما دامت مسلمة له زمام الملك، فكادت الملكة تقبل بذلك خوف الفضيحة والعار، ولكن روى بلاس اشتد غضبه حرصًا على شرف الملكة محبوبته، وقتل سيده ثم شرب سمًّا، ومات والملكة تندب عليه وتبكي، فهذا محصل الرواية.

وقال فيكتور هوجو في مقدمتها:

جمهور المتفرجين في المراسح على ثلاثة أصناف: أحدها النساء، والثاني الخواص، والثالث العوام، فالذي يتطلبه العوام من التأليف الدراماتيقي بدون استثناء تقريبًا هو العمل، والذي تتطلبه النساء قبل كل شيءٍ هو الشهوة، والذي يتطلبه الخواص على الخصوص هو الأخلاق، فإذا أمعنا النظر في هذه الأصناف الثلاثة من المتفرجين نجد العوام هائمين

بالعمل لدرجة يتساهلون فيها عند اللزوم بالأخلاق وبالشهوات، ونجد النساء مكترثات بالعمل أيضًا، ولكنهن مستغرقات بتفاصيل الشهوة حتى يقل انشغالهن جدًّا بتصوير الأخلاق، ونجد الخواص يتلذذون بمشاهدة الأخلاق؛ أي بمشاهدة الرجال أحيانًا على المراسح، ويتلقون الشهوة كأنها عارض طبيعي في التأليف الدراماتيقي، ويحصل لهم انزعاج من العمل، والسبب في ذلك أن العوام إنما يتطلبون في حضورهم المراسح الهيجان، والنساء يتطلبن الخلجان، والخواص يتطلبون التفكر، والجميع يبغي لذة ولكن أولئك يبغون لذة النظر، وهؤلاء يُردن لذة القلب، والآخرون يبغون لذة العقل، ومن ثم حصل في روايتنا — أي روايات فيكتور هوجو — ثلاثة أنواع مختلفة من التأليف، أحدها عامي سافل، والآخران رفيعان عاليان، ولكن في ثلاثتهم الكفاية لسد الاحتياج. فالعوام لهم الميلودرام (أي: ما كان فيه انتقام وقتل وإذلال وفضيحة)، والنساء لهم التراجيديا التي تُشرح الشهوة، والخواص لهم الكوميديا التي تصور الأخلاق الإنسانية.

ربما يتداخل بعض هذه الثلاثة في بعض؛ لأن العوام ربما وجد فيهم من له شوق طبيعي لتطلب الجمال كما له ذوق في الأشياء التافهة، ومن له هيام في التصورات والتخيلات البديعة، كما له إقبال على الأشياء العادية المزدرى بها، وكل واحد من خواص الأدباء البالغين في الأدب رتبة الكمال ينبغي أن يتصف بصفة المرأة من جهة الإحساس القلبي، كما أن المرأة تتصف أحيانًا بصفة خواص الأدباء المفكرين.

فإذا أمعنا النظر في أصناف المتفرجين الثلاثة نراهم جميعًا محقين،

فـإن النسـاء معهـم حـق في ابتغائهـم خلجـان القلـب، والخـواص معهـم حـق في ابتغائهـم التعلـم والاسـتفادة، والعـوام لا لـوم عليهـم في طلبهـم التسـلي، فمـن هـذا الـشرح ينتـج قانـون الـدرام.

فالقصـد مـن الـدرام والغايـة منـه هـو تصويـر الأخـلاق؛ أي اختـلاق رجـال وتمثيلهـم عـلى المرسـح بمقتـضى الـشروط المؤلفـة مـن صناعـة الأدب ومـن الطبيعـة، وإلقـاء الشـهوات في هـؤلاء الرجـال لبيـان أخلاقهـم وإيضاحهـا، ثـم اسـتخراج الحيـاة الإنسـانية مـن تصـادم هـذه الأخـلاق والشـهوات بالنواميـس الكـبرى الإلهيـة؛ أي اسـتخراج وقائـع كبـيرة، صغـيرة، مؤلمـة، مضحكـة، هائلـة، تشـتمل عـلى لـذة للقلـب يسـميها النـاس المنفعـة، وعـلى عـبرة للعقـل يسـميها النـاس محاسـن الأخـلاق، فيتضـح مـن ذلـك أن الـدرام يخـرج مـن التراجيديـا بتصويـر الشـهوات، ومـن الكوميديـا بتصويـر الأخـلاق والصفـات، فالـدرام هـو الشـكل الثالـث الكبـير مـن أشـكال الصناعـة الأدبيـة، ويشـتمل عـلى الاثنـين الأولـين ويجمعهـما ويفصلهـما. فلـو لم يوجـد شكسـبير بـين قورنيـل ومولـير، ولم يعـطِ يـده اليـسرى لقورنيـل، ويـده اليمنـى لمولـير لبقـي كل منهـما بعيـدًا عـن الآخـر، ولكـن بوجـوده التقـت الكوميديـا بالتراجيديـا التقـاء القطـب المثبـت بالقطـب المنفـي مـن الكهربائيـة، فحصـل مـن التقائهـما شرارة هـي الـدرام.

ثـم انتقـل فيكتـور هوجـو لبيـان حقيقـة الـدرام بالنظـر لفلسـفة التاريـخ، فقـال:

إذا اقتربـت مملكـة مـن السـقوط تمكـن الناظـر فيهـا مـن ملاحظـة علائـم كثـيرة، ففـي بـادئ الأمـر تميـل الأشراف للانحـلال، وبانحلالهـا تنقسـم عـلى

الوجه الآتي: تضطرب المملكة وتنطفي السلالة المالكة، وتزول أحكام القانون، وتتجاذب الدسائس الوحدة السياسية فتمزقها شذر مذر، وتخمد كبار العائلات وتنقرض، ويشعر الجميع في الداخل والخارج بضعف مميت، وتسقط عظائم الأمور التي تقوم عليها الدولة ولا تبقى واقفة إلا على صغائر الأمور وحدها، ويصبح منظرها العمومي محزنًا، ولا يبقى فيها لا ضابطة ولا عسكر ولا مالية، وكل واحد يحسب الساعة آتيةً لا ريب فيها، فمن ذلك يحدث في جميع الأذهان كدر من البارح وخوف من الغد، واحتراس من كل إنسان ويأس من كل شيءٍ ونفرة زائدة، وحيث إن مرض الدولة في رأسها؛ فأعيان المملكة الذين هم أقرب إلى الرأس يكونون أول المصابين بهذا المرض، فماذا يحدث حينئذٍ؟ لا يبقى في قصر الملك من الأعيان المقربين إلا الذين هم أقل حياءً وأسوأ أخلاقًا، وجميعهم على وشك الانقراض، ويضيق الزمان وتنبغي العجلة ويلزم لهم الاستهلاك في جميع المال، والارتقاء لأعلى المراتب والاستفادة من الحال الحاضرة، ولا يفتكر الواحد منهم إلا بنفسه، ويجمع بلا شفقة على الوطن ثروةً قليلة خاصة به في قرنة من الفقر العام الكبير، ويصير نديمًا ويصير وزيرًا، ويتهالك على الوصول للسعادة وإنفاذ الكلمة، وينفتق ذهنه باستحضار الأجوبة الظريفة، وينافق ويداهن ويلاطف فينجح، وكلهم يستحوذون على مقامات الدولة ومناصبها، وعلى وساماتها ورتبها وألقابها وأموالها، ويأخذون الجميع، ويتطلبون الجميع، وينهبون الجميع، ولا يعيش الواحد منهم إلا بالحرص والطمع، ويخفون قلاقل المملكة واغتشاشاتها وسوء إدارتها الداخلية تحت مهابة ظاهرية، وتشره نفوسهم للعجب،

وتتطاول أعناقهم للعظمة والكبرياء، وحيث كان الشرط الأول في حياة هؤلاء المقربين هو نسيان جميع الحواس الطبيعية، فيصبح الواحد منهم كأنه وحش مفترس، ومتى جاء يوم سقوطه وإبعاده عن مناصب الدولة صار مدهشًا عجيبًا وانقلب إبليس.

فإذا يئست الدولة من حالتها أبعدت عن مراكزها النصف الثاني من أعيان المملكة، الذين هم أكرم نسبًا وأحسن جرثومة، فيلتزمون بيوتهم ويدخلون قصورهم، ويذهبون لبلادهم ومعاقلهم ومصائفهم، وينفرون من مصالح الدولة، ولا يستطيعون تدبير أمر ولا بيدهم حيلة؛ لأن المملكة قد حان موتها ولم يبق في الأيام إلا ذماء، (الذماء بقية الروح في المذبوح) كيف العمل وماذا يجدي التحسر وما ينفع البكاء؟ فينبغي التغافل وإغماض العين، وتسلية النفس بالملاهي واللعب والأكل والشرب والتلذذ والتنعم، من يعلم؟ هل بقي للواحد منهم سنة أو سنتان أمامه؟ فإذا تفوه سادة المملكة وكبراؤها بذلك أو شعروا به، وأحسوا بشيءٍ منه فقط أقبلوا على التهور في مصالحهم، والإفراط في أمورهم، فزادوا في مشترياتهم وفي حلي نسائهم وفي ضيافاتهم، وإتقان مطابخهم وموائدهم، وأسرفوا وبذروا وأهدوا وفرقوا وباعوا، واشتروا ورهنوا واستدانوا وسلموا أنفسهم لآكلي الربا، وأتلفوا مداخيلهم وأضرموا النار في الجوانب الأربعة من أملاكهم، فيصبح الواحد منهم يومًا وقد حلت به المصيبة، ونزل عليه البلاء، وخرب هو قبل خراب المملكة رغمًا عن سرعة سيرها نحو الانقراض، فينفذ ماله ويحترق كله ولا يبقى من تلك الحياة الزاهرة والطهي والبهرجة، ولا الدخان لأنه طار أيضًا، ولم يبقَ إلا الرماد ولا أكثر من ذلك، فيتركه جميع الناس

وينسونه إلا أصحاب الديون، فتصير حالة هذا الشريف المسكين إلى ما يمكن أن تصير إليه، فيصبح بائسًا سفيلًا من الرعاع ويدور مع الهمل، ويختلط بجمهور العامة ويغيب بين أفواجهم المزدحمة.

ولم يكن خالط العوام قبل ذلك ولا رآهم إلا على أبوابه وأعتابه، فيغطس الآن بينهم ويلتجئ إليهم، ولم يبقَ معه نضار وإنما بقيت له «الشمس» أي نضارة الحياة وهي ثروة من لا ثروة له، وبعد أن أقام في أعلى طبقات الجمعية، فهو الآن يقيم في أسفل طبقاتها، ويدرب نفسه على الذل بعد العز، ويهزأ بالذين اشتد بهم الحرص والطمع حتى نافقوا وتقربوا من أولي الأمر، وصاروا من الأغنياء النافذي الكلمة، وأما هو فيصير فيلسوفًا لا يبالي بالإقبال والإدبار، ويشبه من حوله من رعاع الناس وأوباشهم بحاشية القصر ورجال المعية، ويتخذ منهم جماعة وأخدانًا ويترأس عليهم ويراعي النخوة والشهامة في جانبهم، وعدا هذا فهو طيب العنصر جسور القلب مفطور على النجابة والفطنة جمع في أخلاقه وخصاله بين ذوق الأديب الشاعر، ودناءة الصعلوك الفقير، وشهامة الرئيس الأمير، لا يبالي بأمر ويسخر من كل شيءٍ ويشوق رفاقه وأصحابه للسرقة، كما كان يبعث برجاله وأتباعه للنهب والغارة؛ ولكنه لا يتنزل لأن يسرق أو يستعطي بنفسه، تراه رث الظاهر سليم الباطن ذا كرم وسخاءٍ كالأمير، وتهور كتهور اليائس الفقير، لم يبقَ له من الأصالة إلا شرف النسب الذي يحافظ عليه، والاسم الذي يخفيه والسيف الذي يشهره.

فهاتان الصورتان اللتان رسمناهما ووصفنا بهما قسم المقربين وقسم

المبعدين من أشراف المملكة يوجدان في وقت من الأوقات في تاريخ جميع الممالك، ولكنهما في أواخر القرن السابع عشر للميلاد وجدتا في إسبانيا بصورة جالبة للنظر؛ ولذا شخصنا في هذه الرواية التمثيلية القسم الأول من كبراء إسبانيا في الدون سالوست المقرب من قصر الملك والمنعم عليه، والقسم الثاني في الدون قيصر (سيزار) الذي يرعى مع الهمل مع أن كلًّا منهما ابن عم للآخر، وعدا هذين الشخصين الذين يتمثل فيهما كبراء المملكة الإسبانية المقربين والمبعدين يوجد تحتهما شيءٌ كبير مظلم مجهول يتموج في جنح الظلام، فهذا الشيء هو الشعب الذي له المستقبل وليس له الحاضر. فالشعب يتيم فقير ولكنه ذو قوة واستعداد وقابلية، يتطلب العلى وهو في الدرك الأسفل، وعلى ظهره علامة الخدمة والاستعباد، وفي قلبه شوق للمعالي، الشعب خادم للسادة الكبراء، وعاشق وهو في الذل والشقاء للصورة الوحيدة التي تتلألأ له وسط هذه الجمعية المنقرضة، كأنها نور إلهي ويتمثل له فيها الحاكمية والشفقة والنمو، فالشعب هو «روى بلاس» خادم الدون سالوست.

فإذا تصورنا هؤلاء الأشخاص الثلاثة على الوجه المشروح، فيقتضي إحياءهم وتمشيتهم أمام أنظار المتفرجين، ونديرعليهم أعمالًا ثلاثة تتلخص فيها جميع أحوال المملكة الإسبانية في القرن السابع عشر، ويوجد فوق هؤلاء الرجال الثلاثة مخلوقة صافية نيرة، فهذه المخلوقة هي امرأة وملكة، وهي في شقاءٍ من حيث إنها امرأة؛ لأنها لم يكن لها زوج، وهي في شقاءٍ من حيث إنها ملكة؛ لأنها كأن لم يكن لها ملك، ومتعطفة على من تحتها بعاطفة ملكة وقلب امرأة، وناظرة للدرك

الأسفل بينما أن روى بلاس الذي تتشخص فيه الأمة ناظر للمقام الأعلى، فبقطع النظر عن الأشخاص الثانوية فهذه الرءوس الأربعة المجتمعة على هذا الوجه هي في نظر المؤرخ الفيلسوف النكات الأصلية لمملكة إسبانيا قبل ١٤٠ سنة، ويمكن لنا أن نضيف رأسًا خامسًا لهذه الرءوس الأربعة، وهو رأس الملك شارل الثاني، ولكن شارل الثاني ملك إسبانيا لم يكن شخصًا، بل هو في نظر التاريخ ظل؛ ولذا بقي في الدرام ظلًّا لم يبن شخصه.

فما ذكرناه للآن إنما هو بيان لحقيقة هذه الرواية، وهي روى بلاس بالنظر لفلسفة التاريخ، ويمكننا النظر إليها باعتبار آخر؛ لأن الأشياء في هذا العالم تختلف أشكالها باختلاف النظر إليها، ومثل ذلك كمثل الجبل الأبيض، إن نظرت إليه من المحل المعروف باسم «فروا دو فليشر» تراه بهيئة غير الهيئة التي تراه فيها لو نظرت إليه من المحل المعروف باسم «سالانش»، ومع ذلك فهو دائمًا الجبل الأبيض، وكذا الحال في هذا الدرام فإنه يختلف شكله باختلاف النظر إليه، فلو نظرنا إليه باعتبار الإنسانية المحضة لرأينا الدون سالوست يتشخص فيه حب الذات والاهتمام، واشتغال الفكر والتغرض، والدون سيزار بعكسه يتشخص فيه عدم المبالاة وعدم الاهتمام، وراحة البال وعدم التغرض، وروى بلاس يتشخص فيه الذكاء والعشق واقتحام الأخطار والمهالك، والملكة يتشخص فيها الفضيلة المائلة للانتهاك بسبب الملل وضيق الخلق.

وأما باعتبار صناعة الأدب، فيجتمع في هذا التأليف الأنواع الثلاثة من

الروايـات التمثيليـة، الـدون سالوسـت هـو الـدرام، والـدون سـيزار هـو الكوميديـا وروى بـلاس هـو التراجيديـا، فالـدرام يعقـد العمـل والكوميديـا تشوشـه والتراجيديـا تحسـمه.

فالموضـوع الفلسـفي لهـذه الروايـة هـو تطلـع الأمـة وتطلبهـا للمقامـات العاليـة، والموضـوع الإنسـاني هـو رجل يحـب امـرأة، والموضـوع الدراماتيقي؛ أي الفاجـع أو الهائـل هـو محبـة خـادم الملكـة، فجمهـور العـوام لا يـرون إلا الموضـوع الأخـير أي: الدراماتيقـي الـذي هـو الخـادم، والحـق معهـم. وهكـذا يقـال في كل تأليـف مـن هـذا القبيـل، فترتـوف يضحـك منـه واحـد ويرهـب منـه آخـر، فـإن ترتـوف حيـة تسـعى في البيـت، فهـو المـرائي بعينـه، فيكـون تـارة إنسـانًا وتـارة معنًـى. وأوتلـو هـو في نظـر البعـض أسـود يحـب بيضـاء، وفي نظـر البعـض الآخـر هـو وضيـع تـزوج بشريفـة، وفي نظـر الآخريـن هـو غيـور أو هـو الغـيرة عـلى النسـاء.

ثـم إن هـذه الروايـة لهـا تعلـق مـن جهـة المعنـى التاريخـي بروايـة إيرنـاني، فـإن حالـة الكـبراء في الروايتـين تظهـر بجانـب حالـة المملكـة، ففـي إيرنـاني لم تكـن إسـبانيا اكتسـبت شـكل الحكومـة المطلقـة؛ ولـذا كان الكـبراء ينازعـون الملـك في الأمـر ويقـوون عليـه تـارة بالنفـوذ وتـارة بالسـيوف، ويخرجـون عليـه مـرة ويطيعونـه أخـرى — كـما كان الحـال في المملكـة العثمانيـة عـلى عهـد الجـزار صاحـب عـكا وباشـاوات مـصر وبكـوات تونـس، ودايـات الجزائـر، وبقيـة الأمـراء الذيـن يقـال لهـم: درة بـك — ففـي سـنة ١٥١٩م كان الكـبراء في إسـبانيا يبتعـدون عـن قـصر الملـك، ويقيمـون في الجبـال وفي المعاقـل والحصـون، ويكونـون تـارة مـن قطَّـاع الطريـق مثـل إيرنـاني وتـارة

مـن الأمـراء المسـتقلين في إدارتهـم الداخليـة مثـل روى غومـز كـما فصلـت أحوالهـم في تلـك الروايـة، ثـم بعـد مـأتى سـنة مـن ذاك التاريـخ انقلبـت القضيـة، فصـار الكبـير الـذي كان أشـبه بالمسـتقل في إدارتـه رجـلًا مـن رجـال المعيـة ينافـق لينفـق، والبعـض الآخـر مـن الكـبراء سـقطوا في الفقـر والمذلـة، فهـم يخفـون أسـماءهم لا للتملـص مـن سـطوة الملـك، بـل للتملـص مـن أصحـاب الديـون وإلحاحهـم، فالواحـد منهـم لا يصـير قاطـع طريـق بـل يصـير نَوَريًّـا أي: مـن الرعـاع، فـيرى مـن ذلـك أن الحكومـة المطلقـة مـرت عـن هـؤلاء الكـبراء أعوامًـا كثـيرة، فأحنـت رأس هـذا وقطعـت رأس ذاك.

ثـم إن بـين روايـة إيرنـاني وروايـة روى بـلاس مـضى عـلى إسـبانيا قرنـان مـن الدهـر حكـم أخـلاف شـارلكين في غضونهـما الدنيـا، وكان مـن الحكمـة الإلهيـة عـدم زيـادة سـاعة، ولا تنقيـص سـاعة في هذيـن القرنـين؛ لأن شـارلكين ولـد سـنة ١٥٠٠م، وشـارل الثـاني مـات سـنة ١٧٠٠م، ففـي سـنة ١٧٠٠م ورث لويـس الرابـع عـشر شـارلكين كـما ورث نابوليـون سـنة ١٨٠٠م لويـس الرابـع عـشر، فالمؤلـف عطـف أنظـاره نحـو التاريـخ ونحـو ظهـور هـذه الـدول المعظمـة فيـه، وملأ روايـة إيرنـاني بضيـاء الفجـر، وروايـة روى بـلاس بظـلام الشـفق، ففـي إيرنـاني أشرقـت شـمس آل أوسـتريا، وفي روى بـلاس غربـت. انتهـى.

باريس في ٢٥ نوفمبر سـنة ١٨٣٨م

فيتضـح مـن هـذه المقدمـة رغـمًا عـما فيهـا مـن ركاكـة الترجمـة؛ لعـدم تنقيحهـا بسـبب ضيـق الوقـت حقيقـة الروايـات التمثيليـة، وكيفيـة تشـخيصها للأخـلاق الإنسـانية وتصويرهـا الوقائـع التاريخيـة، كـما يظهـر

الفـرق بـين أنـواع الروايـات مـن درام وكوميديـا وتراجيديـا، فـإن تأليـف الروايـات لـه شروط وقواعـد وأسـاليب كـما أن لـه غايـة ومقصـدًا، ويتضـح مـن ذلـك أيضًـا وجـه اعـتراض الإفرنـج عـلى المقامـات الحريريـة التـي أشـبه بالكوميديـا، ولعـل أدباءنـا ينهجـون هـذا المنهـج الجديـد في التأليفـات الأدبيـة، ولا يقفـون عنـد حـد القصيـد والرجـز أو الرسـائل والمقامـات والخطـب، فـإن القـرن العشريـن مفتقـر إلى تصويـر الأخـلاق الشرقيـة بأسـلوب الروايـات التمثيليـة، ومحتـاج إلى درس تاريـخ الأمـم الشرقيـة درسًـا مدققًـا ومعرفـة خصـال كل رجـل مـن مشـاهير رجالـه، كصـلاح الديـن ومـوسى بـن نصـير وأمثالهـما، ونظـم الكونـت دوليسـل وهـو خليفـة فيكتـور هوجـو والمنتخـب عوضًـا لـه في الأكاديميـة قصيـدة غـراء سـماها مـوسى الكبـير، وصـور فيهـا محاكمـة مـوسى بـن نصـير ووقوفـه بـين يـدي الخليفـة الأمـوي، ومدافعتـه عـما اتهـم بـه كـما أن عبـد الحـق حامـد بـك ألـف باللسـان العثـماني روايـة طـارق بـن زيـاد، وهـي نثريـة تمثيليـة وفيهـا أشـعار بديعـة.

الملك يتسلى

صـور فيهـا المؤلـف فرانسـوا الأول ملـك فرنسـا ومجنونـه وتريبولـه؛ لأن الملـوك كان لهـم مجانـين ومهرجـون ومضحكـون، وأقـزام قصـار القامـة ومسـاخر، ولم يـزل يشـاهد أثرهـم وبقيتهـم في بـلاد الـشرق. ولعهـد قريـب كان للـولاة في بلادنـا مسـاخر ومضحكـون يسـمونهم المهـرج والسـوطري، ولم يـزل منهـم مـن هـو حـيٌّ ليومنـا.

وأمـا في أوروبـا فاعتاضـوا عـن جميـع ذلـك بالمراسـح وتفننـوا في تنويعهـا،

فجعل المؤلف فرانسوا الملك المتكبر الجبار وتريبوله المجنون المضحك الهزئة على طرفي نقيض في مرسح اللعب، ولكن تريبوله مع ما هو عليه من دناءة النفس والتلصص كان أبًا حنونًا شفوقًا على أولاده، فكانت له خصلة حسنة من جهة الأبوة، وقد قام بحقها أحسن قيام وأظهر إحساسه الأبوي على بنته حينما أراد الملك أن يقع بها للتسلية.

لوكريس بورجيا

بورجيا عائلة إسبانية الأصل انتُخب منها باباوات أشهرهم البابا إسكندر السادس، وصار لهذه العائلة نفوذ عظيم في رومية وإيطاليا، وجميع العالم الكاثوليكي، وكان للبابا إسكندر السادس أولاد منهم قيصر بورجيا المشهور بارتكاب الأفعال الدنيئة والجنايات الفظيعة، وكان أسقفًا وله أخت تسمى لوكريس بورجيا.

فموضوع الرواية أن خمسة شبان من أولاد الكبراء اجتمعوا في البندقية (فينيسيا) في مرقص تستر فيه الراقصون والراقصات بالبراقع، ثم جلس هؤلاء الأصحاب يتسامرون وأفضى بهم الحديث إلى ذكر الفظائع، وتعداد الجنايات التي ارتكبتها عائلة بورجيا، وكان أحدهم القبطان جينارو نام على حديثهم، ثم استفاق على قبلة قبلته إياها في جبهته امرأة مستترة بالبرقع لم يعرفها، فهذه المرأة هي أمه لوكريس بورجيا، وسمعت قذف أولئك الشبان في حقها وحق عائلتها، ولم يكتفِ الشبان بالكلام بل مروا بباب دار زوجها الدوق دوفيرار، ومعهم جينارو فتطاول على تاج الدوقية المرسوم على بابه، وطعن في لوكريس بورجيا وفي أخيها وأبيها، فأمر الدوق بإلقاء القبض عليه وحبسه، وطلبت زوجته قتله، ثم

لما علمت بأنه ولدها طلبت العفو عنه، فاغتش الدوق دوفيرار من ذلك وظنه واحدًا من عشاقها، وأجبرها على سقيه السم، وبعد خروج زوجها من البيت سقت ولدها المسموم ترياقًا نافعًا ضد السم فشُفي، وفتحت له الباب وهربته وهو لا يدري بأنها أمه، ثم أرادت الانتقام من رفاقه الخمسة الذين طعنوا فيها في مرقص البندقية، فاحتالت في دعوتهم عند الأميرة تغروني، وفي سقيهم السم القاتل وبينما هم منهمكون في اللذات على المائدة ومتنعمون بنعيم الضيافة، وإذا سمع النواح ودخل الرهبان بأثواب المأتم، وخلفهم خمس توابيت لحمل الموتى، وظهرت لوكريس بورجيا على المرسح شامتة في أعدائها الخمسة الذين قذفوا في عرضها، والسم يدور في بدنهم ولا يمهلهم إلا برهة قليلة، ولكن جينارو لحق برفاقه وأراد الموت معهم، وشرب من كأسهم ورفض من أمه الترياق الذي ناولته إياه؛ لتنقذه من السم وطعنها بخنجره، وهو لا يدري بأنها أمه فقالت له حينئذ لوكريس بورجيا: «أنا أمك» وختمت الرواية بموتهم جميعًا، ومراد المؤلف من هذه الرواية بيان أن أشقى النفوس وأظلمها وأطغاها قد تتجمل بإحساس كالإحساس الناشئ من محبة الوالدة لولدها.

توركماده

وهي من روايات التمثيلية التاريخية، أما توماس توركماده فهو رئيس محاكم التفتيش الديني في إسبانيا، وقد اشتهرت هذه المحاكم بالظلم والعدوان والتعذيب بأنواع آلات العذاب كالضرب الشديد، وشد المعذبين بالمشدات حتى تتخلخل عظامهم، ونتف شعورهم وإلباسهم

الطاسات المحمية، ووضعهم في صناديق مسمرة حتى إذا تحرك الموضوع فيها دخل المسمار في بدنه ومزق جلده ولحمه، وغير ذلك من أنواع العذاب والإحراق بالنار أو التغريق في الأنهار والبحار، وعرفت هذه المحاكم باسم «إنكيزيسيون»، وكان أول تأسيسها في قشتالة وأراغون من إسبانيا لمحاكمة المسلمين واليهود، والمشكوك في إيمانهم من النصارى الذين يتساهلون بفرائض الدين الكاثوليكي، وتوفي توركماده سنة ١٤٩٨م؛ أي عقب إخراج المسلمين من إسبانيا.

**بورغراف**

وهي من الروايات التمثيلية أيضًا، وهذا الاسم يطلق على ذوي الآراء السخيفة لا سيما في المسائل السياسية، والبورغراف هم أمراء البلاد، ومحافظو القلاع كما كان الجزار في عكا وأبو نبوت في يافه، ولم يزل له في يافه سبيل ينسب إليه، ويروى عن هؤلاء الولاة والأمراء الروايات الغريبة، والأقاصيص العجيبة، فصور فيكتور هوجو في رواية بورغراف أخلاق أمراء الألمان وغرائب أحوالهم.

**ماري تيد**

وهي ملكة الإنكليز (١٥١٦-١٥٥٣م) بنت هانري الثامن، وكانت مخالفة للإصلاحات والنظامات الجديدة شأن المستبدين من الملوك، فألف الشاعر فيها هذه الرواية.

**أنجلو**

اسـم ملـك ظـالم مـن ملـوك بـادو في إيطاليـا اتخـذه الشـاعر موضوعًـا لروايتـه.

**ماريون دولورم**

غانيـة مـن غـواني باريـس كانـت عـلى عهـد لويـس الثالـث عـشر والكردينـال ريشـيليو الوزيـر الشـهير، فصورهـا الشـاعر في روايتـه.

**أسمرالده**

اسـم نوريـة في باريـس ولعلهـا مـن الأشـخاص الموهومـة، واتخذهـا المؤلـف عروسًـا لهـذه الروايـة التمثيليـة ولقصـة «نوتـردام دوبـاري».

**امي روبسار**

فهـذا مـا ألفـه فيكتـور هوجـو في الروايـات التمثيليـة وسـماه درام، وأكـثر هـذه الروايـات منظـوم ومنهـا مـا هـو نـثر.

**(١٩) نثر فيكتور هوجو**

المنثـور مـن كلام فيكتـور هوجـو عـلى فنـون كثـيرة، منهـا فـن القصـص المعـبر عنهـا بالرومـان، ومنهـا الأدب والفلسـفة، والانتقـاد الأدبي، والتاريـخ، والرحلـة والمراسـلات، والأقـوال والأعـمال، والمشـهودات ونحـو ذلـك:

(١) فأشـهر القصـص التـي ألفهـا هـي قصـة البؤسـاء، وذكرنـا فيـما سـبق أن العلامـة الفاضـل شـمس الديـن سـامي بـك الفـراشري — وفـراشر قريـة في ولايـة يانيـه مـن بـلاد الأرنـاؤد — ترجـم جـزءًا كبـيرًا مـن هـذه القصـة

للسان العثماني، وسماه السفلاء ونشره بمطبعة مهران في الأستانة. ولسامي بك تآليف كبيرة مفيدة مثل قاموس الأعلام في ست مجلدات ضخمة وقواميس صغيرة وكبيرة من التركية للفرنساوية ومن الفرنساوية للتركية، وغير ذلك من المؤلفات النافعة العصرية.

أما الباعث على تأليف هذا الكتاب، فهو ما ذكره المؤلف في مقدمته حيث قال: طالما وُجد عذاب اجتماعي بفعل القوانين والعادات، طالما لم تحل الثلاث المسائل العصرية، وهي الحط من كرامة الإنسان بكثرة البؤساء، وسقوط المرأة في العهر بسبب الجوع، وفقر دم الأولاد باشتداد برد الليل، طالما وجد في الناس جهالة وفقر، فالكتب التي هي جنس هذا الكتاب لا تخلو من الفائدة ...

وموضوع الكتاب أن رجلًا فقيرًا يدعى جان فلجان كسر قفل الخباز، وسرق رغيفًا ليطعمه لأولاد أخته الجياع فحكمت عليه المحكمة وفقًا للقوانين بالأشغال الشاقة، وألقي في الحبس الذي هو جهنم الهيئة الاجتماعية ولاقى من الآلام والمحن ما لاقاه على زعم النصارى المسيح بن مريم — عليهما السلام — تخليصًا للبشر من الخطايا، فكان جان فلجان فداءً للأخلاق الإنسانية. وبعد تحمله الآلام والمشاق الكثيرة صعد إلى النور، وكان الأسقف ميريل وهو من أشخاص هذه القصة وعظ هذا الجاني بالصبر على المصيبة، ووضع في نفسه المظلمة شعاعًا طفيفًا فاستنارت ثم توقدت وتوهجت، فصور الشاعر ما اختلج في صدر هذا المحكوم عليه من الهيجان وعبر عن ذلك بحدوث زوبعة عاصفة في قرعة الرأس، ومن أشخاص هذه القصة وأبطالها البنت فوزيت

والبوليس جافر وبين حالة العملة والشغال الذين يلجئهم الفقر والجوع إلى ارتكاب القبائح والجرائم، وحالة البنات الشغالات اللواتي صيرتهن المتربة من العواهر الفاجرات، وصور الفقر المدقع والجوع القتال أحسن تصوير، وفي هذه القصة أيضًا أخبار كافروش وهو من رعاع باريس، وما جرى له مع البوليس جافر وقد اشتهر خبرهما حتى ضرب بهما المثل، ومما ذكره المؤلف بطريق العرض في هذه القصة محاربة واترلو التي غنمها نابوليون الأول، ووصفها بكلام نثري أشبه بالشعر الحماسي، وذكر أيضًا الفتنة التي حدثت في باريس سنة ١٨٣٢، أما البوليس جافر فجعله مثالًا للطاعة والقيام بأعباء الوظيفة.

(٢) نوتردام دوباري، وهي كنيسة باريس الجامعة سمى بها قصته لجريان حوادثها في هذه الكنيسة وفي أطرافها، وهي بنيان ضخم غليظ في وسط باريس بقرب نظارة الضبطية ونظارة العدلية أو الحقانية، وموضوع القصة عبارة عن عشق ضابط فرنساوي يدعى فوبوس لرقاصة نورية تدعى أسميرالده ورقاية راهب الكنيسة لهما وخطف أحد الأشقياء المدعو كازيمودو للبنت، فالموضوع بسيط عادي ومهارة المؤلف تظهر في تصوير الحالة التي كانت عليها باريس في القرون الوسطى، ووصف ما فيها من الأزقة المظلمة والطرق الغير مستقيمة، ووصف أهلها ما بين بائع وتاجر وصانع وتلميذ وجندي وشريف ووضيع، وهم يمرون أمام الكنيسة أفواجًا أفواجًا ويروحون ويغدون في فنائها ويستظلون بظلها، وصوَّر جميع ذلك بصورة خيالية وهمية لطيفة تعجب القارئين، وهي مؤلفة على أسلوب اللغة الرومانية.

(٣) هـان الإسـلاندي، وهـي قصـة مصـورة للجـمال الـذي قـد يكـون في الشـنيع، كـما صـور محبـة الوالـدة لولدهـا وتهافتهـا عـلى إنقـاذه مـن مخالـب المـوت في روايـة لوكريـس بورجيـا رغـمًا عـن قسـاوة أخلاقهـا وسـوء أفعالهـا، وكـما صـور هـذا المؤلـف أيضًـا في روايـة الملـك تسـلي إشـفاق الوالـد عـلى بنتـه وغيرتـه عـلى ناموسـها، وسـعيه في تخليصهـا مـن أيـدي الملـك مـع أن هـذا الوالـد لا يغـار عـلى نامـوس نفسـه، ولا عـلى شرفهـا ولا يبـالي في ارتـكاب أنـواع الدنـاءة والمجـون، ومـن بديـع الحكـم التـي في قصـة هـان الإسـلاندي مـا ذكـره في مقدمتهـا عـن «نضـج القريحـة» قـال:

في كل مصنـف فكـري مثـل الـدرام والشـعر والرومـان ثلاثـة أشـياء: مـا شـعر بـه المؤلـف، ومـا نظـر فيـه المؤلـف، ومـا تنبـأ بـه المؤلـف، فليكـون الرومـان (القصـة) حسـنًا ينبغـي أن يكـون فيـه كثـير مـما شُـعِر بـه وكثـير مـما نُظـر فيـه، وأمـا الـشيء المتنبـأ بـه فيلـزم أن يظهـر مـن تمـام الـشيء الـذي شُـعر بـه، والـشيء الـذي نُظـر فيـه بغـير احتيـاج للحـل، وإنمـا بالطبـع والبداهـة.

فـإذا انقـضى الفصـل الأول مـن العمـر وانحنـت الجبهـة عـلى الكتـاب والكتابـة وشـعر المـرء باحتياجـه لعمـل شيء آخـر خـلاف الحكايـات الغريبـة التـي يخـوف بهـا النسـاء العجائـز والأولاد الصغـار، واحتـك بالحيـاة احتـكاكًا خلـق ديبـاج شـبابه، يعلـم حينئـذ أن كل إيجـاد وكل اختـلاق وكل تنبـؤ في هـذه الصناعـة ينبغـي أن يكـون أساسـه مبنيًّـا عـلى الـدرس والنظـر، والتفكـر والعلـم والقيـاس والمقابلـة والتعقـل الصحيـح، وكـمال الدقـة في تصويـر الأشـياء بحسـب الطبيعـة، ونقدهـا نقـدًا خاليًـا مـن الغـرض والهـوى، فالإلهـام الحاصـل مـن مراعـاة هـذه الـشروط الجديـدة لا يضيـع

شيئًا من هذه الصناعة الأدبية، وإنما يكسب صاحبها نفسًا عاليًا وجناحًا قويًّا، ويعرف الشاعر بالطريق التي يسلكها حينئذ، وجميع التخيلات الهوائية التي تخيلها في سني حياته الأولى تجمد على هيئة مخصوصة كما يجمد الجليد، ويتشكل منها فكرة ورأي. فهذا الدور الثاني من حياة المصنف المتفنن هو الزمن الذي يؤلف فيه أحسن مصنفاته ويكون فيه شابًّا نضيج الرأى، فهذه هي الصحيفة الثمينة والنقطة العليا التي هي الأوج والساعة التي يشتد فيها الحر والضياء من وسط النهار، واللحظة التي يقل فيها الظل إلى أقل ما يمكن، ويكثر فيها النور إلى أكثر ما يمكن ... ا.هـ.

(٤) بوغ جارغال، حرر فيكتور هوجو هذه القصة وهو في السادسة عشرة من عمره، وطبعها ثم صححها وأعاد طبعها، وموضوعها أنه في سنة ١٧٩١؛ أي في أثناء الانقلاب الكبير الفرنساوي كان في جزيرة سن دومينيك من جزر الانتيل الأميركانية عبد أسود يسمى بيرو يخدم عند أوروبي من أغنياء المستعمرين فأحب ابنته مارية حبًّا شديدًا وكانت بديعة الحسن والجمال، ولها خطيب فأخفى العبد حبها ولم يبح لها بشيء، ولكنها كانت تلاحظ حنوه وإشفاقه عليها، وخطيبها كان يرى ذلك، ويعجب من جرأته على محبة خطيبته، ثم حصلت ثورة العبيد السودان على المستعمرين من البيضان، وفي أثناء معامع الثورة خطف أحد السودانيين مارية، وذهب بها إلى مكان بعيد فخرج خطيبها يفتش عنها، فقبض عليه الثائرون وأرادوا قتله، وأحضروه بين يدي بيرو وكان انتُخب بوغ جارغال؛ أي: رئيسًا للثائرين فحماه من شرهم وجمع بينه وبين خطيبته مارية، ثم إن بوغ جارغال ضحى

بنفسه لسلامة معشوقته وخطيبها؛ ولتخليصهما من أيدي العبيد الثائرين، وسلم نفسه لأعدائه البيضان ليقلتوه وأداه حبه إلى فداء روحه في سبيل محبوبته، ومن هذه القصة يظهر اقتدار المؤلف في تصوير الوقائع مع حداثة سنه.

(٥) آخر أيام المحكوم عليه بالقتل، ألف فيكتور هوجو هذه القصة سنة ١٨٢٩، وصور فيها المحكوم عليه بالإعدام وهو في سجنه ينتظر حلول الساعة التي ينقضي فيها أجله وتزهق روحه، وعبر بأسلوب بديع عن بكائه واضطرابه وانزعاجه، وبين جميع ذلك بأساليب شعرية لا وصفية فقط، فكان المؤلف كأنه يشاهد جميع حركات هذا المسكين وارتجافه، واختلاج عضلاته اختلاجًا طبيعيًّا لكسر سلاسل الحديد التي برجليه، والحبل المربوط بيديه، وكأنه يفهم ما يقوم في ذهنه ويخطر في باله من الأفكار المرعبة، والتصورات الهائلة المدهشة، فحرر جميع ذلك بكيفية مؤثرة محزنة يكاد القارئ يجن من تلاوتها. ففيكتور هوجو أجهد نفسه كثيرًا في إبطال الجزاء بقتل النفس، وسعى في إلغاء هذا الجزاء بقلمه ولسانه، وخطب في هذا الموضوع خطبًا كثيرة في مجلس النواب، وفي النوادي والمجتمعات، ولكنه لم يتوفق لرفع جزاء القتل من القانون الفرنساوي.

(٦) المشتغلون بالبحر، ومقدمتها تبحث عن أرخبيل بحر المانش الفاصل بين فرنسا وإنكلترة، فصور المؤلف في هذه القصة ما يكابده الملاحون، والنوتية من العذاب الأليم، وما يقاسونه من الأهوال، والشدائد عند تخالف الهواء، وحصول الأنواء وتلاطم الأمواج وانكسار السفن، وإشراف

من فيها على الهلاك ووقوعهم فريسة لحيوانات البحر، ومنها الحيتان الكبيرة ومنها ما يلتف على الإنسان كما يلتف الحبل ويشد وثاقه شدًّا محكمًا حتى لا يستطيع حراكًا، ثم يعض بدنه كالعلقة ويمتص جميع دمه، ويسمى هذا الحيوان البحري Pieuvre هبراو (ربيله)، ومن البلاء الذي يقع فيه الفلاحون وصيادو السمك أيضًا رمال المستنقعات التي على سواحل البحار يحسبها الواحد منهم أرضًا يابسة، فإذا وطئها غاصت رجلاه في الرمال وكلما تحرك حركة للتخلص منها زاد غطسًا فيها إلى رأسه، ويستمر في هذا العذاب الأليم، وهو يشاهد الموت بعينه ولا سبيل للنجاة حتى يغرق ويموت خنقًا، فوصف الشاعر مجاهدة المشتغلين بالبحر من أفراد الإنسان، والمعترك الذي يحصل بينهم وبين الطبيعة أتم وصف مما يذكرنا بقصة السندباد البحري، وما لاقاه في أسفاره.

(٧) الإنسان الضاحك، ألف فيكتور هوجو هذه القصة سنة ١٨٦٩، وجعل حوادثها تجري في إنكلترة على عهد ملكتها حنه (آن المعاصرة للويس الرابع عشر في أوائل القرن الثامن عشر للميلاد)، وموضوع القصة أن أحد مرقصي الدبب كان يتجول في جنوب إنكلترة، ومعه دب سماه هومر ومركبة يسكن فيها ويجر أثقاله عليها كما يفعل مرقصو الدبب ليومنا هذا في أوروبا، ولم يزل منهم في جنوب فرنسا، وأكثرهم عثمانيون من أهل البوسنة والهرسك يحملون الباسابورط، ويحتمون بقناصل الدولة العلية، فكان هذا الرجل يرقص دبه أمام الجمهور ويضحكهم ويسليهم، ويعتاش من إحساناتهم، وعطاياهم وكان صافي النية حسن الطوية مع كونه هزءة ومسخرة للناس، فالتقى ذات يوم

بصبي مشوه الخلقة يحسبه الناظر إليه ضاحكًا على الدوام، وكان هذا الصبي اختطفه سارقو الأولاد فشوهوا خلقته وتركوه وحده في البراري، فالتقى ببنت حسنة الوجه ولكنها عمياء كانت خرجت مع أمها، فنزل الثلج عليهم وماتت أمها من شدة البرد، فاصطحب الصبي بالبنت وأحبها، ثم إن ذاك الرجل التقى بهما وتبناهما وحملهما معه في مركبته، وطاف بهما البلاد وهو يسترزق من حرفته ويطعمهما، ولم يزل على ذلك إلى أن كبرا وبلغا أشدهما، فذهب بهما الرجل يومًا إلى لوندرا، فتعرف أناس على الشاب وأخبروه بأنه هو ابن البارون فلانشارلي من أعيان إنكلترة ولورداتها، فاستلم هذا الإنسان الضاحك ثروة أبيه وملكه، وصار عضوًا في مجلس اللوردات بعد تلك السفالة التي قضاها في سني صبوته، وصار لا يتكلم في المجلس إلا بالمحاماة عن البؤساء، والتقريع على الأعيان والكبراء الذين لا ينظرون إلى الضعفاء والمساكين، وكان ذا لهجة شديدة ولكنها غير منتظمة، فكان إذا أتم خطبته استولى الضحك على جميع الأعضاء، ولم يقرروا إجراء شيء من طلباته.

وأورد المصنف في هذه القصة كثيرًا من الحكم والفلسفة من ذلك ما قاله عن الطبيعة والحياة: ... بعد كل شيء فالإنسان لا يعيش كثيرًا والحياة قصيرة تمضي بسرعة، كلَّا! بل هي طويلة! لأن الطبيعة أظهرت — ولو بشيءٍ قليل — عنايتها بالإنسان؛ لكيلا تفتر همتنا في غضون ذلك؛ ولكي يكون على بصرنا غشاوة، فنرضى بالبقاء ولا نغتنم الفرص المناسبة لشنق أنفسنا بما أعدته لنا من الحبال والمسامير؛ ولذا أنبتت لنا القمح وأنضجت العنب وأنطقت البلابل وهي مراثية بإنشادها

أغـاني الـسرور وإخفائهـا الكمـد، وأرتنـا في بعـض الأحيـان شـعاعًا مـن الفجـر فهـذا مـا يسـمونه بالسـعادة، ومـا هـي إلا طـرف رقيـق مـن الخـير يحيـط بكفـن عريـض مـن الـشر، فهـذا حظنـا مـن الدنيـا نسـج الشـيطان منـه السـداة واللحمـة، ولم يطـرز الرحمـن فيـه إلا أطرافـه وحواشـيه ا.هـ.

قـال المعري مخاطبًا الدنيا:

يموج بحرك والأهواء غالبة

لراكبيه فهل للسـفن إرساءُ

إذا تعطفت يومًا كنت قاسية

وإن نظرت بعين فهي شوسـاءُ

•••

فلا تغرنك شـم من جبالهم

وعزة في زمان الملك تعسـاءُ

نالـوا قليلًا من اللذات وارتحلوا

برغمهم فإذا النعماء بأسـاءُ

(٨) ثـلاث وتسـعون؛ سـماه بذلـك لأنـه بحـث فيـه عـن وقائـع سـنة ١٧٩٣، وقـص فيـه قصصًـا حكيمـة فلسـفية موضحـة لحقيـق الانقـلاب الكبـير الفرنسـاوي، وللسـبب الحامـل لأصحابـه عـلى الثـورة ومقاومـة بعـض الأهـالي للثائريـن؛ لعـدم فهمهـم المـراد مـن الانقـلاب، ومـن الإصلاحـات الجديـدة ولاعتقادهـم أن الملـك قـوة إلهيـة مفوضـة للملـك يفعـل بمقتضاهـا مـا

يشاء برعيته، فهم عبيده يتصرف بهم تصرف المالك في ملكه. فبين المؤلف ذلك بأساليب بديعة يفهمها العوام والفلاحون، وعرفهم بأن القوة الحاكمة ينبغي أن تكون في الأمة، وأن سيد القوم يجب أن يكون خادمهم.

وأما ما ألفه في التاريخ فهو:

(١) نابوليون الصغير، كتبه المصنف بعد لبس نابوليون الثالث تاج الإمبراطورية، وكان هو يستشيط من ذلك غضبًا فتهور في الطعن فيه والحط عليه، ولما طبع الكتاب جاء أحد المتبصبصين بنسخة منه للإمبراطور وكان في قصر سن كلو وهو في ضواحي باريس على نهر السين، فنظر فيه طويلًا ثم التفت لمن حوله من الوزراء وأمراء العسكرية، وقال لهم باستهزاء وسخرية: انظروا يا سادة هذا نابوليون الصغير ألفه فيكتور هوجو الكبير، فلما بلغ الخبر مسامع فيكتور هوجو هجاه بقصيدة بليغة لم أرَ لها مثيلًا في شعر أهل العصر إلا قصيدة كمال بك كبير الشعراء عن الأتراك.

(٢) تاريخ جرم، وهو تاريخ حادثة نابوليون الثالث سنة ١٨٥١ ألفه المصنف في خمسة أشهر، ولم ينشر إلا بعد ٢٥ سنة حينما سقط نابوليون الثالث، ويقسم هذا التاريخ إلى أربعة أيام: يوم المكيدة والكمين، يوم الحرب والنزال، يوم الذبح وقتل الأطفال، يوم الفوز بالنصر، ثم أتبعه بفصل خامس عنوانه يوم السقوط، فأوضح المؤرخ في هذا التاريخ صورة الجرم، ثم بين القصاص واستنتج من ذلك وظيفة الفرنساويين وهي العدل والحق.

«الريـن» وهـو عنـوان كتـاب صنفـه فيكتـور هوجـو في الرحلـة والسـياحة، وحـرر فيـه مـا وجـده في نفسـه مـن التأثـر والإحسـاس الباطنـي والانفعـال بمشـاهدة ضفـاف الريـن، وهـو نهـر في أوروبـا ينبـع مـن جبـال الألـب، ويمـر مـن بحـيرة قونسـتانس وبمدينـة بـال ومايانـس وقوبلينتـس وقولونيـا، وأوترخـت وليـدن ويصـب في بحـر الشـمال، ومـما قالـه في هـذا التأليـف عـن الضمـير والكائنـات:

... لا شيء فيَّ يعـارض كـون الشـجرة عالمـة بثمرهـا، ولكـن مـن المحقـق أن الإنسـان لا علـم لـه بالمقـدرة عليـه، حيـاة الإنسـان وعقلـه هـما عـلى خاطـر، وكيـف لا أدري أي ماكنـة مظلمـة يسـميها البعـض عنايـة إلهيـة، والبعـض الآخـر يسـميها صدفـة، فهـذه الماكنـة أو الآلهـة تخلـط وتمـزج وتحلـل كل شيء في الوجـود، وهـي تخفـي دواليبهـا في الظلـمات وتعـرض نتائـج محصولاتهـا في رابعـة النهـار، يحسـب المـرء نفسـه يفعـل شـيئًا وهـو يفعـل شـيئًا آخـر، فالتاريـخ مملـوء بذلـك ...

ولكـن بـين هـذا الاختبـاط يوجـد قوانـين، فالاختبـاط مـا هـو إلا في الظاهـر، والانتظـام في الباطـن، فبعـد انقضـاء مـدة طويلـة ترجـع الحـوادث المدهشـة التـي فتحـت عيـون أجدادنـا كـما ترجـع النجـوم ذوات الأذنـاب مـن أعـماق التاريـخ المظلمـة، فالفخـاخ هـي دائمًـا تلـك الفخـاخ بعينهـا والسـقوط دائمًـا عـين ذاك السـقوط، والغـدر دائمًـا عـين ذاك الغـدر، والمهالـك هـي دائمًـا تلـك المهالـك بعينهـا، فالأسـماء تتغـير والأشـياء ثابتـة عـلى مـا هـي عليـه.

أما ما حرره فيكتور هوجو في الفلسفة فهو:

(١)أدب وفلسفة ممزوج بعضها ببعض، وقد ذكرنا من هذا الكتاب فيما سبق تعريف الشعر، وبأنه لا يكفي وجود الأسلوب الحسن والشكل الظريف في البيت، بل ينبغي أن يحتوي على فكر أو صورة أو إحساس، وشبه بيت الشعر ببيت النحل الذي يتخذه من الشمع والشعر فيه كالعسل.

وقال أيضًا في تعريف الإنشاء:

الإنشاء هو الذي يخلد ذكر الشاعر ويبقى تأليفه؛ لأن حلاوة التعبير تزين الفكر كالميناء على السن.

وقال في تعريف الواجب:

ما دام الممكن لم يفعل فالواجب لم يؤد، فهذا فكر من أفكاره.

ومنها أيضًا في الزواج:

الزواج هو تطعيم فيه إمساك جيد أو رديء.

وقال في التغير والتقلب:

إذا قلنا عن رجل: «رأيه السياسي لم يتغير منذ أربعين سنة» نكون مدحناه مدحًا مذمومًا؛ لأن قولنا هذا يؤدي إلى أنه لم يحصل له تجربة في المسائل اليومية، ولا حصل لفكره انعكاس ولا إشعاع على الحوادث، فهذا من قبيل مدحنا الماء بكونه راكدًا والشجرة بكونها ميتة، وتفضيلنا ما في الصدف من سمك البحر على النسر الطائر. فبالعكس كل شيء متغير في الرأي، وفي الأشياء السياسية لا شيء مطلق على إطلاقه

إلا الأخلاق الباطنية لتلك الأشياء، فهذه الأخلاق هي من خصائص الوجدان وليست من خصائص الرأي ومتعلقاته، فرأي الرجل يمكن حينئذ أن يتغير تغيرًا لا يمس بشرفه بشرط ألا يتغير وجدانه، فالحركة سواء كانت تقدمية أو تأخرية هي في حد ذاتها حيوية، إنسانية، اجتماعية» ا.هـ.

وهكذا يقال في صاحب الجريدة كما يقال في رجل السياسة، وقد رأينا فيما تقدم أن رقباء فيكتور هوجو عابوا عليه تقلبه في أحزاب السياسة، وتغير رأيه من الملكية إلى الإمبراطورية إلى الجمهورية.

(٢) وليم شكسبير، ومما ورد له في هذا التأليف من الحكم ما ذكره عن التقدم والترقي، قال:

فظاظة التقدم تدعى انقلابات، فإذا تمت الانقلابات اعترف الإنسان بما يأتي وهو: أن النوع الإنساني تألم وترضرض ولكنه مشى.

فالتخريب هو الشغل والتعمير هو العمل (أي: البناء كما في بناء الدار فإن فيها تعميرًا مثل رفع الجدران الجديدة، وتخريب مثل هدم الجدران القديم وحفر الأسس، فالتقدم يهدم باليد اليسرى، وأما باليد اليمنى فهو يعمر، فاليد اليسرى تسمى القوة واليد اليمنى تسمى العقل ا.هـ.

ففيما ذكر من مؤلفات فيكتور هوجو كفاية لمعرفة ماهيتها ولا حاجة لذكر بقيتها.

لقد مثّل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قُدرة استثنائية على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءًا من الإيماءة ومرورًا بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوءًا مُتعدّد الطبقات، يَقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الزّمن.

إن تمدّدًا على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأتِ صدفةً، إنها انبثاقُنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الوسيع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقُرّاء.

وزير الثقافة
عماد عبدالله حمدان